كتاب المنهاج

١٥

سلسلة بحوث ثقافية
تصدرها مجلة المنهاج

AL MINHAJ

في انتظار الإمام المهدي (عج)

- نظرية المخلّص في الإسلام والديانات السّماوية -

مجموعة
من الباحثين

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ - ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣ - تلفاكس: ٥٥٢٢٦٢ / ٠١

ص.ب.: ٥٠/٢٤ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.al-ghadeer.net

www.alminhaj.org

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الحقوق جميعها محفوظة

لمركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

ولا يحق لأي شخص، أو مؤسسة، أو جهة

إعادة طبع الكتاب أو ترجمته إلّا بترخيص خطي من إدارة المركز

في انتظار الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

- نظرية المخلّص في الإسلام والديانات السّماوية -

مجموعة
من الباحثين

مركز الغدير
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

بعد التعرّف على مفهوم الإمامة وخصائص الإنسان الكامل في علم الكلام والفلسفة والعرفان الإسلامي في العدد (١٤).

يأتي العدد (١٥) من كتاب المنهاج، ليتحدث عن قضية مهمة وخطيرة، لها من جهة علاقة بالإمامة من حيث الاستمرارية في التاريخ وتحقيق أهداف الأنبياء، ومن جهة أخرى لها علاقة بمستقبل البشرية، وعلاقة هذا المستقبل بالدين الإلهي الذي سيسود الأرض.

فصفات وخصائص المنقذ والمنجي، أو المخلِّص الموعود أو المسيح الذي تنتظره البشرية وبشَّرت به جميع النبوءات الواردة في الكتب المقدسة السماوية والوضعية، هذه الصفات والخصائص نجدها مُجتمعة ومتجسدة في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت النبوي، محمد بن الحسن المهدي(عج). ممّا يدل على أنَّه هو الموعود الذي سيأتي آخر الزمان ليخلِّص البشرية من الكفر والظلم والجور.

وهذا ما تُؤكده دراسات هذا العدد من كتاب المنهاج، التي قسَّمناها إلى مقدمة وثلاثة فصول.

المقدمة تحدثت عن الإمام المهدي في القرآن والسنة في إطار بحث روائي تأصيلي. فيما تحدثت بحوث الفصل الأول عن نظرية المخلص في الكتب المقدسة السماوية والوضعية، أما الفصل الثاني، فتحدثت

دراساته عن خصائص المهدي الإسلامي، مـن حيـث الـولادة والـصفات وطول العمر.

وأخيراً، عالج الفصل الثالث قضية غيبة الإمـام المهـدي(عـج)، ومـا تطرحه من أسئلة عن الحكمة من غيبته؟ وأين هو؟ ومتـى سـيظهر؟ ومـا يتوجّب على المؤمنين به خلال هذه الغيبة؟ وما سيقوم بـه عنـد ظهـوره وانتصاره.

المقدمة

الإمام المهدي في القرآن والسنة

- مقاربة استدلالية -

«هو رجل من عترتي، يُقاتل على سنتي كما قاتلت أنا على الوحي». رسول الله(ص)

أ. محمد تهامي دكير

▢ المهدي الموعود في القرآن الكريم:

قبل أن نبدأ باستعراض الآيات الكريمة التي ذُكر الإمام المهدي فيها، إما مباشرة أو تأويلاً أو بحسب أسباب النزول كما ذكر المفسرون لعدد من الآيات الكريمة، لا بد من الإشارة إلى أن الاعتقاد بمجيء مخلِّص عالمي في قادم الأيام وآخر الزمان، هي عقيدة جميع الشعوب والأديان والمذاهب السماوية والوضعية.

وهذا يظهر بوضوح في كثرة النصوص والنبوءات الواردة في الكتب المقدسة لهذه الأديان والمذاهب وبعض كُتب المنجمين والمتنبئين.

فإصحاحات وأسفار العهد القديم (التوراة) مليئة بالإشارات الواضحة - حيناً والمرمزة حيناً آخر - للمخلِّص والبشارات بظهور المنجي[1].

---

(١) أنظر: سفر العدد الإصحاح ١٤. وسفر التثنية الإصحاح ٣٣. والمزامير رقم ٣٤- ٣٧- ٧٢.

فقد ورد في المزمور (٧٢) ".. ويسجد له كل الملوك، كل الأمم تتعبد له، ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم. يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء من الظلم والخطف يُغذي أنفسهم ويُكْرِمُ دمهم في عينيه... يكون اسمه إلى الدهر، قدام الشمس يمتد اسمه ويتباركون به كل أمم الأرض يُطوِّبونه.."[١].

وفي العهد الجديد نجد البشارات الكثيرة عن المخلِّص الموعود، منها ما ورد في إنجيل متى الإصحاح (٢٤) ".. وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويُبصرون ابن الإنسان آتياً على سحابٍ السماء بقوة ومجد كثير فيُرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مُختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السماوات إلى أقصائها"[٢].

وفي الكتب المقدسة للهندوس والزراديشت نجد العشرات من النبوءات التي تتحدث عن المخلِّص العالمي الذي سيأتي لا محالة آخر الزمان، فقد ورد في كتاب شاكموني الهندوسي: "وفي آخر المطاف سينتهي الحُكم العالمي إلى رجل من ذرية سيد خلائق العالمين "كشن" العظيم، وهو الذي يحكم على جبال الشرق والغرب في العالم.. ويُوحّد الأديان الإلهية إلى دين واحد، واسمه القائم والعارف بالله وهو المُحيي لدين الله"[٣].

---

(١) أنظر: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة، ط٢ – ١٤٢٨هـ ج١ ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص ٥٤.

(٣) نفسه، ج١ ص ٧١.

وجاء في كتاب جاماسب الزرادشتي: "ومن ذرية ابنة هذا النبي التي اشتهرت بـ"شمس العالم وملكة الزمان" رجل يصل إلى الخلافة، ويحكم الدنيا بالخير، وهو آخر خليفة لهذا النبي، من وسط العالم أي مكة ويدوم مُلكه إلى يوم القيامة"[1].

هذه نماذج مما ورد من نبوءات خاصة بمجيء المخلِّص في هذه الكُتب المقدسة قبل نزول القرآن الكريم.

وما يُثير الدهشة - حقاً - في هذه النصوص والنبوءات هو مطابقتها بشكل كبير لما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة وروايات أهل البيت، بحيث نجد تفاصيل كثيرة مشتركة، لقد تحدثت هذه النبوءات عن الفساد والظلم والكفر الذي سيسود العالم، وأن المخلِّص سيأتي لينشر الإيمان والعدل وأنه سيخوض حروباً كثيرة وستخضع له الأمم والشعوب في نهاية المطاف. وغيرها من التفاصيل والأخبار المتطابقة، مع الفارق الزمني والجغرافي لمن صدرت عنهم.

لكن هذا التطابق إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل على أن عقيدة المخلِّص هي عقيدة كل الأديان والشعوب عبر الأزمنة والعصور، وأن مجيء المُخلص والمصلح العالمي هو حُلم البشرية وأملها الموعود الذي تنتظره.

☐ الإمام المهدي في القرآن الكريم:

بالعودة إلى القرآن الكريم، نتساءل هل ورد ذكر الإمام المهدي المخلِّص فيه؟ وكيف ذُكر؟

---

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، ج١ ص ٧٥.

إنطلاقاً من قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ لا بد أن يكون القرآن قد تعرض لذكر "المهدي المخلَّص" إما تصريحاً أو تلميحاً، وذلك لأهمية وخطورة الدور الذي سيقوم به عند خروجه، ولارتباط هذا الدور بتحقيق أهداف الاستخلاف الإلهي للإنسان على الأرض أولاً، وأهداف رسالات الأنبياء في نشر الإيمان والتوحيد وبسط العدل بين الناس ثانياً.

بالنسبة للمفسرين وكُتب تفسير القرآن فإنَّ ذكر المهدي جاء في القرآن الكريم من خلال أربعة أقسام هي:

١ – **القسم الأول:** الآيات التي وردت في الإمامة وفضل أهل البيت عليهم السلام مثل:

أ – آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥][1].

ب – آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣].

ج – آية المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

د – آية المودة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

---

(١) أجمع المفسرون على كونها نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما تصدَّق بخاتمه وهو يُصلي. أنظر: الدر المنثور للسيوطي، ج٢ ص ٢٢٣. وشواهد التنزيل للحسكاني الحنفي، ج١ ص ١٦١.

هـ - آيــة الــصلاة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وغيرها من الآيات الأخرى. وهذه الآيات الواردة في الإمامة وفضل أهل البيت عليهم السلام، نجد الإمام المهدي عليه السلام داخل فيها، وهي تدل عليه كذلك، لأنه الإمام التاسع من وُلد الإمام الحسين بن علي وفاطمة عليهم السلام. وهذا ما يؤكده الحديثان النبويان المشهوران، حديث الثقلين الذي رواه أحمد بن حنبل: «إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض جميعاً». وحديث «الخلفاء من بعدي اثنا عشر» الذي رواه البخاري في صحيحه[1].

القسم الثاني: مجموعة من الآيات، اتَّفق المفسرون (شيعة وسنة) على نزولها في الإمام المهدي عليه السلام وأصحابه، واستدلوا على ذلك بأحاديث نذكر منها:

١- عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، قلت: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله، فمن أولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين... [إلى أن قال:] ثم سميّي وكنيتي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره مشارق الأرض ومغاربها على يديه.."[2].

(١) صحيح البخاري، ج٢ ص ٢٥٦. كتاب بدء الخلق.

(٢) كمال الدين، ج٢٥٣/١. المهدي في القرآن والسنة، ص ٨٦.

٢ – ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

روى الحافظ السيوطي في تفسيره قال: وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: أصحاب الكهف أعوان المهدي(١).

٣ – قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]. لقد فسرت "الساعة" بساعة خروج المهدي وبعد نزول عيسى عليه السلام، وهما معاً من أشراط الساعة.

٤ – ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]، والآية وإن كانت حسب سياقها – وكما فسرها المفسرون – على أن المقصود بـ"علم الساعة" هو السيد المسيح، إلاّ أنَّ المفسرين درجوا على ذكر الإمام المهدي عند تفسيرها لأن السيد المسيح سينزل بعد خروجه وهو الذي سيقتل الدجال كما ورد في الكثير من الأحاديث والروايات.

القسم الثالث: وهو القسم الأكبر وفيه اعتمد المفسرون الشيعة الإمامية على ما ورد من روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير أو تأويل عدد من الآيات الكريمة، ونذكر منها:

١ – فسَّروا الغيب في الآية الثانية من سورة البقرة، بالإمام المهدي عليه السلام ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١–٣]. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: المتقون شيعة علي عليه السلام،

---

(١) أنظر: تفسير الدر المنثور، ج٢٢٥/٤، وتفسير البرهان، ص ١٥٠ ح١٥. والمهدي في القرآن والسنة، ص ٢٤٣.

والغيب، فهو الحجة الغائب (الإمام المهدي) وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠][١].

٢ – عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]. قال نزلت في القائم وأصحابه يجتمعون على غير ميعاد[٢].

٣ – ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ..﴾ يعني خروج القائم عليه السلام المنتظر منا[٣].

٤ – عن الطبرسي في مجمع البيان في قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

روى زرارة وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعد، سيرى من يُدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، ليبلغنَّ دين محمد صلى الله عليه وآله ما بلغ الليل حتى لا يكون مُشرك على وجه الأرض[٤].

---

(١) أنظر: كمال الدين وتمام النعمة، ج٢ ص ٣٤٠. والمهدي في القرآن والسنة، ص ١٥.

(٢) الغيبة للنعماني، ص ١٦٨. بحار الأنوار، ج٣٦٨/٥٢ والمهدي، م.س، ص ٤٥.

(٣) كمال الدين، ج٣٥٧/٢. المهدي، م.س، ص ١٢٠.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج٥٤٣/٤ والمهدي، م.س، ص ١٥١.

٥ — عن محمد بن ابراهيم النعماني قال: بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]. قال: العذاب خروج القائم عليه السلام. والأمة المعدومة عدة أهل بدر وأصحابه[١].

٦ — روى الشيخ الصدوق بإسناده عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يقول: القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر.. [إلى أن يقول:] فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وأول ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ثم يقول: أنا بقية الله في أرضه، وخليفته وحجته عليكم، فلا يسلم عليه مسلم إلاّ قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه[٢].

٧ — عن علي بن ابراهيم في تفسيره المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] قال: القائم عليه السلام وأصحابه[٣].

٨ - ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

عن محمد بن جرير الطبري بإسناده عن المفضل بن عمر الجعفي،

(١) الغيبة للنعماني، ص ٢٤١ حديث ٣٦. بحار الأنوار، ج٥٨/٥١. المهدي، م.س، ص ١٨٣.

(٢) كمال الدين، ج٣٣١/١. بحار الأنوار، ج١٩١/٥٢. المهدي، م.س، ص ١٨٨.

(٣) تفسير القمي، ج٧٧/٢. بحار الأنوار، ج٤٧/٥١. المهدي، م.س، ص ٢٩١.

قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وصار الليل والنهار واحداً، وذهبت الظلمة..."[1].

٩ — روي عن زادان عن سلمان قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله تعالى لم يبعث نبياً ولا رسولاً إلاّ جعل له إثني عشر نقيباً (ثم ذكر أسماء الأئمة، إلى أن قال) ثم ابنه محمد بم الحسن المهدي القائم بأمر الله ثم قال: يا سلمان.. وذلك تأويل هذه الآية: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

١٠ — روى محمد بن العباس بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ قال: هذه لآل محمد. المهدي عليه السلام وأصحابه يملّكه الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدين، ويُميت الله عز وجل به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات السفهة الحق، حتى لا يُرى أثر من الظلم[2].

١١ — عن الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (الصادق) عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فقال: والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمامة إلا كره خروجه، حتى لو أن

(١) المهدي، م. س، ص٢٠٣. ودلائل الإمامة، ص ٢٤١ — ٢٦٠.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة، ج ٣٤٣/١ ح ٢٥. بحار الأنوار، ج١٦٥/٢٤ والمهدي م.س، ص ٢٩٥.

كافراً أو مشركاً في بطن صخرة، لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله[1].

١٢ – عن أبي عبد الله عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥] قال: نزلت في القائم وأصحابه[2].

١٣ – روى علي بن ابراهيم في تفسيره المنسوب إلى الصادق عليه السلام قال: يُنادي المنادي صيحة القائم واسم أبيه عليه السلام. قوله ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ قال: باسم القائم عليه السلام من السماء، وذلك يوم الخروج[3].

هذه نماذج من الآيات الكريمة التي فُسِّرت – حسب روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام – بالإمام المهدي وخروجه آخر الزمان. وهناك العشرات من الآيات الأخرى، التي فُسرت وأُولت كذلك بالإمام المهدي عليه السلام. نذكر منها في عجالة:

١ – ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

---

(١) كمال الدين، ج٦٧٠/٢. بحار الأنوار، ج٤/٥٣ والمهدي في القرآن والسنة، ص ١٥٩.

(٢) أنظر: الغيبة للنعماني، ص ١٢٦ والمهدي في القرآن والسنة، ص ٣٠١ وبحار الأنوار، ج٥٨/٥١.

(٣) تفسير القمي، ج٣٢٧/٢ والمهدي، م.س، ص ٤٦٨.

٢ – ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ [الإسراء: ٧١].

٣ – ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]

٤ – ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

٥ – ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٤-٥][1].

٦ – ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

٧ – ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم: ٧٥].

٨ – ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

٩ – ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

١٠ – ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي وردت أحاديث وروايات تُفسرها وتؤولها بالإمام المهدي عليه السلام ومن أراد أن يتعرّف على مصادر تفسير هذه الآيات فعليه أن يُراجع:

---

(١) ورد في الروايات أن القائم وأصحابه أولو بأس شديد.

١ – تفسير الدر المنثور للحافظ السيوطي.

٢ – التفسير الكبير للفخر الرازي.

٣ – تفسير البيان للطوسي.

٤ – تفسير مجمع البيان للطبرسي.

٥ – تفسير العياشي.

٦ – تفسير نور الثقلين.

٧ – تفسير الصافي.

٨ – تفسير فرات.

٩ – تفسير النعماني.

١٠ – تفسير القمي.

١١ – شواهد التنزيل للحسكاني.

١٢ – تأويل الآيات الظاهرة.

وغيرها من مصادر التفسير المتعددة. ومن خلال ما ورد في كتب التفسير هذه نلاحظ أن مُعظم سور القرآن الكريم لا تخلو من آية تُشير تصريحاً أو تلميحاً أو تأويلاً إلى "عقيدة المهدي المنتظر" مع الإشارة إلى أن التفاسير والتأويلات الواردة لهذه الآيات، ليست من اجتهادات المفسرين وإنما هي أحاديث نبوية أو روايات منقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهم أبواب مدينة العلم النبوي الشريف كما هو معلوم[1]. ما

---

(١) روى الحاكم في مستدركه ج٣ ص ١٢٧ وأحمد بن حنبل في المناقب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

يجعل هذه "العقيدة" على جانب كبير من الأهمية والخطورة تتجاوز الكثير من القضايا التي أولاها الفقهاء والمفسرون الاهتمام بالدراسة والبحث والتأليف.

وما يؤكد ما نذهب إليه - من أهمية موضوع الاعتقاد بالمهدي المخلِّص - ليس فقط اهتمام القرآن به، ولكن اهتمام السنة النبوية وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذا الموضوع كذلك.

يظهر ذلك أولاً: في حجم الأحاديث والروايات المتعلقة بموضوع الإمام المهدي عليه السلام فهي بالمئات إذا لم نقل بالآلاف[1].

ثانياً: حجم التفاصيل الكثيرة وشبه المتكاملة - تقريباً - في موضوع المهدي عليه السلام. من هو؟ ونسبه؟ وصفاته؟ والحكمة من غيبته؟ ومتى سيظهر؟ وعلامات ظهوره وصفات أصحابه، وما سيقوم به عند خروجه، والعالم قبل خروجه وأثناءه، وأخبار حُروبه وانتصاراته.. إلخ.

ما يؤكد - مرة أخرى - أهمية وخطورة عقيدة المهدي المخلِّص في العقيدة الإسلامية، لما لها من ارتباط بالكثير من الحقائق الدينية ومُستقبل البشرية في قادم الأيام. وهذا ما سنكتشفه بعد قليل.

□ الإمام المهدي في الأحاديث النبوية:

قبل أن نستعرض مجموعة من الأحاديث النبوية الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام، هناك مجموعة من الملاحظات المهمة نستعرضها في عجالة

---

(١) في معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، الذي أشرفت على إنجازه مؤسسة المعارف الإسلامية في قم المقدسة. بلغ عدد مجلداته ثمانية مجلدات احتضنت (١٨٦١) حديث ورواية عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

- هنا - لأن التفصيل فيها يحتاج إلى دراسات مُطولة، وهذه الملاحظات هي:

أولاً: من حيث مصادر أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: لقد ورد ذكر الإمام المهدي عليه السلام في جميع كتب التراث الديني الإسلامي - بشكل عام - بدءاً من كُتب ومسانيد الأحاديث ثم كُتب التفسير والعقائد وعلم الكلام، التاريخ، كتب السيرة والطبقات، وكتب الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وصولاً إلى الكتب الخاصة بسير أئمة أهل البيت عليهم السلام بشكل عام، وسيرة الإمام المهدي عليه السلام خصوصاً.

وفيما يلي نماذج من هذه المصادر.

١ - صحاح ومسانيد ومعاجم الحديث النبوي. ورد ذكر الإمام المهدي عليه السلام في كل من:

- صحيح البخاري وشروحه المتعددة كإرشاد الساري للقسطلاني.

- صحيح مسلم وشروحه المتعددة.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (المتوفى سنة ١١١١هـ).

- جامع الأسانيد والسنن، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي.

- الجمع بين الصحيحين، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي (المتوفى سنة ٥٨٢هـ).

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني.

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين الهندي.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- سُنن الترمذي.
- سُنن ابن ماجة.
- سُنن أبي داود.
- سُنن الدارمي.
- سُنن الدارقطني.
- السنن الكبرى للبيهقي.
- سُنن النسائي.
- مسند ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري (المتوفى ٣١١هـ).
- مسند ابن راهويه، إسحاق بن راهويه (المتوفي ٢٣٨هـ).
- مسند أحمد بن منيع البغدادي (المتوفي ٢٤٤هـ).
- مسند الحسن بن سفيان النسوي (المتوفي ٣٠٣هـ).
- معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (المتوفي ٣٨٨هـ).
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني (المتوفي ٣٦٠هـ).
- الموطأ، مالك بن أنس (المتوفي ١٧٩هـ).

وغيرها من كتب ومسانيد الحديث الأخرى.

٢ - كُتب تفسير القرآن الكريم:

وقد أشرنا إلى بعضها سابقاً، ونؤكد هنا بأنَّه لا يخلو تفسير للقرآن

قديم أو حديث إلاّ وفيه ذكر للإمام المهدي عليه السلام، عند التعرض لشرح الآيات التي تحدثت عن أشراط الساعة ونزول عيسى عليه السلام، وبعض الأحداث المستقبلية وأخبار آخر الزمان.

٣ – كُتب العقائد وعلم الكلام والفرق:

ونذكر منها:

- الاحتجاج لأحمد بن علي الطبرسي من علماء القرن السادس.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي (المتوفي سنة ٤٥٨هـ).
- الإمامة والتبصرة، علي بن بابويه القمي (المتوفي ٣٢٩هـ).
- دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
- الذخيرة في علم الكلام، الشريف المرتضى علم الهدى (المتوفي ٤٣٦هـ).
- الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى (المتوفي سنة ٤٣٦).
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي (المتوفي سنة ٤١٨هـ).
- شرح المقاصد للتفتازاني.

هذه نماذج فقط، وإلا فمجمل كُتب العقائد والكلام، تحدثت بالتفصيل عن الإمامة، وهل هي من أصول الدين أم لا؟ وأثناء النقاش والجدل ثم استعراض أسماء الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ومن بينهم الإمام المهدي عليه السلام. وأثناء هذه النقاشات والجدل الكلامي تمَّت الاستعانة بعشرات الآيات والأحاديث بالإضافة إلى الأدلة العقلية.

٤ - كُتب السير والتاريخ والطبقات:

- أخبار الدول وآثار الأُول، لأحمد بن يوسف القرماني الدمشقي (المتوفي سنة ١٠١٩هـ).

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (المتوفي ٤٦٣هـ).

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (المتوفي سنة ٦٣٠).

- البدء والتاريخ، المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفي بعد ٣٥٥هـ).

- البداية والنهاية، ابن كثير (المتوفي ٧٧٤هـ).

- تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.

- التاريخ الكبير، إسماعيل بن ابراهيم البخاري (المتوفي سنة ٢٥٦هـ).

- تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي (التوفي سنة ٤٦٣هـ).

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني (المتوفي ٤٣٠هـ).

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

- كرامات الأولياء، الخلال أبو محمد الحسن بن محمد البغدادي (المتوفي ٣٥٢هـ).

هذه بعض الكتب التاريخية وطبقات الأولياء والصوفية، وإلا فقد ورد ذكر الأئمة والإمام المهدي عليه السلام في مُجمل كتب التاريخ القديمة.

٥ – كُتب الفتن وأشراط الساعة:

– الإشاعة لأشراط الساعة، محمد بن رسول الحسيني البرزنجي (المتوفي سنة ١١٠٣هـ).

– التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري الهندي (المتوفي سنة ١٣٥٢هـ).

– علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى، يوسف بن اسماعيل النبهاني (المتوفي ١٣٥٠هـ).

– الفتن، أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (المتوفي ٢٢٨هـ).

– الفتن، أبو معين زكريا بن يحيى النيسابوري البزار (المتوفي ٢٩٨هـ).

– القناعة فيما يُحسن الإحاطة به من أشراط الساعة، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (المتوفي ٩٠٢هـ).

– الملاحم، أحمد بن جعفر المعروف بابن المنادي (المتوفي ٣٣٦هـ).

٦ – الكتب الخاصة بسير الأئمة عليهم السلام:

– الأئمة الإثنا عشر، لشمس الدين محمد بن طولون (المتوفي سنة ٩٥٣هـ).

– الاستنصار في النص على الأئمة الأطهار، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي.

– إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين، محمد بن علي الصبان (المتوفي سنة ١٢٠٦هـ).

– الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، علاء

الدين مغلطاي التركي (المتوفي سنة ٧٦٢هـ).

- إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفي ٥٤٨هـ).

- الإنصاف في النص على الأئمة الإثني عشر الأشراف، هاشم الحسيني البحراني من أعلام القرن ١١ هجري.

- تاريخ مواليد الأئمة ووفياتهم، أبو محمد عبد الله بن نصر البغدادي (المتوفي سنة ٥٦٧هـ).

- حلية الأبرار في فضائل محمد وآله الأطهار، السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل البحراني.

- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، علي بن محمد المالكي الشهير بابن الصباغ (المتوفي ٨٥٥هـ).

- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى الأربيلي (المتوفي ٦٩٢هـ).

- ينابيع المودة، سليمان بن ابراهيم بن القندوزي الحنفي (المتوفي ١٢٩٤هـ).

٧ - الكتب الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام:

- أخبار المهدي، أبو العلاء الهمداني (المتوفي سنة ٥٦٩هـ).

- الأربعون حديثاً في المهدي، أبو العلاء الهمداني.

- الأربعون في المهدي، أبو نعيم الأصبهاني (المتوفي سنة ٤٣٠هـ).

- إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب عليه السلام، علي اليزدي الحائري (المتوفي ١٣٣٣هـ).

- البرهان على وجود صاحب الزمان، محسن الأمين العاملي.

- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان، علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي (المتوفي سنة ٩٧٥هـ).

- البيان في أخبار صاحب الزمان، محمد بن يوسف الكنجي الشافعي (المتوفي سنة ٦٥٨هـ).

- سرور أهل الإيمان في علامات ظهور صاحب الزمان، بهاء الدين علي بن عبد الكريم النجفي.

- صفة المهدي، أبو نعيم الأصبهاني.

- عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، الشيخ عبد المحسن العباد (معاصر).

- الغيبة، أبو محمد فضل بن شاذان النيسابوري (المتوفي ٢٦٠هـ).

- الغيبة، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفي ٤٦٠هـ).

- فرائد فوائد الفكر في الإمام المهدي المنتظر، مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي من علماء القرن ١٧ هجري.

- في أخبار المنتظر، يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي (من علماء القرن ٧ هجري).

- القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، أحمد بن حجر الهيثمي (المتوفي ٢٨١هـ).

- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، لطف الله الصافي الكلبايكاني (معاصر).

- منتخب الأنوار المضيئة في ذكر القائم الحجة عليه السلام، السيد بهاء الدين علي بن عبد الكريم النجفي.

- المهدي المنتظر، أبو الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني الغماري.

- المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية، الشيخ نجم الدين جعفر بن محمد العسكري (معاصر).

- المهدي وفقه أشراط الساعة، محمد أحمد المقدم (معاصر).

وفي ما يتعلق بالكتب الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام لا بد من الإشارة إلى وجود عدد كبير من المؤلفات الخاصة به. وليس فقط ما ذكرناه، وأن التأليف حوله انطلق منذ القرن الأول الهجري وإلى الآن، كما تنوعت الانتماءات المذهبية لمن كتب حول هذا الموضوع، فقد كتب الحنابلة والشوافع والأحناف والمالكية كُتباً خاصة حول الإمام المهدي عليه السلام بالإضافة إلى الشيعة الإمامية والزيدية، وهذا يؤكد بما لا مجال للشك فيه أو الاختلاف فيه، أن الاعتقاد بالإمام المهدي عليه السلام هو عقيدة إسلامية وليست اختياراً مذهبياً، كما يحاول البعض الإيحاء بذلك اليوم. والفرق بين هذه الكتب، هو في اعتماد مؤلفي المذاهب السُّنية على ما ورد من أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله والاكتفاء بها، بينما أضاف مؤلفو الشيعة ما ورد عن أئمتهم من روايات - وهي كثيرة - عن الإمام المهدي عليه السلام.

لذلك من يقرأ الكتب الأولى يلاحظ خُلوها من الكثير من التفاصيل الموجودة في المؤلفات الثانية. لذلك من يُريد التعرُّف على الإمام المهدي، لا بد له من الإطلاع على جميع ما كُتب عنه لدى الفرق والمذاهب كلها، وألاّ يقتصر على مذهب أو فرقة بعينها تعصباً أو تقليداً. فإنّ ذلك سيكون على حساب المعرفة الحقيقية والمتكاملة بهذا الموضوع العقائدي المهم والخطير.

ثانياً: فيما يتعلق بصحَّة أحاديث المهدي عليه السلام. أثـار علمـاء الجـرح والتعديل قديماً الشكوك حول عدد من الأحاديث النبوية المتعلقة بالإمام المهدي، فقد اتهموا بعض الرُّواة بالكذب والوضع.

وبما أن المجال هنا لا يتسع لمناقشة هذه التشكيكات، فإنَّنا نُـشير إلى عدد من الملاحظات، ربما تجد من يناقشها بالتفصيل.

أ – لا شك أن الكذب والوضع موجود وحقيقي، فقد كُـذب علـى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو حي، كما شجَّع بنو أمية الكـذب علـى الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم، واختلقوا المئات من الأحاديث الموضوعة.

ب – الحديث عن الإمام المهدي عليه السلام هو حديث عن الإمامة، وهي موضوع خلافي بين المسلمين وقد سُفكت فيه الدماء الغزيرة، لذلك لا بد من أن يتسرَّب الوضع إلى هذا الموضـوع سـواء باتجـاه تأكيـده أو نفيـه ورفضه أو اختلاق أخبار وقضايا للتـشويه عليـه مثـل، وجـود أحاديـث متناقضة حول: هل الإمام المهدي هو من أبناء الحسن أو الحسين عليهما السلام؟

ج – ادَّعى عدد كبير من الشخصيات الثورية المهدية عبر التـاريخ، وانتحلوا صفة المهدي عليه السلام. وهذا الانتحال - مما لا شـك فيـه - يتطلـب الوضـع واخـتلاق الأحاديـث والروايـات، مـن المـدَّعي أو مـن أتباعـه، لاكتساب الشرعية الدينية لدعوته وثورته، وقد نجم عـن ذلـك العـشرات من الأحاديث والروايات الموضوعة حتماً، لكـن اكتـشاف تهافـت هـذه الأحاديث والروايات ليس بالأمر الصعب عند المقارنة بما صحَّ وبمـا هـو مرتبط فعلاً بالإمام المهدي عليه السلام مثلاً: الإمام المهدي هو الثـاني عـشر فـي سلسلة الأئمة عليهم السلام، لذلك فأي حديث أو روايـة تـدعي غيـر ذلـك فهـي موضوة حتماً.

مثال آخر: تواترت الأخبار أن الظهور تسبقه علامات حتمية، فما لم تتحقق هذه العلامات فإنَّ من يدّعي أنَّه المهدي قبل ظهورها فهو كاذب ومُنتحل وما يقوله مُختلق، وهذا ما وقع مع الكثيرين ممَّن ادَّعوا المهدية فقد قُتلوا وانتهى أمرهم وذكرهم بينما الإمام المهدي (الحقيقي) سينتصر وسيحكم العالم وسيتمكن من نشر الإيمان والعدل.

د — وُجودُ عدد من الأحاديث والروايات الموضوعة لا يؤثر في صحة الاعتقاد بالمهدي. فوجود المئات بل الآلاف من الأحاديث عن الرسول ﷺ والأئمة الأحد عشر، يرفع عدداً كبيراً من هذه الأحاديث والروايات إلى درجة المتواتر لفظاً أو معنى. وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من الروايات التي اتَّهم علماء الجرح والتعديل رُواتها بالكذب وطعنوا في عدالتهم فوجود هذه الروايات والأحاديث في مُجمل كُتب ومسانيد الحديث، وبُطرق ورواة مُتعددون، يجعل بعضها يَجْبُر بعضاً ويُقوي بعضها الآخر. مع أنه يُمكن الاكتفاء بما تم الإجماع على صحته لدى الفريقين السنة والشيعة وهو كثير. ويدل على ضرورة ووجوب الاعتقاد بالإمام المهدي عليه السلام وبما سيقع قبل ظهوره وبعد ظهوره. لذلك نجد عدداً من علماء الحديث يُكفرون من لم يعتقد بالمهدي عليه السلام وظهوره في آخر الزمان.

هـ - الملاحظة الأخيرة، كنا قد أشرنا إليها سابقاً وقد ظهرت واضحة من خلال الكم والعدد الكبير للكتب والمؤلفات الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام، وهي أن الاعتقاد بالمهدي، هو عقيدة إسلامية عامة، ولا ترتبط بأي خصوصية أو اختيار مذهبي، فقد ألَّف وكتب جميع علماء المذاهب في موضوع الإمام المهدي عليه السلام، واعتمدوا على الروايات نفسها

الواردة في مصادر الحديث المتعددة لديهم، وما يُميز الكتابات الشيعية الإمامية هو تفرُّدها بتفاصيل أكثر لاعتمادهم على روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام في الموضوع، ما جعل مؤلفاتهم أكثر إحاطة وشمول، وتُقدم صورة متكاملة - تقريباً - لحركة الإمام المهدي، قبل خروجه وأثناءه وبعده، وتُجيب على أسئلة كثيرة لا يجد القارئ جواباً لها في كُتب أهل السنة عن الإمام المهدي عليه السلام.

هذه ملاحظات أشرنا إليها بسرعة لأهميتها، والآن سنستعرض نماذج من الأحاديث والروايات عن الإمام المهدي عليه السلام كما وردت في هذه المصادر.

١ - حتمية مجيء وظهور الإمام المهدي عليه السلام

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً، قال: ثم يخرج رجل من عترتي، أو من أهل بيتي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظُلماً وعدواناً». أنظر: مسند أحمد ج٣ ص ٣٦ ومستدرك الحاكم، ج٤ ص ٥٥٧، وكنز العمال ج١٤، حديث رقم ٣٨٦٩١. وغيرها من المصادر والمراجع.

٢ - من هو المهدي عليه السلام وما هي صفاته؟

عن ابن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج في آخر الزمان رجل من وُلدي، اسمُه كاسمي، وكنيته ككنيتي، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً». أنظر: تذكرة الخواص ص ٣٦٣، ومنهاج السنة، ج٤ ص ٢١١.

- عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقوم في آخر الزمان رجل من عترتي شاب حسن الوجه، أجلى الجبين، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً ويملك كذا وكذا سبع

سنين». أنظر: السنن الواردة في الفتن وغوائلها للداني، ج٥ ص ١٠٣٨، ح ٥٥٣. وعقد الدرر، ص ٦٥.

- عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» أنظر: سنن أبي داود، ج٤ ص ١٠٧ ح ٤٢٨٤.

- عن حذيفة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكرنا بما هو كائن، ثم قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله عز وجل ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً من ولدي، إسمه إسمي، فقام سلمان الفارسي (رض) فقال: يا رسول الله، منْ أيِّ ولدك؟ قال: هو من ولدي هذا، وضرب بيده على الحسين عليه السلام». أنظر: عقد الدرر ص ٤٥.

- وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «الأئمة بعدي إثنا عشر، أولُهم أنت يا علي، وآخرهم القائم الذي يفتح الله عز وجل على يديه مشارق الأرض ومغاربها». أنظر: كمال الدين، ج١ ص ٢٨٢ ح ٣٥.

فمن خلال هذه النماذج من الأحاديث وهي كثيرة وبطرق متعددة، يتبيّن لنا أن الإمام المهدي عليه السلام هو الإمام الثاني عشر، من وُلد الحسين بن علي وفاطمة (أهل بيت النبوة عليهم السلام). وأن اسمه محمد وأنه شاب حسن الوجه أجلى الجبين أقنى الأنف، وأنه من المحتوم خروجه قبل قيام الساعة ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً.

٣ – ظُهوره بعد غيبة طويلة:

الأحاديث في الغيبة كثيرة وقد ألَّف العلماء والمحدثون فيها كُتباً خاصة وسنكتفي بحديث واحد فقط.

– عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي من وُلدي تكون له غَيْبة وحيرة تضل فيها الأمم، يأتي بذخيرة الأنبياء عليهم السلام، فيملؤها عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً» أنظر: كمال الدين، ج١ ص ٢٨٧ ح ٥، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي.

٤ – الوضع العالمي قبل خروج المهدي عليه السلام:

– غربة الإسلام وأهل الإيمان، هناك أحاديث كثيرة في هذا المجال نذكر منها:

عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن الإيمان بدأ غريباً وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء إذا فسد الناس، والذي نفس أبي القاسم بيده، ليأرزنَّ الإيمان بين هذين المسجدين كما تَأْرِزُ الحية في جُحرها». أنظر: مسند أحمد، ج١ ص١٨٤.

– وروى أحمد في مسنده كذلك (ج٥ ص ٢٥١)، عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لينقُضنَّ عُرى الإسلام عُروة عُروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضاً الحُكم، وآخرهن الصلاة».

– وروى الطبراني في المعجم الأوسط (ج٥ ص ١٠٧ ح٤٢٠٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يكون في آخر الزمان أمراء ظلمة، ووزراء فسقة، وقضاة خونة، وفقهاء كذبة، فمن أدرك ذلك الزمان فلا يكوننَّ لهم جابياً، ولا عريفاً، ولا شرطياً».

– وروى ابن حجر في صواعقه عن الحاكم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يحل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم،

لم يُسمع بلاء أشد منه، حتى لا يجد الرجل ملجأً، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً..».

- وروى ابن حماد في كتابه الفتن (ج١ ص ٥٤ ح٨٦)، عن عمران بن حصين عن النبيﷺ قال: «تكون أربع فتن: الأولى يُستحل فيها الدم، والثانية يُستحل فيها الدم والمال، والثالثة يُستحل فيها الدم والمال والفرج، والرابعة الدَّجال».

- روى الدارمي في سننه (ج١ ص ١٠٩ ح٣٣٨) عن أبي أمامة عن النبيﷺ قال: «ستكون فتن يُصبح فيها مؤمناً، ويُمسي كافراً، إلا من أحياه الله بالعلم».

٥ - علامات ظهوره:

علامات الظهور كثيرة جداً وقد قسّمها العلماء إلى علامات حتمية ومرتبطة بالظهور مباشرة وعلامات عامة. العلامات العامة مثل انتشار الفساد والظلم والكفر والفتن. وبعض العلامات المرتبطة بالطبيعة مثل:

- روى ابن حماد في الفتن عن كعب [ولم يسنده إلى النبيﷺ] قال: «يطلع نجم من المشرق قبل خروج المهدي له ذناب». أنظر: الفتن ج١ ص ٢٢٤ ح٦٤٢.

- أو ما رواه عبد الرزاق في مصنفه (ج١١ ص ٣٧٣ ح٢٠٧٧٥) عن ابن عباس [ولم يسنده إلى النبيﷺ] قال: «لا يخرج المهدي حتى تطلع الشمس آية».

- أو ما رواه ابن حماد في الفتن أيضاً (ج١ ص ٢٢٤ - ٢٣٠ ح٦٤٢) عن شريك: «قبل خروج المهدي تنكسف الشمس في شهر رمضان مرتين».

أما العلامات الحتمية فهي حسب الأحاديث والروايات: خروج السفياني، اليماني، قتل النفس الزكية، الخسف بالبيداء، الصيحة.

- روى ابن حماد في الفتن (ج١ ص٣٠٦ ح٨٨٩) عن ابن عباس: «يخرج السفياني فيقاتل حتى يبقر بُطون النساء، ويغلي الأطفال في المراجل».

- وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «يخرج السفياني والمهدي كفرسي رهان، فيغلب السفياني على ما يليه والمهدي على ما يليه» (الفتن ج١ ص ٣٣٢ ح٩٥٣) وفي رواية عن أهل البيت: الخراساني بدل المهدي.

- وروى ابن حماد أيضاً في الفتن (ج١ ص ٣٢٩ ح٩٨١) عن عمار بن ياسر: «إن المهدي لا يخرج حتى تُقتل النفس الزكية، فإذا قُتلت النفس الزكية غضب عليهم مَنْ في السماء ومَنْ في الأرض، فأتى الناس المهدي فزفُّوه كما تُزف العروس إلى زوجها..» إلى آخر الحديث.

- وروى مسلم في صحيحه (ج٤ ص ٢٢١٠ ح٧) عن عبد الله بن صفوان عن أم المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «سيعوذُ بهذا البيت - يعني الكعبة - قوم ليست لهم مِنْعةٌ ولا عدد ولا عدّة، يبعث إليهم جيش [- أي السفياني-] حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض [بين مكة والمدينة] خُسف بهم».

- روى النعماني في غيبته (ص ٢٦٥ ب١٤ ح١٤) عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنه لا يكون حتى ينادي مناد من السماء، يُسْمِعُ أهل المشرق والمغرب، حتى تسمعه الفتاة في خدرها».

٦ – أين سيظهر؟

الأحاديث النبوية وروايات أهل البيت عليهم السلام كلها مُتفقة على أن الإمام المهدي عليه السلام سيظهر ويخرج من مكة المكرمة وداخل المسجد سيبايعه أصحابه.

– روى عبد الرزاق في مصنفه (ج١١ ص ٣٧١ ح٢٠٧٦٩) عن قتادة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من المدينة فيأتي مكة، فتستخرجه الناس من بيته وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيُبعث إليه جيش من الشام، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم، فيأتيه عصائب العراق وأبدال الشام فيبايعونه..» إلى آخر الحديث.

وفي الفتن لابن حماد (ج١ ص ٣٤٤ ح٩٩٤) – كما في عُرف السيوطي، وبرهان المتقي، عن قتادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج المهدي من المدينة إلى مكة، فيستخرجه الناس من بينهم، فيبايعونه بين الركن والمقام، وهو كاره».

أما بخصوص أصحابه وأعوانه فقد ذكرت الأحاديث والروايات أن عددهم كعدد أهل بدر، وأنهم سيلتحقون به من جميع بقاع العالم، وأن من بينهم الأبدال وأهل الكهف. ومن الأحاديث والروايات حول الموضوع نذكر:

– عن ابي الطفيل عن علي قال: سمعتُ علياً يقول: «إذا قام قائم آل محمد، جمع الله له أهل المشرق والمغرب، فيجتمعون كما يجتمع قزع الخريف، فأما الرفقاء فمن أهل الكوفة، والأبدال فمن أهل الشام». أنظر: تاريخ مدينة دمشق (ج١ ص٢٩٧) وصواعق ابن حجر (ص ١٦٥ ح١)، وينابيع المودة.

٧ – ما يقوم به عند الظهور؟

أما ما يقوم به عند ظهوره فهناك المئات من الأحاديث والروايات التي تتحدث عن تفاصيل حُروبه الداخلية والخارجية، وكيف سيسيطر على العالم العربي والإسلامي ثم سيتجه لفتح العالم الأوروبي، وكيف سيقضي على الكفر والظلم وينشر الإيمان والعدل.

سنعرض بعضها، ولمن أراد الاستزادة فعليه بالكتب التي ذكرناها سابقاً أو الرجوع إلى معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام الذي أنجزته – مشكورة – الهيئة العلمية في مؤسسة المعارف الإسلامية في مدينة قم المقدسة بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، فهذا المعجم يشفي غليل الباحث.

– عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «هو رجل [أي الإمام المهدي عليه السلام] من عترتي، يُقاتل على سنتي كما أنا قاتلتُ على الوحي». أنظر: الفتن لابن حماد (ج١ ص٣٧١ ح١٠٩٢) ومعجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام (ج١ ص٢٦٥).

عن علي قال: «كأني أنظر إلى شيعتنا بمسجد الكوفة، قد ضربوا الفساطيط، يُعلِّمون الناس القرآن كما أُنزل». أنظر: غيبة النعاني (ص ٣٣٣ ب٢١ ح٣). ومعجم أحاديث المهدي، (ج٤ ص ١٨٥).

– روى النعماني في غيبته (ص ٢٤٢ – ٢٤٣) في رواية طويلة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا قام قائم أهل البيت قسَّم بالسوية، وعدل في الرعية، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وإنَّما سُمي المهدي مهدياً لأنه يهدي إلى أمر خفي، ويستخرج التوراة وسائر كُتب الله من غارٍ بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل

بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن. وتُجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها، فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرَّم الله عز وجل، فيعطي شيئاً لم يُعطه أحد كان قبله، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً كما مُلئت ظُلماً وجوراً وشراً».

وإلى جانب انتشار العدل والإيمان والرخاء فقد أشارت الروايات إلى التقدم العلمي الذي سيقع وتطور الوعي البشري وتكامل الإنسان. منها ما روي عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكَمُلتْ به أحلامهم».

إلى غير ذلك من الأحاديث والروايات بحيث نستطيع من خلال قراءتها أن نتعرّف بالتفصيل عن الإمام المهدي (المخلِّص الموعود) من هو؟ وصفاته وخصائصه ومتى ولد؟ ومتى غاب ولماذا غاب؟ ومتى سيظهر؟ وما هي علامات ظهوره، وأين سيظهر؟ وحركته وما سيقوم به عند ظهوره؟ ومن هم أعداءه... إلخ.

وبالتالي نستطيع أن نقول ونؤكد بأنَّ عقيدة المهدي عليه السلام هي من العقائد الإسلامية التي يجب الاهتمام بها والتعرُّف على أبعادها وتداعياتها المستقبلية.

الفصل الأول

عقيدة المُخلِّص في الدِّيانات السَّماوية والوضعية

نظرية المهدوية في الدِّيانات

مقاربة علمية

القسم الأول

أ. علي موحديان عطار

ترجمة: محمد عبد الرزاق

تمهيد:

لعلَّ فكرة «المُنجي الموعود» بمفهومها العام هي مما يتفق عليه الفكر البشري قاطبة، ولا نجد بين مختلف الأطياف من لا يحمل هذه الفكرة بنحو من الأنحاء. إلاّ أنَّ النظرة التأريخية لكل جماعة هي التي أدَّت إلى اختلاف معنى الموعود بين الأقوام، لذا تعيّن علينا أمران: أحدهما معرفة الموعود لدى كل قوم، والآخر رصد المدخلية الأساسية لهذا الاعتقاد. وسنحاول من خلال تقديم الأنماط الرئيسة لهذه الفكرة تحديد شتّى الانطباعات عن الموعود ـ باستثناء الانطباع الإسلامي ـ تاركين رؤية المسلمين ومنشأها لبحوث لاحقة مستقلة.

الأنماط الرئيسة لفكرة الموعود

ينقسم مفهوم المُنجي الموعود لدى الأديان ـ مبدئيّاً ـ إلى صنفين أساسيين، أحدهما المُنجي الشامل والآخر المُنجي الفردي، ويرتكز الشق الثاني على النجاة المعنوية (osteriology)[١]. أما موعود الجميع فهو بدوره على ثلاثة فروع: أن تكون غايتهُ النجاة الاجتماعية (حريات المجتمع ورفاهيته)، أو التوفيق بين النجاة الدنيوية للمجتمع وصلاح أفراده في الجانب المعنوي، أو ترك جانب الاجتماع والالتزام بالنجاة المعنوية للأفراد.

وعلى ذلك يكون مُنجي الجميع إما سائراً في طريق تحقيق سعادة مجموعة من الناس وتقدمهم، وإما أن يَعمَّ حكمهُ جميع الشعوب فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً. وإنْ سلّطنا الضوء أكثر نجد أن فكرة المُنجي العام إما أن تكون ناظرة للماضي مع انتظار رجوع أحد ما أو حالة سابقة، أو أنها تمنح أملاً بقدوم شخص أو حالات ما في المستقبل لم تكن معهودة سابقاً، أو كانت وأُضيفت إليها أُطر جديدة.

فالذي يرتبط بالماضي تارة يكون جُلُّ اهتمام فكرته هو المدينة الفاضلة (utopia)، فهو يُوتوبي (utopianism)، وتارة يكون في صدد إقامة حكومة الملوك القدماء (ancient Kingdom) أو العصر الذهبي (golden age) وزمن الأساطير.

أما الذي ينظر للمستقبل، فإما أن يكون الموعود لديه هو الوصول لنهاية العالم، أو التبشير بقدوم شخص أو طروء تغييرات في مرحلة زمنية

---

(١) يمكن مقارنة هذا المفهوم بمفاهيم الفلاح (Salvation) والنجاة (Save).. إلخ.

محددة كالقرن مثلاً (millenarianism) من الألفية، فهو ألفي ـ إذا صحَّ التعبير.

وعلى صعيد آخر يمكن أن يكون الموعود لدى الأفراد شخصاً بعينه أو وجوداً غَير شخصي[1]. وقد تمنح الديانات التي تؤمن بفكرة الموعود صبغة ربانية لموعودها، أو تعتبرهُ مجرد شخص مميّز عن البشر مع كونه منهم. ولعلهُ من الممكن رسم مخطط يجمع تلك الأنماط المتعددة مع مصاديقها في التقسيم التالي:

له صبغة ربانية (كالمسيح عند المسيحيين)، و(ميترية) عند المهيانة من البوذيين.

الموعود الشخصي الموعود هو مُجرَّد بشر مُميز (كموعود الإسلام من منظار عام)

بلحاظ الماهية

نمط فكرة الموعود

الموعود غير الشخصي

بلحاظ الأداء

---

(١) كثيراً ما يستخدم مصطلح الغير شخصي (impersonal) في الدراسات الدينية والفلسفية. ويشير هذا المفهوم لماهيات من قبيل القانون والقاعدة والذات الوجودية وغيرها. فمن مميزات هذه الأمور هو أن علاقة الإنسان بها ليست مباشرةً وجهاً لوجه، بل هي أُمور عامة لا بد من إدراكها والانسجام معها. كالبرهن لدى الهندوس، والبوذا المطلق عند المهيانة من البوذيين، ودائو في تعاليم الدائو، والله في مقام ذاته في الأديان الإبراهيمية. وفي مقابلها هناك وجود شخصي (Personal) يخاطبنا كفرد له صفاته الخاصة، أي يمكن مناجاته والتمسك به، والخوف من جبروته، والأمل في لطفه وعفوه.

المُنجي الفردي (كموعود المهيانة من البوذيين)

المنجي العام والشامل

ويمكن معرفة أنماط «المُنجي الشامل» من خلال الحيثيات التالية:

مُنجي اجتماعي (كما عند الهنود الحُمر وبعض الأديان الإفريقية)

١- بلحاظ الدور الاجتماعي

مُنجي معنوي واجتماعي (كموعود التَّشيع)

المُنجي المعنوي (كموعود المسيحيين وتعاليم دائو)

أما الفرق بين المُنجي المعنوي والمُنجي الفردي فهو يكمن في كون الأول يعدُ بخلاص الجميع عبر مرِّ التأريخ (أو من خلال عجلة الزمن)، بينما يهتم الثاني بنجاة الأفراد (مثلاً) في المراحل المتأخرة من التأريخ، وإن رافقت هذه الفكرة عادة النجاة الاجتماعية والدنيوية أيضاً.

موعود القوميات الخاصة (كموعود اليهودية والصهيونية)

٢- بلحاظ خصوصية الدور وعموميته

الشامل للعالم (كالموعود في الإسلام ولدى الهندوس والبوذيين)

أصحاب المدينة الفاضلة (كما عند إفلاطون)

عبر الماضي أصحاب الجنان[١]

---

(١) المراد من الجنة هنا هو مثاليات الأساطير في بعض الأديان تلك التي تجعل الحقيقة نصب عيون البشر، وتصور تكامل الانسجام بين الإنسان والطبيعة، دون تجاهل للحقائق و... الخ.

٣- بلحاظ أهداف القُدماء (موعود الكنفوشيوس)

الموعود النهائي (موعود المسلمين)

عبر المستقبل

الموعود المرحلي (موعود الزرادشتيين)

لهُ دور عالمي

٤- بلحاظ العالمية

ليس لهُ دور عالمي

فكرة الموعود المُنجي في الثقافات والأديان

بعد هذا التعريف الإجمالي لجملة من المفاهيم العامة وذات الصلة نأتي هنا إلى التعريف بشيء من مصاديق المُنجي الموعود في بعض الديانات والمذاهب:

اليهودية

تُطلق كلمة المسيح سابقاً (حسب إطلاق اليهود والكتاب العبري) ويُراد بها مسيح الرب إشعاراً بصاحب الرسالة المُنجي. وقد أُطلق هذا العنوان على ثلاثة مصاديق: الأول على ملوك بني إسرائيل؛ والثاني على كبار الكهنة؛ وأخيراً على الملوك من غير بني إسرائيل أمثال (كورش) الذي يعتقدون أنّ الله اصطفاهُ لينجي بني إسرائيل[1].

بعد ذلك، أصبح مفهوم (المسيح) تلك الشخصية المحببة إلى النفوس وذلك الملك الذي لا بد من مجيئهِ للنهوض بواقع اليهود.

---

(١) أنظر: المسيح في: الأب جان كوربون، معجم الإيمان المسيحي.

ومميزاتهُ عندهم هي: ملكٌ مبعوث، مُتدين عادل، رسول آخر الزمان، من نسل داوود، وإذا فسّرنا ما ورد في سفر الظهور عند قوله «لن تبتعد العصا عن يهودا ولا الحكم عن شيلو وعلى الأمم إطاعتهُ»(١) ببشرى ظهور المسيح، كما ذهب إليه بعض المفسرين(٢). إذن، فبالإمكان أن نضيف إلى الصفات المتقدمة صفة «الحاكم المطلق للعالم»(٣).

وقد اكتسب هذا المفهوم أبعاداً أوسع إبان الاحتلال الرومي، فادّعى كثيرون توفرهُ فيهم. وعيسىﷺ عند اليهود، هو واحد من تلك المصاديق. أما في القرن الأول قبل ميلاد المسيح ﷺ فيؤكد يسويفوس المؤرخ أن قيادة الصراع مع الرومان كانت بعهدة «يهود الجليلي (The Judas Gelilean)، وتبعهُ يتوداس (The udas) واستمر ذلك حتى بعد عصر المسيح ﷺ.

وكذلك ينطبق المفهوم ذاتهُ على شمعون بن كوخبا (Simeon Barkokba) الذي منحه عقيوا (Akiva) ـ أحد أبرز مراجع الدين آنذاك ـ لقب «ابن الشمس» ففتح بدعمه لهُ «أُورشليم» سنة ١٣٢م ثم قتل على يد الرومان.

وفي القرن الثاني عشر أيضاً ظهر في أُوربا المسيحية «كوهن سولمن» القرائيمي (نسبة إلى قراء كتب العهد القديم). وظهر في عهد الإسلام شخص يدعى شابتاسي زفي (Sabbetaizvi) ١٦٢٦ ـ ١٦٧٦م، قيل إنه ادعى صفة المنجي خلال لقائه بالقديس ناتان، إلاّ أنه أسلم بعد إلقاء

(١) الكتاب المقدس، ترجمة لجنة الكتاب المقدس.

(٢) شيلو في: مستر هاوكس، قاموس الكتاب المقدس.

(٣) المرجع نفسه. وهناك تأويلات أُخرى للشيلو أو الشيلون.

القبض عليه في تركية كي لا يقتل. حتى توفي فيها. لكنّ أتباعهُ التزموا بعقيدتهم وأسسوا تيارات متعددة.

يعتقد اليهود أنهُ عندما يأتي المسيح ستقام «مملكة الله» في الأرض ويعود جميع الخلق إلى أُورشليم. ووفقاً لهذا الاعتقاد تكون اليهودية في حالة انتظار مخضرم له انعكاساته على تدين الفرد من جهة، وعلى البعد الاجتماعي من جهة أُخرى.

أما في الحقب المتأخرة فقد باتت التيارات اليهودية تنحسر في اتجاهها نحو المسيح الشخصي، وتوجهت بشكل ملحوظ نحو معطيات ظهور العصر الذهبي في المستقبل. ويرى بعض اليهود في الدولة الإسرائيلية بداية الخلاص والتحرر (بمعنى رد الدَين وإرجاعه). على صعيد آخر، يرفض العديد من الإسرائيليين العلمانيين انتظار المسيح بشتى أشكاله[١].

لعلهُ يمكننا تصنيف الموعود في المعتقد اليهودي في شاقول المنجي العام والمستقبلي، ذلك الذي كانت غالبية اهتماماته تنصب في إرجاع البهجة والسرور للعالم وساكنيه دون التأكيد على نجاتهم المعنوية لا سيما في إطارها العرفاني.

المسيحية

تتمخض فكرة الموعود في المسيحية ضمن ثلاثة أنماط: **النمط الأول** هو نفس الموعود اليهودي الذي يلعب فيه عيسى الناصري دور

---

(١) Sherbok: A popular Dictionary of _ Messiah in: Larinia and dancohn Judoism: curzon: 1997 (Revised Edition).

المسيح المنجي فيضع حداً لانتظار اليهود لهُ؛ **النمط الثاني:** هو البشرى بعودة عيسى بعنوانه «قاضي العالم وحكمهُ» في آخر الزمان؛ **أما النمط الثالث:** أو بعبارة أُخرى الصورة الثالثة، فهي تتحدث عن شخصية وعد بها عيسى المسيح نفسه، فتحمل «العزاء» و«روح الصدق» مانحة المسيح النورانية ومؤيدة له بالشهادة. وليست هذه عند المسيحيين سوى روح القدس التي يعتقدون بأنها ظهرت بعيد عصر المسيح بقليل وسيطرت على الكنيسة بكل أبعادها. تأسيساً على ذلك تشمل المسيحية ثلاثة أشكال للاعتقاد بالمنجي الموعود. من هنا تشعب الكلام في كل واحد منها:

النمط الأول: ففي النموذج الأول ثمة نقاط لا بد من الالتفات إليها في النموذج الذي يطرح من قبل عيسى المسيح بعنوانه المسيح المنتظر:

أولاً ـ لم يرضخ اليهود بسهولة لهذا المدعى مع أنهم هم المعنيون بالانتظار في الدرجة الأُولى؛ لأنهم فرضوا أن يكون «المسيح الموعود» من نسل داوود، مضافاً لاستنادهم إلى الشعارات (Psalms) التي تنفي إمكانية كون المسيح كعيسى[١]، وتأكيدها على ضرورة أن يكون المسيح من الملوك ولم يكن عيسى كذلك إطلاقاً، كل تلك العوامل كانت مبرراً لهم في رفض تحقق الفكرة في عيسى .

ثانياً ـ لم يكن مسيح اليهود «ابن الله»، بينما قدمت المسيحية عيسى الناصري بصفته ابن الله، وجلالية الربوبية، والحكم الملكي (إنجيل يوحنا، ٢٨: ٨، ١٣: ٣، ٥١: ١). وإن كانت تعابيرهُ لا تتجاوز دعوى كونه «ابن

---

(١) Messianismin: Mircea Eliade The Encyclopedia of Religion.

الإنسان»، الأمر الذي أثبتتهُ بعض التفاسير بمعنى «الآدمية» والانتساب إليها (رسالة إلى العبريين).

ثالثاً ـ لقد أقر الإسلام للدين الإبراهيمي ـ الذي أعقب المسيحية لمدة ستة قرون ـ بعيسى مسيحاً (سورة النساء: ١٧١ وآل عمران: ٤٥) مع الاعتراف بعودته في آخر الزمان؛ أي بمعنى الموعود المسيحي مع إدخال بعض الإصلاحات على هذا المفهوم. وكان لهذه المسألة أثرها البالغ في نشر فكرة الموعود المسيحي في بقاع العالم، وإن كان الإسلام قد قدم موعوداً مغايراً في البعد العام.

رابعاً ـ وأخيراً، ليس وراء ظهور عيسى ونجاة العالم في العهد الجديد شيء من الثورات الاجتماعية، ولا عن طريق إقامة حكومة ما، بل وحتى إنه بعيد عن الآثار المعنوية في نفوس الناس، إنما هو نتيجة للصبر والعذاب في مرحلة «العبد المعاني»[١]، وتكفير عن بادئ الذنوب مع أتباعه من المؤمنين (أعمال الرسل، ٨: ٣٢). فكان للمسيحيين في فهمهم للمنجي نقطة الافتراق والتمايز عن سائر اعتقادات الآخرين في المضمار ذاته.

النمط الثاني: أما على صعيد النمط الثاني الذي يَعد بـ «رجعة» عيسى المسيح بصفته «حكم العالم» لآخر الزمان، فثمة مسائل تجدر الإشارة إليها

أولاً ـ يضع عيسى في العهد الجديد حداً لعذابه وتحمله بدل الخلق، وما لحق به من صلب وتعسُّف، والانتظار المديد. مع هذا إلاّ

---

(١) Suffering Servant.

أنهم يفرضون في عودته غاية أخرى هي النهوض بالناس وصولاً للكمالات.

وقد أيدت بعض نصوص العهد الجديد مجيء «ابن الله» في آخر الزمان (إنجيل متى، ٢٤: ٣٧، ٢٤: ٢٧، وإنجيل لوقا، ١٨: ١٨، ١٨: ٦٩، ١٨: ٢٢... الخ). وفي بعض التفاسير توجد إشارات صريحة لعودة عيسى «حكماً للعالم». والبعض الآخر يَعِد ببعثه من جديد مع التعريج على ما لقي من محنٍ وصلب (إنجيل مرقس، ٨: ٣١، ٩: ٩، ٩: ٣١، ١٠: ٣٣، ١٤: ٢١).

ذكرنا أن الموعود المسيحي يظهر في صورة «حكم عادل للعالم»، الأمر الذي يميز معنى النجاة المتحققة من قبله عن سائر الأفكار والثقافات الدينية الأُخرى. وإن كانت فعال المسيح في العهد الجديد تمنحهُ البعد المعنوي للخلاص والنجاة ومعنى الإيمان.

ثالثاً ـ يتوخّى العهد الجديد وصف المسيح بالسياسة مخالفاً في ذلك منظومات شمعون.

النمط الثالث: أما النموذج الثالث ففيه صورة متباينة كلياً للموعود المسيحي، فهو ليس ذلك المسيحي الذي تنتظرهُ أُمّة موسى، وما اعتقدت به أُمّة عيسى في ذهابه وعودته عليهم. بل، هو ذلك الشخص الذي وعد به عيسى وبشّر بمجيئه، وهو «معزي» آخر طلبهُ عيسى من الله (الأب) من أجل أُمّته، فتقبل الله طلبه وأعطاهُ إياه ليرافقه أبداً. وهو المرشد لجميع الحسنات (وكأنهُ يسد محل المسيح في حالة فقدانه). لا يتكلم عن ذاته. بل، يبقى مصبّ حديثه هو المسيح، وهو من الله (الرب). ولن يدركهُ العالم ويعرفهُ إلاّ من اعتقد بالمسيحية من المؤمنين.

نقرأ في الكتاب المقدس:

ولكن عندما يأتي المُعزي المبعوث لكم من قبل الأب، أي روح الخير الصادرة من الأب، سيشهد لي، وأنتم كذلك ستشهدون لي؛ لأنكم رافقتموني من البداية. (إنجيل يوحنا، ٢٧: ١٦).

وسأل الرب منحكم معزياً آخر وسيعطيكم إياه ليرافقكم دائماً. أي هو روح الخير التي لن يتقبلها العالم لجهله بها وعدم إدراكه لها، أمّا أنتم فستدركونها؛ لأنها ستبقى معكم ومن أجلكم.

وإنِّي لأصدقنكم القول في ذهابي عنكم؛ لأنهُ في صالحكم فلو لم أذهب لن يقبل عليكم المعزي، فإذا ذهبتُ بعثته إليكم. فإذا جاء ملأ العالم بالعدل وألزم الجميع حكمهُ... عندما تصلكم روح الخير ستهديكم جميعاً إلى جانب الخير والسعادة؛ ذلك لأنها لا تتكلم من عند نفسها، بل تتحدث بما سمعتهُ فتخبركم بالأُمور الآتي من المستقبل. وهي التي ستمنحني بهجتي؛ ذلك لأنها ستأخذ مني فتخبركم به..[1]. (إنجيل يوحنا، ٨: ١٦).

أما بخصوص النموذج الثالث فنقول إنَّ فيه ملاحظات:

أولاً ــ في فهم المسيحيين لتلك النصوص، فليس قصد المسيحية من «المُعزي» و«رُوح الخير» مما ورد في الكتاب المقدس هو من يكون رسولاً أو وصياً للرسول، بل إن مصداق ذلك الوعد عندهم هو نفس «رُوح القدس»، التي شغلت فراغ المسيح بزعمهم، فقادت الكنيسة نحو مدارج الخير والهداية. ولتعاليم «رُوح القدس» منذ قرون المسيحية الأُولى دورها الواضح والمؤثر على دين المسيحية.

---

(١) الكتاب المقدس، ترجمة لجنة الكتاب المقدس.

ثانياً ـ وهو يتعلق بانطباع المسلمين عن تلك المفاهيم والنصوص المذكورة، فهم يرون فيها تبشيراً بقدوم خاتم الرسل ﷺ معتمدين في ذلك على الشواهد التاريخية واللغوية[1] والتفاسير[2]. وقد تمخَّض عن هذا المُدعى بحوث عديدة، حاولت تقديم تأويل مسيحي لنصوص الكتاب المقدس، لخلق جدليات حول ما لم يرد في السنن الإبراهيمية (أي مجيء روح الهداية بدلاً عن النبي المرسل).

ثالثاً ـ وهو ما يتعلق بالفهم المُتهور للبعض من نصوص إنجيل يوحنا في معرض تبشيره بمجيء «المعزي» و«رُوح الهداية». حيث حاول البعض ومن خلال مطابقة النصوص المذكورة مع النصوص الأُخرى للكتاب المقدس في باب «ابن الإنسان» والتبشير بظهوره في آخر الزمان، أن يسوق ذلك نحو مسألة المهدي الموعود عليه السلام، والبشرى بظهور المُنجي في آخر الزمان[3]. بينما يمكننا مع شيء من التأمل التمييز بين الاختلاف الحاصل بين مفهوم «ابن الإنسان» ومفهوم «المُعزي» في الكتاب المسيحي، حيث إن أحدهما مختص بذات المسيح والآخر يعود على من بشّر هو بظهوره.

تأسيساً على ذلك، يكون الموعود المسيحي من صنف الموعود

---

(١) أعني بحوث «بريكليتوس» أو«باركليتوس» و«فارقليط». راجع: محمد صادق فخر الإسلام، أنيس الأعلام ج٥.

(٢) راجع: جعفر السبحاني، أحمد موعود الإنجيل.

(٣) راجع: مقال المسيحية في انتظار منجي البشرية، علي الأميري، من جملة مقالات الاجتماع الثاني لدراسة الأبعاد الحقيقية للمهدي (عج)، مركز الأعلام الإسلامي، ١٣٧٩هـ.ش.

«الاجتماعي» خاصة. تخريجاً للمنجي «المعنوي- الاجتماعي» ليحل في عداد الموعود «المعنوي» خاصة. أما أصل فكرة الموعود المُنجي في المسيحية، فهي وإن كانت موكولة لنهاية العالم وآخر الممالك، إلاّ أنها تميل أيضاً لفكرة «الألفية» (millenarian). فلا يزال الكثير من المسيحيين ينتظرون ظهور المسيح مطلع كل ألف عام إلى جانب استعداداتهم بذلك.

إنّ الموعود المسيحي هو موعود «شخصي» (Personal) مع «سمة ربانية»، وتتطلب مسألة الحكم فيما إذا كان الموعود المسيحي «فردياً» أو «شمولياً» شيئاً من التأمل لإدراك ذلك. ففكرة المُنجي عند المسيح - بالدرجة الأُولى - مُتمثلة بعيسى الناصري في شاقول النجاة «الفردية». فلا توجد ثورة اجتماعية أو إقامة حكومة وخلاص اُمّة، هذا من جهة، ومن اُخرى، باتت مقدمة النجاة هي العذاب وتحملهُ من قبل المسيح في مقام «العبد الصابر»، تكفيراً عن اُولى ذنوب بني آدم. ولا ينال هذه المنزلة إلاّ من اعتقد وآمن بها.

فهكذا نجاة أقرب للفردية منها للاجتماعية، كما لو يُهذب الفرد نفسه لنيل الحقيقة وتفتّح بصيرته، أو من قبيل نضوج الضمير والوجدان لدى من يقترب من سور الشيخوخة. وتتجلّى فردية هذا النوع من النجاة أكثر بملاحظة استمرارية هذه التجربة على مرّ التاريخ، والأفراد المؤمنين بها. حيث إنّ تعاليم المسيحية تقضي بإمكانية نيل هذه الدرجة لكل من يؤمن بالمسيح ومنزلته، كي يطهر البشر من اُولى ذنوبهم، ويتصل بالملكوت الرباني. الأمر الذي ممكن حصوله لكل فرد في أي زمان كان.

أما الصور الأُخرى للموعود المسيحي، والتي تقول بعودة المسيح «حَكماً للعالم» و«ابناً للإنسان»، فهي أكثر تناسباً مع النجاة «الشاملة». وليس من الصحيح تخصيص الموعود المسيحي بـ «قومية» ما. حيث إنّ أداءه يُدلل بشكل واضح على «شموليته العالمية». أما أهدافهُ فتقرر أنهُ من قبيل الموعود «المستقبلي».

وأخيراً، ليس هناك دلائل واضحة في التعاليم المسيحية تثبت «دوراً كونياً» للموعود المنجي. فإن ما يمارسهُ المسيح بعنوانه ابن الإنسان وحَكم العالم، هو غالباً ما يكون من قبيل الحياة المعنوية للبشر.

تعاليم الهندوس

هنالك علاقة وتداعي في فكرة الموعود عند الهندوس وشخصية الكلكي (Kalki) أو الكلكين (Kalkin). ويوجد في الوقت ذاته ارتباط وثيق بينها وبين مسألة «عُصور العالم»، ومفهوم (kali yuga) أو «العصر الكَالي» وهو آخر العصور الأربعة للعالم عند الهندوس. حيث يرى الهندوس أن العالم متكون من أربعة مراحل زمنية وإن العالم سيعمهُ في العصر الرابع الكالي الظلم والظلام، ويتسلَّط الطغاة على أرواح الناس وأموالهم، ويشيع الكذب والخداع والسرقة والرشوة في جميع الأرجاء. ويعتقد الهندوس أننا الآن في هذا العصر لا نطبق من (الدرمة) [دين ونظام الكون] سوى الرُّبع وأنّ ثلاثة الأرباع الباقية أُلقيت في بقعة النسيان[١].

وفي ختام ذلك العصر المُظلم ستُنزل الأُوتارة (Vishnu) عاشر

---

(١) راجع: ورنيكا إينوس، باجلان فرخي، أساطير الهند، ص٢-٤١ و٢٦-١٢٥.

وآخر المبعوثين واسمهُ كالكي أو كلكين، فيهبط على فرس أبيض شاهراً سيفهُ الفضي من أجل استئصال جذور الشر والظلم، وفرض العدالة والفضيلة. إذْ يشير الحصان الأبيض لمظهر القدرة والشمولية (بما للخيول من قدرات واحتواء اللون الأبيض لسائر الألوان). ثم يسحق الموت (Yama) ويتغلّب على سائر القوى المخالفة لهُ. ويتمتع (الكالكي) أيضاً بسمة «ربانية» فهو رجل رباني له اتصال بالجهة اللامتناهية[(١)].

وقد وردت أوصاف الكالكي في أهم الكتب المقدسة أمثال المهابارتا (Mahabharata) والبورانات (Purânas). أما المهابارتا فيعود تاريخها إلى ٢٠٠ قرن قبل الميلاد وحتى ٢٠٠ من الميلاد. وتعود البورانات إلى القرن السادس والسابع من الميلاد.

يتمتّع الكالكي بمكانة رفيعة في تعاليم ومعتقدات الهندوس. فالتصاوير والتماثيل المُجسمة له تملأ واجهات المظاهر عندهم حيث يصورونهُ في هيئة رجل ذي هيبة يرتقي فرسهُ الأبيض بسيف مسلول (وفي بعض الأحيان بسيف مُزدوج!)[(٢)]. وقد ذكرتهُ بورانة الويشنو على أنه ابن لوثن اسمهُ (وَيشنويَشن)؛ وفي البهغوَته أن حُكمهُ سيعم العالم، وأن رسالتهُ هي إحياء «الدرمة» قانون الحقيقة والعدالة.

تأسيساً على ذلك، يكون الموعود الهندوسي موعوداً «شخصياً» بصفة «ربانية»، وبلحاظ أدائه يكون مصلحاً «ومنجياً اجتماعياً» ذا رسالة «معنوية- اجتماعية». وبهذه المواصفات تكون قد تحققت مشابهة واسعة

---

(١) kalkiin: The Bider Encyclopedia of Eastern philosophy and Religion, Bider Books, also poblished by Shambhala.

(٢) راجع: Websters Enoyclopedia of world Religions, P.62_ Merriam

مع الموعود الإسلامي المهدي المنتظر عليه السلام. فلا يقتصر موعود الهندوس على «قومية» ما وعلى الرغم من الميولات العرفية في دينهم. إلاّ أن سمة «الشمولية» بقيت واضحة في ملامح موعودهم. ويمكن اعتباره «ناظراً للماضي» بما يصبو من أهداف وإرجاع السرور والبهجة لهذا العالم وعودة العصور الذهبية إليه.

إنّ ارسال «أُوتارة» عاشر سلالة الويشنو، هو بمثابة آخر مرحلة لعجلة العالم الزمانية ختماً لمسير الخليقة المستدير. ومن هنا تنشأ مدخلية فرض «دور كوني» ملموس لهذا الموعود.

في التعاليم البوذية

تتلخص فكرة المُنجي الموعود في تعاليم البوذيين في مفهوم الميترية (Maitreya). ويعني بإحدى اللهجات الهندية «الرحيم» والعطوف. وعندهم هو البوذا الخامس[1] والأخير على وجه هذه الأرض، وأنهُ لم يظهر بعد، وسيأتي لاحقاً لخلاص الجميع. يصوّره البوذيون على هيئة

---

(١) تُصنف إلهيات المهيانة من البوذيين المراحل الربانية إلى أربع مراحل. يتصدرها «البوذا المطلق» بحيثيتين شخصية وغير شخصية ويطلق عليه (Daymakaya). ويوجد في المرحلة الثانية خمسة بوذيين نموذجيين لهم تجليات صفات البوذا المطلقة. ويشير مفهوم (Sambhogakaya) في إلهيات المهيانة إلى هذه الوجودات الميتافيزيقية. بعد ذلك مرحلة بوذيي التربة أو (narmanakaya) وينتمي كل واحد منهم ـ بشكل من الأشكال ـ للنخبة من البوذيين. وهؤلاء ظهروا أو يظهرون بالتعاقب على وجه البسيطة. فشاكيموني (Shakayamuni) المعروف بغوتمة البوذيين هو رابع هؤلاء ثم يليه (ميترية). ثم يأتي في أسفل السلسلة أفراد (Bodhisattara) المميزون الذين يدخرون قواهم لنجاة جميع الموجودات. (راجع: هانس ولفكَانكَ ـ شومان، آيين بودا، ترجمة، باشايي، ص ١٢١).

رجل يهم بالنهوض إشعاراً بجاهزيته للظهور! وقد تناول مذهب المهيانة تفاصيل شخصية الميترية أكثر من المذهب الثاني في البوذية. وإن كان له وجود ملحوظ عند فرقة تيرة وادة (هينة يانة) أيضاً[1].

كذلك ورد ذكرهُ في كتاب (Maharastu) باسم (Ajita) أي «ابن الشمس»[2] نقلاً عن نصوص طريقة (مهاسنجيكة) في تعاليم بوذيي هينة يانة. أما تعاليم بوذا (التبت) فقد تناولت الموضوع بشكل أكثر توسعاً.

أما بالنسبة لحياته المتوقعة، ومصيره كآخر مصاديق البوذا، فثمة تضارب في القضية. فلم يُعر «مركز بالي» - وهو أهم مصادرنا عن التعاليم الأُولى للبوذية ـ أهمية للميترية؛ ولم يرد ذكره سوى في مقطوعة واحدة من هذه المجموعة في (تشكة وتّي سيهة نادة). أما في المصادر غير الرسمية (غير المقدسة)، فقد اختص مصدران منها بذلك الموضوع.

لقد ذكر التسلسل التأريخي لظهور الميترية مفصلاً في كتاب (Mahavansa) الذي يتناول تاريخ (سيرلانكا): فبعد وصول (شاكية موني) إلى (النيروانة الكبرى) يأخذ العالم بانحطاطه الكوني والاجتماعي، وتأفل شمس تعاليم البوذا بعد خمسة آلاف عام، ويتراجع مدى أعمار البشر إلى عشر سنوات. عند ذلك تسير عجلة الزمن عكساً: فتنقلب الحياة وتتحول، كي يصل معدل الأعمار إلى ثمانين عاماً، حينها تتوفر الأرضية المناسبة لنشر تعاليم البوذا، ويظهر المرشد «Cakravartin» آنذاك. فيجلب للناس الراحة والرفاهية ويُروِّج لتعاليم البوذا. وبعد

---

(١) Maitreya in: The Bider Encyclopedia Eastern Pilosphy and Religion.

(٢) Maitreya in: Micea Eliade, The Encyclopedia of Religion,

تحقق هذه الأجواء المثالية يهبط ميترية من سماء (Jushita) مُتمماً لدينه، فيلقن «الدرمة» للعلماء.

(Mahakashyapa) أيضاً يظهر بعد غيبته التي أعقبت عصر معلمه (النيروانة الكبرى) ويعتبر من أبرز دعاة البوذا، فيعود في حضرته للاستماع لتعاليمه المصدقة [١]. ولا يزال الاعتقاد بظهور الميترية في نهاية كل قرن موجوداً في المناطق التي يدين أهلها للبوذية في الجنوب والجنوب الشرقي من قارة آسيا. ويذهب سكان شمال «بورما» إلى الاعتقاد بأنّ بودائو (Bodaw) من زعماء الدين المعاصرين كان حاكماً عالمياً وهو البوذا المؤمل ظهوره، أي الميترية. وقد كثرت ادعاءات البوذيين في آسيا بذلك تجاه زعمائهم الدينيين وقادة التيارات الاجتماعية [٢].

أما بالنسبة للمذاهب البوذية المتأخرة من المهيانة فيظهر أن مذهب (Thantric) أقل تمسكاً بقضية الميترية، وإن كان لم يهمل الموضوع كلياً. وهناك إقبال واسع للفكرة في كوريا والصين [٣].

تأسيساً على ذلك، يكون موعودُ البوذيين مصلحاً «فردياً» بعيداً في الأصل ـ في أقل تقدير ـ عن الأهداف الاجتماعية. من هنا يمكن اعتبار نجاة هذا الموعود في شاقول النجاة «المعنوية» خاصة. فهو مصلح شخصي بمميزات «بشرية - ربانية»، وربما يمكن وصف رسالته

---

(١) طرحت مسألة «الرجعة» بأشكال مختلفة في بعض الأديان أمثال المسيحية، والإسلام، والزرادشتية، والبوذية، الأمر الذي يبقى بحاجة لبحوث مستقلة تتناوله.

(٢) The Encyclopedia of religion, V.9, P.136-8

(٣) المرجع نفسه.

بـ«الشاملة» عالمياً، لانعدام مؤشرات اختصاصها بقومٍ دون غيرهم. أما رؤية البوذيين تجاه موعودهم فهي «مستقبلية» لا تستبعد تجدد الخليقة مع شيوع تعاليم الماضين، ولا تقتصر فكرة الموعود في تعاليم البوذيين على نهاية العالم، لذا فالموعود هنا لا يكون خاصاً بـ «النهاية العالمية» وبالإمكان نسبته إلى مصاديق «فكرة الألفية» بمعناها العام. بقي القول في «الدور الكوني» حيث يصعب التماس ذلك لموعود البوذا، وإن صعب العكس في خصوص (ميترية) بصفته آخر مرشدٍ تاريخي لدينٍ شرقي.

تعاليم زرادشت والزرادشتيين(١)

يرتبط الحديث عن الموعود المنجي في التعاليم الزرادشتية بشكل مباشر بالسوشيانت (Saoshiant)(٢). وهو مأخوذ من سو (su) بمعنى النافع. حيث يتضمن ـ بمفهومه العام ـ إشارة لأولئك الذين يظهرون تباعاً في رأس كل ثلاثة آلاف سنة، كي يطهروا العالم من الأرجاس ويعمروه من جديد، وأبرزهم آخرهم. إلاّ أن هذه الفكرة لا تخلو من تكلف وصعوبة. لذا لا بد من تتبع مسار التحول والتطور لفكرة السوشيانت.

في البداية، ورد سوشيانت في الأوستا بصفة مفردة أطلقها على نفسه زرادشت؛ وذلك في مناجاته لمزدا(٣) طالباً منه أن يخبر السوشيانت

---

(١) تشير الدراسات الحديثة حول الدين الزرادشتي إلى ضرورة الفصل بين ما ينسب إلى أشو زرادشت شخصياً وبين ما طرأ من تحول وتغيّر في التعاليم بعد ذلك. من هنا أثبتنا عنوانين أعلاه.

(٢) للمفردة لغات متعددة في المعاجم الزرادشتية واللهجات الفارسية.

(٣) مزدا، هو إله الخير عند زرادشت. [المترجم]

بمصيره (بعد وصف نفسه بها). كذلك وردت المفردة في نصوص الأُوستا بصيغة الجمع متضمنة إشارات عن المستقبل.

ورد مثلاً في إحدى دعواته من الأُوستا جزء ٣٤، العهد ١٣ قوله «لقد هديتني أيها الأهورا سبيل اكتساب السوشيانت بجميع أشكالها، من خير شاملٍ للصدق والسرور»[١]، فهنا وفي سائر النصوص الأُخرى ينطبق مفهوم السوشيانت على كل من يعمل بالخير من المصلحين الماضين والقادمين. أما المتأخر من الكتب الزرادشتية، فقد بدأت تظهر تمتمات عن سوشيانتيين في المستقبل لم يولدوا بعد، هم مجددوا هذا العالم. وقد تضمنت نصوص (يشت)[٢] فقرات عن (أستروت آرت) واثنين آخرين يسبقانهُ بالظهور مضافاً لتفضيل أصحابه[٣]. وفي بعض الفقرات تلميح بعالمية رسالة سوشيانت: «ولذلك، سيعم خير سوشيانت ربوع العالم»[٤]. ووصف في (ونديداد) بالمنتصر بعد ذكر محل ولادته فقال: «حتى يظهر سوشيانت الناصر ويولد في مشرق الأرض». وذكرت في موضع آخر أسماء اُمهات السوشيانتات الثلاثة[٥].

وأخيراً تخبر مجاميع اليشت ذاتها بمجيء أستروت آرت أو سوشيانت الناصر مع الأبطال الأُسطوريين أمثال فريدون، أفراسياب، وكيخسرو[٦].

---

(١) گانها، سرودهاي زرشت: ترجمة موبد فيروز آذر كشسب، منشورات فروهر.

(٢) (يشت) أحد أجزاء كتاب الأُوستا. [المترجم]

(٣) فروردين يشت، فقرة. ١١و ١١٧و ١٢٨و ١٢٩.

(٤) فروردين يشت، فقرة ١٢٩.

(٥) فروردين يشت، فقرة ١٤٢، ١٤٣.

(٦) يمكن اعتبار هذه المضامين في مدخلية قراءة مفهوم «الرجعة» في تعاليم زرادشت.

أيضاً افترضت له ـ بشكل أو بآخر ـ دور المُنجي ومجَّدت أصحابه. وفي المصدر نفسه يُوجد تبشير بانتصار الخير على الشر، والصدق على الكذب، والقضاء على الجوع والظمأ على يد خرداد وأمرداد، وهزيمة الأهريمن (الشيطان) وأعوانه.

تنبع فكرة المنجي الموعود لدى الزرادشتيين من هكذا مصادر، فتفرعت وأصبحت لها فروع عديدة. وهناك دمج لدى المتأخرين في دساتير الزرادشتيين بين هذه الفكرة ومباحث الآخرة، بحيث يصادف ظهور المنجي مع أحداث يوم القيامة والحساب، وكأنّ القيامة واقعة في ذلك الزمان وعلى هذه الأرض بالتحديد، فتتضمن الرواية حينها التجديد في العالم[١]. في جانب آخر أجد تناسباً بين تعدد المنجي من واحد إلى ثلاثة، ونهاية عجلة الزمان في فكرة نماذج السوشيانت. فربطوا بين مجريات يوم البعث وزمن ودور سوشيانت. ويعرج كتاب (بندهش). وهو من نصوص الزرادشتيين المتأخرة بعد ذكر وضع المجتمع السائد عند ظهور السوشيانت فيقول: «وبعد ذلك يبعث سوشيانت الأموات من جديد...»[٢]، ثم يفصِّل القول في مسائل يوم الحساب.

تأسيساً على ذلك، تكون فكرة المنجي الموعود في الدين الزرادشتي من مجموعة «المنجي العام»، حيث إنها تذكر له وقوفه بوجه الزيف والكذب واعداً الجميع بالخلاص الكلي، خلافاً لما كان عليه

---

(١) راجع في ذلك: دينكرد وأيضاً بندهش (من نصوص زرادشتي القرن الثالث الهجري).

(٢) وجد هذا المضمون في كتاب سوشيانت أو آراء الإيرانيين في موعود آخر الزمان، ص١٠٩. حيث يتتبع السيد علي أصغر مصطفوي في هذا المصدر المواضيع المرتبطة بالمنجي الموعود في الدين الزرادشتي من خلال الكتب المقدسة عند الزرادشتيين.

موعود البوذيين من المهيانة المنجي لكل من ينال مقام البوذية في كل عصر وفي النهاية.

وعلى صعيد المنجي الشامل، ليس هو من صنف النجاة «الاجتماعية» فقط، فهو لا يهمل الجانب المعنوي لدى الناس. إلاّ أنه يتحقق بشكل أكبر في المجال الأخلاقي مما يصب في رفاه وأمان المجتمع. وفي نظرة أخرى، تعتبر فكرة الموعود الزرادشتي «عالمية» وليست «مختصة بقوم ما»، حالها في ذلك كما بالنسبة للموعود الإسلامي، والهندوسي، والبوذي، والمسيحي. وليس ثمة تضاد بين ظهور سوشيانت من إيران من صميم الزرادشت وبين شمولية رسالته. كذلك يصعب اتخاذ محورية إيران في فكرة موعود الزرادشتيين دليلاً على خصوصية القومية؛ ذلك لأن بياناتهم مليئة بعبارات من قبيل: «ستتّحد سجايا سكان الأرض ومنطقهم في القول والفعل»(١).

لعله يمكننا القول بأنَّ المُنجي في التعاليم الزرادشتية «ناظر للماضي» وإحياء الحقبة النيرة من الماضي، أي الألفيات الثلاث الأُولى للتاريخ، حيث حكم «أورمزد» بعيداً عن تدخل «أهرمن» في سلطنته(٢).

وقد يُقال: بما أن موعود الزرادشتيين يظهر في آخر ثلاث ألفيات العالم، ونظراً لعقيدتهم التي تذهب للقول بظهور موعودٍ في نهاية كل ألفية، إذن فلا بد من تصنيف رؤيتهم للمسألة في عداد الموعود «المُستقبلي» و«المقطعي» (من فئة مرتقبي الألفية)، كذلك ونظراً لأهمية

---

(١) جاما سب نامه، من نصوص الزرادشتيين الدينية، نقلاً عن كتاب سوشيانت أو آراء الإيرانيين في موعود آخر الزمان ص١٧٠.

(٢) راجع: دوشن غيمن، دين إيران باستان، ترجمة رؤيا منجم، ص٣٨٢.

الجانب الأخير يتحتم جعلهُ في شاقول موعود «آخر الزمان»، لكن إذا اعتبرنا «نظرتهُ المستقبلية» بأنها تعني البشرى بتحولات جديدة دون ما وقع ماضياً من أساطير، أو على الأقل مكملةً للتعاليم والحقائق المتداولة في الماضي أو تفسيراً أعمق لها، وليس الأمر كذلك.

في المحطة الأخيرة نجد موعود زرادشت موعوداً «شخصياً» كما المسيح عند المسيحيين وميترية عند البوذيين من المهيانة، فاقداً للجانب الرباني، بل هو مجرد بشر من قبيل الأسطورة، تلك التي تخرج من صلب زرادشت وكمعجزة نادرة تحل في رحم الأُم الباكر بعد مرور ثلاثة قرون. ثم يظهر ليحارب وينتصر.

وإن كانت هذه هي المحطة الأخيرة، إلاّ أنهُ لا بد من إضافة شيء أخير هنا وهو أن موعود زرادشت من جملة أُولئك الذين لهم «الدور الكوني»، فارتباطهُ بنهاية العالم خير دليلٍ على ذلك. وتلاحظ فيه أيضاً سمة وميزة أُخرى هي كونهُ حلقة وصلٍ بين حوادث العالم الأخيرة ومجرياته الطليعية في البدايات الأُولى. وكأنهُ بعث وحساب وصراط وجنة أو جحيم على سطح هذا الكوكب تحديداً.

تعاليم كونفشيوس

أطلق كونفشيوس شعار العودة إلى عصر الحكمة ـ فاتخذ الملوك القدماء[١] رموزاً في حركته الإصلاحية ـ فكان هدفهُ الأصلي هو إقامة

(١) (شانغ فانغ) أو الملوك الحكماء عند الصينيين وهم خمسة حكموا الصين قديماً، فجمعوا بين السلطنة والحكمة والرشاد. (جوجاي ووينبرغ، تاريخ فلسفة صين، ترجمة ع. باشائي، ص٩).

دولة كمملكتهم العسكرية طبقاً للقانون والحكمة. وكان يفكر بما يسميه «انسجاماً واسعاً» (دادونغ)[1]، فظاهراً كان يعتقد بوجود توافق في سالف الأزمان بين السماء والأرض وسائر الأشياء وإنه من الممكن توقع حصوله مرة أُخرى. وفي كتاب لي جي (كتاب التعاليم) في فصل ليون (ازدهار التعاليم)، هناك إشارات لأحوال ذلك الزمن المنسجم الهادئ.

عندما كان يحضّر لدائوذي (الطريق) الواسع، كانت هنالك روح تنشر السعادة حول العالم، وثمة رجال من الصفوة يتسلمون مناصبهم الرسمية... فهذا هو عصر التلاحم والانسجام الشامل[2].

لكن، هل وعد كونفشيوس بمجيء هكذ عصور حكيمة أم أنه كان مهتماً بأهوائه خاصة؟ فنحن لم نطلع على هذا الوعد ولا دليل لنا عليه. إلاّ أننا كما نعلم فإن تعاليم كونفشيوس قد شكلت مثلثاً مع الدائو والبوذا في حيات الشعب الصيني حتى يومنا هذا ـ وإن لم يكن الأول ديناً كاملاً ـ وقد أدى التداخل المفرط بين الأديان الثلاثة إلى صعوبة تمييز أتباع كل واحد منها؛ ولهذا لا توجد أرقام دقيقة لأفراد كل واحد من هذه الأديان بشكل واضح[3]. إن لكل واحد منها دوراً في المجال الديني ـ الثقافي في جوهر تركيبة الصينيين. لذا لو أردنا تتبع جذور انتظار المنجي الموعود في الصين فلن يختص ذلك بمذهب دون آخر، ولا شك أن ميترية البوذيين أو لي هونغ الدائو[4] لن يقتصرا في الفكرة على أتباعهم خاصة.

---

(١) Da Dong

(٢) لي جي، الكتاب الرابع، الفصل التاسع (نقلاً عن تاريخ فلسفة الصين، ص٤٤).

(٣) A New Handbook og living Religions; John R. Hinnells; P.370.

(٤) راجع: موضوع تعاليم الدائو والبوذا في هذا المقال.

ومع هكذا تداخل ثقافي ديني يصبح كل موعود نجماً ينير جمهور الصينيين كافة على تنوع أفكارهم الدينية؛ ليمنحهم الأمل في حلول الزمن السعيد. إذن لو كان الجواب على وجود المنجي الموعود في تعاليم كونفشيوس نفياً، فلن يكون ذلك منطبقاً على أصل الاعتقاد بالفكرة لدى الصينيين ومن جملتهم أتباع الفكر الكونفشيوسي.

من هنا استشكل تحديد فكرة كونفشيوس في المنجي الموعود، نظراً للتداخل الديني والفكري، وقد لا توجد جدوى من ذلك إطلاقاً. لذا سنؤجل ذلك ريثما ننتهي من البحث في تعاليم الدائو.

تعاليم الدائو

لعبت تعاليم الدائو دوراً كبيراً في محيط الثقافة الدينية لدى المجتمع الصيني إلى جانب تعاليم كونفشيوس وغيرها من التعاليم الأُخرى. فإن كان كونفشيوس متكفلاً ببيان فلسفة السياسة والأخلاق الاجتماعية عند الصينيين، فإن دائو مختصٌ بالإلهيات والعرفانيات عندهم. إلاّ أن المؤشرات حول الاعتقاد بالمنجي الموعود كانت أبلغ مما هي عليه في كونفشيوس.

أما مؤسس دائو فهو (لائو دزو)[1] [القرن السادس قبل الميلاد]، وتوحي تحولاتهُ[2] بأنهُ يصف نفسه بالقائد المُنجي[3]، وهذا بعينه دليل على توفر الأرضية اللازمة للاعتقاد بالمنجي في الفكر الصيني. وإن كان

---

(١) Lao Tzu، أو لائوزة Laozi؛ راجع: ع. باشائي، دائو راهي براي تفكر، ص١٣.

(٢) The Transformations Lao Tzu.

(٣) Mircea Eliade, The Encyclopedia of religion ,V.14, P.310, 320

فرض ظهور المنجي في مقطعٍ ما من التاريخ لا يعني فرض فكرة «الموعود»، فقد يحتمل الظهور دون انتظاره أو انتظار مُنجي آخر غيره، ولعل رئيس الفرقة يعتبر نفسه منجياً لأتباعه، لكنهُ لا يقطع وعداً بمجيء المصلح أو الاعتراف بـ «الرجعة». ولا تتوقف حدود فكرة الاعتقاد بالمنجي في تعاليم دائو إلى هنا وحسب.

ووفقاً لنصوص 'Shang-Ching hou-Sheng Tao chun Ligh-chi' (سيرة قديس آخر الزمان وربُّ الطريقة)، تأليف شانغ تشينغ فإن لي هونغ[١] سيظهر في سنة جين ـ تشين[٢] أي السنة التاسعة والعشرين من مجموع الستمئة سنة والتي يحتمل أن تكون (٣٩٢)؛ ليقيم عالماً جديداً تنعم فيه صفوة «قديس آخر الزمان»[٣].

وإذا أصبنا في فهم ذلك، فلا شك أن «قديس آخر الزمان» هو مصداق واضح للتبشير بمجيء شخص متكامل ومكمل متصف بالكمال المعنوي والسياسي والاجتماعي.

ثم اكتسبت فكرة الاعتقاد بالموعود أبعاداً أوسع في تعاليم دائو. ففي عصر تانج[٤] (٦١٨ - ٩٠٥م) أخذت تشق طريقها إلى جانب الرهبانية[٥]. وقد كان للاعتقاد بالمنجي ومبدأ الحكم والسلطان ـ اللذين اجتمعا في كثير من الأحيان ـ ميزة سياسية، لكن ليس لتيار سياسيٍ أن

---

(١) Li Hung.

(٢) Jen-Chen.

(٣) The Encyclopedia of Religion, V 14.

(٤) Tang.

(٥) The Encyclopedia Of Religion, V.14, P. 310 .

يتشكل دون جذور أيدلوجية محكمة.

وهناك دليل آخر على وجود أصل الاعتقاد بالمنجي لدى أتباع الدائو، وهو ظاهرة الأنبياء المزيفين والمصلحين على مر تاريخ الدائو. وقد أثبت إلياذة في دائرة المعارف الدينية نصاً أُشير فيه لحكايات هؤلاء الذين ادعوا النبوة والإصلاح[1]. وكل هذه شواهد على وجود حقيقة راسخة لمبدأ الاعتقاد بالمصلح الموعود لدى الصينيين.

أما الآن، فإذا أردنا تحديد نمطية المُنجي الموعود لدى شعوب الصين وفقاً للمذاهب الثلاثة السائدة في مجتمعهم فلا بد أن نقول: بأن الموعود عند الصينيين هو «المُنجي الشامل» الذي يبشر ويعد بتكامل اجتماعي ومعنوي في آن واحد. ولا يمكن وصفهُ بـ «القومية» لشمولية و «عالمية» رسالته. ويبقى «ناظراً للماضي» من العصر الذهبي متأثراً باتجاهات كونفشيوس. حيث إن شعارهُ ـ كما ذكرنا ـ هو الرجوع إلى عصر الحكمة لملوك الزمن الغابر، أي عندما كان الناس على وئام وتوافق مع الحكومة والعالم وكذلك مع الدائو. وهذا بلا شك وعد يتحقق في المستقبل إلاّ أن نموذجيته مقتبسه من السلف، لذا يبقى شعاراً يطالب بعودة ذلك النموذج، فهو في صنف الموعود «الناظر للماضي».

بقي أن نذكر بأن لموعود الدائو ماهية «فردية» شخصية. فلي هونغ يأتي من أجل إقامة حكومة «قديس آخر الزمان»، فإذا كان موعود الصينيين لي هونغ المنسوب للدائو أو ميترية البوذا الأمر الذي تقضي به

---

(١) Lao-Chun gin-sung Chieh-ching in:The Encyclopedia Of Religion,V.14.

الثقافة الدينية هناك، إذن تعين تصنيفهُ في عداد الموعود «الشخصي» والفردي.

تنويه

اليابان، كذلك لها حالة متشابهة في ديانتها المتعددة الأطراف. حيث يوجد تداخل بين دين شينتو وتعاليم البوذا ممّا خلقا تأثيرات واسعة في أذهان الناس من وعد ووعيد أو بشرى. ولا غرابة في ظهور مذاهب الاعتقاد بالمنجي المصلح من صميم السنن العامة في تلك البقاع. في القرون المتأخرة أيضاً شهدت اليابان ظهور مذاهب أُخرى في مجال المصلح الموعود، نظراً لاتصالها الثقافي والاقتصادي بالغرب الأمر الذي قلل من شوكة وتلاحم اليابانيين. ومن أبرز تلك المذاهب هي: (كوروزو ميكو)[١]، ومؤسسهُ يدعى (كاواتا بوخيرو)[٢] (١٨١٤ ـ ١٨٨٣م)، كذلك حركة (تنريكو)[٣] التي رفع لواءها (ناكا ياما ميكي)[٤] (١٨٨٧-١٨٩٨م)[٥].

اليونان القديمة

تحدثت ثقافة وأفكار اليونان القديمة عن الأمن والسلام إبّان الحروب، وبشرت بدولة عالمية بقيادة رجلٍ يأتي ليحكم البشر كافة. فقد

---

(١) Kurozumiko.

(٢) Kawate Bunjiro.

(٣) Tenrikyo.

(٤) Nakayama miki.

(٥) The Encyclopedia of Religion.

تنبّأت رسل اليونان بين ١٦٥ وحتى ١٦٨، قبل الميلاد[١] بحكومة «الأُمراء المقدسين» التي قدروا لها أن تسود جميع العالم. وفي مناسبة أُخرى بشروا بظهور ملك في الشرق يملأ الأرض بالأمن والسلام[٢].

وليست هنالك معلومات مؤكدة عن مدى تعاطف اليونانيين مع هذه النبوءة، وما هو حجم تأثيرها في حياتهم الاجتماعية، والجانب الروحي، إلاّ أن ثبوت النبوءة وشيوعها بتلك الأطر، يعتبر دليلاً على وجود أرضية مساعدة لتقبل تلك الفكرة.

لقد تضمن هذا النمط من الموعود مصلحاً مستقبلياً للبشر برسالة «اجتماعية»، «شاملة» ولعلها «مستقبلية» أيضاً. كذلك يلمح فيه سماتاً «فردية» شخصية مع قداسة معنوية. لكن هل لهُ «دور كوني» وارتباط بـ«نهاية العالم» أم لا؟ فهذا ما بقي في بقعة الإبهام.

ديانات الهنود الحمر

لعل قصر تاريخ تعرّفنا على مجتمع الهنود الحمر كان سبباً في قلة الاطلاع على أفكارهم فيما يخص مستقبل البشر وانتظاراتهم قياساً بالملل الأخرى، وقد لا يتجاوز المحصول عمّا ترشح عن بعض القرون المتأخرة. وقد كان لفكرة الموعود عند الهنود الحمر في مركز أمريكا وجنوبها آنذاك اتصال مباشر بالغزو العسكري والثقافي من قبل المسيحية الغربية لهم. وترتكز الفكرة على تكوين صورة مشعة في المخيلة للمملكة المقتدرة والمزدهرة في الأزمنة السابقة. لقد تجلّتْ أُطروحة الموعود في

(١) The Greek Sibulline Oracles.

(٢) Kalkin in: A Dictionary of Hinduism; Margaret and James Stutley.

تلك المجتمعات ضمن أُطر حركات التحرر الوطنية.

بعد انتصار أسبانيا بثلاثة عشر عاماً ظهرت حركة (تاكوي أنكوي)[١] الوطنية بهدف إخراج البيض، وإرجاع حكم (إينكا)[٢] السابق. وقد تركز مسار الحركة على عبادة الـ «هواكاس»[٣] خشية استفحال العبادة المسيحية على عبادة الشمس. من مميزات هذه الحركة تأكيدها على نوعٍ من التزكية السحرية، بغية نيل الهدف أو الأهداف المنشودة. وكانوا يعتبرون القرابين والهدايا المقدمة لهواكاس بأنها تسعفهُ بالقدوم أو استرجاع النظم السابقة. ومع أن حركة تاكوي أنكوي لم تدم سوى عشر سنوات قبل انحطاطها، إلاّ أنها منحت النفوس جذوة متقدة في الأمل من عودة الحكم السابق، وإن كانت هذه الأفكار في البيرو وبوليفيا تقتصر على المثقفين من المستوى المتوسط فقط.

أما في جديد أدب الهنود الحمر فنحن أمام صورة أُخرى للموعود تدعى (إينكاري)[٤]، حيث يصورونهُ كـ «ابن للشمس»، و«امرأة متوحشة» بأُسطورية ورمزية خاصة. لكنه ليس إلهاً للهنود الحمر، إنما هو بقايا من ذكرى المملكة القديمة، تلك التي تظهر بعد طول الانتظار لتسترجع ما سلب من حقوقهم[٥].

---

(١) Taqui oncoy.

(٢) Huacas.

(٣) Inca.

(٤) In karri.

(٥) The Encyclopedia Of Religion, V.13, P.471.
يمكن تسليط الضوء على هذه المفردة على أنها مصداقاً لفكرة «الرجعة» في الأديان والثقافات.

إن نمط الموعود الذي ينتظرهُ الهنود الحمر في القرون الأخيرة هو من قبيل «الخلاص الجماعي» و«الاجتماعي» المجرد، وبما أنهُ يطمح لاسترجاع حقوق قومه خاصة فهو أيضاً موعود «قومي». ونظراً لمبادئه في إحياء الممالك القديمة المنظمة حسب نظام «إينكا». إذن فهو من مجموعة «الناظرين للماضي» من العهود المنصرمة. وقد كان لأشكال الموعود المذكورة هنا وجودات «فردية» شخصية، تارة بسيماء «ربانية» وأُخرى إنسانية «أُسطورية». أما «الدور الكوني» الخاص فهو غير ملموس في المقام.

الديانات الإفريقية

تعود البيانات المتوفرة فيما يخص الاعتقاد بالموعود لدى الأديان الإفريقية لـ «المسيحية»[١] السائدة هناك في القرن أو القرنين المنصرمين. وقد تبلورت الحركات والتيارات الجديدة بصور «المسيح الجديد». ففي جنوب زيمبابوي كان أبرز اثنين هما: ماي كازا[٢] وجون باستيت وهو نفس «شونيو» ويعرف أيضاً باسم «جون ماسوو»[٣]. والأبرز في جنوب إفريقيا هو عيساية.

لقد اشتملت بعض تلك الحركات ومنها ماسوو على جانب «النبوة» وبصورة مسيحية أحياناً، بمعنى حلول موعد قطعةُ الماضون ببشرى مجيء الرجل المسيح. كذلك يمكن درك البُعد «الألفي» في هذه التيارات

---

(١) Messianism.

(٢) Maichaza.

(٣) Johan Masowe.

وتداعياتها. ثم إنّ غالبية تلك الحركات كانت تبشر بعصر الحرية والتمتع في الحياة[1].

وأخير، يظهر من موعود هذه التيارات أنهُ يغلب عليه طابع «النجاة الاجتماعية» و«القومية» ضمن ما يتبلور من شخصية «مسيحية»، تلك التي تظهر من أجل مستقبل أفضل لشعبها.

كلمة أخيرة

يحظى الموعود الإسلامي وخصوصاً الإمامي الإثنى عشري بمميزات خاصة ومكانة بارزة. ثمّ إن اتساع رقعة البحث في ذلك وتشعباته، نظراً لتعدد المذاهب الإسلامية، يتطلب بحوثاً مستقلة لا سيما في المصادر الشيعية. من هنا قررنا تناول هذا الموضوع في مقالات لاحقة ومستقلة.

❊ ❊ ❊

(١) The Encyclopedia Of Religion , V.1.

نظرية المهدوية في الديانات
مقاربة علمية

القسم الثاني

أ. على موحديان عطار
ترجمة: محمد عبد الرزاق

تناولنا في عدد سابق من هذه المجلة[1]. أشكال ومصاديق الاعتقاد بالمصلح الموعود لدى سائر الديانات، باستثناء الدين الإسلامي واعدين بالتطرق لموضوعه في مقال مستقل نظراً لأهمية الموضوع واتساع رقعة البحث فيه، وها نحن نفي بوعدنا.

وكان الهدف من وراء ذلك هو استبدال الانطباعات الساذجة والمزعومة أحياناً عن المصلح الموعود، وما لحقها من إهمال وتقاعس لوجهات الرأي لدى سائر الديانات ـ سلباً وإيجاباً ـ بنظرة واقعية ثابتة. وقد دار البحث حول محورين: الأول هو رصد نماذج عامة لعقيدة المصلح، والثاني تحليل مقتضب لفكرة المصلح الموعود في بعضٍ من الأديان والثقافات البارزة مع تحديد مميزات وخصائص النجاة والمنجي

---

(١) مجلة هفت آسمان، العدد ١٢ و١٣، ص ١٠٧ - ١٣٠.

في الديانات، وهو ما سنقوم به هنا بخصوص الدين الإسلامي.

لو أردنا تحليل فكرة المصلح الموعود كما بالنسبة للأديان المماثلة للإسلام في اشتمالها على مذاهب متعددة، سيكون أمامنا خيارين: أحدهما أن ندرس المسألة من خلال القواسم المشتركة في المصادر الدينية، من قبيل: القرآن، والأحاديث النبوية. والآخر أن ندرسها مستقلة في كل مذهب من المذاهب. ونظراً لكون الخيارين مكملاً لبعضهما الآخر، وما لأهمية عقيدة المصلح في الإسلام، لذا قررنا هنا أن نخوض في كلا المجالين بشيء من الإجمال. وقبل كل شيء لا بدّ لنا من التطرق للانعكاسات الأولية لفكرة الموعود المصلح في التاريخ السياسي ـ الاجتماعي للإسلام رصداً لمستوى أهميتها.

مصادر فكرة المصلح الموعود في القرآن والسنة

تحدثت بعض الآيات عن مواضيع من قبيل: لابدّية إتمام النور الإلهي[١]، والوعد باستخلاف المؤمنين للأرض بعد أن يمكن الله لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً[٢]، أو أن الأرض يرثها العباد الصالحون[٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٢).

(٢) قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور: ٥٥)، وقال أيضاً: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ (سورة القصص: ٥ ـ ٦).

(٣) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥).

وكان البعض من الآيات تُساق للدلالة على أساس الفكرة من خلال توجيهها عن طريق الروايات والتفاسير الكلامية أو مصادر الحُجج المذهبية[1]. أو البعض الآخر فدلالته تكون أكثر استقلالية على ضرورة تحقق ذلك الأمر، وإن سكت عن التفاصيل كماً وكيفاً، وأهم من ذلك أنها لم تُشر بشكل واضح للمصلح الإسلامي بأن يكون المهدي الموعود ﷻ.

على أي حال، يمكن اتخاذ الآيات الثلاث هذه منشأ قرآنياً لعقيدة المسلمين بالموعود:

١- ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

٢- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ... ﴾ (النور: ٥٥).

٣- ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ. ﴾ (القصص: ٥ و٦).

---

(١) مرادنا من (مصادر الحُجج المذهبية) الدينية، هو الحجج الشرعية الخاصة التي تحظى بحيثيات مميزة لدى البعض من المذاهب، كروايات أئمة الشيعة ﷺ عند أتباعهم. للاطّلاع على تلك الروايات راجع: المحجة فيما نزل في القائم الحجة، السيد هاشم الحسيني البحراني؛ كذلك راجع: مهدويت أز نظر قرآن وعترت، مرداني (المهدوية في القرآن وأحاديث العترة).

ومع أن هذه الآيات تحتاج في فهمها لتفاسير وبحوث عديدة، وأن الدور الأساسي في إثبات أصل المهدوية عائدٌ للأخبار والروايات، إلاّ أنه لا يمكن تهميش الدور التأسيسي لتلك الآيات في بلورة الفكرة وأُسسها النظرية(١).

وتُعزز مصداقية ذلك في شمولية اعتقاد المسلمين بالمصلح في شتَّى المذاهب، وأيضاً في تمسكهم بالآيات لتبيين الجانب الكلامي لفكرة المهدوية.

فبعيداً عن اختلاف الرأي في التفسير، وسبب النزول، والمصاديق التاريخية للآيات، يبقى القدر المتيقن من فحوى الآيات هو تأكيدها على سُنة ووعد إلهي باستخلاف الصالحين من عباده للأرض، وتحقيق النصر بعد الاستضعاف والخوف، ثم يمكنهم في الدين لخلق الأرضية اللازمة لحياة الموحدين.

من هذا القدر المتيقن، يمكننا استنباط مصداق للخلاص السياسي ـ الاجتماعي برفقة ظروف وأوضاع مواتية لقيام الحياة الدينية المطمئنة. وإن كان هذا المقدار بحاجة للكثير كي يرتقي لجوانب عقيدة المصلح، إلاّ أنه دليل جيد على اتساع الاعتقاد بخصوص المصلح لدى الكثير من المسلمين. بديهي أن ما تبقى من متعلقات المهدوية فهو يستنبط من الحديث النبوي ومن مصادر الحُجج الشرعية بشكل أخص.

إذا أردنا تتبع أُصول المهدوية في غير القرآن، فعلينا البحث عن

---

(١) ليست غايتنا من البحث هو تبيين علاقة الآيات بفكرة الموعود إثباتاً أو نفياً، إنما المهم هو احتساب الآيات في جملة المباني الكلامية للمهدوية عند المسلمين، الأمر الذي يظهر جلياً من خلال تمسك المسلمين بهذه العقيدة. راجع: موعود القرآن، صادق الحسيني الشيرازي، ترجمة مؤسسة الامام المهدي عليه السلام.

مصادرها في الحديث النبوي. وإذا تخيرنا منه ما كان أكثر توافقاً بين المسلمين، ستكون أكثر مصداقية من مقولتنا «الاعتقاد الإسلامي بالمصلح الموعود». وتشير إحدى الدراسات[1] إلى أن مجموع الأحاديث المروية

---

(١) صدر في الآونة الأخيرة كتاب كان موضوعه الأساسي هو التحقيق في روايات رسول الله ﷺ بخصوص (المهدي الموعود) و(المهدوية). وقد تناول ٣٣٨ حديثاً عن الرسول ﷺ مع التحقيق في سندها وصحتها تمييزاً للضعيف منها والمسند والمرفوع والصريح وغيره، وهو: الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل في جزأين، وهو متوفر بعنوانين الاول: المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة وأقوال العلماء وآراء الفرق المختلفة، والثاني: الموسوعة في أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة. وقد امتاز هذا العمل بخصائص تؤهله لأن يكون مرجعاً للبحث:

أولاً: لأنه يمثل أُطروحة ماجستير للدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي في جامعة أُم القرى بمكة، سنة ١٣٩٨هـ لهذا حظيت مراحل التحقيق والتدوين والإصلاحات بإشراف علماء بارزين من الوهابية.

ونحن نعلم بأن «المهدوية» هي من معالم التشيع البارزة وخصوصاً عند المذهب الإثني عشري. ونعلم أيضاً مدى تطرف الوهابية تجاه معتقدات التشيع، وما يظهره مذهبهم من تعصب وتشدد خاصة في هكذا مواضيع، ولا سيما من قبل محافلهم العلمية ومدارسهم الدينية. من هنا تنشأ أهمية أقل اعتراف أو إذعان في كتبهم بخصوص أفكار من هذا القبيل.

ثانياً: إن هذا الكتاب هو عمل جامعي يتمتع الى حدٍّ كبير بنوع من التحقيق وإمعان النظر. وإن كان قد يخرج عن إطار ذلك أحياناً بغية إثارة النعرات الطائفية الهدامة. ولكن، تبقى استنتاجات الكتاب في المجال الروائي جديرة بالاهتمام علمياً ـ في أقل تقدير.

والخلاصة، إن هذا الكتاب اختار من بين ٣٣٨ حديثاً، ٤٦ حديثاً بدقة متناهية وتشكيك واسع، واصفاً إيّاها بالحسن أو الصحيح، واعتبر ٢٩٢ حديثاً منها ضعيفاً وموضوعاً . نعم، ذكر بأن بعض الأحاديث الضعيفة هي أحاديث منقولة بطرق صحيحة. لقد حتَّم هذا الكم من الروايات المعتبرة ـ مع تفاوت مضمونها ـ على الكاتب الوهابي الاعتراف بدرجة عالية بأصل فكرة المهدوية في السنة النبوية فسلم بها ـ على الرغم من ميولاته المذهبية كما أشار في مقدمة الكتاب.

عن الرسول ﷺ بخصوص (المهدي الموعود) هو ٣٣٨ حديثاً، وأن ٤٦ منها ـ على الأقل ـ تتوفر فيها شروط الصحة الروائية، كما يصطلح عليه علماء الحديث بالـ (صحيح) أو (الحسن).

ليس هذا الكم دليلاً على أهمية (المهدوية) في الإسلام فقط، إنما هو يصنف الإسلام في طليعة الأديان المعتقدة بالإصلاح والخلاص.

أما إذا سلّمنا ـ تنزلاً ـ بأن الستة وأربعين حديثاً هي القواسم المشتركة في القدر المتيقن بين سائر الفرق الإسلامية. إذن، حينها يمكننا اعتبار مضامين تلك الأحاديث كنقاط اشتراك في الفكر الإسلامي بما يخص المهدوية(١).

وبشكل عام إن ما جاء في تلك الروايات هو: أن اسم الموعود في آخر الزمان من إسم الرسول وإسم أبيه من إسم أبي الرسول، وهو من أهل بيت النبي ﷺ، من نسل فاطمة عليها السلام، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يقضي الله أمره في ليلة واحدة، ويعم الظلم والجور أرجاء العالم إبان ظهوره، ثم يأتي هو ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ويبايعه الناس بين الركن والمقام، مدة حكومته بين سبع إلى تسع سنين، يأتي في أخر الزمان، ولا قيامة قبله، بحيث لو بقي يوم واحد لأطال الله ذلك اليوم من أجل ظهوره وإقامة حكومته، ثم إنَّ الله يمنح الأرض مطراً غزيراً فتمتلئ بالنباتات والخضرة، والمواشي والدواب فتتسع أطراف الأُمم منعمة، وهو الذي يقسم الأموال بين الناس بالعدل دون حساب، ويهبط عيسى بن

---

(١) وإن كان هذا التنازل قد يمنح أكثر من حجمه الواقعي من قبل أرباب المذاهب الأُخرى، إلاّ أنه من الممكن غض النظر عنه، نظراً لتكرار المضامين المشتركة بين مختلف الأحاديث وتعدد حلقات السند الروائي.

مريم من السماء ليصلي خلفه، ومقتل النفس الزكية هو الحدث الذي يسبق ظهور المهدي عليه السلام، وسيكون أصحابه بعدد محاربي بدر، وذوي إرادة قوية[1].

هذه كلها معلومات أولية كإحداثيات استخرجت بالاعتماد على مصادر دينية أولية، حيث إنها وفي أقل تقدير مما يتداوله عامة المسلمين في موضوع المهدي الموعود، لكن أهمية ذلك تكمن في موارد الالتقاء والتوثيق بين أبرز الفرق الإسلامية الأعم من الشيعة والسنة. وبغض النظر عن الاختلافات الجزئية، مع وجود هذا الكم الغير قابل للإنكار من الروايات لدى أرباب الرواية، إلاّ أنه لم يكن المستوى القيمي لفكرة المصلح أو ما يسمى (المهدوية) واحداً لدى الفرق الإسلامية.

من هنا، تتجلى ضرورة الخطوة الثانية لبحثنا في معرفة رأي أرباب المذاهب في خصوص (المهدي عليه السلام). ولعل من المناسب أن يسبق ذلك تتبع انعكاسات ونتائج الفكرة في تاريخ المجتمع الإسلامي وتحولاته السياسية ـ الاجتماعية. الأمر الذي بإمكانه تحديد مدى أصالة وانتشار الفكرة.

انعكاس عقيدة الموعود في تاريخ الإسلام السياسي

تشير بعض الدراسات إلى أن مفهوم (المهدي) كان موجوداً منذ بدايات الإسلام الأُولى، الاّ أنه لم يكن آنذاك بمعنى (المصلح الموعود)،

---

(١) اُنظر: الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل؛ المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، البستوي، منشورات دار ابن حزم ـ بيروت ١٩٩٩، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨.

بل كان مقتصراً على معنى (الهداية الالهية)[١]. وكان أول من أُطلق عليه هذا العنوان هو شخص الرسول الكريم ﷺ عندما مدحه حسان بن ثابت بقصيدته الدالية[٢].

ثم أطلق جرير بن إبراهيم، وسليمان بن صرد، على الحسين بن علي بن أبي طالب العنوان ذاته، بعد استشهاده بعبارة «مهدي ابن مهدي». الفرزدق الشاعر أيضاً نعت الوليد بن يزيد بذلك[٣].

واستُخدم هذا المفهوم بعد موت معاوية لأول مرة، دلالة على الحُكم المُنتظر من أجل كمال الإسلام والرقي به لغايته القصوى. وكان عبد الله بن الزبير هو أول من ادَّعى الخلافة تحت هذا العنوان. وفي الكوفة أعلن المختار بن أبي عبيدة الثقفي بأن محمد بن الحنفية هو (المهدي)[٤]. ومناهضة له زعم أهل البصرة بأن موسى بن طلحة هو (المهدي المنتظر) الاّ أنه تجنب الفتنة وتراجع.

أما من خلفاء بني أُميّة فالظاهر أن سليمان (٦٦ ـ ٦٩هـ / ٧١٥ ـ

---

(١) اُنظر: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1230

(٢) وقد نقلها محمد جواد مشكور في مقدمة ترجمة فرق الشيعة للنوبختي على النحو التالي:

مـا بـال عينـك لا تنـام كأنمـا ... كحلـت مآقيهـا بكحـل الأرمـد

جزعاً على (المهديّ) أصبح ثاوياً ... يا خير من وطأ الحصـى لا تبعـد

بأبـي وأمـي من شـهدت وفـاتـه ... فـي يـوم اثنين النبـي المهتـدي

(٣) راجع: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1233؛ أيضاً يراجع: تاريخ إسماعيليان (تاريخ الإسماعيلية)، ص ٣٤.

(٤) يرى برنارد لويس أن هذه هي المرة الأُولى التي استخدم فيها مفهوم (المهدي)، و(القائم) في المسيحية. تاريخ الإسماعيلية، ص ٣٤.

٧١٧م) هو أول من ادّعى المهدوية «إقامةً للعدالة»، وخلفاً لعهد التعسف في زمن آبائه، فمدحه جرير والفرزدق بذلك. ثم عاد جرير فأطلق نفس العنوان على عمر الثاني خليفة سليمان وعلى هشام من بعده، أما الفرزدق فقد قدم مديحه ليزيد الثاني وابنه الوليد الثاني تحت عناوين (المهدي)، لكن كانت أقل وضوحاً من جرير[١].

أما التيار المحافظ (الراديكالي) فقد اعتبر عمر الثاني هو المهدي، وليست هذه سوى قصة كان قد أُعدتْ فصولها في زمن عمر الأول وابنه عبد الله عندما تنبّؤوا بظهور رجل من نسله ليملأ العالم قسطاً وعدلاً. ويمكن مشاهدة قصص مشابهة لذلك في سائر مدن العالم الإسلامي آنذاك[٢].

ونظراً لاستمالة تداول المفاهيم الخاصة من قبيل: (المهدي)، و(القائم) في مساحات الأديان المقننة كالإسلام دون توفر أرضية ثقافية دينية واسعة، لذا يمكن اعتبار ما ذكر شاهداً ودليلاً على وجود هذه الأرضية المساعدة، ثم تبلورت الفكرة فيما بعد أكثر وأكثر مما ولدت تيارات واضحة البصمات على الصعيد ذاته.

لقد كان لعقيدة (المهدوية) دور كبير في خلق التيارات الدينية ـ السياسية في التاريخ الإسلامي. نجح منها خمس أو ست حركات في نشاطها السياسي والاجتماعي. وذلك عن طريق مسألة الاعتقاد بظهور (المهدي) كقاطع لدابر الظلم والظالمين، والتفاف الناس حولهم تحت

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

هذه العناوين تحقيقاً لمآربهم السياسية. وبعيداً عن صدق الخبر وكذبه، فإن ظهور أو تطور هذه الحركات هو بحد ذاته مؤشر على وجود جذور فكرة المهدي في أذهان المسلمين:

١. **الفاطميون:** وهم من الشيعة الإسماعيلية المعتقدين بإمامة إسماعيل بن جعفر كإمام سابع، وأن ولدهُ محمد بن اسماعيل هو أول إمام (غائب) و(قائم)(١). تسلم الفاطميون الحكم في مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م وحتى عام ٥٦٧هـ /١١٧١م، وفي عام ٢٩٦هـ /٩١٠م ادّعى عبيد الله المهدي مؤسس هذه الحركة (المهدوية)، متخذاً من انتسابه لفاطمة عليها السلام دليلاً على ذلك، وكان قد بعث برسله وهو في طريق الإسكندرية ليبشروا الناس باقتراب موعد ظهور المهدي، ثم أطلق على خلافته اسم (دولة المهدي الموعود)(٢).

لقد ربط الفاطميون في مهدويتهم بين الجانب التكويني والفكري الأفلاطوني الجديد(٣).

وستعرض لاحقاً لموضوع الفاطميين من خلال مبحث تطور المهدوية في التشيع.

٢. **الموحدون:** ظهرت هذه الفرقة بقيادة ابن تومرت (ت٥٢٤هـ

---

(١) راجع: تاريخ الإسماعيلية، المقدمة، ص ١٠.

(٢) التحقيق في تاريخ وفلسفة مذاهب التسنن والفرقة الاسماعيلية،ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

(٣) المصدر السابق: ١٩٠؛ ويمكن رصد فكرة مراحل العالم وغيرها لدى الإسماعيلية الأوائل ، راجع في ذلك: تاريخ وعقائد الإسماعيلية، ص ١٠٩ ـ ١٦٨، أيضاً ورد في آراء قرامطة الإسماعيلية اتجاهات نحو أفكار أفلاطونية جديدة، راجع في ذلك: نهضت قرمطيان (ثورة القرامطة)، ص ٦١ ـ ٦٢.

/١١٣٠م) في المغرب، وحكموا المغرب واسبانيا حتى (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، وكان ابن تومرت قد ادعى انه (المهدي الموعود) الذي يأتي لإحياء الإسلام الحقيقي وخلاص الناس من حكومة المرابطين، فالتمس لنفسه نسباً إلى قبيلة قريش والهاشميين عن طريق الإمام الحسن عليه السلام عن فاطمة عليها السلام وقد خلفه ابنه عبد المؤمن فأقام حكومة مرتكزة على (المهدوية) دامت قرناً من الزمن، إلاّ أن الحركة كان يغلب عليها الطابع السني[١].

إن الذي بقي متروكاً فيما يخص دراسة هذه الفرق والمذاهب هو تأصل الجذور الفكرية والدينية لتلك المفاهيم المستخدمة لديهم. لقد حقق ابن تومرت نجاحات واسعة على الصعيد الفكري في المجتمع غير الشيعي، وذلك بواسطة توظيف فكرة (المهدوية) وعنوانها (المهدي) وترسيخها في الاذهان، حتى تحولت فيما بعد إلى دولة واسعة الآفاق. مضافاً إلى استقطاب طبقة واسعة من مُتديني المجتمع واتخاذهم أعواناً مقربين.

هنا يبرز سؤال جدير بالتوقف عنده وهو، هل من الممكن ادعاء المهدوية ومن ثم تقبل المتدينين وغيرهم لها دون وجود خلفية دينية ثقافية منتشرة بينهم؟ وعلى هذا الأساس تتجلى هزالة الرأي القائل بأن ابن تومرت كان قد أخذ مفهوم (المهدي) و(المهدوية) من الأفكار الشيعية، ونجح في توظيفه في حركته ومشروعه[٢].

---

(١) يراجع: مقدمة ترجمة فرق الشيعة، محمد جواد مشكور، ص ١٥٧.

(٢) راجع مقالة: ابن تومرت والموحدين، مجلة تاريخ الاسلام، العدد ٩.

فكيف يتصور تحقيق ذلك في مجتمع سني في المغرب وشمال إفريقيا، وعن طريق عقيدة شيعية بحتة كان مضمونها ظهور مصلح ديني وفقاً لما وعد به الرسول ﷺ؟ فبلا شك أن هكذا حركات تبنت المهدوية في المجتمعات السنية ليس إلاّ عن توفر رواسب لتلك العقيدة عندهم، وجذورها الإسلامية في معتقداتهم.

٣. المهدوية في السودان: بعد تصرم عهد الموحدين، كانت المهدوية في السودان من أكثر الحركات نجاحاً على الصعيد السياسي في القرن التاسع عشر. وعندما كانت السودان واحدة من توابع الإمبراطورية العثمانية ظهر رجل يدعى محمد أحمد وأعلن الجهاد على الحكام هناك. وخلافاً للحركات الثلاث الآنفة الذكر قدم محمد أحمد فكرته بطابع (أُخروي)، ولم يقتصر على جانب (التجديد) فقط. وهو من متصوفي السنة، كان قد ادّعى انه التقى بالرسول ﷺ مع أحد المشايخ المعروفين مكاشفة وتحدثا معه، ثم كون فيما بعد ائتلافاً من معارضي الحكومة ضد العثمانيين والمصريين والإنكليز، فشكل جيشاً سيطر به على غالبية السودان الحالية سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م وحتى ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م.

ولقد سعى قبل وفاته سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م في إحياء الأُمّة الإسلامية كما كانت في بواكيرها، فعمد إلى حلّ التكتلات الصوفية، والتشدد في إجراء القوانين الإسلامية مع ترسيخ الاعتقاد بمهدويته. ثم خلفه عبدالله التعايشي حتى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٨م حيث أسقطه الإنكليز.

أما في الوقت الحاضر فإن أتباع المهدوية في السودان هم عبارة عن حزب معارض لحسن الترابي[(١)].

٤. **البابية والبهائية:** في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م ادّعى شخص في إيران اسمه (علي محمد) أنه (باب) ،لإمام الغائب عن الشيعة، مضافاً لادّعائه النبوة وتجلي الذات المقدسة فيه[(٢)]. وبعد اعدامه جاء الميرزا حسين علي النوري الملقب ببهاء الله (المتوفى ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م) وكان من أتباع علي محمد، فادعى عنوان (من يُظهره الله) أو (مظهر الله)[(٣)] ووضع قوانين اتسمت بالتسامح المفرط بدلاً من الفقه الإسلامي، فانفصل بذلك عن الإسلام، ولا يزال له أنصار وأتباع.

٥. **الأحمدية (القاديانية):** انطلقت هذه الحركة بقيادة غلام أحمد عام ١٣٠٦هـ /١٨٨٩م في منطقة قاديان بنجاب في الهند، فادعى أنه من معالم عودة المسيح، فاعتبر المهدي (عج) تتمة للمسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وواحد من مظاهر (الكرشنة) لدى الهنود[(٤)]. وتعرف هذه الجماعة لدى الغرب باسم (الأحمدية)[(٥)]،

---

(١) التحقيق في تاريخ وفلسفة مذاهب التسنن والفرقة الإسماعيلية، ص ١٩٠.

(٢) راجع: البهائيون، السيد محمد باقر النجفي؛ وانظر أيضاً دانشنامه جهان اسلام (رسالة العالم الإسلامي) ج١، ص١٦ ـ ١٩.

(٣) رسالة العالم الإسلامي ٤: ٧٣٣ ـ ٧٤٤.

(٤) دائرة المعارف: مادة تشيع ١: ٥٣٤. الكرشنة (Krsna) هي واحدة من أهم مصاديق أوتاره (arataras) أو تجليات الرب على الأرض في عقيدة الهندوس من أتباع مذهب الفيشو (Visnu).

(٥) تجدر الإشارة الى أن هناك فرقاً أخرى يطلق عليها عنوان (الأحمدية) غير ما نحن بصدده من الأحمدية القاديانية، منها الجماعة المنسوبة لأحمد بن موسى بن جعفر عليه السلام، وقد انقرضت تماماً، كذلك أحد فروع الطريقة الشاذلية المعروفة بالأحمدية والإدريسية. راجع: دائرة المعارف بزرك اسلامي (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى) ٧: ٣٤٥.

ولدى المسلمين (بالقاديانية)، ولهم نفوذ أيضاً خصوصاً في إفريقيا[١].

وخلاصة القول في ذلك[٢]، إن جميع هذه الحركات المعتمدة على

(١) راجع أيضا: The Oxford Encyclopedia the Islamic World, V.1,P .54-57

(٢) تصنف بعض المصادر الغربية العباسيين في عداد الحركات المهدوية. انتزع العباسيون الحكم من الأمويين سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م، ووفقاً للمصدر: اتخذ العباسيون من حماسة (انتظار المهدي الموعود) والتضامن مع الشيعة عاملاً للاستفادة من مؤازرة المضطهدين من الشيعة في عصر الأمويين، فكان الخطباء يصفون خلفاءهم بعناوين (المهدي) لتداعي مصاديق (المهدي الموعود) و(المجدد الاسلامي) في الأذهان. أما بعد سقوط الأمويين وسيطرة العباسيين فان الوقت قد حان للتخلي عن شعارات العدالة المهدوية وحكومة آل الرسول. وتشير تلك المصادر الى أن بعض الخلفاء العباسيين كان قد أطلق على نفسه اسم (المهدي) للغاية ذاتها. نقلا عن:

Encylopedia of Millenniail Movements, Richard Landse, Roatledge, 2000, P.182.

ولم يثبت الكاتب دليلاً قاطعاً لما ذهب إليه. أما أهم رواية استند اليها العباسيون في منح الشرعية لخلافتهم، فهي ما نقل عن الرسول ﷺ من وعد لعمه العباس في تولي الحكم، ووصوله لأحفاده. (تاريخ الفخري، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، ص ١٩١٩).

ووفقاً لابن الطقطقي، فان الناس ونظراً لتردي الاوضاع وسماع تلك الرواية، كانوا ينتظرون ليلاً ونهاراً الدولة الموعودة. بالإضافة لدور إبراهيم الإمام، شقيق السفاح العباسي، وعمله بالنبوءة الشهيرة (ظهور الرايات السوداء من خراسان لنصرة أهل البيت)، فأرسل رسله الى هناك، ثم أرسل أبا مسلم الخراساني لاستقطاب الأنصار، وأيضاً الشعار المنسوب للعباسيين القائل: (الرضا من آل محمد ﷺ). راجع: تحول مباني مشروعية الخلافة، ص ١٢٤، ولا يستبعد أن يكون العباسيون قد افادوا من فكرة (الموعود) الواردة في الروايات النبوية.

ويدعم ذلك ما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠ من روايات رسول الله ﷺ، وما كان يصبو إليه المنصور العباسي.

فكرة المهدوية في العالم الإسلامي بإمكانها أن تكون مؤشراً واضحاً للعيان حول تأصل هذه الفكرة لدى المسلمين ـ بغض النظر عن صحة الحركات أو بطلانها.

والغاية الثانية وراء هذه الدراسة هي مطالعة آراء مختلف المذاهب الإسلامية بخصوص (المهدوية)، وما يتعلق بها من مفاهيم ومعتقدات، مضافاً لتحديد مستوى انتشارها في العالم الإسلامي، وما هي نمطيتها لدى كل فرقة اسلامية؟

فكرة المصلح المنتظر في المذاهب الإسلامية

تباينت الانطباعات تجاه غزارة الروايات الإسلامية بخصوص ظهور المهدي بين مذهب وآخر، إلاّ أنه بقي من الصعب إنكار الفكرة مطلقاً نظراً لوجود تلك المصادر الوافرة، وقد اختلفت ألوان الطيف عند الفرق الإسلامية حول الموضوع. فإذا أردنا تناول الموضوع ببساطة، فمن الأفضل لنا تخير ثلاثة تيارات أساسية ورئيسة هي: السنة، والشيعة، والمتصوفة.

أهل السنة:

لا يمكن اعتبار فكرة المهدي بين أهل السنة كأصل مسلم، وضرورة من ضرورات المذهب أو الدين، مع أن أُصول ومصادر مذاهبهم الكلامية لم تنكرها، بل إن غالبية تلك المصادر قد تعرضت لها، فبالاضافة للمصادر البارزة من قبيل: سنن الترمذي، سنن أبي داوود، مستدرك الصحيحين للحاكم النيشابوري، مسند أحمد ابن حنبل، وسنن ابن ماجه، هناك مجموعة كبيرة من مؤلفات علماء السنة تطرقت للمهدوية وأقرت

بها[١]، لكنها لم تتجلّ بوضوح تام في صحيح مسلم وصحيح البخاري، وهما من ركائز مصادرهم الروائية.

وهناك الكثير من العلماء البارزين من أهل السنة قد تجنبوا الخوض في هذا المبحث أمثال الغزالي. وثمة رأي من أن سبب ذلك هو خشية تأجيج المشاعر والتيارات الثورية في المجتمع الإسلامي، أو التشكيك في الفكرة ذاتها[٢]. وقد وجه بعضهم انتقادات سافرة إلى هذه الفكرة كانت في غاية الغرابة كابن خلدون في مقدمته عندما شكك بجميع الوثائق المتعلقة بتلك العقيدة[٣].

أما الموقف السلبي للمتأخرين من الكتّاب أمثال: أحمد أمين في كتاب (المهدي والمهدوية)، الشيخ عبد الله بن محمود في (المهدي ينتظر بعد الرسول خير البشر)، والشيخ محمود ابن القيم في (المنار المنيف). ففي الأعم الأغلب كان منجرفاً مع أمواج الحداثة بين الحداثويين من كتاب المسلمين[٤].

---

(١) أحصى مهدي فقيه إيماني في كتاب الامام المهدي عند أهل السنة ٦٧ كتاباً لعلماء السنة كانوا قد انصفوا بكتابتهم عن المهدي مع نقل نصوصهم في ذلك، كان في جملتها العلماء البارزون في عالم التسنن، وكان الأهم منها موقف ابن تيمية (٦٦١هـ ـ ٧٢٨م) المتشدد، حيث اذعن بصحة الروايات القائلة بظهور رجل من نسل فاطمة عليها السلام.

(٢) اُنظر: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1234.

(٣) مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد ـ مصر، ص ١٩٩.

(٤) راجع: مع الدكتور احمد امين في حديث المهدي والمهدوية، محمد أمين زين الدين، مؤسسة النعمان ـ بيروت. ولم تكن هذه الأفكار منحصرة على كُتاب أهل السنة وعلمائهم، بل هنالك حالات مشابهة في البلاد الشيعية أيضا كأحمد كسروي الذي رفض فكرة المنجي الموعود الإسلامي جملة وتفصيلاً مخالفة لجميع السنن. راجع:

وهناك كتّاب كثيرون من المعاصرين دعموا وأيدوا مبادئها بالاضافة للمتقدمين من كتّاب أهل السنة، أمثال: الشيخ ناصر الدين الألباني أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد وهو عضو في الهيئة العلمية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وكان قد نُشرت له محاضرة بعنوان عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، فحظيت باستحسان الشيخ عبد العزيز بن باز وعلق عليها[(١)]. ونُشر له أيضاً مقال مطول في مجلة الجامعة الإسلامية تحت عنوان الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي. وهكذا بالنسبة للدكتور أحمد محمود صبحي أُستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة

بخوانند وداوري كنند (إقرأ واحكم)، أحمد كسروي، طبعة بيمان. وهذه طائفة أُخرى من العلماء والكتاب المخالفين للمهدوية في الاسلام:

الامام الشاطبي، في الاعتصام، الشيخ محمد عبد العزيز المانع في الكواكب الدرية (مع أنه تراجع عن موقفه السلبي في تحديق النظر بأخبار الامام المنتظر)، أبو الأعلى المودودي في رسالة البيانات عن المهدي، محمد رشيد رضا في تفسير المنار، محمد فريد وجدي، مؤلف دائرة معارف القرن العشرين، الشيخ محمد عبده، وغيرهم. وقد أوعز الدكتور أحمد محمود صبحي أُستاذ الفلسفة بكلية آداب جامعة الإسكندرية إلى تلك المواقف السلبية لبعض المحققين المعاصرين الى أمرين:

١ـ الفاصلة الزمنية البالغة أربعة عشر قرناً.

٢ـ الأجواء الفكرية المناهضة للحكومة الدينية.

راجع: نظرية الامامة لدى الشيعة الإثني عشرية، الدكتور أحمد محمود صبحي، دار المعارف بمصر، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥، وفيما يتعلق بمخالفة العلماء المذكورين للمهدوية ونقد ذلك راجع: مصلح جهاني ومهدي، موعود از ديدكاه أهل سنت (المصلح العالمي والمهدي الموعود من منظار أهل السنة)، ص ١٦١ ـ ٢٩٦ .

(١) وقد ذكر السيد هادي خسرو شاهي نص حديث الشيخ عبد المحسن العباد في كتاب المصلح العالمي والمهدي الموعود من منظار أهل السنة.

الاسكندرية، وسعيد أيوب الكاتب والمفكر المصري في كتاب عقيدة المسيح الدجال في الأديان، ومحمد بن احمد بن إسماعيل الكاتب المعاصر في كتاب المهدي حقيقة لا خرافة، وقد أحصى أكثر من ستين عالماً بين سالف ومعاصر ممن يؤيد عقيدة المهدي، مضافاً إلى درج أكثر من ثلاثين آخرين اعتبروا الأحاديث الواردة في المهدي ضعيفة.

أيضاً من جملة المعاصرين الدكتور محمد بيومي مهران المصري أُستاذ كلية الآداب جامعة الاسكندرية، حيث ذكر اثني عشر كتاباً لعلماء السنة ممن كتب في المهدي الموعود، مدعياً ان ذلك كان نقلاً عن الشيعة. كذلك استشهد بنماذج من الأشعار كدليل على تأصل ورسوخ فكرة المهدي ممن نظم في ذلك(١).

تأسيساً على ذلك، يمكن تغليب الجانب المؤيد للفكرة لدى غالبية علماء أهل السنة على المخالفين منهم، نظراً لما يدعم أصل الفكرة من أحاديث صحيحة.

ومع كل هذا من تأييد للمبادئ الرئيسة في الفكرة لدى المذهب السني، إلاّ أنه يجب أن لا نتجاوز في ذلك النمطية المفترضة للمهدي عندهم، حيث إنهم لا يرون فيه سوى (حاكماً وخليفةً) للمسلمين من نسل الرسول ﷺ وفاطمة عليها السلام، يولد ولادة طبيعية ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً فيعم الدين أرجاء المعمورة(٢).

---

(١) جميع ما ذكر هو من: الامام المهدي عند أهل السنة، ص ٥٩٥-٦٦٨.

(٢) راجع: مقدمة محمد جواد مشكور على ترجمة فرق الشيعة للنوبختي، ص١٥٨و١٥٩ حيث اختار صاحبها عنوان (المهدي النوعي) في تبيين رأي أهل السنة في موضوع المهدوية.

نعم، ثمة معتقدات أُخرى في هذا الصدد يقرها أهل السنة، كعودة المسيح، وخروج الدجال، وصلاة عيسى خلف المهدي عليه السلام؛ وذلك لكثرة الروايات الواردة عند أهل السنة بخصوص ذلك واعتقادهم بها. لكن يصعب نسبة بعض المقولات من قبيل: (الغيبة)، و(الإمامة) ــ وعلى مرّ العصور ـ للمذهب السني، أو أنه عليه السلام النجل المباشر للإمام الحسن العسكري عليه السلام، وإن لم يُعمم ذلك على أهل السنة بشكل كلي.

ظهر ما بين القرن السابع إلى الثالث عشر مجموعة من المحققين السنة أيدوا مسألة المهدي الموعود، وهو الإمام الثاني عشر، مما أثار ذلك جدليات واسعة حول الموضوع. فقد ألّف محمد بن يوسف الكنجي القريشي المؤرخ والمحدث الشافعي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، كتاب البيان في أخبار صاحب الزمان، قبل أن يقتل بسبب تعاونه مع المغول، وكان قد استشهد في كتابه بروايات أهل السنة على إثبات أن المهدي هو الإمام الثاني عشر بعينه.

وفي عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م جاء كتاب السؤول في مناقب آل الرسول للعالم الشافعي كمال الدين محمد بن طلحة العدوي النصيبي، وهو وزير سابق لأرطوقيد الملك السعيد، فدافع عن إمامة الإمام الثاني عشر ومهدويته، وخطأ أهل السنة في مخالفتهم لهذه الحقيقة.

كذلك سبط ابن الجوزي كان له موقف مشابه في أواخر حياته، فكتب تذكرة الخواص سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وأثبت فيها ما نقل في مصادر أهل السنة في فضائل عليّ عليه السلام وأهل بيته، لا سيما الإمام الثاني عشر، حيث انتهى به المطاف للإذعان بأن الإمام (صاحب الزمان) و(القائم) و(المهدي الموعود) هو نفس الإمام الثاني عشر، مستشهداً

بحديث اعتبره من المتواتر، نصّه: قال رسول الله: «يخرج في آخر الزمان رجل من أهل بيتي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، هو المهدي».

من هنا، تجاهل ابن الجوزي أحد اعتراضات أهل السنة في لا بدّية مشابهة اسم والد المهدي لاسم والد الرسول، وهو ابن الحسن العسكري، في حديث منقول لعاصم[1].

المتصوفة:

يتخذ أهل التصوف في سائر أنحاء العالم الإسلامي من المهدوية أساساً ومرتكزاً في صميم طريقتهم ومذهبهم، ومن رؤية تكوينية أحياناً، ولهم أيضاً في مجال الكلاميات فروض مشابهة لآراء سائر المسلمين. فابن عربي مثلاً ـ وهو من أبرز زعماء هذا المذهب ـ يرى بأن المهدي المنتظر هو من نسل الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﷺ[2]، و(خاتماً للأوصياء)، وأنه من يأتي لإجراء القانون الإسلامي وإحقاقه بالسيف، وأن عيسى أحد وزرائه، ومن وجهة نظره أن المهدي سيعمل باجتهاده متجنباً القياس. ويذهب إلى أن فقهاء المذاهب هم من سيعارض المهدي ويقف بوجهه، بحيث ينحصر أنصاره في شيوخ المتصوفة والمرشدين منهم[3]. وقد حظيت هذه المفاهيم بدراسات مستفيضة بالمؤلفات المختصة بآراء ابن عربي، وهناك اختلاف بين أفراد المتصوفة في هذا المجال ليس جديراً بالاهتمام[4].

---

(١) The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1235.

(٢) ما ينقل عن ابن عربي هنا بحوث متفرقة سيتضمن المقال جوانب منها.

(٣) الفتوحات المكية، ابن عربي ج٣، ص٣٢٧، الباب ٣٣٦، طبعة دار صادر ـ بيروت.

(٤) The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1236.

إن آراء المتصوفة هي أقرب من غيرها لآراء الإمامية في تفاصيل ما ذهبوا إليه في المهدوية. فقد دافعت المحافل الصوفية عن مبدأ كون المهدي هو الإمام الثاني عشر، وذكر ابو بكر البيهقي (المتوفى ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) بأن بعض المتصوفة كانوا على توافق مع الإمامية بخصوص مسألة المهدي والغيبة، أما المتصوف الفارسي، صدر الدين إبراهيم الجويني (أواخر القرن السابع / الثالث عشر الميلادي)، فقد دافع في فرائد السمطين عن رأي الإمامية فيما يتعلق بالمهدي والمهدوية[١]. كذلك الشعراني المصري الذي لم تكن له أي صلات بالتشيع، كان قد اعترف في اليواقيت والجواهر (المؤلف سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م) بأن المهدي هو ابن الإمام الحسن العسكري المولود سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) وأنه سيبقى حياً حتى يلاقي عيسى المسيح، ولا بدّ من انتظاره. اعتمد في ذلك على كلام الشيخ حسن العراقي، الذي ادّعى رؤية المهدي واللقاء به، بالإضافة إلى نقله عن ابن عربي في الفتوحات المكية، حيث قال: بأن المهدي هو ذات الإمام الثاني عشر[٢].

وقد ذهب البعض للتشكيك في صحة هذا النقل عن ابن عربي وانه موضوع، إلاّ أنه حظي بقبول علماء السنة والشيعة على حدٍّ سواء وتناقلوه[٣].

---

(١) فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، الجويني، ج٢، ص ٣١٠ـ٣٤٣ مؤسسة المحمودي ـ بيروت.

(٢) ذكره الشعراني في اليواقيت والجواهر ج٢، ص ١٤٣، أما في الفتوحات المتوفرة اليوم والتي يقال عنها أنها خضعت للتحريف والتغيير، فالمهدي هو من نسل الحسن بن علي عليه السلام. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي ـ مصر ١٩٥٩.

(٣) The Encyclopedia of Islam V.5, P.1237.

أما الشيخ صبّان المصري (المتوفى ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م) في كتاب إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل البيت الطاهرين، فقد ألقى باللوم على ابن عربي لرأيه المخالف للمعتبر من روايات علماء السنة[١]. حسن العدوي الحمزاوي بدوره شمت بالصبّان لانتقاده ابن عربي، حيث إنه كان يرى في مشارق الأنوار (المطبوع لأول مرة سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م) بأن العرفاء المتصوفة هم الأصدق والأقرب في تفسير السنة النبوية. ومن أجل سلب الميول الشيعية في عبارة الشعراني، عمد العدوي إلى التغيير في نقلها، حيث أضاف ألف سنة لتاريخ ولادته، مضافاً لتجاهله تأريخ ظهوره وادّعاء الشيخ حسن العراقي رؤيته، وحينئذ تكون ولادة المهدي سنة (١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م)، وهو مجرد حفيد من أحفاد الإمام الحادي عشر وليس الإمام الثاني عشر عند الشيعة. الشيخ الشبلنجي أيضاً عمد في نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار سنة (١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م)، إلى نقل ما رواه العدوي على خطئه[٢].

الشيعة:

لقد حظيت فكرة المهدوية باهتمام اكبر من قبل الشيعة، ولعله يمكن القول: بأن الاعتقاد بظهور المهدي من أهل بيت الرسول ﷺ عند الشيعة هو بمثابة ركن أساسي في إيمانهم، بحيث إنهم قد يعتبرون

---

(١) إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى، الشيخ محمد بن علي الصبان، دار الفكر، ص ١٥٤ ـ ١٦١، وهو متوفر ضمن حاشية كتاب نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، تأليف الشبلنجي.

(٢) نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، الشيخ مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجي، دار الفكر، ص١٨٧.

التشيع هو نفس الاعتقاد بغيبة المهدي وظهوره البهي[1].

لكن (المهدوية) لم تكن بشكل موحد داخل المذهب الشيعي. فتعددت التيارات الشيعية وما ذهبت اليه من معتقدات. ومع أن دراسة رأي الإثني عشرية ـ في هذا المقال ـ هو الأكثر أهمية، إلاّ أن ذكر الاعتقادات الأُخرى لا مفرّ منه أيضاً.

تطور نظرية المهدوية في التشيع

اتخذت التيارات الشيعية، ومنذ القرن الأول، من بعض أفراد أهل البيت (مهدياً)، استناداً إلى تلك الروايات الواردة في السنة النبوية والمتعلقة بقضية المهدي، وبما أن عمر أُولئك المعنيين كان يمضي وينصرم دون تحقيق الأهداف، لذا كان أتباعهم يبقون على أمل عودتهم ثانية في بعض الأحيان. وهذا ما نلاحظه جلياً في محمد بن الحنفية الذي أنكر موته الكيسانيون، فاعتقدوا بأنه تغيّب في جبل رضوى، وسيعود مجدداً ليحكم العالم. وهناك حالات مشابهة نذكر منها: قضية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية المتوفى سنة (٩٨هـ / ٧١٦م)، وعبد الله بن معاوية (١٣٠هـ / ٧٤٨م)، ومحمد ابن عبد الله ذو النفس الزكية (١٤٥هـ / ٧٦٢م)، والإمام جعفر الصادق عليه السلام (١٤٨هـ / ٧٦٥م)، وآخرون عديدون في القرون اللاحقة.

والذي تجدر الاشارة اليه هنا، هو أن الخطاب الشيعي كان يغلب عليه منح المهدي الموعود صفة (القائم)، ولعل أول من أُطلق عليه هذا اللقب هو محمد بن الحنفية[2]. وكيف كان معنى اللفظة اللغوي، تبقى

---

(١) راجع: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1235.

(٢) راجع: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1235.

دلالتها في الفكر الشيعي عبارة عن ذلك الرجل الثائر بغية إقامة حكومته. وكان هذا المفهوم متداولاً حتى زوال العصر الأُموي، وكان مرادفاً إلى حدٍّ ما إلى لفظة (المهدي) في المفاهيم الشيعية[١]. أما إطلاق لفظ (قائم آل محمد) فكان يتضمن إشارة إلى الاحتراز من قيام غيره.

توسع مفهوم (الغيبة) بُعيد استشهاد الإمام السابع موسى الكاظم عليه السلام (١٨٣هـ / ٧٩٩م) بين أفراد الفرقة الواقفية، فاعتبروه آخر الأئمة، ووقفوا عليه لينتظروا رجوعه بعنوانه (المهدي) المنتظر[٢]. بينما كان يعتقد البعض منهم أنه لم يمت وإنما يعيش في خفاء عن الأنظار، إلاّ أن الغالبية قالت بوفاته وعودته حياً ثائراً. كان ذلك استناداً منهم إلى روايات نسبوها للإمام جعفر الصادق عليه السلام مضمونها بأن المهدي هو (القائم) الذي يقوم من بعد موته. وكان من رواد الحركة الواقفية في الكوفة الحسن بن علي بن حمزة البطائني[٣]، وله كتاب في (الغَيبة).

وقد كُتبت في الغيبة كُتب عديدة من قبل الواقفية والإمامية القائلين باستمرارية الإمامة بعد الكاظم عليه السلام[٤].

---

(١) يطلق مفهوم (الواقفية) في معناه العام على أُولئك الذين يقفون عند آخر أئمتهم، مع الاعتقاد منهم بعودتهم وظهورهم ثانية بعنوان المهدي المنتظر. راجع: تاريخ وعقائد الإسماعيلية، الدكتور فرهاد دفتري، ترجمة الدكتور فريدون بدرئي، انتشارات فرزان روز، ص ١٢٣.

(٢) راجع: The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1235 .

(٣) وهو من أصحاب ورواة الامامين الصادق والكاظم عليهما السلام ويعتبر من زعماء الواقفية، وكان من الملازمين لأبي بصير يحيى بن أبي القاسم (المتوفى ١٥٠هـ)، فنقل عنه الكثير من الأحاديث. رسالة العالم الإسلامي، مصدر سابق.

(٤) .The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1236

لقد كان الواقفيون يأخذون بالروايات المرتبطة بموضوع (المهدي) و(الغيبة)، والمنقولة عن الأئمة ليوظفوها في إثبات دعواهم، ومن تلك الروايات ما ورد في سندها الحسن بن علي بن أبي حمزة الواقفي، والرواية منسوبة للإمام الباقر عليه السلام ومضمونها:- «إن في صاحب هذا الأمر من كل نبي خصلة: فخصلة من موسى بن عمران، وخصلة من عيسى، وأُخرى من يوسف، وهكذا من محمد صلى الله عليه وآله. فمن موسى الخوف والانتظار (خائفاً يترقب)، ومن عيسى أن ما قيل في عيسى ينطبق عليه، ومن يوسف السجن والغيبة، ومن محمد صلى الله عليه وآله حمل السيف». وفي الخاتمة أيضاً يزيدون قضية سجن موسى الكاظم عليه السلام ودعوى قتله من قبل أعدائه[1]. وللواقفية روايات أُخرى طبقوها على حياة وممات الكاظم عليه السلام، منها ما ينسب للإمام الصادق عليه السلام من أن الغيبة على قسمين: إحداها أطول من الأُخرى. فاعتبرها الواقفية بمثابة سجن هارون للإمام الكاظم عليه السلام مرتين[2]. وتأويل هذه الروايات عند الإمامية هو بما يسمى الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر.

ومن جملة الحركات المنسوبة للتشيع السبئية، نسبة لعبد الله بن سبأ. قالوا فيهم: إنهم اعتبروا علياً عليه السلام نبياً من أنبياء الله، فتبعهم جماعة في

---

(١) لم ترد هذه الرواية هكذا في مصادر الإمامية أمثال كمال الدين وتمام النعمة للصدوق؛ وكتاب الغيبة للطوسي؛ وإثبات الوصية للمسعودي، ففيما يخص خصال يوسف وردت هناك أُمور من قبيل: (الستر) والاختفاء والاحتجاب، وأن الناس كانوا يرونه ولا يعرفونه. ومن جملة الصفات: (الغيبة)، وحسن الوجه، والقدرة، الأمر الذي بالامكان مطابقته مع الامام الكاظم عليه السلام، كل تلك المسائل لم ترد في نصوصهم. اُنظر: منتخب الأثر، لطف الله الصافي الكلبايكاني.

(٢) The Encyclopedia of Islam V.5, P. 1235.

ذلك. إلاّ أن علياً عليه السلام تصدى لهم وحاربهم. وقيل: إنهم يرون في علي عليه السلام (المهدي المنتظر) وأنه لم يمت حين استشهاده وإنما عرج إلى السماء حياً، وسيعود ثانية لكي ينتقم من أعدائه[1]. والسبئية هم من المعتقدين بـ (الرجعة) أيضاً[2].

ومنها أيضاً الزيدية، وكانوا أقل اهتماماً بنظرية (المهدوية).

ومن بين الزيدية كانت للجارودية ـ نسبة لأبي الجارود زياد بن زياد ـ معتقدات مغايرة في هذا المجال. فلم يكن البعض منهم لينتظر شخصاً بعينه، انما عقيدتهم هي كل من يحمل السيف من ذرية الحسن أو الحسين عليهما السلام يكون هو (الموعود المنتظر).

البعض منهم اعتقد بُعيد قتل محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية بأنه لم يمت، وأنه هو (المهدي المنتظر) الذي سيظهر ويعود عندما تُملأ الأرض ظلماً وجوراً؛ لينشرها قسطاً وعدلاً ويحكم العالم. وذهب آخرون من الجارودية إلى القول بانتظار بعض الشخصيات أمثال محمد بن القاسم الثائر في طالقان، ومحمد بن عمر في الكوفة. وهناك مجموعة منهم ينتظرون ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، المقتول سنة (٢٤٨ أو ٢٥٠هـ)[3].

وكان الأبرز بين شخصيات الحركة الجارودية بعنوانه (المهدي المنتظر)، هو محمد بن القاسم المنتفض أيام المعتصم العباسي بطالقان،

---

(١) راجع: ترجمة فرق الشيعة، ص ٤٠.

(٢) مقالات الإسلاميين؛ للأشعري، ج ١، ص ٨٥.

(٣) مقالات الإسلاميين؛ ومقاتل الطالبيين.

فجذب العديدين حوله، إلاّ أنه هُزِم وسُجن، ثم هرب بعدها من السجن فلم يسمع عنه خبر قط، فتضاربت الآراء في مصيره، فذهب جماعة من الجارودية إلى أنه حي لم يمت حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً[1].

يقول المسعودي في مروج الذهب: «ولا يزال الكثيرون ـ أي حتى عام ٣٣٢هـ ـ من الزيدية يقولون بإمامته، وأن محمداً لم يمت، وسيظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً، وجورا وهو مهدي هذه الأُمّة»[2].

ومن الفرق الشيعية التي عنيت بشكل أكبر بمسألة المهدي، هي الإسماعيلية، وقد خضع تاريخ الفرقة الأكثر عدداً بعد الاثنى عشرية لمد وجزر واسع.

أسس الإسماعيليون حكومتين في القرون الوسطى إبان الخلافة الفاطمية ودولة النزاريين، فتمتعوا بقدرة سياسية واسعة[3].

لقد انشق الإسماعيليون عن سائر الشيعة للخلاف الواقع فيمن يخلف الإمام جعفر الصادق عليه السلام إثر وفاته سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م، وكانوا قد دعوا منذ البداية لمفاهيم: (الانتظار)، (الغيبة)، و(الظهور) أي ظهور الإمام الغائب الذي يظهر عاجلاً لإقامة الحكم العادل، فاعتبروا الإمام الموعود

---

(١) مقالات الإسلاميين ج ١، ص١٤٩؛ ايضاً يراجع في ذلك مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني، انتشارات الشريف الرضي، ص ٤٦٤ ـ ٤٧٣.

(٢) مروج الذهب، أبو الحسن علي بن حسين المسعودي، ترجمة أبو القاسم باينده، انتشارات الشركة العلمية الثقافية ج٢، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٣) تاريخ وعقائد الإسماعيلية، المقدمة، ص ١٥و ١٦.

المنتظر (السابع) الظاهر مستقبلاً هو القائم[1].

اعتقد الإسماعيليون الأوائل ـ أو كما يعبر عنهم القمي في المقالات والفرق بالخلّص ـ بأن إسماعيل ابن الإمام الصادق حيّ لا يموت حتى يظهر لإصلاح أُمور الناس، وهو (القائم)[2].

ويظهر انه لم تجنح مجموعة من الإسماعيلية لفكرة الموعود، كما جنح القرمطيون.

وعندهم إسماعيل هو خليفة الصادق، وابن إسماعيل خليفة أبيه، فأنكروا موته وقالوا بغيبته، وأنه مختف في بلاد الروم، وهو (القائم المهدي)، إلاّ أن معنى (القائم) عندهم هو ظهوره برسالة جديدة تنسخ الشريعة المحمدية[3].

أما الفاطميون من الإسماعيلية ممن قالوا بما يفوق سبعة خلفاء للرسول ﷺ، فقد تنبّؤوا بظهور (القائم) في الأزمنة البعيدة[4]، وذلك يتبع إلى حدٍّ كبير الامتداد الزمني للدولة الفاطمية، والآمال الأُخروية المرتبطة بالقائم والتي لم تكن محققة حينئذ. من هنا، كان من الضروري لهم افتراض ما يفوق السبعة أئمة ليسايروا الفترة الزمنية الآخذة بالامتداد دون تحقق المنشود، فكان ذلك ليفرض ظهور (القائم المنتظر) المتمم

(١) المصدر السابق ص٦٤٠.

(٢) راجع: المقالات والفرق، ص ٨٠؛ في كتاب تاريخ الإسماعيلية يعبر عن هذه الجماعة بالإسماعيلية الواقفة والأصلية. تاريخ الإسماعيلية المقدمة، ترجمة الدكتور فريدون بدرئي، ص٩.

(٣) المقالات والفرق،ص٨٣ ـ ٨٤؛ ثورة القرامطة، مصدر سابق.

(٤) تاريخ وعقائد الإسماعيلية، ص ١٦٥.

للحلقة الأخيرة في السلسلة، ويوكله إلى أمدٍ أبعد.

ثم إنَّ البعض من الفاطميين وحتى زمن المنتصر كانوا قد تراجعوا عن الظهور المادي والحسي لمحمد بن إسماعيل، ونظروا للاكتفاء بالظهور الروحي والمعنوي لرجل من ذرية فاطمة عليها السلام(1).

لقد كان لفكرة المصلح الموعود انعكاسات غريبة في أفكار وأفعال الإسماعيليين، فعلى سبيل المثال: كان الشيوخ النزاريون المروّجون للفرقة النزارية في الهند من قبل الإسماعيليين يصورون للهندوس على أن عليّ بن أبي طالب هو الكلكي (Kalki) الأُوتارة العاشرة للوشينو الذي يعتقد الهندوس بأنه يظهر آخر الزمان لإقامة العدل والسلام، وذلك بُغية وضع المفاهيم الدينية في قوالب معهودة لدى الفكر الهندي.

يبقى ما عليه الإسماعيلية اليوم من اعتقاد بفكرة ظهور موعود آخر الزمان (القائم)، وما لذلك من دور في حياتهم الدينية والمعنوية رغم وجود الأحياء من دعاتها ورموزها، هو بحاجة للدراسة والتحقيق.

والخلاصة، إن الفكرة تمتاز بتوسع وشمولية لدى فرق الشيعة بشكل ملحوظ جداً، وهناك تعددت الأقوال في نسب الموعود وهويته وتفاصيل شخصيته، فقال البعض هو محمد بن الحنفية، وآخرون أنه ولده أبو هاشم، وذهبت (المغيرية) إلى أنه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب المعروف بذي النفس الزكية، واعتبر الخلّص من الإسماعيلية (الإسماعيلية الأوائل) المهدي هو إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وزعمت الناووسية بأن الصادق عليه السلام هو المهدي المنتظر.

---

(1) المصدر السابق، ص269

أما المباركية (من الإسماعيلية)، فقد قالوا بمهدوية محمد بن إسماعيل بن جعفر، ووقفت الواقفية على إمامة موسى الكاظم المنتظر ظهوره، وقالت الفرقة العسكرية بمهدوية الإمام الحسن العسكري، والمحمدية بمهدوية الإمام أبي جعفر محمد بن علي الهادي. أما عند الإمامية الاثني عشرية فليس المهدي الموعود إلاّ ابن الإمام الحسن العسكري المسمّى بالمهدي[١].

ولا يخفى في هذا السياق ما لمبادئ الاثني عشرية من أهمية بالغة في الصعيد ذاته من بين سائر فرق الشيعة.

الإمامية الإثنا عشرية

ليس جزافاً لو قلنا بأنَّ المذهب الإثني عشري هو الأكثر التزاماً وتبييناً من بين سائر الأديان والمذاهب لفكرة المصلح الموعود، والأهم في ذلك هو أن موعودهم يحمل معه السمات المميزة لهذا المعتقد، فهم يعتقدون أن (المهدي) هو الشخص الثاني عشر في تسلسل أئمتهم. إذن، فكل ما يصدق على (الإمام) ينطبق لا محالة على المهدي أيضاً، وفي عقيدة الإمامية أن (الإمام) هو وصيّ رسول الله ﷺ وامتداد لرسالته ونشر دينه، ناهيك عن كونه (حجة)، فكلامه حق، وصفاته من صفات خالقه. فهو من هذه الناحية يُشبه إلى حدٍّ كبير (أُوتارة) الهندوس و(كلمة الله)عند المسيحيين، إلاّ أن دائرة كمالاته لا تقف عند هذا فقط.

فهو (باب الله)، أي منه وإليه يسير، ولا حدود لمدارك علمه، فلا

(١) مقدمة ترجمة فرق الشيعة للنوبختي، محمد جواد مشكور، ص ١٥٨.

يتردد في إجابة سائل، ولا يحتاج لعلم عالم، وهذا هو ما يميزه عن سائر المدّعين[1].

والإمام هو (صاحب الزمان)، أي أنه لا يوجد في عصره من يرقى لخصائصه القيمية، وصفاته الانسانية، فهو في قمة المجتمع البشري. من هنا يكون إماماً لكل العصور بالأصالة، وهو (صاحب الأمر) بمعنى أن بيده مقاليد الأُمور التكوينية والتشريعية، وبما أنه (حجة) لا يمكن افتراض خلو الأرض منه[2].

ومضافاً لما يتمتع به المهدي الموعود من صفات يلاحظ كونه (إماماً) ثمة صفات أُخرى وأدوار خاصة به استناداً لكونه (موعوداً منتظراً)، وقد جمعت الروايات المرتبطة بعقيدة الشيعة الإثني عشرية بـ(المهدي القائم) مفصلاً في كتاب الغيبة لمحمد بن إبراهيم النعماني (أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد)، وكتاب إكمال الدين لابن بابويه القمي المعروف بالصدوق (المتوفى ٣٨١هـ/ ٩٩١م).

وهو ـ استناداً لهذه الروايات ـ الإبن المباشر للإمام الحسن العسكري (المتوفى ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، وهو الإمام الثاني عشر عند الإمامية المولود سنة (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، ثم اختفى عن الأنظار بُعيد وفاة والده بأمر الله وقدرته، فكان له غيبة صغرى اتصل خلالها بسفرائه فعلموا بمكانه، أما في غيبته الكبرى فلا يعرف مأواه إلاّ أصحابه الخلّص المقربين، وقد

---

(١) كتاب الغيبة للنعماني ، باب (ما يعرف به عليه السلام).

(٢) راجع: أُصول الكافي، كتاب الحجة، باب (إن الأرض لا تخلو من حجة).
وللاطلاع على هوية ومنزلة الإمام عند الشيعة الإمامية يراجع: الغيبة للصدوق، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

أخبر الأئمة السابقون بموضوع (الغيبة)[1]، كي يُهيئوا شعيتهم لتفهم الموقف؛ لتصبح عقيدة (الغيبة) و(انتظار الفرج) فيما بعد من أهم عقائد الشيعة الإثني عشرية. ووفقاً لهذه العقيدة بات الاصطبار وتحمل الشبهات والفتن الملمة بالمؤمنين من فاضل الأعمال وأحمزها هذا من جهة، ومن جهة أُخرى هو بمثابة امتحان وابتلاء يميز الأبرار من المؤمنين عن غيرهم، ويعتبر (الانتظار) في الثقافة الشيعية ـ استناداً لتلك الروايات المعتبرة ـ من أهم العبادات أيضاً، ولا تعني الغيبة انفصاله عن مصير الأُمّة مادياً ومعنوياً، حيث يبقى العالم بشكل عام، والمعتقدون بدينه ودين آبائه بشكل خاص على اتصال ببركاته ومده المعنوي كشمس حجبتها الغيوم دون أن تحجب منافعها وأثرها عن ساكني الأرض.

أما بالنسبة لظهوره، فثمة علامات لا بدّ من تحققها قبل ذلك، وقد ذكرت تلك العلامات مفصلاً في المصادر الآنفة الذكر وغيرها من المصادر الروائية، من أبرز تلك العلامات شيوع الأوبئة والأمراض، وارتفاع كلفة المعيشة وصعوبة القوت، بالإضافة لتفشي الظلم والجور في أنحاء العالم[2]. وتذكر تلك المصادر أيضاً علامات خاصة لذلك، أبرزها اندلاع ثورات الحق ضد الباطل، ومن أشهر تلك الحركات الثورية ثلاث هي:

أولاً: نهوض اليماني في اليمن.

ثانياً: الخراساني براياته السود يبدأ من خراسان وصولاً إلى ضفاف

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق، الأبواب ٢٤-٣٨، دار الكتب الاسلامية.

(٢) منتخب الأثر، لطف الله الصافي الكلبايكاني، الطبعة السابعة، نشر داوري، ص٤٣٩ ـ ٤٥٢.

دجلة. وهناك روايات تشير إلى وجود ثلة من أنصار القائم بين أفراد جيش الخراساني.

ثالثاً: ظهور صاحب النفس الزكية الثائر مع جملة من أتباعه حتى يُقتل[1]. أيضاً ذكرت المصادر الروائية ظهور حركات جائرة معتبرة إيّاها من الأحداث القريبة لزمن الظهور، منها ظهور السفياني في الشام في شهر رجب فيحكم تسعة أشهر فيجهز جيشاً لمحاربة المهدي، إلاّ أن الأرض تخسف به إعجازاً من الله عزّ وجلّ، كذلك الدجال بمظهره الغريب الذي يقتل على يد المهدي[2].

يذكر أن بعض المفكرين من المسلمين أخذوا بظاهر هذه التنبؤات، فاعتبروا السفياني والدجال عناوين يمكن صدقها على كل انسان مخادع وماكر، أو كل نظام وثقافة خاطئة ظالمة[3].

إذن، بظهوره يعم الدين الإسلامي سائر الأقوام والشعوب، وهذا لا يعني بأنه سيقضي على من هم ليسوا مسلمين ويبقي على شيعته، بل بالإمكان أن يكون من أنصاره المسلم وغيره من سائر الأديان، ويمكن

---

(١) كما قلنا سابقاً أن لقب النفس الزكية هو العنوان الذي أُطلق على محمد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب ﷺ، وهو من أصحاب الإمام الصادق ﷺ. قاد حركةً سنة (١٤٥هـ/٧٦٢م) وقتل فيها. اُنظر صفحات سابقة من هذا المقال؛ وريحانة الأدب ج٦، ص٢٢.

إذن، هناك تفسيران للنفس الزكية في الثقافة الاسلامية.

(٢) راجع: منتخب الأثر، ص٤٥٤؛ كمال الدين وتمام النعمة ج٢؛ بحار الأنوارج٥٤ و٥٣؛ ينابيع المودة؛ غيبة النعماني.... الخ.

(٣) راجع: مهدي انقلابي بزرك (المهدي.. الثورة الكبرى)، ناصر مكارم الشيرازي، ص ١٩٣–٢٠١؛ انتظار مذهب اعتراض، علي شريعي، ص ٤٢.

أيضاً أن يضلع عن دربه من هم من شيعته بالأصل، حيث يروي النعماني في كتابه الغيبة فيقول: «إذا خرج القائم، خرج من هذا الأمر من كان يرى أنه من أهله، ودخل فيه شبه عبدة الشمس والقمر»(١).

وستعم فتوحاته سائر أنحاء العالم، وسيلتقي ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً من شتى بقاع الأرض دون موعد سابق هم أصحابه الخلّص الأبرار، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وبه يتكامل عقل الإنسان فيعم السلام على الجميع، ومن الناحية المادية أيضاً سيعيش الجميع برفاهية، وتخرج الأرض كنوزها ومعادنها(٢). ويضاف إلى تلك الأحداث والعلامات نزول عيسى من السماء عند قيام المهدي عليه السلام.

فالمسيح - وفقاً للفكر الإسلامي - لم يصلب أو يقتل، إنما صعد للسماء الرابعة حياً. ويقتدي عيسى بإمامة المهدي فيصلي خلفه ويكون من أنصاره، وتنص الروايات على أن المهدي سيحكم لمدة تسع عشر سنة وبضعة أشهر(٣).

النقطة البارزة في قصة المهدي، هي مع أنه يأتي داعياً للإسلام، إلاّ أن الإسلام الذي سيطرحه يكون غريباً لدى الناس، وهذا هو معنى قول الرسول صلى الله عليه وآله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»(٤).

---

(١) الغيبة، النعماني، ص ٢١٧، باب (ما جاء في ذكر الشيعة عند خروج القائم).

(٢) منتخب الأثر، ص٤٦٨-٤٧٨، وقد فسرت بعض الاتجاهات هذه الأخبار بتأويلات مختلفة وعديدة.

(٣) الغيبة، النعماني، ص٢٣١ - ٢٣٢، وهناك روايات عديدة في هذا المجال؛ راجع أيضاً منتخب الاثر، الفصل التاسع.

(٤) «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء». الغيبة للنعماني، باب بهذا العنوان. وقد فسرت هذه العبارة في الروايات بالدعوة لظهور القائم: «عندما يظهر قائمنا يدعو الناس بما هو غريب عليهم كما دعاهم الرسول صلى الله عليه وآله».

ومن جملة المعتقدات الشيعية المرتبطة بموضوع الموعود وظهور المهدي، هي مسألة (الرجعة). فقد نصّت العديد من روايات الشيعة على عودة بعض الماضين من الموتى عند ظهور المهدي، وإن اختلفت النصوص فيما بينها في بيان ذلك. فتارة اعتبرت (الرجعة) مختصة بأُولئك الذين هم قمة في الإيمان أو الكفر[1]، وتارة تنصّ على رجوع سائر المؤمنين، أو تخصصها بعودة الأنبياء أو الرسول ﷺ أو الإمام عليّ عليه السلام أو الحسين بن علي عليه السلام أو عودة بعض الأفراد من كل أُمّة، أو أن الرجعة مختصة بمجموعة من المؤمنين، أو مجموعة من المعصومين. وقد كتبت فيها بحوث عديدة، فاعتبرها المجلسي (المتوفى سنة ١١١١هـ/ ١٧٢١م) من ضروريات الشيعة[2]. واكتفى بعضهم بقبول أصل (الرجعة) وناقش في الجزئيات[3].

وهل ينتهي العالم بظهور المهدي ونهاية حكومته فتقوم القيامة؟ أيضاً وقع في ذلك خلاف وتعددت الروايات، حيث نصّت بعض الروايات على إمكانية ظهور حكومات بعد حكومة المهدي.

وروى الشيخ الطوسي في الغيبة عن الصادق عليه السلام قوله: «يا أبا حمزة إنّ منا بعد القائم أحد عشر مهدياً من ولد الحسين»[4]، وقد ورد هذا النص في أكثر من موضع، منها في بعض الأدعية الواردة عن أئمة أهل

(١) «... لا يرجع إلاّ من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً». بحار الأنوار ج١٣، ص ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع: تاريخ ما بعد الظهور، محمد الصدر، دار التعارف، ص ٦٢٩ ـ ٦٣٩.

(٤) الغيبة، الشيخ الطوسي، مطبعة النعمان ـ النجف، ص ٢٨٥.

البيت عليهم السلام، حيث دعوا فيها للخلفاء والأئمة من بعد المهدي[1].

تأسيساً على ذلك، لا ينتهي العالم بعد المهدي وحركته، بل ستستمر حكومة الصالحين للأرض. أما في بعض الروايات الأُخرى فقد نصّت على ظهور (الحُجة) قبل يوم القيامة بأربعين يوماً فقط، الأمر الذي ينطبق على غير الإمام المهدي(عج)، أي ممن يأتون بعده[2].

وأخيراً نشير فيما يتعلق بعقيدة الإثني عشرية إلى مستوى تلقي هذه العقيدة بين أبناء هذا المذهب ورقعة انتشارها الواسعة. فاليوم في إيران ذات الأغلبية الشيعية توجد دلالات عديدة على مصداقية الاعتقاد بالمهدي عندهم، فمن أبرز مظاهر ذلك إقامة المراسم والاحتفالات البهيجة في ذكرى ولادة المهدي(عج) في النصف من شعبان سنوياً، ويعتبر ذلك عيداً هاماً من أعيادهم ومناسباتهم ويقام بشكل واسع جداً.

كذلك دلت نصوصهم الأدبية الدينية وبغزارة على ثبوتية فكرة (المهدوية).

ولا بدّية انتظار الإمام الثاني عشر.

وخلاصة القول: إنّ أُصول ومبادئ الفكرة الرئيسة هي من مسلمات أبناء المذهب باستثناء بعض المسائل النادرة الجزئية.

نمطية المصلح الإسلامي

من الممكن تصوير المصلح غير الشيعي، وحتى الشيعي غير الاثني عشري في قالب واحد برؤية موحدة، أما بالنسبة للموعود الاثني عشري،

---

(١) مفاتيح الجنان المعرب، الشيخ عباس القمي، ص ٥٤٢.

(٢) راجع: تاريخ ما بعد الظهور، ص ٦٤٤.

فلا بدّ بلا شك فرزه عن هذا القالب نظراً للخصائص التي يتضمنها. والمصلح الإسلامي (المهدي) بلحاظ ماهيته هو موعود (شخصي) وفردي، ذلك الرجل المميز القادم من أجل إحياء حكومة الحق. لكنه يبقى (مجرد بشر عادي) خلافاً للمسيح عند المسيحيين وما له من سمة (الألوهية). أما في نظر المتعمقين من الإمامية، فهو من سلالة الأئمة المعصومين، وكأجداده له صفات خاصة ومتميزة، فلا يمكن مقايسته بسائر المصلحين والقادة في المجتمعات.

من ناحية الدور والفاعلية يجب أن يكون المهدي الموعود في جملة (المصلحين الشموليين) في قبال (موعود النجاة الفردية)، خلافاً لموعود البوذيين (المهيانة) الذي لا يدور في خلده سوى خلاص مجموعة من الناس، دون إقامة حركة اجتماعية شاملة.

أما عند الشيعة الإثني عشرية وبعض التيارات المتصوفة من السنة، فالمهدي الموعود هو عبارة عن المصلح والهادي للبشرية، مضافاً لثورته الاجتماعية وتعهده بإيصال المجتمع لمرحلة الفناء، من هنا يكون له دور مباشر مع سائر أفراد المجتمع دون استثناء.

إنّ دور المهدي المصلح عند أهل السنة وأكثر فرق الشيعة، هو اجتماعي في الأعم الأغلب، أما من وجهة نظر الإثني عشرية فهو ليس مجرد (مصلح اجتماعي)، ولا أنه مجرد مصلح (معنوي) حيث ان الظهور يحقق بالإضافة لإقامة العدل والإسلام والرفاهية، كذلك ينشر الحق ويظهره للناس فتتكامل عقولهم، فهو في الحقيقة يوفر ظروف الديانة والتوحيد. إذن، هو مصلح (معنوي ـ اجتماعي). ولعل التأكيد على هذه النقطة هي من مميزات المذهب الإثني عشري.

ونظراً لوسعة دائرة إصلاحه وشموليتها يمكن القول صراحة بأنه ليس موعوداً (قومياً)، بل إنه يصبو لخلاص ونجاة العالمين جميعاً، ومن ناحية الأهداف إن فرضنا غاية (المهدي) هي الإحياء والتجديد، وعودة السنة النبوية، وإقامة مجتمع صدر الإسلام، فهو مصلح (ناظر للماضي) وآخذ به، ولعل هذه هي الرؤية العامة لدى أهل السنة والكثير من فرق الشيعة. أما من خلال قراءة روايات الإني عشرية، فمع أنه يأتي مبيناً للإسلام بالدرجة الأولى، إلاّ أن ذلك يشبه إلى حدٍّ كبير الدعوة النبوية ذاتها حين دعت لما هو غريب لدى الناس، لذا يتعين القول بأنه مصلح (مستقبلي) مع سائر أنماط المصلحين المستقبليين إلى جانب مجموعة (المصلحين النهائيين) وإن كان هناك تساؤل ونقاش في هذا الباب.

ولا يمكن القطع ـ كما تقدم ـ بإثبات (الدور التكويني) للمهدي، ذلك لوجود غموض في مسألة ظهوره واتصاله بنهاية العالم نظراً للاختلاف الموجود بين الروايات. إلاّ أنه يمكن تقريب ذلك بأن نهاية العالم متحققة بعد ظهوره (ولو بشيء من التأخير)، مضافاً لذلك يمكن افتراض (دور تكويني) للمهدي لو أخذنا بنظر الاعتبار الصفات المرتبطة به من قبيل: (الحجة)، أي حجة الله و(صاحب الأمر)، فهي مؤشرات على وجود علاقة في مسألة تدبير الكون وفي الصميم منه.

❊ ❊ ❊

العصبيَّة والمهديَّة عند ابن خلدون

قراءة تحليلية نقديّة

الشيخ زين العابدين شمس الدين

مقدمة

تاريخية الاعتقاد بالمهدي

ساد الاعتقاد بفكرة المصلح المنتظر أكثر المجتمعات البشرية، وكان ينبع في كثير من الأحيان من منابع عقديّة دينيّة بوجه خاص، وإن تعدّت في أحيان أُخرى هذا الجانب لتخلع عليها طابعاً فلسفياً يتماشى مع القانون الطبيعي للحياة. إلا أن هذه الفكرة تبلورت بشكل مهم في صياغتها الإسلامية عموماً، والشيعية على وجه خاص، كما تمَّ التأكيد عليها كثيراً في الموروث الإسلامي، حتى اعتبرها الكثير من المسلمين جزءاً من عقائدهم، وعُرفت عندهم باسم المهدي المنتظر.

فالمهدي يشكّل جزءاً من تاريخ المسلمين ومن ثقافتهم، وقد وصلت هذه الفكرة إلى الحدّ الذي جعلهم يتسالمون عليها بجميع طوائفهم ومذاهبهم. وهم، وإن اختلفوا في بعض خصوصياتها ومجال تطبيقها، بيد أن هذا الاختلاف لم يؤثِّر على قوّتها ورسوخها في أذهان

جميع المسلمين. كما أنه لم ينل من اهتمام أكثرهم بتدوينها في كتبهم، سوى ما قد يظهر من صحيحي البخاري ومسلم، حيث لم ينقلا في كتابيهما أحاديث صريحة في المهدي، وإن كان هناك العديد من الروايات التي تعتبر صحيحة على مبناهما في الصحة[1]، لكن مع ذلك كله، فقد ورد في هذين الكتابين ما يمكن أن يؤيد وجود فكرة المهدي عند المسلمين، عبر ما روي من روايات تتعلق بعصر الظهور.

وقد بقي هذا التسالم والإجماع حاجزاً منيعاً أمام من أراد الدغدغة في روايات المهدي ـ على ما وجدناه في تاريخ دراسة هذا الموضوع ـ إلى أن غاص المؤرخ ابن خلدون في غمار المناقشة فيها وإثارة الشكوك حولها، بيد أنّ ابن تيمية نقل عن أبي محمد بن الوليد البغدادي إنكاره لروايات المهدي، وناقشه في كتابه الخاص حول المهدي، كما ناقشه في كتاب منهاج السنة[2].

وإذا صحّ هذا النقل من ابن تيمية، فسوف يكون البغدادي أول من أثار التساؤل حول المهدي ممن وصلنا، إلا أن عدم وصول أي كتاب أو رسالة إلينا تحكي ذلك عنه غير ما نسبه إليه ابن تيمية، يمكنه أن يصحِّح القضية القائلة: بأن أوّل ما وصلنا من كتاب اقتحم صاحبه فيه الكلام حول المهدي والمهدية، هو كتاب المقدمة لابن خلدون، فاتحاً بذلك الباب

(١) أنظر على سبيل المثال ما نقله الحاكم النيسابوري من روايات كثيرة في المهدي عند تعرضه لأخبار الملاحم والفتن، وقال إنها صحيحة على شرط الشيخين في الصحة، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت: ٤ : ٥٥٣ وما بعده.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ : ٨ : ٢٥٦.

أمام الكثير من المشكِّكين، الذين اعتمدوا عليه فيما بعد، وإن حاول ابن خلدون نفسه إيهام القارئ وجود الكثير من المنكرين لأحاديث المهدي أو الخادشين برواياتها ممن تقدم عليه، كما سوف يأتي، إلا أن عدم إيراده إسماً لأحد منهم، يجعل كلامه مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا يمكن اعتمادها كأساسٍ ومرجع في ذلك.

إبن خلدون وأحاديث المهدي

عقد ابن خلدون فصلاً خاصاً بأمر الفاطمي المنتظر[(١)]، حيث قال «اعلم أنّ المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار أنّه لا بدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيّد الدين ويظهر العدل...، ويحتجّون في الشأن بأحاديث خرّجها الأئمة وتكلّم فيها المنكرون لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار، وللمتصوّفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أُخرى ونوع من الاستدلال، وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم»، ثم شرع بذكر حال بعض رواة أحاديث المهدي، ونقل طائفة من هذه الأحاديث وناقشها سنداً باتباع قاعدة «أن الجرح مقدَّم على التعديل، فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي، تطرّق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها».

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م. عرض ذلك في الفصل الثاني والخمسين من الفصل الثالث الخاص بالدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية. ونحن سوف نقتصر على ذكر بعض المقتطفات منه، تاركين الإشارة إلى مصدر كل فكرة بعينها، وعلى القارئ أن يطلب الزيادة من المصدر المذكور.

لكن اتّباع هذه القاعدة قد يوقعه في متاعب كثيرة، إذ قلّما تجد من الرواة من تسالم عليه جميع علماء الرجال، ومن ثَمَّ، فيطال النقد والتفنيد صحيحي البخاري ومسلم ذاتهما، ويؤدّي ذلك إلى رفض الكثير من رواياتهما، وهذا ما لا يرضى به ابن خلدون نفسه، إذ أن روايات هذين الصحيحين غير قابلة للطرح، وإن كان في طرقها من جُرِّح من الرواة، إلا أن ابن خلدون تنبّه لهذه المفارقة فقال: «لا تقولّن مثل ذلك يتطرّق إلى رجال الصحيحين، فإن الإجماع قد اتصل في الأمّة على تلقّيهما بالقبول والعمل بما فيهما، وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفعاً، وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك».

ثمّ بعد ذلك، استعرض ثلاثة وعشرين حديثاً، وانتهى إلى تضعيف تسعة عشر منها عبر إعمال قاعدة: «أن الجرح مقدّم على التعديل»، مقراً في الوقت ذاته بصحة أربعة أخبار، فقد قال عقب ذلك: «وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد، إلا القليل والأقل منه».

ثمّ استعرض بعضاً من كلام المتصوّفة في حديثهم عن المهدي، وحلّل بعض رموزهم المدونة في تعيين زمن خروجه، وناقش كلام كبار علمائهم كأمثال ابن عربي وابن القيسي وابن أبي واصل وغيرهم، ثم عقّب على ذلك بقوله: «هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة، وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي، قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا».

ثم يشير بعد الانتهاء من استعراض ذلك إلى تنافي فكرة المهدية مع النظرية التي كان قد أسّسها سابقاً ـ عند حديثه عن العمران البدوي، وعن الدول العامة والملك والخلافة ـ واعتبر أن قيام الدول إنما يكون على

أساسها، وهي نظرية العصبية بقوله: «والحقّ الذي ينبغي أن يتقـرّر لـديك أنه لا تتمّ دعوة في الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه، حتى يتمَّ أمر الله فيه، وقد قرّرنا ذلك مـن قبـل بـالبراهين القطعية التي أريناك هناك».

وبعد ذلك يشرع بتطبيق هذه النظرية على واقـع المهـدي المنتظـر، في مقام استبعاد هذه الفكرة بقولـه: «وعـصبية الفـاطميين ـ بـل وقـريش أجمع ـ قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمـم آخـرون قـد اسـتعلت عصبيتهم على عصبية قريش، إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينـة من الطالبيين... فإن صحَّ ظهور هذا المهدي فلا وجـه لظهـور دعوتـه إلا بأن يكون منهم، ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعـه حتـى تـتم لـه شـوكة وعصبية وافية... وأما على غير هذا الوجه... فلا يتم ذلك ولا يمكن، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة».

ثم يستعرض أخبار وحالات بعـض مـن ادعـى المهديّـة فـي غيـر عصبية وشـوكة فـي أهلـه، وكيـف أنّ مـصيره قـد انتهـى إلـى الهـلاك والإهلاك، وآل إلى موت هذه الحركات في مهدها، مستفيداً من ذلك في تدعيم أصل نظريته، وأنّ ما جرى من أحداث تاريخية يتوافق مـع فكـرة العصبية.

خلاصة رأي ابن خلدون في المهدي

ما تقدم هو خلاصة ما ذكره ابن خلدون في شأن الفاطمي المنتظـر، وما أثاره من تساؤل ومناقشة للروايات، انتهت إلى التـشكيك فـي أصـل الفكرة، وهذا التساؤل والتـشكيك ينطلـق فـي الواقـع مـن ثلاثـة أركـان أساسية:

١ ـ ضعف روايات المهدي، وعدم صلاحها لتكوين فكرة عقدية.

٢ ـ بيان كذب دعاوى المتصوفة التي كانت تعيِّن زمان ومكان خروج المهدي المنتظر، والتي استفاد منها في تأييد بطلان أصل الفكرة.

٣ ـ معارضة فكرة المهدي المنتظر للنظرية التي تبنَّاها ابن خلدون في كيفية بناء الدول والحكومات، القائمة على أساس العصبية.

وما يهمّنا في هذه الوريقات، هو تسليط الضوء على الركنين الأول والثالث، تاركين الخوض في بيان الركن الثاني ومناقشة دعاوى المتصوفة، وهل أن مخالفة إخبارهم لواقعة تحكي فكرة معينة، تلازم القول بإنكار هذه الفكرة من أساسها، أو لا؟ وهل أن تفسير كلامهم بذكر زمن معين لخروج المهدي، كما حصل معهم، هو فعلاً ما يضربونه من وقت في ذلك؟

إنَّ الخوض في استعراض هذه المطالب، قد يلجئنا إلى دراسة مفصَّلة لكيفية حلّ ألغاز المتصوفة، وطرق تحليل رموزهم. وإلا فمن الصعوبة بمكان أن يحصل الباحثون على نتيجة موحَّدة في حلِّهم لتلك الرموز، لإمكانية دعوى أن ما توصَّل إليه هذا الباحث في تحليله للرمز هو غير ما قصده كاتب الرمز نفسه، ومن ثَمّ فيصعب التوصل إلى نتيجة مقنعة ومُبرهن عليها في هذا الصعيد، ما لم يتوصل إلى توحيد طرق تحليل هذا الرمز.

هذا، مضافاً إلى أن التعرض للإجابة على مثل هذه الإشكاليات، والدخول في أبحاث جانبية، قد يُلجئنا للخروج عن أساس بحثنا والموضوعية العلمية التي يجب المحافظة عليها.

وحتى يتضح المراد من استخدام نظرية العصبية في رد فكرة المهدي، لا بدّ من بيان أصل هذه النظريّة عند ابن خلدون التي يعتبرها الأساس في قيام أيٍّ دولة.

نظريّة العصبيّة عند ابن خلدون[1]

من الصعب تعريف العصبية عند ابن خلدون، لما تحمله هذه الكلمة من معان عنده قد تصل إلى حد التباين أحياناً، كما سوف يظهر، إلا أن ذلك لا يقّف حائلاً أمام بيان ما تحتويه من معنى بشكل إجمالي؛ فقد عرّفها الجابري «بأنّها رابطة اجتماعيّة سيكولوجيّة ـ شعوريّة ولا شعوريّة ـ تربط أفراد جماعة معيَّنة قائمة على القرابة المادّية أو المعنوية، ربطاً مستمراً يبرز ويشتدّ عندما يكون هناك خطر يهدّد أولئك الأفراد كأفراد، أو كجماعة»[2].

ويعتبر ابن خلدون أن منشأ العصبية ينطلق من مبدأ «الوازع» الذي يردع الإنسان عن الاعتداء على بني جنسه، والمراد بالوازع يتّضح ببيان التناقض الموجود في الإنسان والمجبول عليه بنو آدم، فهو من جهة يُعتبر مخلوقاً اجتماعياً، لا يمكنه الاستغناء عن أخيه الإنسان، ومن جهة أُخرى

---

(١) استعرض ابن خلدون نظرية العصبية في الفصل الثاني من الكتاب الأول عند تعرضه لذكر العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال، وتممها في الفصل الذي يليه الذي يتحدث فيه عن الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية. ونحن لن نتعرض لذكر مصدر كل فكرة على حدى، فاسحين المجال أمام القراء لمراجعة المصدر المذكور.

(٢) الجابري، محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد : ٢٥٤.

مجبول على صفة عدوانيّة بطبيعته؛ «فمن امتدّت عينه إلى متاع أخيه امتدّت يده إلى أخذه، إلا أن يصدّه وازع». وهذا ما تشير إليه الآيات القرآنية ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]. كما أنّ هذا الخلق موجود في ثقافة العرب الجاهليين:

والظلم من شِيَم النفوس فإن تجد ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يظلمُ

وهذا الوازع الذي يمنع من التعدي، ينقسم إلى نوعين: أحدهما وازع داخلي ينبع من ذات الإنسان، فهو لا يظلم ولا يعتدي لأنه يرى ذلك مخالفاً لقناعاته ومرتكزاته الفطرية، والوازع الآخر خارجي وهو الذي توجبه السلطة وتفرض احترامه على جميع أفراد المجتمع.

يحاول ابن خلدون ـ في كلامه عن الوازع ـ أن يسلّط الضوء على الوازع الخارجي تاركاً الخوض في معالجة الوازع الداخلي، باعتبار أنه لا يتعدّى كونه خُلقاً كريماً من خصوصيات الإنسان الفردية، لا يمكن قولبته في قالب نظري، كما أنه لا يساعد في الكشف عن صياغة قانونيّة في واقع اجتماعي.

أ ـ الحاجة إلى العصبيّة

إن انتظام حياة الإنسان إنما يكون على أساس الوازع الخارجي، وبه تستمر الحياة الاجتماعية، ومنه تنشأ الحاجة إلى وجود سلطة تحفظ تماسك المجتمع، وتمنع العدوان الخارجي عليهم، أو عدوان بعضهم على بعض.

---

(١) سورة البلد، آية: ١٠.

(٢) سورة الشمس، آية: ٨.

لكنّ طبيعة المجتمعات تفرض تغايراً في إعمال السلطة والوازع:

فالمجتمعات المدنيّة ـ ولوجود الحكومات الحافظة لمصالح الرعيَّة ـ تعتمد على حكوماتها في الحماية من الأخطار الداخلية فيما بين سكان المدينة أنفسهم، كما أنها تعتمد على الأسوار المحيطة بالمدينة، وعلى مرتزقة السلطان والحاكم في دفع العدوان الذي يهدّدهم من الخارج.

والأمر يختلف تماماً في المجتمعات البدويّة، حيث تعتمد هذه المجتمعات على هيبة شيوخها وكبرائها في دفع عدوان الناس بعضهم على بعضهم الآخر، كما أنها تعتمد في دفع العدوان الخارجي ـ الذي كثيراً ما كان يقع لأجل السيطرة على موارد الرزق واستلاب بعضهم البعض الآخر، لشحٍّ الموارد الخصبة في أماكن سكنى هذه القبائل في الصحاري ـ على حامية الحيٍّ من فتيانهم ونجبائهم الشجعان، لكنّ هذا الدفاع عن حيِّهم والتضحية لذلك، لا يمكن أن يتمّ إلا إذا كانوا عصبيّة واحدة وأهل نسب واحد.

من هنا يتّضح أن العصبيّة عند ابن خلدون، إنما تتكوَّن في خصوص المجتمعات البدويّة ويُحتاج إليها في الحياة بالبادية، كما وأن الضرورة التي ألجأت إليها هي ردع العدوان المحتمل على القبيلة.

ب ـ توسيع دائرة العصبية

تنشأ العصبيّة أوّل الأمر بين أفراد القبيلة الواحدة الذين يجمعهم نسب واحد، لكن قد تتعدّى هذه الدائرة الضيّقة، لتشمل نسبة الولاء والتحالف مع القبائل الأُخرى الذين لا يشتركون معهم بعلاقة نسبيّة، وهذا التحالف والولاء كانا ينشأان غالباً من الشعور بالضعف أمام تهديدات الأعداء، فكانت القبائل تلجأ ـ غالباً ـ إلى التحالف لدفع هذه الأخطار،

ويشير صاحب النظرية إلى هذه المسألة بعد عرضه للحمة النسب بقوله: «ومن هذا الباب الولاء والحلف، إذ نعرة كلّ أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها»، من هنا اضطرَّ الجابري إلى توسيع دائرة النسب عند ابن خلدون، مدخلاً إياها في عداد الاجتماع لأجل مصلحة مشتركة، حيث قال: «فإنّ النسب عند ابن خلدون ليس الانتماء إلى جدّ مشترك، سواء كان الانتماء حقيقياً أو وهمياً، بل إن المقصود بالنسب عنده هو الانتماء الفعلي إلى جماعة معيّنة، أي إلى عصبة ما»[1]. بل سوف يظهر بعد قليل أن عامل وحدة الدين والنعرة الدينية قد تفوق عصبية النسب بالدم والانتماء القبلي.

لكن يبقى للحمة النسب أهمية بالغة في السيطرة على الرئاسة، فإنّ اللحمة كلّما كانت قريبة كانت العصبية أشد. لذا كانت عصبية الأخوة أكبر من عصبية أبناء العمومة، وهكذا في غيرهم، من هنا كانت الرئاسة في القبيلة الواحدة من نصيب من له الغلب، ويتوقف ذلك على وجود عصبية أُخرى تكون هي الأقوى في هذه القبيلة تعمل على تدعيم زعامة هذا الرئيس.

ج ـ فائدة العصبية

يجعل ابن خلدون الحصول على الملك والسيطرة على السلطة من أهم غايات العصبية، لأن طلب الملك من الأمور التي جبل عليها الإنسان،

---

(١) الجابري، مصدر سابق : ٢٦٠.

ولا يقنع باليسير منها، فإنه إذا حصل له ملك، امتدت عينه إلى ملك أوسع منه. وعندئذ، فهو بحاجة إلى قومه وعصبيته للوصول إلى ما يطمح إليه؛ يستعين بهم ويتقوى بقوتهم، وهم بالمقابل يعينوه على الوصول إلى غايته للعصبية الموجودة عندهم والتي تدفعهم إلى ذلك، فضلاً عمّا سوف يعود عليهم من الترف والنعيم فيما إذا توسع ملك صاحبهم، ومن ثمّ... ملكهم.

وبعد أن يحصل الزعيم على الملك الجديد وتتوسع دائرة نفوذه، يتحسّن وضع القبيل ـ وهم أصحاب العصبية الواحدة ـ الذين أعانوه للوصول إلى ذلك، ويستولون على النعمة بمقدار سلطانهم، فيبدأ الترف يدخل إلى حياتهم عبر تدفّق الأموال والثروات عليهم، مما يؤثّر ذلك على خشونة البداوة وقوّة العصبية التي كانت لديهم، فتضعف عندهم العصبيّة، وينشأ بنوهم بعيداً عن الحاجة إليها، إلى أن تتناقص وتصل إلى حدّ الانقراض، وعند انقراض العصبية، يقصر القبيل عن الدفاع والحماية عن السلطة، مما يؤدّي ذلك إلى أن تطمع بهم الأمم الأُخرى فتلتهمهم وينتهي ملكهم إلى غيرهم.

د- أثر الدعوة الدينيّة في العصبيّة

يشير ابن خلدون إلى مدى تأثير الدعوة الدينية في بناء الدول وقوّة شوكتها، فيعقد فصلاً خاصّاً في أنّ الدعوة الدينيّة تزيد الدولة قوّة مضافاً إلى قوّتها العصبيّة، ويستشهد لذلك بما حصل في الفتوحات الإسلامية؛ حيث كان عدد جيش المسلمين في معركة اليرموك بضعاً وثلاثين ألف رجل، بينما كان جيش الروم فيها في حدود الأربعمائة ألف رجل، وكذلك في حرب القادسيّة حيث كان جيش الفرس فيها في حدود المائة وخمسين ألفاً والمسلمون ثلاثين ألفاً، ومع ذلك استطاع المسلمون

التغلب على جيوش كسرى وقيصر بواسطة العصبية الدينية التي كانت تشدُّ هممهم.

ويعطي على ذلك نموذجاً آخر: وهو ما حصل للموحّدين في المغرب العربي، الذين غلبوا قبائل زناتة وملكوهم مع قوّة عصبيتهم، وذلك لاقتران قيامهم بالدعوة الدينية. لكنّهم بعد أن تخلّوا عن صبغتهم وعصبيتهم الدينية، تغلبت عليهم زناتة نفسها وبدَّدت شملهم.

ثم يحاول ابن خلدون أن يوسع من دائرة هذه النظرية على الأمم السابقة أيضاً، حيث يطبّقها على دعوة الأنبياء عليهم السلام، بدعوى أن الأنبياء أنفسهم لم يخرجوا في دعوتهم إلى الله تعالى عن هذه السنَّة القاهرة. مستدلاً لذلك بما ورد في (الصحيح) ــ والعجب منه كيف وصف هذا الحديث بالصحيح والحال أنه بناء على ما تقدم من مبانيه في التوثيق والتضعيف يكون ضعيفاً، كما سنذكر ـ «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه»، مضافاً إلى أن الأنبياء قد دعوا إلى الله بعشائرهم وعصائبهم، ثم يستشهد على ذلك بما جرى في زمن بني العباس من قيام لأشخاص دعوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دون عصبية، حيث لم يكن أصحاب هذه الدعاوى يعرفون عاقبة دعواتهم، وأنهم ممن غلبهم الوسواس وسيطر عليهم الوهم؛ «والذي كان يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإما التنكيل بالقتل والضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدّهم من جملة الصفّاعين».

ثمّ بعد أن ينتهي من استعراض الأثر الذي تتركه العصبية على قيام الدول، يشير إلى أنّ هذه العصبيّة ذاتها تؤثّر أيضاً في موت الدول

والحكومات، حيث إنّ ضعف العصبية عند أهل النسب الواحد أو أهل عصبية واحدة، سيؤدي إلى تراجع الدفاع عن الملك والحكم. وبذلك يكون الملك لديهم قد فقد أهم عامل في حفظه، ممّا ينذر بنهايته، وانتقاله عنهم.

إلى هنا، تنتهي أبرز فصول نظرية العصبية عند ابن خلدون، وأهم مراحل تطوّرها وتأثيرها على بناء الدول وموتها، وقد عرضناها باختصار.

ربط نظرية العصبية بإنكار المهدي

استعان ابن خلدون ـ كما أسلفنا ـ بالنظريّة التي أسّسها في بناء الدول، على إنكار المهدي، واعتبر أن هذه الفكرة تتناقض مع نظريّته المسلّمة والثابتة بالأدلّة والبراهين، وذلك لأن هذه النظرية تُثبت عدم إمكان نجاح أيّ قيام أو ثورة من دون أن تشتمل على عصبيّة تُؤمّن لها تغطية العامل البشري في هذه الثورة، وحيث إن أهم عامل في تقوية العصبيّة ينبع من النسب، ويعتمد اللحمة النسبية أساساً له ـ كما ذكرنا في بيان هذه النظرية ـ فهي بحاجة إلى وجود كمٍّ كبير من المنتمين إلى نسب واحد مستعدّين للتضحية في سبيل الدعوة التي يقوم بها صاحبهم وزعيمهم، وإذا طبّقنا ذلك على المهدي الفاطمي، وجدنا أن الهاشميين أو العلويين ـ وهم عصبة الفاطميين الذين يمكن للمهدي أن يعتمد عليهم في دعوته ـ قد انقرضت شوكتهم وانتهت عصبيتهم، ولم يعد منهم مجتمعين في مكان واحد وعلى رأي كذلك، إلا بقية لا تنفع في تلبية حاجات القيام والثورة، كما لا يمكنها أن تشكّل عصبية قويّة يمكن للمهدي أن يتّكئ عليها في حركته، فضلاً عن تأسيس دولة عالمية خالية من آفات الظلم والفساد، كما هو المفترض.

وقفة مع ابن خلدون في أخبار المهدي

سوف نتوقّف قليلاً مع ابن خلدون في معالجته لأخبار المهدي، وهو الركن الأوّل الذي بنى عليه ردّه لهذه الفكرة. وتوقُّفُنا في المقام سيقتصر على إثارة بعض الملاحظات الهامة:

١ ـ يظهر من ابن خلدون عدم امتلاكه الخبرة الكافية في تحقيق الأخبار، ومعرفة الصحيح من الضعيف من الروايات، كما أنّه ليس لديه إلماماً بالقواعد الرجالية المعمول بها عند الفقهاء والمحدّثين، يمكّنه من الخوض في غمار دراسة أسانيد الروايات. من هنا نرى أنه حاكم هذه الروايات بطريقة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين في الحديث. فضلاً عن أنه لم يراع الطرق المعروفة والضوابط المتبعة عند المؤرخين ـ الذين ينتمي إليهم ابن خلدون ـ أضف إلى أنّه لا يلتزم بإطلاق الصيغة التي قدّمها في انتقاء الأخبار وتنقيتها في غير هذا المورد، وأبرز دليل على ذلك: ما تقدم منه قبل قليل في إطلاقه وصف (الصحيح) على رواية: «ما بعث الله نبيّاً إلا في منعة من قومه»، والحال أنّها ضعيفة بناء على القاعدة التي تبنّاها من أن الجرح مقدّم على التعديل، كما سوف نبين بعد قليل، مما يؤكّد أن هذه الطريقة في علاج الأخبار ليست ناجعة بالمستوى المطلوب، كما أنها ليست مقبولة حتى عند ابن خلدون نفسه.

٢ ـ أوهم ابن خلدون القارئ ـ بعد استعراضه للأخبار ـ أنّ ما أورده منها هو تمام أو جلّ ما ذكره أهل الحديث، حيث قال: «وقد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا»، مع أنّه لم يذكر سوى ثمانية وعشرين طريقاً لثلاثة وعشرين حديثاً. وسوف نذكر أنّ الروايات المرويّة في الكتب التي يعتمد عليها ابن خلدون، والتي تمَّ فيها ذكر المهدي أو

تتحدث عنه وعن عصر الظهور، تفوق الخمسمائة رواية، بطرق مختلفة.

٣ ـ لقد اعترف ابن خلدون في نهاية عرضه للأخبار، بأن بعضها صحيح بناء على مبانيه في الصحة، حيث قال: «وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل». وقوله هذا يؤكِّد إقراره بصحة قسم من الروايات التي عرضها، وهي أربعة أخبار من ثلاثة وعشرين خبراً، وهي تعادل ما نسبته السبعة عشر بالمائة: ١٧٪. وإذا افترض أنه لم يكن قد استثنى أيّاً من الروايات التي أعرض عن ذكرها، بل قام باستعراضها بأجمعها كما كان المتوقّع من باحث مثله، وهي خمسمائة وثمانين طريقاً لأحاديث تتحدث حول المهدي وقيامه، من كتب العامّة فقط، لكان من المفترض ـ بناء على حساب الاحتمال ـ أن يكون لديه من الأسانيد الصحيحة لهذه الأحاديث ما يفوق التسعين سنداً، كل ذلك مع مراعاة القاعدة المتقدّمة في الصحة التي اعتمدها هو. ومثل هذا العدد من الأسانيد الصحيحة كاف في إخراج هذه الأخبار عن كونها أخبار آحاد، لوصولها إلى حدّ التواتر[1].

كما أنه يمكن أن يُكتفى بها في تكوين فكرة عقديّة، كما هو الحال في الكثير من الأفكار العقدية الأُخرى، حيث بُنيت على روايات أضعف دلالة وأقل صحّة من حيث السند، فيكون البناء على هذه الروايات بطريق أولى.

---

(١) العميدي، ثامر هاشم، دفاع عن الكافي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ : ١ : ٢٣٩.

٤ ـ إن القاعدة التي بنى عليها دراسته للحديث، والقائلة بأن الجرح مقدم على التعديل، سوف تفضي إلى إنكار الكثير من أحاديث صحيحي البخاري ومسلم، وهذا ما لا يعمل به ابن خلدون ـ كما ذكرنا ذلك في بداية البحث ـ لذا حاول دفع هذه الإشكالية بالقول بأن روايات الصحيحين قد أخذت بالإجماع، وكفى به حامياً عن ضعف أسناد بعض أخبارهما.

لكن، إن كان المراد بقوله هذا، أنّ ما تمّ الإجماع عليه بين المسلمين قد اكتسب حصانة ومناعة لا يمكن معها أن يدغدغ فيه من جهة ضعف السند أو جهل الرواة، فهذا الأمر تشترك به فكرة المهدي عموماً، وبعض رواياتها على وجه الخصوص، إذ قد ادّعى الكثير من المخبرين والفقهاء وأهل الحديث الإجماع على فكرة المهدي، وتواتر أخبارها، وبل وادعى بعضهم قيام الإجماع على الاعتقاد بهذه الفكرة عند المسلمين جميعاً، ولعلّ ما أشار إليه ابن خلدون في مطلع بحثه عن الفاطمي، من قوله «أن المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار...»، يكاد يكون صريحاً في صحّة هذه الدعوى. وعندئذ، لا يكون هناك أيّ فارق بين الصحيحين ـ بناء على دعواه ـ وبين أخبار المهدي من هذه الجهة، لأن المفترض أن الداعي للحصانة هو قيام الإجماع، وقد انعقد الإجماع على فكرة المهدي، وتسالم القوم على تواتر أخبارها.

وأما إذا كان مراده منها إثبات أنّ فكرة المهدي والأحاديث المحيطة بها لم ينعقد عليها الإجماع، بمعنى إنكار الإجماع صغروياً وعلى مستوى الإثبات، فهذا خلاف ما هو الموجود في كلمات العلماء الذين تعرّضوا لهذه المسألة، وقد أحصى بعضهم من ادعى الإجماع على فكرة المهدية،

أو ادعى تواتر الأحاديث حول المهدي، ما يقرب من ثلاثين عالماً من أهل الاختصاص في هذا المجال[1]، ولعلّ ذكر أسمائهم وبيان أحوالهم، يُخرجنا في هذا البحث عن حدّ الاختصار.

نظرة في تطبيق العصبيّة على فكرة المهدي

الحقّ أن يقال إن نظريّة العصبيّة قد أعطت تبريراً معقولاً لقيام الدول والحكومات وموتها في العهود السابقة، والتي كانت تعتمد على أفراد القبيلة وأصحاب النسب الواحد، كما اتضح من خلال ذلك مدى قدرتها على تبيين سبب طول عمر الدول أو قصرها، ويعتبر هذا سبقاً من ابن خلدون لزمانه، في دراسة شاملة لبناء أساس الاجتماع البشري.

بل إنه يمكن القول إن الحكومات الحديثة والدول المعاصرة، ليست خارجة عن الأسس العامة لهذه النظرية، فإن أي انقلاب أو ثورة على نظام قائم وحاكم لا يكتب لها النجاح، ما لم تكن منبعثة من روح عصبية يمكنها أن تجمع أشخاص مختلفين لأجل هدف واحد، والعمل على إنجاح قضية محورية. سواء كانت هذه العصبية ناشئة من الحسب والقرابة، أو كانت ناشئة من الانتماء الديني والمذهبي، أو حتى من الاجتماع على مشروع سياسي واحد. وهذا ما تقوم به الأحزاب والنظم الحزبية المعاصرة، فإنها تبتني على أسس عصبية تحاول أن تعطّل تفكير الفرد بمصالحه الخاصة ـ التي لا تنسجم مع المصلحة العامة ـ لحساب مصلحة الجماعة والحزب.

---

(١) المقدم، الدكتور محمد أحمد إسماعيل، المهدي وفقه أشراط الساعة، الدار العالمية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ : ١٣٠.

لكن هذا لا يجعلها في منأى عن تسجيل بعض الملاحظات حولها. وقبل ذكر هذه الملاحظات، يحسن بنا أن نشير إلى أن الذين ناقشوا ابن خلدون في تشكيكه بفكرة المهدي، تناولوا مناقشته للأخبار فقط، ولم يتعرض أحد منهم ـ على حدّ مراجعاتنا المتواضعة ـ إلى ما ذكره من تنافيها مع نظرية العصبية التي أسسها في العمران.

١- المجتمع الإسلامي والمجتمع البدوي

لم يفلح ابن خلدون في مناقشته لفكرة المهدي، أن يشير أو يدلِّل على القاسم المشترك بين نظرية العصبية وبين تنافيها مع فكرة قيام المهدي بصياغتها المطروحة إسلامياً، لا الصياغة البدوية التي اعتبرها منشأ هذه النظرية. بمعنى أنه لم يقدِّم أيَّ طرح يمكنه أن يعمّم فيه النتيجة على كافة أنواع المجتمعات البشرية، واقتصر فقط على بيان تنافي هذه النظرية ـ التي افترض ضرورة وجودها في خصوص المجتمعات البدوية، والتي تعتبر مجتمعات ضعيفة ثقافياً أو متخلِّفة في كثير من الأحيان ـ مع فكرة المهدي، علماً بأن مثل هذه المجتمعات في الوقت الحاضر قد تلاشت، أو قلَّ وجودها بنسبة كبيرة لحساب المجتمعات المتمدنة. بل حتى في عصر ابن خلدون، كانت المجتمعات المتمدنة ـ بصيغتها الخلدونية ـ والمتأثرة بالحضارة والثقافة الإسلامية، طاغية في وجودها على المجتمعات البدوية.

مضافاً إلى أنه كان قد فرَّق بين المجتمعات البدوية والمجتمعات المدنية المتحضرة في تأثُّرها بالعصبية، أو تأثير العصبية عليها، فقال هناك، أنه لا حاجة للعصبية في تلك المجتمعات لكفاية الدولة مؤونة الحماية ـ التي هي السبب الرئيس في نشوء العصبية وقوة شوكتها ـ وأن

العصبية في هذه المجتمعات أقل منها عند المجتمعات البدوية. ومع وجود هذا الفارق الأساسي بين كلا المجتمعين، لا يعود لدينا أي مبرِّر لحصر الكلام في مستلزمات الحياة البدوية، وإغفال الحديث عن مستلزمات الحياة الحضرية، فإن الواضح عندنا أن النظام الاجتماعي في الإسلام قد عقد آمالاً واسعة على بذور التغيير والإصلاح التي وضعها في المجتمعات البدوية، للسير قُدُماً نحو مجتمع أكثر تحضّراً في نمط تفكيره وحياته.

ولعلنا بغنىً عن تقديم أدلة على عدم إمكانية توسيع دائرة هذه النظرية إلى غير المجتمعات المتحضرة، لكن يحسن بنا الإشارة إلى أن هذا الفهم لم يأت من العدم، فقد فهم الجابري من ابن خلدون ـ حين استعراضه لهذه النظرية ـ أن العصبية ضرورة تفرضها طبيعة حياة المجتمعات البدوية لا غير، حيث قال: «فالعصبية إذن خاصة بالمجتمع البدوي، وهي ظاهرة تستلزمها المعطيات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هذا النوع من العمران»[١]. كما ويصرِّح في مكان آخر بأن «العصبية ظاهرة خاصة بالبدو، لأن أحياءهم مفتوحة وتحتاج في الدفاع عنها إلى تكتّل وتعاضد فتيانها الشجعان»[٢].

وهذا كله يعني فقدان المبرِّر لمسألة تعارض نظرية سياسية واجتماعية مع فكرة عقدية وتاريخية مسلَّمة، كما شاء ابن خلدون أن يصوِّرها.

---

(١)الجابري ، م. س. : ٢٦١– ٢٦٢.

(٢) الجابري ، م. س. : ٢٥٦

٢- اختلاف الأسس التي تُبنى عليها الدول

إن هذه النظرية ـ في صياغتها للعصبية ضمن إطارها النَسَبي ـ ليست كافية لتبرير قيام الدول في الوقت الحاضر، بناء على تغيُّر نظام الحكم في هذا الوقت عنه عند القبائل العربية، حيث الرئاسة الآن، في أغلب الأنظمة السياسية، إنما تكون لمن يتراضى عليه الناس، ولو كانوا متباعدين نسباً، وحتى لو لم يكن صاحب قوّة ـ بالشكل الذي طُرح في النظرية ـ فإن تحديد ميزان القوة قد اختلف في هذا الوقت عنه في المجتمعات البدوية، فنرى أن القوة تتمثّل الآن بالقدرة على تشكيل ائتلاف سياسي، أو تخضع لإمكانية تشكيل شبكة علاقات واسعة، يستطيع الفرد من خلالها إرضاء خصومه بشكل أو بآخر. وبناء عليه، يمكن أن يصل أي إنسان إلى الرئاسة ـ إذا حاز على شروط تولي السلطة ـ حتى لو لم يكن صاحب عشيرة تتعصَّب له، مما يفتح المجال أمام احتمال نجاح أي قيام يمكن أن يحدث دون أن يكون معتمداً على العصبية النَسَبِيّة.

ومن الواضح أن هذا لا ينسف أساس النظرية التي قدَّمها ابن خلدون، حيث إنها تحكي نظام الحكومات في المجتمعات المتأثرة بالحياة البدوية ضمن الأنظمة السياسية التي كانت سائدة عندهم، بيد أن هذه النظرية ليست مطّردةً بالشكل الذي ذكره صاحبها، ولا يمكن تطبيقها على واقع مختلف عن ذاك الواقع، بل إن ما مارسه العرب من نظام سياسي بعد الإسلام، والذي عُرف باسم الخلافة ـ إلى ما قبل استيلاء معاوية على الحكم، إذ انقلب بعد تولي معاوية إلى ملك بني أمية ـ لا ينسجم مع هذه النظرية بتاتاً، لذلك ينقل الجابري في هذا السياق: «لقد

بنى ابن خلدون نظريته في الحكم على العصبية، وبما أن الخلافة نوع خاص من الحكم، بل هو النوع الخاص بالإسلام، فإن إثبات صواب وعمومية نظريته في العصبية كان يتطلَّب منه إقامة الدليل على أن الخلافة نفسها قد نشأت وتطورت، ثم انقلبت إلى الملك بمقتضى العصبية ذاتها»[1]. وإلا، كان عليه أن يحدِّد فاعلية هذه النظرية ضمن دائرة الأنظمة السياسية البدائية، دون غيرها.

٣- تعارض مصالح العصبية مع المصلحة الدينية

بيَّن ابن خلدون مدى تأثير الدعوة الدينية على العصبية النسبية، وأن الأخيرة تتأثر بالعصبية الدينية إيجاباً، لو فرض توافق كلتا المصلحتين على هدف واحد، لكنّه لم يقدِّم رؤية واضحة في مسألة تعارض مصالح العصبية النَسَبية، مع العصبية المتولدة من الدعوة الدينية، مكتفياً بالإشارة فقط إلى أن العصبية الدينية تزيد الدولة قوة إلى قوتها، وأعطى على ذلك مثال الجيوش الإسلامية في الحروب التي خاضوها لفتح بلاد الفرس والروم. بيد أن زيادة القوة المفترضة هذه، إنما تكون في حالة التقاء مصالح العصبية القَبَلية مع المصالح الدينية، أو لا أقل عدم تعارضهما. وعندئذ يصحُّ القولَ بأن العصبية الدينية تزيد الدولة قوة إلى قوتها العصبيةً، كما افترضه هو في الأمثلة التي قدمها سابقاً.

أما إذا افترضنا وجود اختلاف في المصالح أو التوجُّهات القَبَلية والدينية، فالنظرية ساكتة عن هذه الحالة، ولا توجد أية إشارة إلى ذلك في كلام ابن خلدون، والحال أن التعرض إلى هذا الأمر ضروري، لما له

---

(١)الجابري ، م. س. : ٣٠٧.

من الأثر الكبير في تغيير المسار السياسي للدول والحكومات القائمة على أسس عصبية.

ويشهد بأهمِّية تعارض الدعوة الدينية مع المصالح القبلية، ما حصل للمهاجرين الأوائل في صدر الإسلام، الذين ترفَّعوا على عصبياتهم القبلية، وحاربوا عشيرتهم وآباءهم في المعارك التي خاضوها مع المشركين في بدر وأحد.

وهذا ما يساعدنا في الكشف عن وسائل أُخرى لم يتعرض لها ابن خلدون، يمكنها أن تزيد من قوة اجتماع جماعة وتعاضدهم في سبيل هدف أسمى وأفضل من الأهداف العصبية الأُخرى، وهو بدوره قد يكون متوافقاً مع العصبية النسبية، وقد يكون مغايراً لها.

٤- ارتباط دعوة الأنبياء بالعصبية

حاول ابن خلدون ـ في مقام الاستدلال على صحة كلامه ـ تطبيق نظرية العصبية على دعوات الأنبياء الدينية، فاعتبر أنّ كل دعوة دينية لا بدَّ أن تعتمد في نجاحها على عصبية نَسَبية، مستدلاً على هذا الأمر بخبر «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه»، وبما حصل للأنبياء من اعتمادهم على عشيرتهم وعصبيَّتهم في دعواتهم الدينية.

إلا أن محاولته هذه لم تكن موفقة كثيراً، إذ يمكن أن يقال:

أولاً: إن تطبيق هذه النظرية على الدعوة الدينية يحتاج إلى أدلة أقوى وأوضح مما قُدِّم، بل يحتاج إلى تأويل العديد من الأحداث التاريخية الواضحة. فإن الشواهد التاريخية والقرآنية تؤكِّد حقيقة مهمَّة في هذا السياق، وهي أن أكثر الأنبياء قد أُرسلوا إلى أقوامهم وعشائرهم

بالدرجة الأولى، لا أنهم أُرسلوا إلى أقوام آخرين يستنصرون عليهم بأقوامهم وعصبيتهم، وهذا ما يؤكده القرآن في حكايته عن النبي محمَّد ﷺ حينما قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]. بل إن أهم ما كان يعترض مسيرة الأنبياء، كان ينبع غالباً من المقرَّبين لهم، وفي هذا السياق نرى أن أول من خذل الرسول الأكرم ﷺ هم قومه وبنو عمومته، وقد استنصر عليهم بالأنصار الذين لم يكن يربطه بهم أي علاقة رحمية، أو حتى علاقة سببية في بداية الأمر. وكذلك يُحدِّثنا القرآن عن سائر الأنبياء الذين كانوا يتلقَّون أشدّ أنواع الأذى والعذاب من خاصَّتهم المقربين، من قبيل ما جرى للنبي هود مع قومه عاد حيث يُخبرنا القرآن عنهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[2].

كما ويوجد العديد من النصوص الروائية التي تؤكِّد هذه الحقيقة أيضاً، حيث ورد أن عمه أبا لهب هو أول من كان يقدم على أذيته، نذكر على سبيل المثال ما رُوي في سنن البيهقي: «عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمرَّ وعليه حلة حمراء، فسمعته يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبيه، وهو يقول يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب، فقلت من هذا؟

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٢) سورة هود: ٥٩ – ٦٠.

فقيل هذا غلام من بني عبد المطلب، فقلت فمن هذا يرميه بالحجارة؟ قيل عمه عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب...»[1].

ومثلها يوجد الكثير من الروايات.

وثانياً: إنه يمكن التشكيك في دلالة الرواية على ما ذهب إليه ابن خلدون، فالرواية مروية في مسند أحمد من المصادر الروائية فقط ـ وإن كان مضمونها مروي فيه وفي غيره، إلا أن الذي يهمنا هنا النقض على ابن خلدون في استدلاله بهذه الرواية مع ضعفها دلالة وسنداً ـ والأفضل أن ننقل نص الرواية مع سندها كما وردت هناك: «حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا حمّاد بن سلمة، وأبو عمر الضرير المعني، قال حدثنا حماد عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه (وآله) وسلّم: قال لوط: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال: قد كان يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته، فما بعث الله عزّ وجل بعده بنياً إلا بعثه في ذروة قومه. قال أبو عمر فما بعث الله عزّ وجل نبياً بعده إلا في منعة من قومه»[2].

فالمراد بالمنعة الموجودة هنا، هو الحماية والنصرة من الاعتداء عليه بشخصه، لا أن الدعوى الدينية التي يقوم بتبليغها تحتاج إلى هذه المنعة أو النصرة كي تتم، وبدونها لا يمكن لها النجاح، فموضوع الدعوة الدينية وتبليغ الرسالة، لا يرتبط أبداً بوجود الناصر والمعين. ولعل التأمّل

(١) البيهقي، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت : ٦ : ٢٠-٢١.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، دار صادر، بيروت : ٢ : ٥٣٣.

في نص الحديث يغنينا عن الخوض في الاستدلال على صحة هذه الدعوى.

نعم، يمكن أن يكون مراد ابن خلدون: أن تربُّع الأنبياء على سدَّة الحكم والسلطة، ونجاح دعوتهم وحركتهم السياسية، لا يتحقق إلا بعصبية نسبية تحت قيادتهم، وهذا ما كان يفتقده الأنبياء. إذ إنهم، وإن كانوا يتوجَّهون بدعوتهم إلى أقوامهم وعشائرهم، إلا أنهم لم يكونوا يتجاوزون الدعوة الدينية كي تصل النوبة بهم إلى الحكم والسلطنة على قومهم، إلا بعد أن يجتمعوا حولهم ويساعدونهم ويعضدوا حكمهم بما أوتوا من قوَّة. لكن هذه الفرضية، وإن كانت قريبة من عبارات ابن خلدون، إلا أن إثبات هذا الأمر يحتاج أيضاً إلى تأويل العديد من الآيات القرآنية، وتبرير بعض الشواهد التاريخية والنصوص الروائية، التي قد لا تتوافق معه، ممّا يؤدي إلى إخراجها عن ظاهر دلالتها.

٥- توحيد المعايير في صحة الأخبار

إنه لا بد من اتباع طريق موحّد لمعرفة صحّة الرواية من ضعفها، فإما أن نتبع القاعدة التي ذكرها الكاتب، أو أن نعتمد وسيلة أُخرى في ذلك، ونعتمدها في جميع الأخبار التي نريد معرفتها. ومن هنا يمكن لنا أن نسجل ملاحظة على منهج ابن خلدون في اعتماده طريقاً لمعالجة أخبار المهدي، وغضه النظر عن هذا الطريق بعينه، عند ذكره لرواية يمكنها أن تؤيد نظريته في العمران.

فنقول: إن سند هذه الرواية مخدوش به، بناء على طريقة ابن خلدون في تصحيح الروايات وطرحها ـ القائمة على أساس أن الجرح مقدّم على التعديل ـ فكان عليه أن يطرح هذه الرواية أيضاً، لضعف

سندها بوجود بعض الرواة الذين ضُعّفوا من قبل بعض علماء الرجال؛ من قبيل أمية بن خالد، الذي نقل العقيلي تضعيفه في كتابه[١].

كما نقل ابن حبان أيضاً في كتابه عن أمية أنه كان يروي المراسيل[٢].

وقد ذكره ابن حجر في كتاب تهذيب التهذيب، فبعد أن نقل عن بعض الرجاليين توثيقه، نقل عن العقيلي أنه ذكره في الضعفاء[٣].

كما وأن حمّاد بن سلمة، الموجود في السند أيضاً، نقل عنه ابن حبان أنه كان يخطئ في نقله للحديث[٤].

وكذلك محمد بن عمرو الذي ذكره العقيلي في الضعفاء[٥].

وهؤلاء الرواة الذين تعرضنا إليهم، وإن لم يكونوا ضعافاً بالمعنى المشهور عند الرجاليين، لكن، إذا اعتمدنا طريقة ابن خلدون في الجرح والتعديل، فلا بدّ من القول بضعفهم، ومن ثمّ القول بعدم صحة هذا الخبر، الذي وصفه الكاتب بالصحيح. وهذا ما يؤيد الدعوى التي أُطلقت على ابن خلدون، من عدم درايته بالحديث والرجال، فضلاً عن القواعد المعتمدة في هذين العلمين. وإلا، كيف يجيز لنفسه أن يضعّف روايات

---

(١) العقيلي، محمد بن عمرو بن موسى، الضعفاء الكبير، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ : ١ : ١٢٨.

(٢) ابن حبان، محمد، كتاب الثقات، نشر دار الفكر للطباعة، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ : ٤ : ٤٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ : ١ : ٣٢٤.

(٤) حبان، محمد، كتاب المجروحين من المحدثين، تحقيق محمود إبراهيم زايد : ١: ٣٢.

(٥) العقيلي، م. س. :٤ : ١١٠ – ١١١.

المهدي، بناء على قاعدة «الجرح مُقدم على التعديل»، والحال أنه يؤيد نظريته برواية تعتبر ضعيفة على القاعدة نفسها؟.

٦- العلاقة بين العصبية والمهدية

اتّضح إلى هنا، أن نظرية العصبية ـ بصياغتها المتقدمة ـ لا تغطي مساحة واسعة من عمليات استيلاء الحركات السياسية على السلطة. ونضيف هنا بأن الربط بين إنكار فكرة المهدي وبين وجود نظرية العصبية غير واضح، خصوصاً بعد أن صرَّح ابن خلدون في كلامه أن العصبية الدينية قد تتغلب على العصبية النسبية، فإن الحديث عن ضرورة وجود عصبية نسبية في ظل سيطرة الوعي الديني في المجتمعات، قد يكون في غير محله.

وبناء على المروي في الأخبار، فإن المهدي الموعود سوف يعتمد في قيامه على الدعوة الدينية، في مجتمع زاد فيه الوعي والثقافة الدينية عما كانت عليه في المجتمعات البدوية، كما أنه سيظهر في وقت يكون الناس فيه مهيئين لعملية التغيير الواسعة التي سيقوم بها. وهذا كاف في إمكانية غلبته، حتى مع افتراض عدم وجود العصبية الفاطمية أو الهاشمية، أو حتى لو تطرَّفنا في افتراضنا، وقلنا بأن قيامه كان على الهاشميين أو على الحكم الفاطمي، لأنه سيعتمد في قيامه على الدعوة الدينية، وهي أقوى عصبيةً من النسب والانتماء القبلي.

من هنا يمكن أن يكون ابن خلدون قد عالج فكرة المهدي من منطلق ما عايشه أو سمع به، من ثورات كثيرة كانت تنطلق بين الحين والآخر في البلدان الإسلامية، وخصوصاً في المغرب العربي ـ المنطقة التي عاين ابن خلدون تجاذباتها السياسية جيداً، بل كان جزءاً من

تركيبتها ـ بدعوى أن صاحبها هو المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ في الروايات الواردة عنه، دون أن يأخذ المؤلف بعين الاعتبار في معالجته هذه، حقيقة المهدي الموعود في التراث الإسلامي بشكل جدي، وأنه مسدَّد من قبل الله، كما هو الحال في بدء دعوة الرسول الأكرم ﷺ، الذي كان قد خرج في غير عصبية من قومه.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

من هو الإمام المهدي

أو المُخلِّص الموعود؟

المدخل إلى عقيدة الشّيعة الإماميّة في ولادة الإمام المهدي(عج) وغيبته

الشيخ محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء/١٠٥].

بين يدينا ثلاث قضايا، يتلو بعضها بعضاً.

القضيّة الأولى

الانقلاب الكوني الشامل الذي يشير إليه القرآن في غير موقع:

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النّور/٥٥].

ويقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص/٥ و٦].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

ويتمّ هذا الانقلاب عندما يتحكّم المستكبرون في حياة الناس ويستضعفون عباد الله ويسلبون الناس قيمهم وعقولهم وضمائرهم، وتصل البشرية إلى طريق مسدود، عندئذ تتدخّل الإرادة الإلهية، وتنقل القوة والسلطان من أيدي الظالمين المستكبرين إلى أيدي الصالحين المستضعفين.

وقد تكرر هذا الانقلاب الكوني في التاريخ، ومن ذلك ما حدث في تاريخ بني إسرائيل عندما استكبر فرعون وأفسد في الأرض.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص/٤].

وهذه هي الحتمية الأولى، وهي انقلاب القوة من المستكبرين إلى المستضعفين الصّالحين، وهو انقلاب شامل في القيم والمواقع والقوة والسيادة، وهي سنّة من سنن الله الحتمية.

القضيّة الثانية

إن الذي يقود هذا الانقلاب الكوني الشامل هو المهدي من ذرية رسول الله ﷺ، وقد وردت في ذلك روايات صحيحة بلغت حدّ التواتر.

وهذه هي القضية الثانية التي يقرّرها الحديث النبوي، ويتّفق عليها المسلمون. وهي ثابتة، كما أن القضية الأولى ثابتة بحكم القرآن الشريف، وليس في هذا شك ولا ذاك.

وقد بلغت أحاديث المهدي (عجل الله فرجه الشريف) حداً لا يجعل التشكيك فيها غير ممكن، ولسنا نريد أن ندخل هذا البحث ولا البحث السابق عليه.

القضيّة الثالثة

إنّ المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ هو محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي عليه السلام، ولد سنة ٢٥٥هـ بسامراء، ثم حجبه الله تعالى، عن أعين الناس، وهو الذي يرسله الله حين يشاء لإنقاذ الناس من الظلم، وإزالة الشّرك من على وجه الأرض، وتقرير التوحيد وعبودية الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله وحدوده في حياة الناس. وهو الذي يقود هذا الانقلاب الكوني الشامل الواسع، في انتقال القوة من الطبقة المترفة المستكبرة الفاسدة إلى الطبقة الصالحة المستضعفة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص ٥].

وقد تواترت الرّواية عن أهل البيت عليهم السلام بأن المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) الذي بشّر به رسول الله ﷺ هو محمد بن الحسن العسكري، وهو الإمام الثاني عشر من أهل البيت عليهم السلام.

وحديثنا اليوم يتركّز حول هذه المسألة بالذات.

ومخاطبنا في هذا البحث هم الذين يؤمنون بحجية حديث أهل البيت عليهم السلام، ويبحثون عن أدلة كافية وواضحة وصريحة في الإثبات العلمي لعقيدة الإمامية في تشخيص المهدي المنتظر من آل محمد (عجل الله فرجه الشريف).

فإن الاختلاف بين الشيعة الإمامية وسائر الفرق الإسلامية ليس في أصل قضية «المهدوية». فإنّ المسلمين مجمعون - إلاّ من شذّ منهم - على الإيمان بأن الله تعالى قد ادّخر المهدي (عجل الله فرجه الشّريف) من أهل بيت رسول الله ﷺ لإنقاذ البشرية وللانقلاب الكوني الكبير في حياة الناس... ليس في ذلك شك، والرّوايات النبويّة في ذلك صحيحة ومتواترة، وإنما الخلاف بين الشيعة الإمامية وغيرهم من المسلمين في التشخيص والتعيين فقط.

فإن الشيعة الإمامية يذهبون قولاً واحداً إلى أن الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) هو محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي، المولود سنة ٢٥٥هـ بسامراء. وقد غيّبه الله تعالى لحكمة يعرفها، وهو الذي ادّخره الله تعالى لنجاة البشرية، وبشّر به الأنبياء والكتب الإلهية من قبل، بينما يذهب الآخرون إلى أن المهدي الذي بشّر به رسول الله ﷺ لم يولد بعد، أو ولد ولا نعرف عن اسمه شيئاً.

والأدلّة التي نستدل بها على إثبات عقيدة الإمامية في تشخيص الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) وتعيينه على طائفتين، الطائفة الأولى: هي الروايات العامة التي لا تخص الإمام (عجل الله فرجه الشّريف) إلاّ أنها تنطبق بصورة قهرية على عقيدة الإمامية في المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، ولا نعرف توجيهاً ولا تفسيراً لها إذا أسقطنا من حسابنا عقيدة الإمامية في هذا الموضوع، وهذه الروايات صحيحة بالتأكيد، وبعضها يبلغ حد التواتر في المصادر الإمامية من ناحية رجال السند في مختلف طبقاته ولا مجال للمناقشة فيها من حيث الإسناد. والإيمان بصحة هذه الأحاديث يؤدي إلى الإثبات العلمي لعقيدة الإمامية

في تشخيص الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشّريف) وتعيينه، وذلك بسبب تطابقها أولاً مع ما هو المعروف عند الإمامية - كما سوف نرى ذلك إن شاء الله - ولانتفاء حالة أخرى تصلح أن تكون مصداقاً وتفسيراً لهذه الأحاديث ثانياً.

ونتيجة هاتين النقطتين (المطابقة والانحصار)، هي التطبيق القهري لهذه الأحاديث على عقيدة الإمامية في تشخيص الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، وإليك هذه الأحاديث:

١- حديث الثقلين:

وأوّل حديث نعتمده، في هذا المجال، هو حديث الثقلين الذي صحّ واستفاضت روايته وتواترت عن رسول الله ﷺ، وأجمع على تصحيحه المحدثون من جميع الفرق الإسلامية، وليس بين علماء المسلمين، ممّن يحترم علمه، من يشك في صحة هذا الحديث وصدوره عن رسول الله ﷺ.

ويكفي أن يكون من رواة هذا الحديث مسلم في الصحيح، والترمذي والدّارمي في السنن، وأحمد بن حنبل في مواضع عديدة وكثيرة من المسند، والنسائي في الخصائص، والحاكم في المستدرك، وأبو داود وابن ماجة في السنن، وغيرهم ممّن لا يمكن إحصاؤهم في هذا المقال... وطرقه في كتب الإمامية أكثر من أن تحصى في هذه الوجيزة.

ولفظ الحديث، كما في أغلب هذه المصادر:

«أيها النّاس، إنّما أنا بشر أُوشك أن أُدعى فأجيب، وإني تارك فيكم

الثّقلين، وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فلا تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم).

والحديث صريح في:

١- إنّ النبيﷺ يترك من بعده خليفتين هما القرآن وأهل بيته لهداية الأمة.

٢- وإنهما باقيان لن يفترق أحدهما عن الآخر إلى يوم القيامة.

٣- وإن رسول اللهﷺ أمر بالتمسك بهما، وقال: إنّ التمسّك بهما يعصم الأمّة من الضلال. ومعنى التمسّك هو الاتباع والطاعة. وهذا هو معنى «الحجّة»، وليس للحجة والحجية معنى غير الاتباع والطاعة.

وإذا ضممنا النقطة الأولى (إني تارك فيكم الثقلين) إلى النقطة الثانية (وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)، استنتجنا أصلاً هاماً، وهو وجود حجّة وإمام من أهل البيتعليهم السلام في كل زمان لا يفترق عن كتاب الله قط.

يقول ابن حجر في «الصواعق»: «وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسك إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض، كما يأتي، ويشهد لذلك الخبر السابق في كل خلف من أمّتي عدول من أهل بيتي»[(١)].

ولا شك في دلالة الحديث على بقاء حجّة من أهل البيت إماماً للناس...

---

(١) الصواعق المحرقة، دار الطباعة المحمدية بمصر، ص ١٤٩.

وليس لهذا الحديث تفسير أو تطبيق غير ما يعتقده الإمامية من وجود الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) وحياته وبقائه وعصمته وإمامته على المسلمين.

وإذا أسقطنا هذا الأمر عن الاعتبار، لم نجد تطبيقاً وتفسيراً له قط في هذه القرون من حياة المسلمين. فليس في المسلمين اليوم، ولا قبل اليوم، من يدّعي أنه أعلم الناس، وأن على الناس أن يتّبعوه ولا يتقدّموه، وأن يتعلّموا منه ولا يعلّموه، كما في نص الحديث الشريف الذي لا يختلف فيه من يُعْبَأ بقوله ورأيه من علماء المسلمين.

وإذا قيل: فما نفع إمام غائب عن النّاس للنّاس؟

نقول: إنّ الله تعالى لم يطلعنا من أسرار غيبه إلاّ على القليل، وما أخفى الله علمه عنّا كثير، وما عرّفنا منه قليل. وقد أخبرنا الصادق الأمين ﷺ ببقاء حجّة من أهل بيته في الناس على وجه الأرض إلى يوم القيامة، فنتعبّد بحديثه، ونحيل علم ما لا نعلم إلى من يعلم... وليس كل ما في شريعة الله ودينه مفهوم ومعروف لنا.

٢- حديث من مات ولم يعرف إمام زمانه:

رواه مسلم في الصحيح، ولفظ الحديث: عن رسول الله ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهليّة»[١].

وروى البخاري، في الصّحيح، عن رسول الله ﷺ: «من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهليّة»[٢].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، ٢٢/٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، الباب الثاني.

ورواه أحمد، في المسند، عن رسول الله ﷺ ولفظ الحديث: «من مات وليس عليه طاعة مات ميتة جاهليّة»[1].

ورواه الطيالسي، في المسند، عن رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهليّة»[2].

ورواه الحاكم في المستدرك ولفظ الحديث: «من مات وليس عليه إمام جماعة فإنّ موتته جاهليّة»[3]، وصحّحه الحاكم على شرط الشيخين البخاري ومسلم.

ورواه الذهبي، في تلخيص المستدرك، وصحّحه على شرط الشيخين، وغير خفيّ تشدّد الذهبي في تصحيح أحاديث المستدرك.

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد[4] بأسانيد كثيرة وألفاظ عديدة.

وطرق الحديث وألفاظه كثيرة تبلغ حدّ الاستفاضة. وقد علمنا أن بعضها صحيح كما شهد به الذهبي.

وروى الحديث ثقاة المحدّثين من أصحابنا الإمامية وطرقهم إليه كثيرة، وطائفة منها صحيحة، وهي في الجملة قريبة من التواتر، وقد عقد المجلسي، رحمه الله، له باباً في بحار الأنوار، روى فيه أربعين حديثاً في هذا المعنى بطرق كثيرة وألفاظ متقاربة تحت عنوان: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة»[5].

---

(١) مسند أحمد، ٤١٦/٣.

(٢) مسند الطيالسي، طبعة حيدر آباد، ص ٢٥٩.

(٣) الحاكم في المستدرك.

(٤) الذهبي في تصحيح المستدرك، ٧٧/١.

(٥) الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢١٨/٥ - ٢٢٥.

نذكر منها طريقين على سبيل المثال:

الطريق الأول: رواية البرقي في المحاسن بسند معتبر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «إنّ الأرض لا تصلح إلاّ بإمام. ومن مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية»[1]. والسند معتبر.

الطريق الثاني: روى الكشي: عن ابن أحمد عن صفوان عن أبي اليسع قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: حدّثني عن دعائم الإسلام، فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله... إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مات ولا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة»[2].

ورجال السند كلهم ثقاة.

ولسنا نحتاج إلى توثيق السند في أمثال هذه الروايات التي تضافرت روايتها عن الطريقين، والروايات واضحة الدلالات صحيحة السند، وهي تدلّ على الحقائق الآتية:

١- إن الأرض لا تصلح إلا بإمام.

٢- ولا بدّ، في كل زمان، من أن يعرف الإنسان إمام زمانه، ومعرفته من الدّين والجهل به ورفضه من الجاهليّة.

٣- ولا بدّ لكل أحد، في كل زمان، من طاعة الإمام، ولا يجوز لأحد أن يخرج عن طاعة إمام زمانه.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٩٣/٢٣ - ٧٦.

(٢) رجال السند كلهم ثقاة. والسند يبدأ بالبرقي عن «ابن فضال»، وهو ثقة، عن «حماد بن عثمان»، وهو ثقة كذلك، عن أبي اليسع عيسى بن السري، وهو ثقة من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

٤- ومن يمت وليس في عنقه بيعة للإمام يمت ميتة جاهلية.

٥- ولا بدّ من أن يكون في كل زمان إمام تجب معرفته وطاعته، ولا بدّ من أن تتّصل حلقات الأئمّة في كل زمان، ومن أن لا يخلو منهم زمان.

ولا يصح أن يقال: إن هذا المورد من قبيل الحكم بشرط الموضوع، أو تعليق الحكم على الموضوع كأيّة قضية حقيقية أخرى.

فإننا نقول: إن الأمر كذلك، ولا تدل القضية الحقيقية على إثبات موضوعها، وإنّما تثبت الحكم على فرض تحقق موضوعه، ولكن الروايات الواردة في هذا الباب تدلّ على أمر أكثر من ذلك، وهو ضرورة ارتباط الناس بالإمام أو معرفتهم به وقبولهم له، وأنّه شرط الإسلام، وخِلافُه الجاهليّة. وهذه القضية تكشف عن وجود الإمام في كل زمان، من دون أن يكون معنى ذلك أن القضية الحقيقية تثبت موضوعها، فإن القضية الحقيقية دائماً بشرط تحقق الموضوع، ولكننا نقول: إن الذي نستظهره من الروايات هو أنّها تكشف عن استمرار الموضوع، وهو وجود الإمام الحجة في كل زمان، وهذا أمر آخر غير الإثبات.

وبتعبير آخر: إنّ الروايات الواردة في هذا الباب تكشف عن أن سنة الله تعالى قد اقتضت وجود إمام عدل في كل زمان، قد فرض الله طاعته، ولم يأذن بالخروج عن طاعته. والحكم الشرعي الوارد في هذه الروايات يستبطن الكشف عن سنة إلهية. أما الحكم فهو وجوب طاعته في كل زمان.

أما السنّة الإلهية التي يستبطنها هذا الحكم فهي وجود إمام في كل زمان، وإلاّ فكيف يُطْلَبُ من الإنسان أن لا يموت إلاّ وهو في طاعة إمام

زمانه، وأن يلتزم ببيعته وطاعته، غير ناقض ولا ناكث لها، وغير جاهل به، فإذا خرج عن الطاعة أو نكث البيعة أو جهل به مات ميتة جاهليّة، بهذه الدرجة من التغليظ والتشديد في الجزاء والعقوبة.

ومن نافلة القول أن نقول: إنّ الحكّام الظلمة وأئمة الكفر والذين يحاربون الله ورسوله لا يكونون مصاديق للإمام الذي يفرض الله على الناس معرفته وطاعته في كل زمان وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود/١١٣].

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء/١٥١ و١٥٢].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء/ ٦٠].

وبعد هذا الإيضاح، نقول: إن التفسير الوحيد لهذه الروايات هو ما تعرفه الإمامية وتعتقد به من استمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام، منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليوم، وعدم انقطاع الإمامة بوفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام. وأي فرض آخر لا يستطيع أن يقدّم تفسيراً معقولاً لهذه الروايات، إلاّ أن نقول بوجوب الطاعة لكل برّ وفاجر، كما يقول به بعض الناس، وإثباته على عهدة من يَدّعيه.

ولسنا نعتقد أن الطاعة التي تساوي الإسلام، ويساوي خلافها الجاهلية، هي طاعة هؤلاء الذين أمرنا الله تعالى بعدم الركون إليهم والكفر بهم من الحكام الظلمة الذين حكموا المسلمين خلال التاريخ. ومن يضع هذه الطائفة من الروايات إلى جانب الطائفة الأولى من الروايات يجد تطابقاً واضحاً في ما بينهما.

فقد ورد في حديث الثقلين، من الطائفة الأولى، أنهم حجج الله على عباده ويجب التمسك بهم، وهم العدل الآخر للكتاب، وما إن تمسك الناس بهم لن يضلّوا أبداً.

وورد في الطائفة الثانية أن معرفتهم من دين الله والجهل بهم من الجاهليّة والضّلالة، والحديث ممّا تسالم عليه الفريقان، وقد ذكرنا بعض ألفاظه وطرقه من قبل، وممّن أخرجه الشيخان في الصحيحين.

٣- حديث أن الأرض لا تخلو من حجّة:

روى هذا الحديث من أصحابنا الإمامية محدّثون ثقاة مثل المحمدين الثلاثة: الكليني والصدوق وأبي جعفر الطوسي (رحمهم الله) بطرق كثيرة تبلغ حدّ التواتر في مختلف طبقات إسناده، وقد عقد له الكليني محمد بن يعقوب في كتاب الحجة من الكافي باباً بهذا العنوان[١].

كما عقد العلاّمة المجلسي، في بحار الأنوار، باباً بعنوان: «الاضطرار إلى الحجة، وأن الأرض لا تخلو من حجة»، وهو الباب الأول من المجلد السابع من الكتاب ذكر فيه ١١٨ حديثاً بهذا المضمون، وفي ما يلي نذكر نماذج من هذه الروايات:

ذكر الكليني في الكافي، كتاب الحجة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة: «عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن عمير عن الحسين بن أبي العلاء قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: تكون

(١) بحار الأنوار، ٩٠/٢٣، ورجال الكشي، ص ٢٦٦ و٢٦٧.

الأرض ليس فيها إمام؟ قال: لا. قلت: يكون إمامان؟ قال: إلاّ وأحدهما صامت»[1].

والسند تام لا يتطرق إليه الشك.

وروى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن منصور بن يونس وسعدان بن مسلم عن إسحق بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام، قال سمعته يقول: «إنّ الأرض لا تخلو إلاّ وفيها إمام»[2]. والسند تام والرواية معتبرة.

وروى الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن ربيع بن محمد المسلّي عن عبدالله بن سليمان العامري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما زالت الأرض إلاّ ولله فيها الحجة»[3]. والسند تام والرواية معتبرة أيضاً. ورواة الحديث ثقاة.

وروى الكليني عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس بن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: قال: «إن الله لم

---

(١) الكليني، الحجة من الكافي، ١٧٨/١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه. والرواية معتبرة من حيث السند ورواتها كلّهم ثقاة، وأما إبراهيم بن هاشم والد علي بن إبراهيم فقد رجّح العلاّمة في «الخلاصة» الأخذ بروايته، وأكثر ابنه علي بن إبراهيم من الرواية عنه في التفسير، وقد التزم في مقدمة التفسير بالرواية عن الثقاة فقط، وصرّح ابن طاووس عند ذكر رواية من أمالي الصدوق في سندها إبراهيم بن هاشم بأنّ رواة الحديث ثقاة بالاتفاق، وهو أول من نشر حديث الكوفيين في قم، وتلقوه عنه بالقبول، رغم اشتهار القُمّيين بالتشدّد في قبول الحديث، ولا يتردد فقهاؤنا في الأخذ برواياته، يقول السيد الخوئي رحمه الله: لا ينبغي الشك في وثاقة ابراهيم بن هشام.

يدع الأرض بغير عالم»[1].

والسند تام والرواية معتبرة كذلك.

وروى الكليني عن الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن الوشّاء، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: «هل تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا. قلت: إنّا نروي أنّها لا تبقى إلاّ أن يسخط الله عز وجل على العباد؟ قال: لا تبقى إذاً لساخت»[2]. والسند تام والرواية معتبرة.

وروى الشريف الرضي عن أمير المؤمنين عليه السلام، في نهج البلاغة، ما له علاقة بذلك. قال عليه السلام: «لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته».

هذه طائفة واسعة من الروايات تبلغ حد التواتر، وجملة منها تامّة من حيث السند، كما أشرنا إلى بعضها من كتاب الكافي، وهي صريحة بأنّ الأرض لا تخلو من حجة لله ظاهراً أو مغموراً، والحجة في كلمات أهل البيت عليهم السلام مصطلح معروف لمن يألف كلماتهم عليهم السلام، وهذه الأحاديث لا تحتاج إلى تعليق كثير وتأمّل وتوقف، فهي صريحة في ضرورة وجود الإمام في كل زمان، ولا تفسير لهذه الروايات بغير ما تعرفه الشيعة الإمامية وتعتقده من وجود الإمام وحياته وغيبته، وإذا أسقطنا هذا الأمر من الاعتبار فلا نجد تفسيراً لهذه الروايات، البتّة، وهي كثيرة، بالغة حدّ التواتر.

---

(١) المصدر نفسه. أمّا علي بن الحكم، فقد وثّقه فقهاؤنا لوقوعه في إسناد كتاب التفسير لعلي بن إبراهيم القمي.

(٢) المصدر نفسه.

٤- حديث الأئمة الإثني عشر:

روى البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبيﷺ يقول: يكون إثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: كلّهم من قريش.

وروى مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب أن الناس تبع لقريش، عن جابر بن سمرة قال: «سمعت النبيﷺ يقول: لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم إثنا عشر رجلاً، ثم تكلّم النبيﷺ بكلمة خفيت عليّ فسألت أبي: ماذا قال رسول اللهﷺ؟، فقال: كلّهم من قريش»[(١)].

وروى مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب أن الناس تبع لقريش عن جابر بن سمرة يقول: «سمعت رسول الله[(٢)] يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلّهم من قريش»[(٣)].

وروى أيضاً مسلم في الصحيح، في الكتاب نفسه والباب نفسه عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة، ثم تكلّم بكلام خفي عليّ، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش»[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه، ١٧٩/١، والسند معتبر تام، وحسين بن محمد الأشعري الثقة شيخ الكليني، ومعلى بن محمد هو البصري روى في تفسير القمي فهو ثقة، والوشّاء هو الحسن بن علي بن زياد، قال البرقي عنه: لا ينبغي الشك في وثاقته.

(٢) صحيح مسلم، ط دار الفكر، ٣/٦، ح٦، باب أن الناس تبع لقريش، كتاب الإمارة.

(٣) المصدر نفسه، ح٨.

(٤) المصدر نفسه.

وروى الترمذي، في السنن، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلفاء، عن جابر بن سمرة قال: «قال رسول الله ﷺ: يكون من بعدي إثنا عشر أميراً»، ثم عقّب على ذلك بقوله: قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح[1].

وروى أبو داود في السنن عن جابر بن سمرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ: لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى إثني عشر خليفة، فكبّر النّاس، وضجّوا، ثم قال كلمة خفيت عليّ، قلت لأبي: يا أبه ما قال؟ قال: كلّهم من قريش»[2].

وروى الحاكم في المستدرك في كتاب معرفة الصحابة عن جابر قال: «كنت عند رسول الله ﷺ فسمعته يقول: لا يزال أمر هذه الأمّة ظاهراً حتى يقوم إثنا عشر خليفة».

وروى أحمد بن حنبل في المسند هذا الحديث عن جابر من أربع وثلاثين طريقاً[3]. وروى أبو عوانة هذا الحديث في مسنده[4].

وابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٨/٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٩٤ و٩٧)، والمناوي في كنوز الحقائق (٢٠٨)، والسيوطي في تاريخ الخلفاء (٦١)، والعسقلاني في فتح الباري (١٧٩/١٣)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٨/٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣٥٣/١٤)، والعيني في شرح البخاري (٢٨١/٢٤)، والحافظ الحسكاني في شواهد

---

(١) سنن الترمذي، ٥٠١/٤، ط مصطفى البابي الحلبي.

(٢) سنن أبي داود، ٤٢١/٢، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٧١، أول كتاب المهدي.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، ٨٦/٥ – ١٠٨.

(٤) مسند أبي عوانة، ٣٩٦/٤ و٣٩٨ و٣٩٩.

التنزيل (٤٥٥/١)، والقسطلاني في إرشاد الساري (٣٢٨/١٠)، وغيرهم من المحدّثين والحفّاظ.

وأخرج أصحابنا الإمامية الحديث بطرق كثيرة جداً، بالغة حد التواتر، وفيها الصحيح الذي لا يمكن التشكيك في سنده.

روى الحر العاملي، صاحب الوسائل، رحمه الله، في الجزء الثاني من كتابه القيم: «إثبات الهداة»، تسعمئة وسبعة وعشرين (٩٢٧) نصّاً من النصوص العامة لإثبات إمامة الأئمة الإثني عشر عليهم السلام، في الكثير منها تصريح بعدد الإثني عشر بشكل صريح وبأسماء الأئمة عليهم السلام، وجملة من طرق هذه الروايات صحيحة بلا إشكال، وهي بالغة حدّ التواتر أيضاً بلا إشكال.

منها ٩٥ رواية أخرجها الكليني في الكافي.

و٥٣ رواية أخرجها الصدوق في عيون الأخبار.

و٢٢ رواية أخرجها الصدوق في معاني الأخبار.

و٩٢ رواية أخرجها الصدوق في إكمال الدين.

و٢٢ رواية أخرجها الصدوق في الأمالي.

و١٨ رواية أخرجها الشيخ أبو جعفر الطوسي في الغيبة.

و١١ رواية أخرجها الشيخ أبو جعفر الطوسي في مصباح المتهجد.

وغير ذلك. ولست أعرف وجهاً علمياً موضوعياً للتشكيك في رواية يرويها المحدثون عن ٩٢٧ طريقاً.

ولدينا مجموعة من النقاط في هذا الحديث:

١- لا إشكال في أن حديث الإثني عشر خليفة قد صدر عن رسول

الله ﷺ، فقد رواه الفريقان بطرق كثيرة، ويكفي أن البخاري ومسلم من السنّة والكليني والصدوق من الشيعة من رواة هذا الحديث.

٢- والأحاديث ظاهرة في أن الأمراء المذكورين في هذه الرواية أمراء الحق، ولا يكونون من أئمة الظلم والجور، من أمثال معاوية ويزيد والوليد والمتوكل وأضرابهم من حكّام الظلم والجور.

٣- وأن عدتهم إثنا عشر عدد نقباء بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة/١٢].

٤- ولا يخلو منهم زمان.

ولا نعرف لهذه الأحاديث بمجموعها تطبيقاً قط غير الأئمّة الاثني عشر المعروفين عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وآخرهم المهدي المنتظر(عج)، وهو الإمام الثاني عشر.

ولو رأينا التمحّل الذي يتمحله علماء كبار، من أمثال السيوطي، في ترتيب الإثني عشر أميراً بعد رسول الله ﷺ، لاطمأن القلب إلى أن رسول الله ﷺ لم يرد غير الأئمة الإثني عشر من أهل بيته الأبرار الطاهرين عليهم السلام. ولقد أحسن محمود أبو رية في التعليق على التوجيه الذي وجّه به السيوطي هذه الرواية، فقال عنه: «ورحم الله من قال عن السيوطي إنه حاطب ليل».

فلا نعرف تطبيقاً قط ينطبق بالتمام والدقّة على هذه الروايات غير عقيدة الشيعة الإماميّة، وفي ضمنها ولادة الإمام محمد بن الحسن العسكري عليه السلام (عجل الله فرجه وغيبته وظهوره).

وبعد، فهذه أربع طوائف من الروايات لا يتطرق إليها الشك من حيث السند والدلالة. وإذا ضممنا بعضها إلى بعض لا يبقى تطبيق حقيقي ودقيق لهذه الأحاديث غير ما تعرفه الشيعة الإمامية (وأقصد بهم الإثني عشرية) من القول بإمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام في إثني عشر حلقة متصلة، وولادة الإمام الثاني عشر منهم وغيبته، وهو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام.

وإذا ألغينا عقيدة الشيعة الإمامية من الحساب لم يبق معنى ولا تطبيق لهذه الأحاديث البتة. أما المذاهب التي لا تتبنّى مسألة «الغيبة والانتظار» فلا يمكن تطبيق هذه الأحاديث على رأيها لانقطاع حلقات الإمامة عنها في أدوار كثيرة ومراحل طويلة من التاريخ، حتى لو أخذنا بتمحّل السيوطي في ترتيب الإثني عشر إماماً. وعليه تتخلف معهم الطائفة الأولى والثانية والثالثة من الأحاديث.

وأما المذاهب التي تتبنى مسألة «الغيبة والانتظار» في الإمام، كالإسماعيلية، فهي أيضاً غير قادرة على إعطاء تفسير صحيح لهذه الطوائف الأربع من الأحاديث لتخلف الطائفة الرابعة عنها (وهي الروايات التي تصرّح بأن عدد خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بعده اثنا عشر إماماً أو أميراً).

فينحصر الأمر في تطبيق هذه الروايات في تاريخ الإسلام على ما تقول به الشيعة الإمامية، وليس له من تطبيق آخر، ولا نعرف تطبيقاً آخر لهذه الطوائف الأربع من الروايات غير ما يقول به الإمامية من الإيمان بولادة الإمام محمد بن الحسن العسكري عليه السلام وغيبته، وهذا هو معنى «المطابقة والانحصار».

وعندئذ يتم الاستدلال بهذه الطوائف الأربع من الروايات بشكل كامل، لانحصار الأمر في تطبيق هذه الروايات على ما تقول به الإمامية، وعدم وجود أي تطبيق آخر معروف في تأريخ الإسلام لها.

ونقرّب ذلك بمثال من القضاء.

لو أن أحداً عثر على مال في دار لا يدخلها غير نفر معدود، ولا يدخلها غيرهم، فادّعاه أحدهم، لا يعرف الناس له تناقضاً أو كذباً، ولم يدّعه غيره ممن يتردّد على هذه الدار من أولئك النفر. فإن القاضي يحكم بالضرورة بعائدية المال إلى المدّعي مع عدم وجود ادعاء معارض، وليس يحتاج إلى بيّنة أو يمين أو وسيلة أخرى من وسائل الإثبات القضائي بالضرورة.

وواقع الأئمة الإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام في التاريخ الإسلامي بالقياس إلى الأخبار الصحيحة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشبه إلى حدّ ما هذا المثال القضائي.

ولذلك قلنا إن انطباق هذه الروايات على الأئمة الإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، ومنهم الإمام الثاني عشر الغائب المنتظر (عج) انطباق قطعي وضروري، ولا يحتاج إلى جهد علمي كبير بقدر ما يحتاج إلى رؤية صافية غير مثقلة بالخلفيات والرواسب الفكرية والعصبيات، أعاذنا الله منها.

خلاصة الكلام

ونلخّص الكلام في هذا الباب ونقول:

إن أمامنا افتراضين اثنين:

الافتراض الأول صحة عقيدة الشيعة الإمامية من الأئمة الإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، بمن فيهم الإمام الثاني عشر (عج)، وولادته وغيبته وظهوره.

والافتراض الثاني عدم صحة هذه العقيدة.

ومن الطبيعي أن نخضع هذين الافتراضين للدراسة والتحقيق في ضوء الطوائف الأربع المتقدمة من الحديث، التي لا يمكن إنكارها ولا تكذيبها.

عندئذ نجد أن الافتراض الأول يقدّم بسهولة تفسيراً واقعياً تاريخياً للطوائف الأربع المتقدمة من الحديث لانطباقها الكامل عليه.

بينما الافتراض الثاني يؤدي إلى إنكار الأحاديث الأربعة أو تكذيبها. والأول منهما يعارض النهج العلمي المعروف للفريقين في توثيق الحديث، والثاني منهما تكذيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الذي أذهب الله عنهم الرجس، وجعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العدل الآخر للكتاب.

* * *

قراءة في كتاب:
«بحث حول المهدي(عج)»
للسيّد محمد باقر الصّدر

الأستاذ مصطفى خميس

قضيّة البحث

يبحث هذا الكتاب[1] في قضيّة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشّريف)؛ والبحث في هذه القضيّة يُعدّ من أهمّ البحوث التي حافظت على ثوريّتها وتجدّدها، وصحّة مصدريّتها. فهو (سلام الله عليه) صاحب العصر والزّمان لأكثر من عشرة قرون مرّت على البشريّة منذ عصر الرّسالة. فمسألة وجوده حيّاً، وكذلك انطلاقة حكومته، هما من أهمّ القضايا العقديّة والإصلاحية التي أقضّت مضاجع حكّام الجور والظلم على مدى هذه القرون العديدة، منذ وفاة أبيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام، عام ٢٦٠ للهجرة. لذلك نجد أنّ هذه القضية تبقى متجدّدة لأنّها تدخل في حياتنا السياسية والمعرفية، والنفسية والدينيّة، ونحن ننتظر يوم خلاص الأمّة على يديه، وإنقاذ البشرية المعذّبة كلّها.

---

(١) السيّد محمد باقر الصّدر، بحث حول المهدي، بيروت: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٩٩٧م.

المؤلّف

والكاتب هو الشّهيد السّعيد، السيّد محمّد باقر الصّدر (رضوان الله عليه)، سليل الأعلام المجتهدين النّجباء، بَدْءاً بجدّه وأبيه، وانتهاءً بقمّة الهرم وسنام المجد.. عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن نفحات الإمام المنتظر، وفيوضاته الربّانية، استلهم الكاتب بحثه، فجعل الإمام يتكلّم من خلال كتابه: «بحث حول المهدي»، فينطق حضارة وحيويّة، ويتفجّر ثورية وفداء، أجّجت ثورات محبّيه وأتباعه في كل بقعة من المعمورة، منذ غيابه بعد وفاة والده في سامراء وحتى يومنا هذا، وهي ثورات تعبّر عن تحركات المعذّبين والمضطهدين، كما حدث في جنوب لبنان ضد المغتصبين الصهاينة، وتستمد من إمام العصر الصّبر والثورية وإباء الضيم، وتستلهم من الجذوة التي زرعها أبو الشهداء الحسين عليه السلام، التي تفاعلت بها نفوس أبطال الطّف فصدقوا بما عاهدوا الله عليه، حينما طلب منهم سيّد الشهداء أن يتخذوا من الليل جملاً، بعد أن حلّهم من بيعته قائلاً لهم:

«وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يطلبونني...»[1]، لكن هؤلاء امتلكوا تلك الجذوة التي أنارت قلوبهم، واختاروا الشهادة بين يدي سيّدهم ومولاهم، في حين افتقدها عشرات الألوف ممّن تكالبوا على قتل الحسين من أرستقراطية أموية، ومنافقين وقاسطين ومارقين.

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٢٤٨/٣ ط. النجف، وخطب الإمام الحسين عليه السلام للبيب بيضون، ص ١٨٦.

وبقي صوت الحسين مجلجلاً في أعماق التاريخ، وبقيت دماؤه منارة للأجيال لترسي قواعد مدرسة رسول الله ﷺ، التي حملها أمير المؤمنين على يديه، وضحّى من أجلها سبطه الشهيد، فأنجبت عمالقة الفكر وأبطال الثورات، في كل زمان، من أمثال شهيدنا الزّكي الذي كانت حياته وشهادته وتضحيته في سبيل الله، الإمام الّذي تجسّدتْ فيه حقيقةُ الحسين، وشخّص بذاته السّامية دوره الرّسالي.

كانت نهضة الحسين وإسلام أبي ذر وعمّار والمقداد وسلمان هاجس الصّدر الأوّل، كما كانت ثورة الحسين عشقَه الأبدي. كيف لا؟ وقد ورث قضية الأنبياء، وطهر الأوصياء، والأئمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر/٣٢].

فتمثّل هذا الهاجس، وتلك الثورة في طول حياة الشهيد وعرضها، في حركاته وسكناته، وفي أحاديثه ومؤلّفاته جميعها، حتّى بلغ مرتبة الاجتهاد، وهو في مرحلة مبكرة من السنّ.

وما كان إمامنا الشهيد ليكتفي بما تلقّاه في الحوزات العلمية من أكابر أساتذتها ومجتهديها الأعلام، وإن كان فيها الكفاية، بل عمل مجاهداً ساعياً لمعرفة علوم عصره، الإنسانية من سياسة وفلسفة وأخلاق وعلوم طبيعية، ما أهّله للمشاركة فيها، والإبداع في مختلف فنونها.

ولا يسعني أن أستوعب، في هذه العجالة، أبعاد عظمة شخصية هذا العالم الربّاني ومعارفه الجمّة جميعها، وكيف لي أن ألج في سموّ ذاتٍ ورثت العلم والثورة وقيادة الجماهير كابراً عن كابر!؟

لقد اشتملت مدرسة هذا العبقري الفذّ على معالجة جوانب متعدّدة من شُعَب المعرفة الإسلاميّة والإنسانية. فكان موسوعة، تشمل علوم

عصره وعلوم العصور السابقة. وتميّزت كتبه وأبحاثه بالدقّة في البحث والتحليل، وبالشّموليّة في المعالجة والتأليف، كما تمتّع بقدرة فائقة على التّجديد، وبخاصة في العلوم الإنسانيّة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تطبيقاته للمنهج الموضوعي في التفسير والتاريخ؛ فقد دعا إليه في حقول المعرفة جميعها كالاقتصاد والتفسير والسّيرة... سيّما في بحوثه حول تاريخ الأئمة عليهم السلام، على أساس النظرة الكليّة بدلاً من النظرة التجزيئيّة. فنظر إليهم بوصفهم كلاً مترابطاً، يقومون بأدوار متعدّدة لأداء هدف واحد، وهو الرّساليّة التي ورثوها عن جدّهم الأعظم صلى الله عليه وآله.

وانطلاقاً من تطبيقات الإمام للمنهج الموضوعي والعقلاني في دراسة التّاريخ والسّير، ومعالجة الأحداث، فقد كان رحمه الله يتقصّى الإشكالات والتساؤلات في عقول الناس، وفي حواراتهم، ثم يشرع في توضيحها بأسلوبه الخاص ضمن إطار العقيدة الإسلامية، على أسس من العقلانية والواقعية والبرهان، وهذا ما تميّز به الشهيد في كتابه: «بحث حول المهدي» عجل الله فرجه وهو موضوع بحثنا هذا الذي سأحاول، من خلاله، قراءة أفكار الإمام الثائر، العبقري الرّسالي، حول هذه القضية التي صارت من أهم البحوث، وأكثرها جدليّة، وبخاصة في هذه الأيّام. ونحن ننتظر بقلوبنا وعيوننا تلك الطّلعة البهية لقائم آل محمد، لكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، والمسلمون فيها بين مثبت وناف، بين قائل بوجود الإمام الحجّة، وهو حي منذ مئات السنين، وبين قائل بأنه لم يولد بعد.

تعريف بالكتاب

هو «بحث حول المهدي عليه السلام»، وعنوانه يدلّ على محتواه، فقد بحث فيه الشهيد قضيّة الإمام الحجّة بحثاً عقلياً ومنطقياً، اتبع فيه المنهج

العقلي، والكتاب يُعدّ مقدّمة لكتاب استدلالي موسّع هو كتاب «موسوعة الإمام المهدي» للسيد محمد الصدر. لم يورد فيه السيد محمد باقر الصدر الروايات التي تثبت فكرته، لكنه اتبع فيه منهجاً علمياً جديداً، يعتمد على طرح الحقائق التي تعارف عليها الناس بشكل سؤال وجواب، طبع الكتاب غير مرّة، آخرها طبعة دار الغدير عام ١٩٩٧م.

منهج المؤلّف

اتّبع المؤلّف، في كتابه، المنهج العقلي، الذي عرّفه الباحثون بأنه: «طريقة دراسة الأفكار والمبادى العقلانية»، ويقوم هذا المنهج على قواعد علم المنطق الأرسطي، وقد لخّصها الشيخ المظفر في كتابه «المنطق» بأنها:

«إجراء عمليّة عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب»[(١)].

فلم يسلك الشّهيد مسلك الرّواة والأخباريين، لكنه طرح القضية، وبحث كافة التساؤلات التي يمكن أن تثار حولها، ثم ناقشها بفكره العبقري، استناداً إلى الدليل العقلي والمنطقي، وإلى الدليل العلمي والحضاري المستند إلى العلوم العصريّة.

كما استخدم المؤلّف المنهج التكاملي، أحياناً، وهو المنهج الذي يستخدم عدّة مناهج في البحث، بحيث تتكامل في ما بينها لوضع مستلزمات البحث وتطبيقها، وهو أرقى المناهج وأكثرها استيعاباً للفكرة.

---

(١) أصول البحث للدكتور عبد الهادي الفضلي، ص ٣٥.

واستطاع كذلك أن يبحث موضوعه بطريقة التحليل، لبحث الفكرة بحثاً شاملاً يستوعب الأطراف والشؤون جميعها، وعميقاً ينفذ إلى الزوايا جميعها ليكشف ما خفي عن الآخرين، بعرض استدلالي، لإقامة الدّليل وإثبات المطلوب.

وقد تميّز الشّهيد بموهبة فطريّة أهّلته للبراعة والإبداع في كتاباته جميعها، وبذهنيّة علميّة متفتّحة مكّنته من القدرة على التّفكير تفكيراً علمياً رصيناً، بمنهجيّة العارف بأصول مناهج البحث.

بحوث الكتاب

يتضمّن الكتاب مقدّمة وثمانية أبحاث أساسيّة، وهي، كما يلاحظ، تساؤلات يطرحها الشّهيد، وإثارات وإشكالات تدور في خلد جمهور المسلمين، وتعيش في عقول الناس، وفي حواراتهم اليوميّة. ولا بدّ لنا من وقفة تأمّل وتحليل لكل بحث على حدة، للتعرّف إلى أفكار الشّهيد السّعيد حول إمام العصر والزمان، فإلى أهم أبحاث الكتاب بدءاً من المقدّمة.

مقدّمة المؤلّف

يعرض الشّهيد (رضوان الله عليه)، في مقدّمته، فكرة الإمام المهدي عليه السلام، على أنّها طموح اتجهت إليه البشريّة بمختلف أديانها، وصياغةً لإلهام فطريّ بأنّ للإنسانيّة يوماً موعوداً على الأرض تتحقّق فيه رسالات السّماء، بمغزاها الكبير، وهدفها النّهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مرّ التاريخ استقرارها بعد عناء طويل، وحتى الماديّة الجدلية الرافضة للغيب آمنت بيوم موعود تُصفّى فيه جميع تلك التناقضات، ويسود فيه الوئام والسلام.

ويبيّن الإمام أن فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع منه، بقوله: «فإنّ معالمها التّفصيلية التي حدّدها الإسلام جاءت أكثر إشباعاً لكل الطموحات التي انشدّت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني».

وبالفعل، فإن الفكرة وُجدتْ في أقدم الدّيانات واعتقاد الشعوب، ففي الأسطورة الفارسية القديمة أن أحد أحفاد «زرادشت» سيظهر مخلّصاً لقومه، وينصرهم على بقيّة الشعوب، واليهود الموسويون يعتقدون بظهور مخلّص لهم، وهم ينتظرونه، وفي ذلك يكمن سرّ تكذيبهم لأنبياء الله ورسله، كعيسى بن مريم، ونبينا الأعظم محمد. وكذلك الأمر عند النّصارى، فالمسيح هو المنقذ عندهم آخر الزمان. فالفكرة قائمة عند معظم الشعوب، ويعلّلها علماء الاجتماع بأنّها تعبير عن فكرة التعويض عن النقص لدى المغلوبين من الأمم والشعوب المستضعفة.

وفي عقيدتنا، نحن المسلمين، ما يؤيد ذلك في آيات كريمة عدّة كقوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ**﴾ [القصص/٥]. وعندما يتحدّث المؤلّف عن المهدي وفكرة وجوده، تحسّ بأنك تراه وتشعر به، وتطمئن إلى وجوده حقيقة، كأنه يعيش بين ظهرانينا، فهو كما يقول: «لم يعد المهدي فكرة ننتظر ولادتها، ونبوءة نتطلّع إلى مصداقها، بل واقعاً قائماً، ننتظر فاعليته، وإنساناً معيّناً يعيش بيننا بلحمه ودمه، نراه ويرانا، ويعيش مع آلامنا وآمالنا، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا، وينتظر بلهفة اللحظة التي يتاح له فيها أن يمدّ يده إلى كلّ مظلوم، وكلّ محروم، وكل بائس، ويقطع دابر الظالمين». ويبيّن الفائدة من فكرة الإيمان بوجوده، بوصفها تعبيراً عن إنسان حيّ محدّد يعيش فعلاً كما نعيش، ويترقّب كما نترقّب، بأنها فكرة

الرفض المطلق، تجسّدت فعلاً في القائد الرافض للظّلم، وهذا ما يميّز عقيدة أتباع أهل البيت عن غيرهم، من حيث وجوب عدم الركون إلى الظّالمين، ولزوم مقارعتهم ومنازلتهم في كل ساحة، وعدم صحّة الصّلاة وراء كل برّ وفاجر على السواء، لكي يكون المؤمن بطبعه وتطبيعه، ثورة دائمة على الظلم والفساد، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود/١١٣].

فكيف الصّلاة، أو الطّاعة، في معصيته؟!

ويقول الشهيد: «يراد الإيحاء إلينا بأن فكرة الرفض المطلق لكل ظلم وجور، التي يمثلها المهدي، تجسّدت فعلاً في القائد الرافض المنتظر، الذي سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم، كما في الحديث، وأن الإيمان به إيمان بهذا الرفض الحي القائم فعلاً، ومواكبةٌ له».

أمّا تساؤلات الشهيد الواردة في المقدّمة فهي العناوين الرئيسية لبحوثه الثمانية، والتي سنجيء على تفصيلها في محلّها بعون الله، وهي:

١- كيف تأتّى للمهدي هذا العمر الطّويل؟ ٢- المعجزة والعمر الطّويل. ٣- لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره؟ ٤- كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر؟ ٥- كيف نؤمن بأن المهدي قد وُجد؟ ٦- لماذا لم يظهر القائد إذن؟ ٧- وهل للفرد كل هذا الدّور؟ ٨- ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

كيف تأتّى للمهدي هذا العمر الطويل؟

تطرح قضيّة الإمام سؤالاً حول إمكانية أن يعيش الإنسان قروناً كثيرة، كما هو المفترض في هذا القائد المنتظر لتغيير العالم، الذي يبلغ

من العمر الشريف أكثر من أربعة عشر مرة بقدر عمر الإنسان الاعتيـادي. ويقسم هذا الإمكان إلى ثلاثة بنود رئيسية هي:

أ - **الإمكان العملي**: وهو أن يكون الشيء ممكناً على نحـو يتـاح لكل إنسان آخر أن يحقّقه، وبأنه لا يوجد لدى العلم ولا تـشير اتجاهاتـه المتحركة، إلى ما يسوّغ رفض إمكـان وقوعـه، وفقـاً لظـروفٍ ووسـائل خاصّة.

ب - **الإمكان المنطقي والفلسفي**: وهو أنه لا يوجـد لـدى العقـل وفق ما يدركه من قوانين قَبْلِيّة (أي سابقة على التجربة) ما يسوّغ رفـض الشيء، أو الحكم باستحالته.

ويبيّن أنّ امتداد عمر الإنسان لآلاف السنين هو:

١- ممكن منطقيّاً، لأن ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظـر عقليـة تجريدية، لأن الحياة، بوصفها مفهوماً، لا تستبطن الموت السريع.

٢- هذا العمر الطويل ليس ممكناً إمكاناً عمليّاً، لأن العلم، بوسائله وأدواته الحاضرة فعلاً، والمتاحة من خلال التّجربة البشريّة المعاصـرة، لا يستطيع أن يمدّد عمر الإنسان مئات السنين.

ج - الإمكان العلمي: لا يوجد علمياً اليوم ما يسوّغ رفض ذلك من الناحية النظرية، وهذا بحث يتـصل بنوعيـة التفـسير «الفـسلجي» لظـاهرة الشيخوخة والهرم لدى الإنـسان. ويقـرّر الـشهيد: «أن العلمـاء اسـتطاعوا عملياً أن يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعي المفترض، فأطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرّات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية، وذلك بخلق ظروف وعوامل تؤجّل فاعلية قانون الشيخوخة».

ولعلّه (رضوان الله عليه) أراد بذلك محاولات الدكتور «الكسيس كارل» الذي وُفّق لإبقاء دجاجة لمدة ثلاثين سنة، وذلك ضمن ظروف طبيعيّة معيّنة، وغذاء ومحفّزات لاستمرار الخلايا بالتوليد والتجدّد. ولا بدّ لنا من وقفة عند نظرية الإمام في البند الثاني (ب) وهي: «إن هذا العمر ليس ممكناً إمكاناً عملياً» بسبب عجز العلم بوسائله عن تمديد عمر الإنسان، لكنّه يتنبّأ لهذا الإمكان في موضع آخر بقوله: «إلاّ أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل».

لقد كان ذلك في زمن حياة الشهيد، أما اليوم، فإن هذا الإمكان أصبح شبه محقّق، وتؤكّده الدّراسات الحديثة، فقد أعلن باحثون أمريكيون أنّهم شارفوا على اكتشاف «ينبوع الشباب» مع نجاحهم في استنساخ عجول صغيرة بخلايا شابّة، بعد تمكّنهم من إعادة عقارب عملية الشيخوخة إلى الوراء في الخلايا المستنسخة من خلايا مسنّة، فقد نجح فريق باحثي شركة «ادفانْسدْسيل تكنولوجيز»، أي التكنولوجيا المتقدمة للخلايا، في استنساخ ستّ بقرات باستخدام خلايا مسنّة.

ويؤكّد الباحثون أن العجول الإناث المستنسخة ليست في صحة جيدة فحسب. وإنما لا تبدو عليها أيّ علامة من علامات الشيخوخة التي لوحظت في النعجة «دولّي» التي استنسخها البريطاني «إيان ولموت» عام ١٩٩٧م.

والأهمّ في هذه القضية، وهو ما يهمّنا في هذا البحث، ما أكّده «روبرت لانزا»، رئيس فريق البحث، في دراسة نشرتها مجلة «ساينس» بتاريخ ٢٨ نيسان عام ٢٠٠٠م، أن التقنيّة الجديدة المستخدمة أعادت عمر الخلايا على ما يبدو إلى الوراء، حيث ظهرت أكثر شباباً حتى من خلايا

البقرات العاديّة التي تقاربها سنّاً، وكانت عمليات الاستنساخ السابقة تنتهي إلى ولادة حيوانات خلاياها أقصر عمراً.

والذي أريد الخلوصَ إليه هنا، بعد هذه الوقفة العلميّة، أن الطريف في تقرير هؤلاء العلماء: «أنّ الخلايا مبرمجة لتنقسم عدداً محدّداً من المرات، وهي تموت عندما لا تعود قادرة على الانقسام والتجدّد»[1]. فمن الذي برمج هذه الخلايا وحدّد عدد انقساماتها؟!

أليس الذي أودعها سرّه في عدد الانقسامات، ووضع فيها عدّاداً خاصاً، بقادر على أن يطيل عمر هذا الجهاز (العدّاد) ويزيد في انقسامات الخلية لتستمر في وليّه وحجّته على خلقه؟ «بلى وهو الخلاّق العليم». ثم إن هذا العدد من الانقسامات، ما الذي يوقفه قبل توقف العدّاد، أليس هو الموت؟ فإذا تأخّر الموت مئات السنين فهي بلا شك ستستمر في الانقسام والتعويض، وإذا استطاع المخلوق أن يتحكّم في شباب البقرات وهرمها وإطالة عمر الدّجاجة، فإن الخالق، سبحانه وتعالى، قادرٌ على كل شيء، يمنح البقاء والخلود لأوليائه ولخلاياهم المقدسة، فهم الذين يمثلون خلافة الله في الأرض، وحجته على عباده.

ويتساءل الشهيد مجدّداً: «كيف سبق الإسلام حركة العلم في مجال هذا التحويل؟»

ويجيب (رضوان الله عليه) بضرب أمثلة على ذلك الإمكان، كإسراء النبي الأعظمﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فيقول: «وهذا الإسراء إذا أردنا أن نفهمه في إطار القوانين الطبيعية فهو يعبّر عن

---

(١) صحيفة البعث، العدد ١١١٨٩ تاريخ ٢٠٠٠/٥/٢، والفضائية السورية بتاريخ ٢٠٠٠/٥/١.

الاستفادة من القوانين الطبيعية بشكل لم يُتح للعلم أن يحقّقه إلا بعد مئات السنين».

ولعلّه يشير بذلك إلى صعود الإنسان على سطح القمر، وركوبه أجواز الفضاء، واكتشافات العلم المذهلة. ويحاول الشهيد الردّ على تساؤلٍ يطرحه، حول غرابة هذا العمر المديد للمنقذ، وأنه خارج عن حدود المألوف في حياة الناس، وتجارب العلماء.

ويجيب عن ذلك بأن الدّور التغييري الحاسم الذي أُعدّ له هذا المنقذ يبدو غريباً أيضاً في حدود المألوف في حياة الناس، وقد أنيط به تغيير العالم وإعادته إلى بنائه الحضاري من جديد على أساس الحقّ والعدل.

وهنا تتبدّى عبقريّةُ الشّهيد وخبرتُه في قيادة البحث وإدارة دفّته كما يشاء، فيستنتج بنظرته الثاقبة وخبرته المعهودة مقارنة بين المهدي (عجل الله فرجه)، وبين نوحٍ عليه السلام، فيقول: «ولا أدري! هل هي صدفة أن يقوم شخصان فقط بتفريغ الحضارة الإنسانية من محتواها الفاسد، وبنائها من جديد، فيكون لكل منهما عمر مديد يزيد على أعمارنا الاعتيادية أضعافاً مضاعفة!»، ويبين أنّ الأوّل هو نبي الله نوح الذي نص القرآن على أنه دعا قومه تسعمئة وخمسين سنة، في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت/١٤] ، والآخر هو المهدي الذي مكث في قومه حتى الآن أكثر من ألف عام، وسيقدّر له في اليوم الموعود أن يبني العالم من جديد.

ثم يثبت الشهيد (رضوان الله عليه) برهانه، عقلياً ومنطقياً، عن طريق الاستفهام التقريري: «لماذا نقبل نوح الذي ناهز ألف عام على أقل تقدير، ولا نقبل المهدي؟»

ولا بدّ من القول، إضافةً إلى ما أراده الشّهيد السّعيد:

كما غسل طوفان نوح عالم الخطيئة والظلم والفساد، فلا بدّ من طوفان آخر يغسل عالم الخطيئة والردّة والفساد زمن الإمام المهدي عليه السلام، ربّما بحرب نووية ذرية هيدروجينية مدمّرة، تشمل الكون كلّه، يذهب فيها ثلثا البشرية، كما جاء في بعض الأخبار، فيكون هذا الطوفان مثل ذاك، ليبني حجّة الله عالماً نقياً عادلاً مؤمناً من جديد.

وهذا كلّه يؤكّد الإمكان العملي الذي افترضه الشهيد، ويدعمه التاريخ بشواهده وأعلامه المعمّرين، على الرّغم من عدم جدوى طول أعمار بعضهم على المستوى التبليغي والرّسالي، كما هو عند المهدي عليه السلام، من أمثال:

١- السيّد المسيح عليه السلام، ويعتقد المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء أنه حيّ وأن الله رفعه إليه، وقد تجاوز عمره اليوم الألفي سنة.

٢- الخضر عليه السلام، فإنه لا يدري أحدٌ كَم له من السنين، فهو من قبل ولادة موسى وهو الذي حاوره.

٣- قال محمد بن إسحق: عاش عوج بن عناق ثلاثة آلاف سنة وستمئة، وقد وُلد في حجر آدم، وقتله موسى بن عمران.

٤- في التوراة: عاش ذو القرنين ثلاثة آلاف سنة، ويقول المسلمون ألفاً وخمسمئة فقط.

٥- عاش الضحّاك، وهو بيورسب، ألف سنة، وكذلك طهمورث. وعاش قينان تسعمئة سنة، وعاش نفيل بن عبدالله سبعمئة سنة، وعاش سطيح الكاهن، واسمه ربيعة بن عمر، ستمئة سنة، وخلق كثير غير هؤلاء

عاشوا مئات السنين، ذكرهم ابن الجوزي في كتابه: «تذكرة الخواص» في باب ذكر المهدي عليه السلام.

ما يؤكد القرآن الكريم أن نبيّ الله يونس عليه السلام، عاش في بطن الحوت، وهو حي يرزق، ولو لم يكن يونس من المسبّحين لله عز وجل والمستغفرين له، لبقي في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، وربما امتدّ هذا البقاء آلاف السنين، وهو حي في بطن الحوت من دون أن يموت، وفي وضع غير طبيعي تماماً، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصّافات/١٤٤].

والآية تؤكّد الإمكان العملي لطول العمر ولو في أقسى الظروف (بطن الحوت).

فلا غرابة إذن في طول العمر، وبذلك يتحصّل الإمكان العملي لطول عمر المهدي عليه السلام بحكم المثل، والعلم يؤكده. ويمكن لنا القول: إن البقاء وطول العمر هما القاعدة، وأن الموت هو الاستثناء، وهو الذي يصرم العمر، ويوقف محركات الخلايا عن التوليد.

المعجزة والعمر الطّويل

في هذا البحث يؤكّد الإمام الشهيد قدس سره إمكانيّة إطالة عمر أيّ إنسان علمياً، لكنه يتعارض مع قانون الهرم والشيخوخة، ويتساءل: ماذا تعني إطالة عمر «نوح والمهدي» قروناً متعدّدة، وهي على خلاف القوانين الطبيعية التي أثبتها العلم بوسائل التجربة والاستقرار الحديثة؟ ويؤكّد أن هذه الحالة: «تصبح معجزة عطّلت قانوناً طبيعياً في حالة معيّنة للحفاظ على حياة الشخص الذي أُنيط به الحفاظ على رسالة السّماء».

إذاً هذا هو السرّ في إطالة عمر كلّ منهما، وهو لعلّة اقتضتها الحكمة الإلهية.

ويذكر أن قانون الطبيعة يُعطّل أحياناً لمصلحة يراها خالق الطبيعة، ويضرب لهذا مثلاً: قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويا، وقد عُطّل هذا القانون لحماية حياة إبراهيم عليه السلام، حين أُلقي في النّار، فكان حدوث المعجزة هو الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء/٦٩].

وكذلك فلق البحر لموسى عليه السلام، وشبّه للرومان أنهم قبضوا على عيسى عليه السلام، وخرج رسول الله ﷺ من داره، وهي محفوفة بحشود قريش التي ظلّت ساعات تتربّص به لتهجم عليه. فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشي بينهم، وكانت هذه المعجزات جميعها لحكمة أرادها الله.

ولا شك في أن المعجزات لدى الأنبياء والمرسلين حصلت فعلاً، وهي برهان ولطف ربّاني على صدق المُرْسَل، وأن الله يجري على يديه الخوارق التي لا تتأتّى لأمثاله من البشر من غير الأنبياء والرسل، وهذه الظاهرة يُقرّ بها المسلمون كافة، وهي كثيرة نصّت عليها كتب الحديث والسّير، كحادثة انشقاق القمر إلى نصفين، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكليمه الجذع، ورد الشمس بدعاء وصيّه علي بن أبي طالب عليه السلام وغيرها. ويقرّ أصحاب الدّيانات السّماوية بحصول المعجزات لدى أنبيائهم أيضاً.

وكدأب سيدنا الشهيد، فإنه لا يترك مجالاً للتساؤل المفترض حول

بحوثه إلاّ ويتصدّى للإجابة عليه، فيطرح سؤالاً مفترضاً عند علماء الطبيعة ودارسيها وهو:

«كيف يمكن أن يتعطل القانون» وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية؟ ويجيب بثقة العالم العارف بعلوم الطبيعة قائلاً:

«إنّ العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة في القانون الطبيعي. فحين يطّرد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة أخرى، يُسْتَدلّ بهذا الاطّراد على قانون طبيعي، غير أن العلم لا يفترض في هذا القانون علاقة ضرورية بين الظاهرتين، نابضة من صميم هذه الظاهرة وذاتها». ويوضح هذه الفكرة بشكل أوضح في كتابه «فلسفتنا» بقوله:

«إن العلّة الفاعلية للعالم غير علّته الماديّة، أي أن سببه غير المادة الخام، التي تشترك فيها الأشياء جميعاً»[(١)]. ذلك لأن التجارب الحسيّة والعلمية قد أثبتت أن جميع خصائص المادة الأصلية وتطوراتها ليست ذاتية، وإنّما هي عرضيّة، كحركة السيّارات الشّمسيّة حول المركز، فكما أنّ دورانها حوله ليس ذاتيّاً لها، بل هي تقتضي بطبيعتها الاتجاه المستقيم في الحركة طبقاً لمبدأ القصور الذّاتي، وكما أن ذلك الدوران، كما يقول السيد، لمّا لم يكن ذاتياً، أتاح لنا أن نبرهن على وجود قوة خارجية جاذبية.

إذاً فالمعجزة ليست اختراقاً للقانون الطبيعي بمقدار ما هي تدخّل لتلك القوّة الخارجية المنفصلة عن المادة بناءً على معطياتها وإرادتها، وهي قدرة الله

---

(١) كتاب فلسفتنا للشهيد الصدر، ص ٢٩٥.

سبحانه وتعالى الذي أوجد هذا القانون. ولحجّة الإسلام الشهيد هاشمي نجاد رأي يوضح الفكرة، حيث قسّم الأمور إلى ثلاثة أقسام:

١- الأمور التي يستحيل تحقّقها، مثل اجتماع الظلمة والنور في مكان واحد.

٢- الأمور التي يمكن تحقّقها، وفق مجموعة من الأصول والأساليب العاديّة، وهي الأمور الطبيعية العاديّة.

٣- أمور ممكنة الوقوع، إلا أنّها غير عاديّة وغير طبيعية، فهي خارقة للعادة الطبيعية، لا أنها مستحيلة، مثل: شفاء المريض بالتوسّل بالله تعالى من دون استعمال الدّواء، أو سقوط إنسان من شاهق من دون أن يحدث فيه أي كسرٍ أو نحوه.

ويتحدّث الدكتور «الكسيس كارل»، الحائز على جائزة نوبل، عن الأمور الخارقة للطبيعة والمعجزات. فيقول: «هناك مرضى كانوا مصابين بأمراض مختلفة، قد شُفوا تقريباً من أشدّ الأمراض خطورة بواسطة الدّعاء»[1].

لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره الشّريف؟

بملكة أدبيّة رائعة، وبأسلوب أخّاذ، يطرح السيّد الشهيد القضية بشكل تساؤلات مفترضة كعادته، فيقول: «لماذا كل هذا الحرص من الله، سبحانه وتعالى، على هذا الإنسان بالذات، فتُعطّل من أجله القوانين الطّبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخّض عنه المستقبل، وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على السّاحة، ويمارس دوره المنتظر؟».

---

(١) صحيفة كيهان العربي. عدد قديم.

يثير الشهيد هنا قضيّتين اثنتين هما:

أوّلاً: ما هي الفائدة من بقائه عليه السلام كل هذه المدّة حيّاً غائباً؟ ولماذا يحرص الباري، عزّ وجل، على ذلك، على الرّغم من تعطيل القوانين الطبيعية لأجله؟

ثانياً: لماذا لا يُستبدل القائد المنتظر بقائد يولد في اليوم الموعود؟

ولا يريد رحمه الله أن يركّز على الرّوايات المستفادة من مدّة بقائه حياً، والصحيحة المتواترة عند المسلمين جميعهم، ويترك أمرها لموسوعة الشهيد الصدر، لكي يقوم بعرضها وتفصيلها، فلا يلزم المتلقّي بأكثر من قوله: «نحن نؤمن بأنّ الأئمّة الاثني عشر مجموعة فريدة، لا يمكن التعويض عن أيّ واحدٍ منهم».

وفي الحديث الشهير والمتواتر، المعروف بحديث الثقلين، أكبر دليل على ضرورة وجود إمام في كل زمان، وهو حجة الله على خلقه، وهو المحصّل من بقائه عليه السلام حيّاً كل هذه المدّة، ويؤكّده قوله صلى الله عليه وآله: «ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض»، فعدم التفرق يعني وجود الإمام مع القرآن إلى يوم القيامة. وأن الأخذ بهما معاً عصمة من الضلال. قال صلى الله عليه وآله: «إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»، رواه مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم[(1)].

---

(١) صحيح مسلم، ١٢٢/٧، وسنن الترمذي، ٣٢٩/٥، وصحيح سنن الترمذي بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، ٢٢٦/٣ ط. الرياض، ومسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ١٤ و١٧ و٢٦ و٥٩.

ثم يأتي الشّهيد إلى التفسير الاجتماعي للمسألة، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التّغيير الكبرى نفسها، والمتطلّبات المفهومة لليوم الموعود، واعتبار أن هذا العمر الطويل للقائد المدّخر عامل من عوامل إنجاحها، فيرى:

= إن عملية التغيير الكبرى تتطلّب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها، مشحوناً بالشعور بالتفوق والإحساس بضآلة الكيانات الشامخة التي أُعدّ للقضاء عليها وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد.

= لمّا كانت رسالته هي تغيير عالمي لعالم مليء بالظلم والجور، فمن الطبيعي أن يكون في شعوره النفسي أكبر من ذلك العالم. ويركز الشهيد على العامل النفسي في المعالجة، فيبيّن أن من ينشأ في ظلّ حضارة راسخة تعمر الدنيا بسلطانها، يعيش في نفسه الشعور بالهيبة تجاهها، لأنه ولد ونشأ وهي جبّارة، فلم يجد سوى أوجهها المختلفة، وخلاف ذلك هو القائد الذي توغل في التاريخ، وعاش أحداثه، ورأى الحضارات الكبيرة وعايشها بعينه وكيانه ثم رأى حضارة ما قبل اليوم الموعود وهي صغيرة، حتى اتخذت مواقعها في أحشاء المجتمع البشري، ثم عاصرها وهي تنمو وتزحف، تصاب بالنكسة تارة، ويحالفها التوفيق تارة أخرى. يقول الشهيد:

«فإن شخصاً من هذا القبيل عاش كل هذه المراحل، بفطنة وانتباه كاملين، ينظر إلى هذا العملاق من زاوية ذلك الامتداد التاريخي الطويل الذي عاشه بحسّه لا في بطون كتب التاريخ فحسب».

ويضرب مثلاً للقائد الخائف بجان جاك روسو الذي يعدّ من كبار الدّعاة فكرياً وفلسفياً إلى تطوير الوضع السياسي القائم زمنه في فرنسا،

وأنه كان يرعبه مجرد أن يتصوّر فرنسا من دون ملك، لأنه نشأ في ظل الملكية وتنفّس من هوائها طوال حياته.

كما يضرب مثلاً للقائد الذي يقهر الخوف وينتصر عليه بأهل الكهف الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف/٢٥]. كيف ضاقت نفوسهم ودبّ اليأس فيهم وكبر أن يظل الباطل يحكم ويظلم، فأنامهم الله ثلاثمئة سنة في الكهف، ثم بعثهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة فوجدوا أن ذلك الكيان الذي بهرهم بقوته وظلمه، قد تداعى وسقط، فرأوا بأعينهم انتهاء الباطل وتصاغر في نفوسهم. وهذا الشموخ النفسي الذي تحقّق لأهل الكهف نفسه يتحقّق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد، وهو يرى سقوط العمالقة وتهافت التيجان.

= إنّ التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود.

= إنّ عملية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم على أساس رسالة الإسلام، ولا بد من أن تكون شخصيته قد بنيت بناء كاملاً في مرحلة حضارية سابقة هي أقرب ما تكون في الروح العامّة، ومن ناحية المبدأ، إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته.

هذه هي النقاط الأساسية التي أثارها الشهيد حول الفائدة من هذه الغيبة الطويلة، ولماذا لا تكون القيادة لرجل يولد من جديد، وذلك من الناحية الاجتماعية والنفسية، وبالتحليل العقلاني والمنطقي، وإن كان القائد المنتظر مسدّداً ومنصوراً بأمر الله، فإن التجربة من الناحية العملية تضيف زخماً ودفعاً كبيرين، على الأقل في نظرنا كأتباع مؤمنين بضرورة وجود المنقذ.

وإذا وُلد هذا القائد اليوم، فعلى أي مذهب سيكون؟ وكيف يتسنّى له أن يعيد الدين غضّاً طرياً، إذا كان لا يحمل علم رسول الله ﷺ وعلم أهل بيته منذ عصر الأئمة؟ ولا يتحقق ذلك إلا بالحجة المولود سنة ٢٥٥ للهجرة، الذي عاصر تلك المتغيرات جميعها، وبقي الدّين لديه كما كان زمن جدّه ﷺ بالتواتر الصحيح.

كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر؟

يطرح الشّهيد السؤال الآتي: «كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر مع أنه لم يعاصر أباه الإمام العسكري إلا خمس سنوات تقريباً؟ وهي مرحلة الطفولة التي لا تكفي لإنضاج شخصية القائد. فما هي الظروف التي تكامل من خلالها؟». ويختصر (رضوان الله عليه) الجواب ويجمله في جملتين اثنتين، أغنتا الفكرة التي أراد التعبير عنها بعبقريته قائلاً: «إن المهدي عليه السلام خلف أباه في إمامة المسلمين، وهذا يعني أنه كان إماماً بكل ما في الإمامة من محتوىً فكري وروحي في وقت مبكر جداً من حياته الشريفة».

ويبيّن أن الإمامة المبكرة سبقت زمن المهدي عليه السلام وتمثلت من قبله بالإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام الذي تولّى الإمامة وهو ابن ثماني سنين، والإمام علي الهادي وهو ابن تسع سنين، والإمام الحسن العسكري وهو في الثانية والعشرين من عمره.

وكانت هذه الإمامة بالنسبة إلى عدد من آباء المهدي عليه السلام، وكما يعبر الشهيد: «تشكل مدلولاً حسيّاً عملياً عاشه المسلمون ووعوه في تجربتهم مع الإمام بشكل أو بآخر وهي تجربة أمّة».

وقد عالج هذه الظاهرة في ست نقاط أساسية، ليدلّ من خلالها على أن ظاهرة الإمامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية، يبرز الإمام وهو صغير على المسرح، فيعلن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين، ويدين له بالولاء والإمامة كل ذلك التيار الواسع، فلا بد من أن يمتاز بغزارة العلم والمعرفة، وسعة الأفق، والتمكّن من الفقه والتفسير والعقائد. ويمكن إجمال هذه النقاط بما يأتي:

= لم تكن إمامة أهل البيت مركزاً سلطوياً تفرضها الخلافة، أو منصباً وراثياً تنتقل من الأب إلى الإبن، وإنما كانت تُكتسب بالولاء والإقناع الفكري من قبل القواعد الشعبية على أسس روحيّة وفكرية.

= ازدهار القواعد الشعبية، وبخاصة زمن الإمامين الباقر والصادق، واتساع المدرسة التي صارت تشكّل تياراً فكرياً واسعاً في العالم الإسلامي، يضمّ المئات من الفقهاء والمفسّرين والعلماء.

= مدرسة أهل البيت وقواعدها الشعبية وضعت شروطاً شديدة في تعيين الإمام «لأنها تؤمن بأن الإمام لا يكون إماماً إلا إذا كان أعلم علماء عصره».

= كان الاعتقاد بإمامة أهل البيت يكلّف شيعتهم غالياً، «ولم يكن له من الإغراءات سوى ما يحسّ به المعتقد أو يفترضه من التقرب إلى الله تعالى»، وقدّمت هذه المدرسة تضحيات كبيرة وشهداء عدة للثبات على مبدأ الإمامة، وبخاصّة أنها كانت تشكل خطراً في نظر الخلافة المعاصرة.

فما الدّاعي إلى اتّباع إمام غير مكتمل الشروط، والتعرض للقتل والأذى بسبب الاعتقاد بإمامته؟!

= التفاعل المستمر بين الإمام وقواعده الممتدة في أرجاء العالم الإسلامي بمختلف طبقاتها من العلماء وغيرهم من خلال مكاتبات الإمام وأسفاره، وما كان يبثّه من وكلاء في مختلف الأرجاء، وما اعتاده الشيعة من تفقد أئمتهم وزيارتهم.

= قيام حملات الاعتقال والمطاردة ضد الأئمة من الخلافة المعاصرة، وظهورها بمظاهر القسوة والطغيان، وذلك لأن الخلافة كانت تنظر إلى الأئمة عليهم السلام، وإلى زعامتهم الروحيّة والإمامية بوصفها مصدر خطر كبير على كيانها ومقدّراتها.

ومن خلال هذه النقاط الست يُدرك قارى الكتاب حقيقة الأئمة عليهم السلام، وعمق العقيدة بالولاء لهم، وأجر الشهادة والتضحية بين أيديهم، فلو كانت المسألة لا تعدو عن فكرة الوراثة، أو التقليد الأعمى، لكان الانتصار لأعدائهم، ولكانت القواعد الشعبية المؤمنة بهم قد فرزتهم وتركت مدرستهم، فالناس عبيد الدنيا فكما قال الإمام الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا، والدّين لعقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الدّيّانون»[1].

فلو لم يتمتّع الأئمة، صغار السنّ كانوا أم كباراً، بمؤهّلات وعبقريات وقابليات اختصّهم الله بها، وميّزهم من غيرهم، لما استمات المؤمنون في اتّباع خطّهم، ولما ضحّوا في سبيلهم، ولكانوا لجأوا إلى موائد السلطان ومغرياته الدنيويّة.

والبرهان الأخير الذي يطلقه الشهيد هو: لماذا سكتت الخلافة

---

(١) مقتل الخوارزمي، ٢٣٧/١.

القائمة، ولم تعمل على كشف الحقيقة إذا كانت في صالحها، لو كان الإمام الصبيّ صبيّاً في فكره وثقافته، وكان هذا أسهل وأيسر من الطرق المعقّدة وأساليب القمع والمجازفة التي انتهجتها السلطات يومئذٍ؟ ثم قال: «إن التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة، هو أنّها أدركت أن الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية وليست شيئاً مصطنعاً». ولم يحدّثنا التاريخ عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة، أو واجه فيه الصبي الإمام إحراجاً يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه.

ثم يخلص الشهيد إلى أن الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية في حياة أهل البيت، وليست مجرد افتراض: «كما أن هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة في تراث السّماء الذي امتدّ عبر الرسالات والزّعامات الربّانية».

ويكتفي بمثال واحد لهذه الظاهرة هو يحيى بن زكريا ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم/١٢]. ليثبت من ذلك كله أن إمامة المهدي وخلافته لأبيه، وهو صغير، هي ظاهرة واقعيّة ومتواجدة فعلاً في حياة أهل البيت وفي تراث السّماء.

كيف نؤمن بأنّ المهدي قد وُجد؟

تعدّ هذه المسألة من أهم المسائل التي عالجها الشهيد الصدر (رضوان الله عليه)، لما فيها من إثارات واقعية وحقائق تترجّح بين مؤمن بها وجاحد، فهو بعد أن برهن على إمكانية بقاء الإمام الحجّة حيّاً مئات السنين، وعلى حقيقة الإمامة المبكرة واقتناع القواعد الشعبية بها، عالج بعبقريّته الفذّة وأدبه الجمّ، وعلمه الغزير، ما يمكن أن يدور في عقول

الناس من أفكار منها: «كيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي؟». ويجيب الشهيد: «إن فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل، قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظمﷺ عموماً، وفي روايات أئمة أهل البيت خصوصاً، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك». وذكر أنها بلغت أربعمئة حديث عن النبيﷺ من طرق السنّة، وبلغ مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي، من طرق الشيعة والسنّة أكثر من ستّة آلاف رواية، ويأتي الشهيد؇ إلى تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر، من خلال دليلين أساسيين: أحدهما إسلامي برهن فيه على وجود القائد المنتظر، والثاني علمي برهن فيه على أن المهدي هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية.

= الدّليل الإسلامي

يتمثّل هذا الدّليل، كما يقول الشهيد: «في مئات الرّوايات الواردة عن رسول اللهﷺ والأئمة من أهل البيت؈، والتي تدلّ على تعيين المهدي، وكونه من أهل البيت، ومن ولد فاطمة، ومن ذرية الحسين، وأنه التاسع من ولد الحسين، وأن الخلفاء اثنا عشر». ويترك لعمه الحجّة الصدر قضية توثيق الروايات، لأنه، كما أسلفت، قدّم بهذا البحث لكتاب الحجّة الصدر: «موسوعة الإمام المهدي».

وركّز الشّهيد (رضوان الله عليه) على حديث رسول اللهﷺ الذي يقول فيه: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر، كلهم من قريش» وأنه مذكور في أشهر الكتب، بما في ذلك البخاري ومسلم والترمذي، وأبي داود، ومسند أحمد، والمستدرك على الصحيحين.

والذي يثير الانتباه هنا أن البخاري الذي نقل الحديث في

صحيحه[1]، كان معاصراً للإمام الجواد، والإمامين الهادي والعسكري، وفي ذلك مغزىً كبير، لأنه يبرهن على أن هذا الحديث قد سجّل عن النبي ﷺ قبل أن يتحقق مضمونه، وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلاً. وذلك لأنه لم تكتمل سلسلة الأئمة، فالإمام الجواد هو التاسع والهادي العاشر والعسكري الحادي عشر، فدلّ تدوين هذا الحديث في وقت مبكر على اكتمال الاثني عشر، على أنه: «تعبير عن حقيقة ربّانيّة نطق بها من لا ينطق عن الهوى».

ويؤكّد السيّد ﷺ أنّ هذا الحديث الصحيح والمتواتر والمتّفق على صحته بين المسلمين جميعهم، لم يتحقّق مضمونه إلا عند الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ابتداء من الإمام علي عليه السلام. وانتهاء بالإمام الحجة عجل الله فرجه، فهو كما قال: «ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث الشريف».

وبالفعل، فإن غير علماء الإمامية لم يتفق أيٌ منهم على مدلول الحديث، وعلى أسماء هؤلاء الأئمة، ولم يبحث في ذلك تجاوزاً على بعض الخلفاء، أو إلغاءً لرموز حاكميتهم، ونقضاً لشرعيّتها، على الرّغم مما لهذا الحديث المتواتر والصحيح، من خطورة وأهمية في عقيدة المسلمين، وأخذ الدين كاملاً من مصدره الصحيح بعد رسول الله ﷺ، لأن عدم معرفة أسماء الأئمة أو الخلفاء الاثني عشر، ما هو إلا هدم للدّين وضياع للسنة النبوية المطهّرة، ومعصية لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

ويؤكده حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجة والترمذي وهو:

---

(١) صحيح البخاري، ٢/٢٥٦، كتاب بدء الخلق.

«عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ»[1]، وفي الحديث السابق: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر»، فهل كتم رسول الله ﷺ شيئاً من الدّين عن الأمة، وبخاصة ما فيه هدايتها أو أنه مأمور بتبليغ كل ما أراده الله؟ والله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل/ ٤٤]. وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة/ ١٥٩] أو أن رسول الله ﷺ بلّغ الرسالة ولم يكتم منها شيئاً، وبيّن سبيل النجاة من بعده، فسمّى الخلفاء الإثني عشر من بعده، لكن الناس اختاروا لأنفسهم شيئاً آخر؟!

ثم أليس من الحكمة والمنطق أن يقوم واحد من الصّحابة ممّن سمع الحديثين المذكورين، ويدرك خطورتهما، فيسأله: يا رسول الله سمّهم لنا، لنأخذ الدين منهم بعد رحيلك، ونتّبع سبيلهم، مع أنه من الواجب أن يسمّيهم النبي ولو لم يطلب منه ذلك.

نعم والله لقد فعل وسمّاهم بأسمائهم بدءاً من علي بن أبي طالب عليه السلام، وانتهاء بالحجة المهدي عليه السلام، لكن السّياسة وحبّ الدنيا استحوذا على الناس، فأداروا لهم ظهورهم.

وقد عالج بعض مفكري أهل السنة وعلمائها، مثل الإمام السيوطي في تاريخه، والقاضي عياض وابن حجر، هذا الحديث، وحاولوا تثبيت بعض الأسماء، ولكن من دون جدوى. قال السيوطي في تاريخه بعد إيراده لحديث: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر..»، وذكره أسانيده من

---

(١) سنن ابن ماجة، ١٥/١ وسنن الترمذي، ١٤٩/٤.

الصَّحاح الستة معترفاً بصحة إسناده وقوته: قال شيخ الإسلام ابـن حجـر في شرح البخاري (مختصراً): كلام القاضي عياض أحـسن مـا قيـل فـي الحديث: «والذي وقع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر، ثم عثمان ثم علي. ثم معاوية ثم يزيد، ثم عبد الملك بن مروان، ثم أولاده الأربعـة، الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وتخلل بين سليمان ويزيد، عمر بـن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هـو الوليـد بن يزيد بن عبد الملك»[1].

فعلى رأي القاضي عياض وابـن حجـر معـاً: «كلهـم اجتمـع عليـه الناس»، فقد اجتمع الناس على أكثر من هذا العدد بكثير.

ثم هل أوصى النبيﷺ أن نأخذ سـنته مـن هـؤلاء، وفـيهم معاويـة الذي حارب وصي رسـول الله وخليفتـه ببيعـة صـحيحة لا أحـد يقـدح بصحتها، والنبي يقول في علي وفاطمة والحسن والحـسين: «أنـا حـرب لمن حاربكم وسلم لمـن سـالمكم»[2]. وفـيهم يزيـد بـن معاويـة الـذي أجمعت الأمة على تفسيقه. وقد كفّره أحمد بن حنبل، وقتـل هـو وأبـوه معاوية ريحانتي رسول اللهﷺ الحسن والحسينعليهما السلام، فأيـة سـنّة ترتجـى منهما؟!

والثاني عشر، بخاصة، هو الوليد بن يزيد الذي قال عنـه الـسيوطي في تاريخه: «وكان فاسقاً شرّيباً للخمـر، منتهكـاً حرمـات الله، أراد الحـج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه، وخرجوا عليـه وقـالوا لـه:

---

(١) تاريخ الخلفاء للإمام السّيوطي، ص ١١.

(٢) سنن ابن ماجة، ٥٢/١، وسنن الترمذي، ٣٢٣/٥، والمستدرك علـى الـصحيحين، ١٤٩/٣، ومسند أحمد بن حنبل، ٤٤٢/٢.

نقم عليك انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله. ولما قتل وقطع رأسه نظر إليه أخوه سليمان فقال: بُعداً له، أشهدُ أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي. قال الذهبي: لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة، بل اشتهر بالخمر والتلوّط»[1].

وفي رأي الذهبي: الخمر والتلوّط أهون من الكفر، فهل تؤخذ السنّة ويأمر النبيﷺ بها، من صاحب هذه الصّفات الخمرية اللوطيّة؟ ويدخل في حَفَظَة الدّين ورواة السنة؟ حاشا وكلاّ!!

أما السيوطي نفسه، فقد اختار عشرة أسماء فقط اختارها برأيه من غير تسلسل، لكن لم يتحقق معه الحديث، قال: وبقي اثنان أحدهما المهدي وهو من أهل البيت.

= **الدليل العلمي**

يتلخّص الدّليل العلمي، لدى الشهيد الإمام، بتجربة الأمّة وإيمانها بصدق التجربة، فهو يتكوّن، كما عبّر عنه، من: «تجربة عاشتها أمّة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهي فترة الغيبة الصغرى».

وهذه الغيبة تعدّ بحق المرحلة الأولى من إمامة الحجّةعليه السلام، امتدت سبعين عاماً، ثم تلتها المرحلة الثانية وهي الغيبة الكبرى. حُدّد النواب بأربعة في الغيبة الصغرى، أمّا في الكبرى، فقد أرجع الأمة إلى المجتهدين والعلماء الثقاة. وبيّن الشهيد العلّة من الغيبتين على التدريج، بأن القواعد قد اعتادت الاتصال مع الإمام في كل عصر، والتفاعل معه،

---

(١) تاريخ الخلفاء للإمام السّيوطي، ص ٢٥٠ و٢٥١.

والرجوع إليه، فلو ظهر وغاب فجأة، لسبّبت هذه الغيبة المفاجئة كما يقول: «الإحساس بفراغ دفعي هائل، قد يعصف بالكيان كله، ويشتّت شمله، فكان لا بد من تمهيد لهذه الغيبة لكي تألفها هذه القواعد بالتدريج». فكانت الغيبة الصغرى تمهيداً للكبرى، وقد كان الإمام عليه السلام، خلال غيبته الصغرى، دائم الصلة بقواعده وشيعته، عن طريق وكلائه ونوّابه والثقاة من أصحابه، وهؤلاء يشكلون همزة الوصل بينه وبين النّاس المؤمنين بخطّه الإمامي الرّسالي، فشكّل هذا الأمر نصف انقطاع عن القواعد.

والنواب الأربعة هم: عثمان بن سعيد العمري، ومحمد بن عثمان بن سعيد، وأبو القاسم الحسين بن روح، وأبو الحسن علي بن محمد السمّري. وقد شهدت القواعد بتقواهم وورعهم ونزاهتهم، وقاموا بدور النيابة على الترتيب المذكور.

والذي يدعم الموقف ويصدّق النوّاب أن جميع التوقيعات والرسائل التي كانت ترد عن طريقهم من الإمام الحجة هي بخط واحد وسليقة واحدة، ما يقطع الشكّ بأنها بخط الإمام وتوقيعه.

وهذه الغيبة هيّأت الشيعة بالتدريج لتقبّل الغيبة الكبرى، التي ابتدأت بموت السّمّري. يقول الشهيد رحمه الله: «وبهذا تحوّلت النيابة من أفراد منصوصين إلى خط عام. وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدّنيا والدّين تبعاً لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى».

وفي الحقيقة، تعد مدرسة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام متواترة، نقلت لنا الفقه والعلم والتفسير نقلاً صحيحاً، إماماً عن إمام حتى الثاني عشر، وتعدّ بحق مدرسة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وصلتنا بالتّواتر عن طريق أئمّة أهل

البيت عليهم السلام، مدّة مئتين وستّين سنة، وامتدّت سبعين عاماً مدّة النوّاب الأربعة التي تعدّ مدة حضور الحجة والأخذ عنه في أيّ منهم، وقد أفرد لهم كثير من الأخباريين كتباً وفصولاً تحكي سيرتهم العطرة وعلمهم الغزير وصدقهم وتقواهم. كابن حجر، والجويني الشافعي، وسبط ابن الجوزي وغيرهم.

وبعد عصر الغيبة الصغرى، جاء دور المؤسسات الدينية والحوزات العلمية، فنقل الدين عن طريقها بالتواتر والنقل الصحيح. ولا شك في أنّ العمل المؤسساتي أضمن وأصدق من العمل الفردي، فلا يمكن أن يتواطأ عشرات الآلاف من علماء الأمّة على الخطأ، وبخاصة أن المرجعية لا تتحكم فيها السياسات الوضعية. وبذلك وصَلَنا علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدين كاملاً صحيحاً متواتراً عن طريق الأئمة طوال الثلاثة قرون الأولى، تلقت الأمة عن الأئمة مباشرة، وهي مدة كفيلة بتحقق صدق الدعوة، وانتشارها في الآفاق، سيّما وأنها وصلتنا مكتوبة ومحفوظةً عن طريق الأئمة عليهم السلام. ولا مجال للبحث في مسألة الاحتمال في أن تكون فكرة المهدي مشكوك فيها، وهي حقيقة موجودة كل هذه المدة. وضمن تلك العلاقات والروابط الوشيجة بين الإمام وجماهيره جميعها. وقد اكتسبت ثقة من حولها جميعهم.

ويمكن أن نضيف إلى ما أورده الشهيد: من الضّرورات العلمية والعقدية النقلية، وجود إمام في كل زمان، حتى لو كان محتجباً عن الناس، لأنه كالشمس إذا احتجبت لمدة فإن أثرها ونورها باقيان، قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «إي والذي بعثني بالنبوّة، إنهم ينتفعون بنور ولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن جلّلها السحاب».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته».

وقد تواتر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية»[1].

وقد جعل الله عز وجل الإمامة في كل عصر وزمان، ولكل أمّة في زمانها. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء/٧١]. وقال في آية أخرى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النّحل/٨٩]. والغاية من ذلك بيّنها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء/١٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء/١٥].

فمن هم الحجج بعد الرسل لئلا يكون للنّاس حجّة على الله؟ ويجب أن يوجد الحجة في كل زمان يشهد على أهل زمانه ما بلّغه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والرسول يشهد عليه أنه قد بلّغه رسالة الله. وهؤلاء الحجج هم من العترة الطاهرة الذين بيّنهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسمّاهم بأسمائهم وذكر أنهم اثنا عشر، ولم يتحقّق ذلك إلا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والسبطين الحسن والحسين والأئمة التسعة من الحسين عليهم السلام وآخرهم المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

---

(١) صحيح مسلم، ٢٢/٦ كتاب الإمارة. وقريباً منه عند الكليني في الكافي، ٣٧٦/١، كتاب الحجة.

لماذا لم يظهر القائد إذن؟

يطرح الشهيد، كعادته، القضية مجدّداً بصيغة تساؤل، يثير فينا الفضول، ويستحثّ عقولنا للبحث عن الإجابة الصحيحة الموفّقة. فهو بعد أن أثبت إمكانيّة طول عمر الحجة عليه السلام، وإمكانية ذلك علمياً ومنطقياً وعملياً، والإعجاز السماوي، وإرادة الله في ذلك، يأتي إلى ذكر الأدلّة في مسوّغات وجود المهدي وتجسيد الفكرة في أذهان الجماهير. وهنا يأتي تساؤله الأهم: «لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدّة؟!».

ما الذي منعه من الظّهور على المسرح في الغيبة الصّغرى أو الكبرى، ولم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة والقوّة التي بلغتها الإنسانية بعد ذلك من خلال التطوّر العلمي والصناعي، أي أن ظروف العمل في زمانه كانت أبسط وأيسر؟

ويعالج (رضوان الله عليه) هذه القضية بتحليل ظروف عمليّة التغيير الاجتماعي ومعطياتها؛ وهي العمليّة التي لا يمكن أن تتحقّق إلا من خلال توافر هذه الظروف والمعطيات، ويميّز بحسّه المرهف وعبقريته الفذّة بين إرادة السماء التي تفجّر التغيير الاجتماعي على الأرض، بغضّ النظر عن الظروف الموضوعية، لأن عملية التغيير من صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية، وبين جانبها التنفيذي الذي يعتمد الظروف الموضوعية لتوقيت إنجاحها، أي أنّ السماء تريد، وتهيّىء الرسالة، وتنتظر الظروف الموضوعيّة، ويضرب مثلاً لذلك رسالة الإسلام، فهي لم تأت إلا بعد فترة من الرّسل، وفراغ مرير استمر قروناً من الزمن، لأن القضية، كما عبّر عنها، تتمثل في ما يأتي: «لأن الامتحان والابتلاء والمعاناة التي من خلالها يتكامل الإنسان، يفرض على العمل التغييري

الربّاني أن يكون طبيعياً، وموضوعياً من هذه الناحية».

وذلك على الرّغم من إقرارنا بقدرة الله، سبحانه وتعالى، على تذليل جميع العقبات التي تقف في وجه تحقيق الرسالة الربانية، ولو شاء لخلق المناخ المناسب لها ولو بالإعجاز، لكنه، سبحانه وتعالى، اختار أن يكون هناك قانون سماوي يربط الأسباب بمسبّباتها، والنتائج بمقدّماتها، وهو لو شاء فعل.

ومن هنا يدرس الإمام الراحل موقف الإمام المهدي، حيث أن عملية التغيير التي أعدّ لها هذا القائد: «ترتبط، من حيث التنفيذ، بظروف موضوعية تساهم في توفير المناخ الملائم لها». إضافة إلى أنّ إعداد القائد لم يكن مخصصاً لجزء صغير من العالم، أو لبلد بعينه، بل إنّ إرادة الله أعدّته وادّخرته لتغيير العالم كله، وإخراج البشرية كلها من الظلمات إلى النور، مصداقاً لحديث رسول اللهﷺ: «فيملأها قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

وهذا التغيير الشامل يتطلب، برأيه، مناخاً عالمياً مناسباً وجواً عاماً مساعداً يحقّق جميع الظروف لعملية التغيير العالمية.

وهذه الظروف المساعدة على التغيير يحدّدها في ناحيتين أساسيتين هما:

= **من الناحية البشريّة:** يتطلّب إعداد الإنسان نفسياً لتقبّل رسالة العدل الجديدة، وذلك من خلال التجارب الحضارية المتنوعة، التي انهارت وهي مثقلة بسلبياتها، فصار الإنسان يتطلّع إلى المنقذ، ملتفتاً إلى الغيب وإلى المجهول منتظراً يوم الخلاص.

= **من الناحية الماديّة:** فالحياة الحديثة أقدر من الحياة في عصر الغيبتين على ما يحقّق إنجاز الرّسالة على صعيد العالم كلّه، بسبب: «تقريب المسافات، والقدرة الكبيرة على التفاعل بين شعوب الأرض، وتوفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية لشعوب العالم». وقد شُبّهت الكرة الأرضية اليوم بقرية كبيرة سهلةً المواصلات، بل صارت كالبيت تنال فيه كل ما تريده، سيّما بعد دخولنا عصر الأنترنت والستلايت والأقمار الصناعية.

ويجيب (رضوان الله عليه) عن تنامي القوى والأدوات العسكرية التي يواجهها القائد في اليوم الموعود، كلّما أُجّل ظهوره، بأنّ نموّ الشّكل الماديّ لا ينفع للقوة «مع الهزيمة النفسيّة من الداخل، وانهيار البناء الروحي للإنسان الذي يملك كل تلك القوى والأدوات».

وما يدرينا فلعل جزءاً كبيراً من هذه القوى والأدوات العسكرية سيكون في مصلحة القائد الحجة في اليوم المأمول، ولنا كبير الأمل بالثوة الإسلامية في إيران، وما تهيّئه، وهي تبني نفسها لتكون قوّة ضاربة وأرضيّة مهيّئة لتقبل فكرة المهدي عليه السلام، وحماية دولته ونصرتها، فهي، حتى الآن، قد أرعبت قوى الاستكبار العالمي، وذلك بقوّة عقيدتها الإيمانية بقضية المهدي وولاية الفقيه في غيبته، إضافة إلى قوّة الجمهورية الإسلامية اليوم وإنتاجها للأسلحة المتطورة. وقد تفاجئنا هذه الجمهورية العظيمة بتقنيّات أعلى واستعدادات أعظم، تعدّ المجتمع القائد نفسياً ومادياً وعسكرياً، فتكون من ضمن الظروف الموضوعية لمرحلة التغيير العالمية بقيادة حجة الله المهدي عجل الله فرجه الشريف.

ولا يعزب عن بالنا ما صنعه الأبطال المؤمنون، في حزب الله، في

جنوب لبنان، حيث استطاعوا هزيمة إسرائيل ودحرها بكل خزي وعار، وتمكنوا من تحرير أراضيهم ورفع راية الإسلام خفّاقة عزيزة، ذلك كله بفضل ثباتهم على المبدأ المهدوي الرّسالي الحسيني، فانتصر الدم على السيف والكاتيوشا على ترسانة الأسلحة النووية.

هل للفرد هذا الدور كلّه؟

يتحدّث الشهيد ﷺ عن دور القائد في التغيير التاريخي، فيوضح هذا الموقف من خلال أمرين: الإنسان والقوى المحيطة به، وهما عاملان متكاملان.

فكما أن القوى المادية وظروف الإنتاج والطبيعة تؤثر في الإنسان، كذلك فإن الإنسان يؤثر في ما حوله من قوى وظروف، فالإنسان والمادة يتفاعلان على مرّ الزمن، يقول الشهيد:

«وفي هذا الإطار، بإمكان الفرد أن يكون أكبر من ببغاء في تيار التاريخ، وبخاصة حين نُدخل في الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسّماء، فهذه الصّلة تدخل حينئذٍ كقوة موجّهة لحركة التاريخ».

وأن النبيّ محمدﷺ، بحكم صلته بالسّماء، تسلم بنفسه زمام الحركة التاريخية: «وما أمكن أن يقع على يد الرسول الأعظم يمكن أن يقع على يد القائد المنتظر، من أهل بيته الذي بشّر به ونوّه عن دوره العظيم».

ويؤكّد علماء الاجتماع والتاريخ على دور القائد في صنع التاريخ قديماً وحديثاً، فالتاريخ لا تصنعه المصادفة، كما يقال، وهناك أسماء تعج بها كتب التاريخ، تحكي قصة أبطال غيّروا وجه التاريخ بجهودهم الفرديّة

وقابليّاتهم المتميّزة، فتضحية الحسين عليه السلام مع قلة من أهل بيته وأصحابه في مقابل جيش بلغ عشرات الآلاف، انتصر فيه الحق على الباطل. وصنع فيه الحسين تاريخاً ورسم دروباً للأحرار على مرّ التاريخ. وفي عصرنا الراهن، تصدّر الإمام الخميني الراحل (رضوان الله عليه) قائمة العظماء، وتسنّم ذروة المجد، بنجاحه في صنع معجزة القرن العشرين، متحدّياً جميع الظروف، معتمداً على الله، وعلى عقيدته الحسينية الثائرة دائماً في وجه الطغيان، فاستطاع تقويض كيانٍ رعاه الشيطان الأكبر، وقد راهن العدو والصديق على نجاح ثورته، ووقف العالم مذهولاً أمام الصدور التي واجهت سلاح الطغاة، تلك الجماهير التي تلقت الرصاص من دون أن تحمل السلاح، فانتصر مرة أخرى، الدّم على السيف، وتجسدت عظمة القائد في صنع التاريخ وحقيقة القضية في شخص الخميني العظيم، وأحيا ثورة الحسين.

ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

كيف سيتمّ، على يد ذلك القائد، انتصار العدل والقضاء على الظلم وكياناته المواجهة له؟

هذا السؤال هو استراحة الشهيد السعيد، وأمنيته في أن يكون في صفوف هذا القائد العظيم. ويجيب بنفسه: «ما دمنا نجهل المرحلة، ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها، فلا يمكن التنبؤ العلمي بما سيقع في اليوم الموعود». ويترك افتراضاً أساسياً واحداً، استناداً إلى الأحاديث التي أشارت إلى ظهور القائد الحجة، وهي كثيرة وموزّعة في كتب متعددة، إضافة إلى عمليات التغيير الكبرى في التاريخ،

فيفترض ظهور المهدي عليه السلام في أعقاب فراغ دبير يحدث نتيجة نكسة أو أزمة حضارية خانقة. هذا الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تتحقّق، ويأتي هذا الفراغ حسب رأيه «نتيجة طبيعيّة لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله سبحانه وتعالى، التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاً حاسماً فتشتعل النار التي لا تبقي ولا تذر». وفي معترك هذه الصّراعات، وفي الفراغ الذي يحدثه إخفاق الأنظمة الوضعيّة من إيجاد الحلول، لأنها لم تكن منبثقة عن السّماء، وهذا ما أوضحه الشهيد في كتابه: «فلسفتنا»، وبعد الطوفان الثاني للأرض، والذي ربما يكون كما قلنا: طوفاناً ذريّاً مدمّراً، يبرز النور وتنطفىء نار الشرّ والحقد والجور، ويقيم القائم حكومة الله على الأرض، فيتحقّق أمر الله، في عودة الإنسان خليفة له في الأرض، وذلك بعد تطهيرها وإعدادها، ليرثها عباد الله المتقون. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص/٥] وقال عز وجل: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الخاتمة

ونهاية المطاف مع استراحة الشهيد، ونحن نتطلّع بقلوبنا وأرواحنا إلى ذلك اليوم الموعود الذي نتشرّف فيه برؤية تلك الطلعة البهية، والنور المحمدي الساطع، شبيه رسول الله صلى الله عليه وآله، ينصره الله عزّ وجل بأمره، كما نصر جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، يخرج من بين الركن والمقام، يحمل ميراث النبيين، يدعو إلى الله، ويُعيد الدين غضاً طرياً كما كان زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، يفتح الله على يديه، ينتقم من الظالمين، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ينزل المسيح عليه السلام ويصلّي خلف المهدي،

تكرمة الله لهذه الأمة، كما روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل المسيح عيسى بن مريم وإمامكم يومئذٍ منكم»[1].

اللهم عجّل فرجه، وسهّل مخرجه، وعجّل فرجنا به، وأرنا طلعته البهيّة، واجعلنا من جنوده، والمستشهدين بين يديه. والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) صحيح البخاري، ٢٥٦/٢.

الفصل الثالث

فلسفة الغَيبة

وإشكالية انتظار المهدي المُخلِّص

المهدوية ونهاية التاريخ

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

[الرحمن/ ٢٦ و٢٧].

تُشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى وجود نهاية للإنسان على هذه البسيطة، أي أن ثمة قصة طويلة سوف يقضيها هذا الإنسان على ظهر المعمورة، ثم لا يلبث بعدها أن يغادرها إلى غير رجعة.

وقصة الإنسان على هذه الأرض هي قصة التاريخ، تاريخ مرَّت وتمر به هذه البشرية وهذا الإنسان في مراحل من الصعود والهبوط، أمم وحضارت ولدت من ضُعف، ثم أصبحت من بعد ضُعف قوية، ثم ارتدت من بعد قوتها الى ضعف وشيخوخة، تلك هي قصة الإنسان على أرض خلق ليعبرها لا ليستقر فيها.

لكن قوة هذا الإنسان وشباب هذه الحضارة، أو تلك، يحجبان بصره وبصيرته عن قراءة المسلسل الطويل للبشرية.

ومن هذه المسألة بالذات أخذ شموخ القوة الإنسانية يوحي للإنسان بأنه الواحد الأحد، وبدأ الشعور الخاطىء بالتغلغل في أعماق انفس الأفراد والأمم، ليوحي لها بأن مركزية العالم ليست شيئاً غيرها

هي، وان كل ما هو حول هذا الفرد، أو هذه الحضارة، أو الأمة ليس سوى أطراف منظومة ليس لها مركز غير الذات الصغيرة والكبيرة، وغير هذه الأنا المتعاظمة.

لكن الإنسان المجهز بنظام مفاهيمي غاية في الدقة والتعقيد قام بإنتاج تصورات ومفاهيم ترضي فيه شعور الذات هذا، وتحاكي مرحلة الشباب والقوة للفرد أو الحضارة أو الجماعة...

فكون تصورات جديدة عن الإنسان ككل، ففي المرحلة الماضية من عمر البشرية، وحين كان الدين وسيلة تكوين المفاهيم وإطارها، لدى هذا الإنسان، ظهرت النزعة الإسرائيلية القائلة على لسان اليهود: نحن شعب الله المختار، وأحباء الله وأبنائه، ولن تمسنا النار إلا أياماً معدودات و... صيغ مفاهيمية ترضي تفوق الإنسان على غيره، وتشبع نرجسية حضارة أمام أخرى.

لكن تطورات قراءة الإنسان لذاته، تلك الذات التي تعبّر عن التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل، أخذت تكوّن عنده صوراً مفاهيمية جديدة للمفاهيم الماضية نفسها، لكنها هذه المرة كانت خاضعة لإعلاء فوق إعلاء يبعد عنها ضعف البنية وقُبح المنظر.

فمنذ عبد الرحمن بن خلدون، مروراً بالمادية التاريخية، وصولاً إلى توينبي وشپنجلر أخذ العقل الإنساني بقراءة التاريخ قراءة علمية وأحياناً ميكانيكية ترى فيه كما ترى في الطبيعة أنظمة وقوانين.

وانطلاقاً من هذه المسالة، أخذت الماركسية ترى في الشيوعية المرحلة النهائية من التاريخ، فراحت في بدايات القرن العشرين ترى أن مرحلة نهاية التاريخ قد بدأت مع شيوعية الاتحاد السوفياتي اللينينية،

وتنامى التصور القاضي بأن البشرية بدأت رحلتها الأرقى والأسمى مع المشروع الشيوعي الذي ما لبث أن صدمه الواقع ليرجعه إلى الاشتراكية...، خطوة إلى الوراء.

لكن بدايات القرن العشرين لم تختلف كثيراً عن نهاياته، وإن تمايزت الصورة والموقعية والمنطلق، إذ ظهرت مقولة: «نهاية التاريخ أو الإنسان الأخير» التي أطلقها المفكر الأمريكي، الياباني الأصل، فرانسيس فوكوياما، وأخذت بالانتشار والتبشير بأن الديمقراطية الليبرالية الحديثة (أي المجتمع الامريكي) هي نهاية التاريخ، وأن الإنسان الديمقراطي الليبرالي أو الامريكي هو الإنسان الأخير. وفي باطن النظرية التي أخذت في تسعينيات القرن العشرين بالتحول إلى ثقافة ووعي كان الإحساس بالتفوق والنرجسية متربعاً، ذاك الإحساس القاضي بأن حضارة أميركا هي أرقى مراحل الحضارة البشرية وأعلاها، وأن بقية الحضارات والأمم والملل إنما كانت مراحل للوصول إلى هذا النمو الذي يبدو كأن لا نمو بعده.

لكن ما يُلفت النظر، في مقولتي: المادية التاريخية ونهاية التاريخ، بين لينين من جهة وفرانسيس فوكوياما من جهة أخرى، هو أنهما سدَّا باب التطور والتنامي وأوقفاه، أي أن كلاً من المقولتين أوحت بتوقف تطور الإنسان ونموه مع الشيوعية والديمقراطية الليبرالية الحديثة، وهو أمر يترك آثاراً بالغة الخطورة على مجمل النشاط الإنساني، لأنه يجعل الإنسان يخلد للكسل والركود والدوران والاجترار و...، لا بل أن هذا المنحى من التفكير غير الواقعي وغير القارىء جيداً لتجارب الشعوب خلال آلاف السنين يقدم وفقاً لانتقادات كبار الباحثين لنظرية نهاية

التاريخ شهادة بيّنة على نزعة تخيلية نرجسية لا ترى الواقع بدقة ولا تفهم الأمور في حجمها الطبيعي.

لكن الوضع في غاية الاختلاف في نهاية التاريخ في التصور الديني، فإذا انطلقت نهاية التاريخ عند فوكوياما والعقل الغربي من غرور بالواقع، فإن نهاية التاريخ دينياً تنطلق من رفض لهذا الواقع، أي أن فلسفة نهاية التاريخ الغربية فلسفة تسويغية ذرائعية تريد مراضاة الواقع ومسايرته، أما فلسفة التاريخ الدينية فهي فلسفة تغيير لا تسويغ، ورفض لا ذرائعية، إنها فلسفة فعل لا سكون، فعل التغيير لا سكون الواقع الذي آل بالإنسان الغربي (الفرد) إلى الانتحار في حياته الشخصية، وقد يؤدي به أيضاً إلى الانتحار في حياته الحضارية.

لا ينطلق المؤمن، في فلسفته للتاريخ ونهايته، من غرور الواقع، مهما كان واقعه قوياً، فمهما بلغ المؤمن من القوة والسلطة والإحكام فإنه لا يرى في قوته نهاية التاريخ البشري، وإنما يواصل سعي الفعل والتغيير حتى تأتيه نهاية التاريخ السماوية المعصومة، فإذا كانت القوة الماركسية والقوة الامريكية قد دفعتا إلى السكون والخمول الحضاريين فإن القوة الدينية لا يمكنها إلا نقد ذاتها والشعور بالتمهيد لا أكثر لنهاية التاريخ التي تضعها السماء بعصمة صانعها.

وهذا ما يُشير إليه دعاء الافتتاح عندما يعدِّد النواقص التي يسدها ويرفعها ظهور القائم(عج) في نهاية الزمان وآخره:

«اللَّهم ألْمم به شعثنا، واشْعب به صدْعنا، وارتق به فتقنا، وكثِّر به قلَّتنا... واجبر به فقرنا، وسدّ به خلَّتنا»... فالمهدي(عج) في التصور الديني أنموذج كمال الواقع الذي يرشدنا إلى نقص واقعنا لا كماله،

ويبعث فينا مزيداً من التواضع والواقعية من دون أن يشدنا إلى سوريالية متعالية عن الواقع.

ومن هنا يأخذ تفسير الامام الخميني لفلسفة الانتظار بالبروز والتجلي، فهو تفسير ينسجم مع روح التصور الإيماني لنهاية التاريخ، ذاك التصور المحرك والباعث والدافع للترقي والاكتمال، بدل أن يكون كما هو الحال في بعض القراءات التقليدية لفكرة الانتظار عاملاً من عوامل الخمول والكسل والجمود.

* * *

نظريّة الإمامة وإشكاليّة الغَيبة

قراءة في اتجاهات تعريف المفهوم

السيد علي عباس الموسوي

مدخل

تعدّ مسألة الإمامة من أمّهات المسائل الكلامية وأساس كل مـذهب من المذاهب الإسلامية، فالخلاف الأساسي ينشأ من الاخـتلاف فـي مـن هو الإمام المُفترض الطاعة، وعليه تنسحب سائر الاختلافـات، نظـراً لمـا يشكّله الإمام المُطاع من قبل أي مذهب من مصدر معرفـي يـستلهم منـه منظومته الاعتقادية في مختلف المـسائل، ولـو أتيـت علـى ذكـر الفـرق لوجدت أن جـوهر الاخـتلاف الـذي يـذكره علمـاء الكـلام يعـود إلـى الاختلاف في الإمامة، ويكفي لإثبات ذلك عمليـة سَـبْر تـاريخي سـريعة للفرق ونشوئها ومنظوماتها المعرفية.

والفرقة الإمامية الإثنا عشرية التي تعد من أهم فرق الشيعة، بل لعلها الفرقة الأساسية الموجودة في عالمنا المعاصر، تعتمد على الإيمـان بـاثني عشر إماماً نص عليهم النبيﷺ، وآخرهم الإمام محمد بن الحسن المهدي الذي تعوّل عليه الشيعة آمالها بوصفه وريثاً لمقام الإمامة، وتـرى أن بيـده

خلاص هذه الدنيا من الشرور والفساد. وفكـرة المهدويـة تجـدها لـدى المذاهب الإسلامية جميعها، ولا نبالغ في القول إن عددناها من أساسيات العقيدة الدينية، ليس في الإسلام فحسب، ولـيس فـي الأديـان الـسماوية كذلك، بل فـي كـل العقـل البـشري، متخـذةً أشـكالاً متعـددة، والنقطـة الأساسية التي تمتاز بها الشيعة هي الاعتقاد بأنه مولود حيٌّ يُـرزق ينتظـر الأمر الإلهي بالخروج.

والبحث في قضية المهدي، في الفكر الـشيعي، بحـث متـشعب ذو أهمية فائقة، وسوف نعالج، في هذه المقالة، إحدى الإشكاليات الأساسـية التي ترتبط بهذه القضية كما ترتبط بأساس الفكر الكلامي الشيعي.

والإشكاليّة تنشأ من تساؤل بسيط عن سرّ غيبة هذا الإمام، ما يفضي إلى أن يحتاج الإيمان به إلى يقين خاصّ ونوع من التسليم؟

وهذا السؤال قدّمناه بشكل مبسّط يطرأ على أذهـان الكثيـرين، أمّـا الصياغة العميقة له فهي ذات منهج مختلف تجعله ينبى عن إشكاليّة أشد عمقاً لا ترتبط بالاعتقاد بالإمام المهدي، بل تخـرج مـن إطـار المهدويـة لتمثّل ثغرة في نظرية الإمامة عند الشيعة. واختصاراً منّـا للـسؤال نطرحـه بشكل موجز لندخل بعد ذلك في تفاصـيل نظريـة الإمامـة الـشيعية بمـا يجعل منها مقاماً خاصاً ومضموناً مميزاً من جهة أولى، والأدلة التي يقيمها الشيعة على ضرورة وجود المعصوم من ضرورة عقلية وشرعية من جهـة ثانية، ووظيفة الإمام المعصوم من جهة ثالثة؛ هذه التفاصيل جميعها تواجه إشكاليّة الغيبة، أفلا تتنافى الغيبة مع مقام الإمامة؟ ألا تشكّل نقضاً صريحاً لأدلتها، وكيف يمكن التوفيق بين الغيبـة ووظيفـة الإمـام المعـصوم عنـد الشيعة والتي تتعدّى رئاسة الدولة وقيادة الأمة؟؟

والسرّ في هذا الارتباط بين وجود الإمام الغائب عليه السلام وبين أساس نظرية الإمامة هو أن متكلّمي الإمامية[1] جعلوا من الأدلة الأساسية لإثبات وجود الإمام الحجة عليه السلام ثبوت ضرورة الإمامة في كل زمان، وأن الأرض لا يمكن أن تخلو من إمام، إن ما اعتمد عليه الشيعة في استدلالاتهم الكلامية التي ساقوها لإثبات إمامة أول الأئمة، وريث النبي، وخليفته المباشر بلا فصل، هي التي تساق لإثبات إمامة الغائب المنتظر(عج).

والبحث عن هذه الإشكاليّة ينطلق من قضايا ثلاث:

الأولى: تعريف الإمامة.

الثانية: أدلّة الإمامة وإشكاليّة الغيبة.

الثالثة: وظائف الإمامة وإشكاليّة الغيبة.

تعريف الإمامة

تُنبئ قراءة الكتب الكلامية الشيعية أو العقديّة غير الكلامية، أعني التي تتجه اتجاهاً فلسفياً أو عرفانياً، عن وجود اتجاهين في تعريف الإمامة. نعرضهما ونتحدّث عن إشكاليّة الغيبة على أساسهما.

الاتجاه الأوّل: اتجاه كلامي لدى قدماء علماء الإمامية جرى على تعريف الإمامة بما يرجع إلى أنها الرئاسة الكبرى والزعامة الإسلامية العظمى وخلافة النبي في ما كان إليه من أمور الدّين والدنيا.

قال الشيخ المفيد: «الإمامة هي التقدّم في ما يقتضي الطاعة والاقتداء به»[2]،

---

(١) الشريف المرتضى، المقنع في الغيبة، ص ٣٧، آل البيت.

(٢) المفيد، الإفصاح في الإمامة، ص ٢٧، مؤسسة البعثة، قم ١٤٢٣.

وقال الطبرسي في مجمع البيان: «المستفاد من لفظ الإمامة أمران: ١- إنه المقتدى في أفعاله وأقواله. ٢- إنه الذي يقوم بتدبير الأمّة وسياستها، والقيام بأمورها، وتأديب جُناتها، وتولية ولاتها، وإقامة الحدود على مستحقيها ومحاربة من يكيدها ويعاديها»[1].

وقال العلاّمة الحلي: «الإمامة رئاسة عامة لشخص من الأشخاص في أمور الدين والدنيا»[2].

وزاد ابن ميثم البحراني على هذا التعريف كلمة «بالأصالة» قائلاً: «الإمامة، وهي رئاسة عامة في أمور الدّين والدنيا بالأصالة. فقولنا «رئاسة» كالجنس لها، والباقي من قبيل الخواص. واحترزنا بـ«العامة في أمور الدين والدنيا» عن الخاصة ببعضها. وبقولنا بـ«الأصالة» احتراز عن رئاسة النواب والولاة من قبله».

ويرى، في كتاب آخر له، أنّ: «الإمامة رئاسة عامة لشخص من الناس في أمور الدين والدنيا؛ إذ الرئاسة هي الجنس القريب للإمامة، ومجموع القيود الباقية خاصة مركبة؛ إذ كل منها لا يخص نوع الإمامة دون كل ما عداه، وإن خصه بالنسبة إلى بعض الأشياء: فإن كون الرئاسة عامة وإن ميز نوع الإمامة عن نوع القضاء وكل رئاسة خاصة، لكنه لا

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ج١، ص ٣٧٧.

(٢) الحلي، نهج المسترشدين، ص ٦٢. الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة، ص ١٧، مؤسسة البعثة ١٤١٣. المفيد، النكت الاعتقادية، ص ٣٩، دار المفيد، بيروت، ١٤١٣. الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة، ج١، ص ٥، اسماعيليان، ١٤١٠. المحقق الحلي، المسلك في أصول الدين، تحقيق رضا الأستاذي، ص ٢٠٦، ط الآستانة الرضوية المقدسة، ١٤١٤. البحراني، ابن ميثم، قواعد المرام في علم الكلام، ص ١٧٤، ط مكتبة المرعشي قم، ١٤٠٦.

يميزه عن نوع السلطنة الجورية، إذ هي عامة أيضاً. وقولنا: «لشخص» وإن ميزه عن رئاسة لشخصين أو أكثر، غير أنه لا يميزه عن السلطنة الجورية أيضاً، وقولنا: «في أمور الدين والدنيا» وإن ميزه عن سلطان الجور، غير أنه لا يكفي في تميزه إذ ليس كل رئاسة في أمور الدين والدنيا وجب أن تكون عامة، فإذن كل واحد من هذه القيود، وإن كان أعم من نوع الإمامة، إلا أنها إذا اجتمعت حصل، أي مجموعة أعراض بمجموعها تكون عرضاً خاصاً، وسيفسره المؤلف قريباً من المجموع قدر مميز لذلك النوع تمييزاً مطلقاً يسمى باصطلاح قوم الخاصة المركبة»[1].

وزاد العلامة الحلي، في كتابه النافع يوم الحشر، على ذلك قوله: «نيابة عن النبي»[2].

ولم يزد تعريف القدماء من المتكلّمين للإمامة عن هذا على ما يظهر لمن راجع ما ذكروه في كتبهم.

الاتجاه الثاني: ويرى أن الإمامة منصب إلهي كالنبوّة لا تفترق عنها إلا بالوحي، فهي استمرار لوظائف النبوة جميعها سوى تحمّل الوحي الإلهي.

فإذاً، ما ذكر في التعريف الأوّل من أنها رئاسة في أمور الدين والدنيا إنما هو تعريف في شأن من شؤون الإمامة، وفي وظيفة من وظائف الإمام، وإلا فالإمامة نظير النبوّة بما للأخيرة من الدرجات العالية.

---

(١) البحراني، ابن ميثم، النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة، ص ٤١، ط دار الهادي، ١٤١٧.

(٢) الحلي، النافع يوم الحشر، ص ٩٣، دار الأضواء، ١٤١٧.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الخلاف بين الإمامية وبين غيرهم ليس خلافاً في شرائط الإمام، بل إنه يرجع إلى الإثبات والنفي، فالشيعة ترى الإمامة وغيرها ينكرها، ويرى هؤلاء أننا لو أردنا أن نقتصر على التعريف السابق لم يكن عدّ الإمامة من أصول الدين صحيحاً، بل تكون حينئذ من الفروع كما يرى ذلك أهل السنّة.

ويسوّغ هؤلاء صدور تعريف الإمامة بالمعنى الأوّل الذي ذهب إليه الأعلام بأنه كان مماشاة منهم للمذاهب الأخرى في تعريف الإمامة لا أنهم كانوا يبنون على ذلك التعريف ويلتزمون به.

بل يرى هؤلاء أن الإمامة درجة أعلى من النبوّة مستندين في ذلك إلى قصة إبراهيم عليه السلام في خطاب الله تعالى له حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فدل على أن الإمامة رتبة أعلى من النبوّة، لأن الله عز وجل جعله إماماً بعد أن كان نبياً.

أمّا التعريف الذي يراه العلاّمة الطباطبائي لمعنى الإمامة فهو إنها كون الإنسان بحيث يقتدي به غيره بأن يطبّق أفعاله وأقواله على أفعاله وأقواله بنحو التبعية، والذي يصرح به العلاّمة أن لمعنى الإمامة حقيقة وراء مثل مقام الطاعة أو رئاسة الدين والدنيا أو الوصاية أو الخلافة في الأرض بمعنى الحكم بين الناس[1]، وتعميق معنى الإمامة عند السيد الطباطبائي هذا يظهر أثره في ما يتحدث به من أن للإمامة باطناً، وهذا الباطن هو نحو ولاية على الناس وأعمالهم، وهذه الهداية الباطنية تعني الإيصال إلى المطلوب والتي تختلف عن الهداية الظاهرية التي تعبّر عن

---

(١) الطباطبائي، الميزان، ج١، ص ٢٧١.

بيان الطريق، الأمر الذي لا يختص بالإمام بل يعم كل مؤمن.

ويندرج تحت هذا الاتجاه المنحى العرفاني في تعريف الإمامة، والذي يعتمد على ضرورة وجود الإنسان الكامل في هذه الدنيا.

التوفيق بين الاتجاهين

ولتقديم عمليّة توفيق بين الاتجاهين المذكورين، في تعريف الإمامة، من دون الدخول في عملية تحوير أو توجيه يوجب التصرف في المراد، يمكن الحديث عن صياغات متعدّدة:

الأولى: إن مفهوم الإمامة في عالم الفكر والإثبات فلا بحسب عالم الواقع والثبوت مفهوم خضع للتحول والتكامل، ولم يكن عند القدماء مع تتبعهم واضحاً كمفهوم الإمامة في الظرف الحالي، وذلك يرجع في الحقيقة إلى مجموع عوامل موجبة لذلك، سواء من ناحية مشي الأعلام من الإمامية على مصطلحات المدرسة الأخرى أم من جهة أن أدوات التفكير الكلامي ككل تنتج مفاهيمه.

ويستشهد على ذلك بظاهرة الرمي بالغلو ونقاش العلماء في ذلك، فإن كثيراً مما عدّ في ذلك الزمان غلواً أضحى الآن من ضروريات الإمامة كما ذكره الباحثون في تراجم الرجال.

وغير بعيد عن هذا، ما ذكره الشهيد المطهري بعد أن ذكر أن للإمامة مراتب ثلاث: قيادة المجتمع والمرجعية الدينية والولاية، قال: إن للتشيع أيضاً ثلاث مراتب، فبعض الشيعة يعتقد بالإمامة بمعنى كونها قيادة اجتماعية، وبعضهم الآخر يعتقد بالمرتبة الثانية للإمامة فالمرجعية الدينية، بيد أنه لا يصل إلى الثالثة فالولاية، أمّا أكثرية الشيعة وعلماؤهم

فقد كانوا يعتقدون بالمرحلة الثالثة[1]. ولعل هذا الاتجاه هو أفضل ما يمكن تقديمه في هذا الإطار، لأن المتتبع لكلمات القدماء من المتكلّمين يظهر له بوضوح خلو كلماتهم ممّا ذكره التعريف الثاني للإمامة.

الثانية: وترى أنه لا تنافي في الحقيقة بين الاتجاهين، وأن الاتجاه الأول هو الصحيح، أمّا الاتجاه الثاني فقد خلط بين تعريف الإمامة وبين مقام الإمام، فالاتجاهان متوافقان على ما ذُكر من شؤون الإمامة، وهو في الحقيقة ليست تعريفاً للإمام بل تعريف لوظائف الإمامة، وأما الإمامة فهي عبارة عن الرئاسة في أمور الدين والدنيا، وكون الإمامة من المناصب الإلهيّة مما يراه أيضاً أصحاب الاتجاه الثاني، وأنها ولاية، فإن من شؤون الرئاسة تضمّنها للولاية، ولم يكن معنى خلافة النبي في عُرف المتكلّمين في ذلك الزمان مجرداً عن الولاية، وكذلك كون الإمام مرجعاً دينياً فإن رئاسة أمور الدين ليس سوى ذلك.

ولكن من البعيد أن ننفي الاختلاف بين التعريفين لا سيما على ما سيظهر لنا من خلال طيات البحث من عدم ذكر المتقدّمين لمعنى الإمامة الذي يذهب إليه الاتجاه الثاني، والولاية التي جرى الحديث عنها، والتي تتضمن معنى الإمامة المراد منها الولاية الظاهرية التي هي ولاية التصرف والطاعة لا الولاية الباطنية والهداية الإيصالية.

بل، ولدى ملاحظة الحديث عن مسائل أخرى في الإمامة كالعصمة، نجد اختلافاً في الاتجاهين في إقامة الدليل على العصمة، فإن الاتجاه الأول يعتمد على إقامة الدليل العقلي على ضرورتها، أمّا

---

(١) المطهري، الإمامة، ص ٥٣، ترجمة جواد كسار، مؤسسة أم القرى ١٤١٧هـ.

الاتجاه الثاني فيعتمد على تفسير العصمة بعملية ذاتية ترجع إلى العلم على ما سيأتي توضيحه، ولذلك لا تجد في كلمات المتقدمين من علماء الإمامية أثراً لذلك، مع أنه لم يكن ظرفهم بمانع من الاتجاه إلى التعريف الآخر.

الثالثة: ما لاحظته من خلال دراسة معمّقة لكلا الاتجاهين، ذلك أننا إذا أردنا أن لا نقتصر، في البحث، على تعريف مفردة الإمامة بل توسعنا قليلاً في الدراسة إلى مختلف مباحثها لوجدنا اختلافاً في المنهج، إن المنهج الكلامي يختلف عن المنهج الفلسفي العرفاني الذي يعتمده أصحاب الاتجاه الآخر، إن قضية الاختلاف هذه لا ترجع إلى تحوّل في المفهوم بل ترجع إلى اختلاف مدرسي منهجي؛ إذ إن المقدمات النظرية والمنهج الاستدلالي يختلفان كثيراً بين الاتجاهين، فلا أستطيع أن أحاكم الاتجاه الأول بما توصل إليه الاتجاه الثاني، لأن منهج الأول يغاير منهج الثاني مغايرة العقل الكلامي للعقل الفلسفي. إن الاتجاه الثاني يعتمد على أن قدم الاستدلال عندهم «خشبية»، تعبيراً عن عدم المتانة وعدم القدرة على الصمود، إنها نقلة نوعية في الفهم تختلف في مقدماتها النظرية، وليست القضية مجرد اختلاف في التعريف أستطيع أن أرجعه بسهولة إلى عملية خلط بين التعريف ووظائف الإمامة، مُبتعدين في ذلك كله عن الحكم بالخطأ والصواب مُستهدفين في المقابل ملاحظة وصفيّة للمدرستين.

أدلّة الإمامة وإشكاليّة الغيبة

قالت الإمامية: الإمامة واجبة عقلاً، وقالت الأشاعرة: تجب سمعاً لا عقلاً، وقالت جماعة من المعتزلة: تجب سمعاً وعقلاً.

الأدلّة العقلية على لزوم الإمامة

ساق علماء الإمامية ومتكلّموها عدة أدلّة لإثبات وجوب الإمامة عقلاً من الله هي:

الدّليل الأول:

وهو أشهر الأدلّة لدى العلماء، وهو المُسمى بدليل اللُّطف، وهذا الدليل مؤلّف من مقدّمتين:

الأولى: الإمامة لُطف.

الثانية: اللطف واجب على الله تعالى.

أمّا المقدّمة الأولى، فقد عرّف المتكلّمون اللُّطف بأنه ما أفاد هيئة مقرّبة إلى الطّاعة ومُبعدة عن المعصية، بحيث لم يكن له حظ في التمكين ولا يبلغ حد الإلجاء، والتقييد بعدم الحظ في التمكين لأجل الاحتراز عن وقوع الفعل بوساطة الآلات والأدوات البشرية، فإنها وإن كانت مما يقرب إلى الطاعة ويبعد عن المعصية إلا أن لها مدخلية في تمكين المكلف من الفعل، والتقييد بعدم الوصول إلى حد الإلجاء من جهة أنه ينافي التكليف[1].

أمّا تقريب اللُّطف، فبأن وجود الإمام يُقرب من الطاعة ويُبعد من المعصية، لأنه من المعلوم أنه إذا كان بين الناس رئيس يردع الظالم وينتصر للمظلوم ويحثهم على الواجبات ويردعهم عن المحرمات، كانوا إلى الصلاح أقرب وعن الفساد أبعد.

قال الشيخ الطوسي: «إنه قد ثبت أن الناس، متى كانوا غير

---

(١) المفيد، أوائل المقالات، ص ١٦١، دار المفيد، ط ١٤١٤هـ.

معصومين ويجوز منهم الخطأ وترك الواجب، إذا كان لهم رئيس مطاع منبسط اليد يردع المعاند ويؤدب الجاني، ويأخذ على يد السفيه والجاهل وينتصف للمظلوم من الظالم، كانوا إلى وقوع الصلاح وقلة الفساد أقرب، ومتى خلوا من رئيس على ما وصفناه وقع الفساد، وقلّ الصلاح، ووقع الهرج والمرج، وفسدت المعايش. بهذا جرت العادة وحكم الاعتبار، ومن خالف في ذلك لا يحسن مكالمته لكونه مركوزاً في أوائل العقول. بل المعلوم أن مع وجود الرؤساء وانقباض أيديهم وضعف سلطانهم يكثر الفساد ويقلّ الصلاح، فكيف يمكن الخلاف فيه»[1].

وقال ابن ميثم البحراني: «نصب الإمام إما أن يكون خيراً محضاً أو الخير فيه أغلب، أو شراً محضاً أو الشر فيه أغلب، أو متساويين، والأقسام الثلاثة الأخيرة باطلة لما يعلم بالضرورة بعد تصفّح أحوال الخلق وعاداتهم أنه متى كان بينهم رئيس مُنبسط اليد قوي الشوكة، يردع ظالمهم وينصر مظلومهم، ويحثّهم على الواجبات ويكفّهم عن المحرّمات، كانوا إلى الصلاح أقرب وعن الفساد أبعد، وإذا لم يكن بينهم مثل هذا الرئيس كان حالهم بالعكس، وفطرة العقل شاهدة بما ذكرنا، وإذا كان الأمر كذلك لم يمكن أن يقال الشر في هذه الحالة مساو للخير فضلاً عن القسمين الأخيرين، فبقي أن يقال: إنها خير أو الخير فيها غالب، وأيما كان فهي تفيد المطلوب. أمّا الأول: فلأن ذات الله تعالى فيّاضة بالخيرات، لا توقف لها في إفاضة الخيرات على أمر غير ذاتها، فكان إيجادها لمثل هذا الخير المحض واجباً. وأما الثاني: فهو أيضاً كذلك، فأما

(١) الطوسي، الاقتصاد في ما يتعلق بالاعتقاد، ص ٢٩٧، دار الأضواء، ١٩٨٦م.

كونها مشتملة على شيء من الشرور فلا يضر في وجوب وجودها، لأن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شرّ كثير في الجود والحكمة. فيثبت بما قررناه أن نصب الإمام واجب من الله تعالى، وهو المطلوب»[1].

وأما المقدمة الثانية، أي وجوب اللطف على الله تعالى، فأفضل ما ذكر في تقريبه هو ما ذكره الحلّي في شرح التجريد: والدليل على وجوبه أنه يحصل غرض المكلف، فيكون واجباً وإلاّ لزم نقض الغرض، وبيان الملازمة، أن المكلّف إذا علم أن المكلف لا يطيع إلا باللطف، فلو كلّفه من دونه كان ناقضاً لغرضه، كمن دعا غيره إلى طعام وهو يعلم أنه لا يجيبه إلاّ إذا فعل معه نوعاً من التأدّب، فإذا لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدّب كان ناقضاً لغرضه، فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض[2].

وهذا الدّليل هو الدّليل نفسه المقام على لزوم النبوّة، فكل ما دل على وجوب النبوّة ونصب النبي من الله وتعيينه يدل على الإمامة وخلافة النبي، باستثناء الوحي التشريعي[3].

ويذهب العلاّمة الحلي إلى اعتبار إنكار الإمامة أشد شناعة من إنكار النبوّة، يقول: الإمامة لطف عام، والنبوّة لطف خاص لإمكان خلو الزمان من نبي حي، بخلاف الإمام لما سيأتي، وإنكار اللطف العام شرّ من

(١) البحراني، ابن ميثم، النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة، ص ٤٥، ط دار الهادي، ١٤١٧هـ.

(٢) الحلي، تجريد الاعتقاد، ص ٣٢٥، نشر جماعة المدرسين، قُم. الطوسي، الاقتصاد في ما يتعلق بالاعتقاد، ص ٢٩٧. المرتضى، الذخيرة، ص ٤١٠، ط جماعة المدرسين، ١٤١١هـ. الحلبي، أبو الصلاح، تقريب المعارف في الأحكام، ص ١١٦، ط جماعة المدرسين، ١٤٠٤هـ.

(٣) الآملي، حسن زاده، رسالة إمامت (فارسي)، انتشارات قيام، ١٣٧٦.

إنكار اللطف الخاص، وإلى هذا أشار الصادق عليه السلام بقوله عن منكر الإمامة أصلاً ورأساً وهو شرهم[1]، ويقول في موضع آخر: الإمام المعصوم لطف عام، والنبي لطف خاص، وانتفاء العام شرّ من انتفاء الخاص، فإذا استحال عدم إرسال الرسل منه تعالى فاستحالة عدم نصب الإمام المعصوم من باب مفهوم الموافقة كتحريم التأفيف الدال على تحريم الضرب[2].

يعتمد دليل اللطف، إذاً، بشكل أساسي على ملاحظة وظيفة الإمام والدور الذي يقوم به، ويرتبط هذا الدور بالدّور نفسه الذي يقوم به النبي المرسل من قبل اللّه، فالبشرية لا بد لها من شخص يقودها، ولا بد من تدخّل إلهي لذلك، وهذا يظهر من حديثهم عن وجوب الإمامة عقلاً على اللّه، ودليل اللطف هذا الذي ساقه متقدمو متكلّمي الإمامية يتحدث عن عملية استمرار لوظيفة النبوّة، ولهذا سوف يختلف تفسير ختم النبوّة عما هو لدى أهل السنة، لأن وظيفة النبوّة سوف تبقى مستمرة، فتفسير الخاتمية بعملية استغناء عن الغيب ممتنع مع استمرار اللطف الواجب في الهداية.

الدليل الثاني: وجوب حفظ الشريعة

ويعتمد هذا الدّليل على ما ثبت من كون دين الإسلام هو خاتم الأديان لا ينسخ ولا يرفع، فعلى الناس أن تتبعه إلى يوم القيامة، ومتى كان كذلك كان لا بدّ من وجود من يحفظ هذه الشريعة، وطريق حفظ شريعة الإسلام منحصر بوجود المعصوم.

---

(١) الحلي، الألفين في إمامة أمير المؤمنين، ص ١٣، الأعلمي، بيروت، ١٩٨٢م.

(٢) م.ن.، ص ١٠٠.

وتعتمد الطّريقة، في هذا الاستدلال، على ما ذكره الشيخ الطوسي عن حصر الطّرق لحفظ الشريعة بأمور، منها: وجود المعصوم، وحيث تبطل الوجوه الأخرى لا يبقى من طريق لحفظ الشريعة سوى وجود المعصوم، والطرق الأخرى هي التواتر، وهو لا يشمل كل الشريعة، والثاني الإجماع وهو كذلك غير حاصل في جميع مسائل الشريعة، والثالث هو أخبار الآحاد والقياس، لأنه لا يجوز العمل عليها؛ إذ الحجية تنحصر بما أفاد العلم من الأخبار لا على القياس، لبطلان كونه دليلاً مثبتاً للأحكام.

قال الشيخ الطوسي: «إنه إذا ثبت أن شريعة نبيناﷺ مؤبّدة إلى يوم، القيامة وإن من يأتي في ما بعد يلزمه العمل بها كما لزم من كان في عصر النبيﷺ، فلا بد من أن تكون علتهم مزاحة [كما كانت علة من شاهد النبي مزاحة في زمانه، ولا تكون العلة مزاحة] إلا بأن تكون الشريعة محفوظة، فلا تخلو من أن تكون محفوظة بالتواتر أو الإجماع أو الرجوع إلى أخبار الآحاد والقياس، أو بوجود معصوم عالم بجميع الأحكام في كل عصر يجري قوله مثل قول النبيﷺ، فإذا أفسدنا الأقسام كلها إلا وجود معصوم ثبت أنه لا بد من وجوده في كل وقت»[1].

وهذا الدليل يعتمد على ملاحظة شريعة الإسلام بخصوصياتها الخاصة من كونها شريعة خاتمة كاملة مؤبدة وقصور الوسائل المتاحة لحفظها.

---

(١) الطوسي، الاقتصاد في ما يتعلق بالاعتقاد، ص ٣٠٢، دار الأضواء.

الدليل الثالث: بيان الأحكام الشرعية

إن الشريعة الإسلامية لم تصل فيها إلى الناس أحكام جميع الوقائع، فلا بد من شخص يبيّن لهم تلك الأحكام، قال العلامة الحلي في الألفين: «الوقائع غير محصورة والحوادث غير مضبوطة، والكتاب والسنة لا يفيان بها، فلا بد من إمام منصوب من قبل الله تعالى، معصوم من الزلل والخطا، يعرّفنا الأحكام ويحفظ الشرع»[١].

ويتحدّث الشهيد المطهري عن الحاجة إلى الإمام من هذه الجهة، فإن الدين الإسلامي لا شك في نزوله كاملاً على النبيﷺ، والنبي بلغه للناس كاملاً، ولكن هذه الصيغة الكاملة للأحكام التي صدرت من النبي لم تكن تساوي ما قاله لعامة الناس، ومن هنا فإن ما بلّغه لعامة الناس لم يكن يعبر عن الصيغة الكاملة للأحكام التي أوحيت إليه من عند اللّه، بل اختص بصيغة الأحكام الكاملة تلميذه الخاص علي بن أبي طالب، ثم إن الكثير من الأحكام لم تظهر موضوعاتها في عصر النبي أصلاً وإنما حصل السؤال عنها بعد ذلك[٢].

إن الصّياغة التي يمكن لنا تقديمها لهذا الدليل تعتمد على:

١- إن الإسلام، بوصفه ديناً كاملاً، نزل على النّبيﷺ من قبل اللّه.

٢- إن مجموعة من العوامل منعت النبي من إيصال هذا الدين بشكله الكامل إلى الناس، وهذه ترجع إلى مثل عدم وجود مدة زمانية كافية، أو عدم وجود قدرة لدى الأمّة على ذلك، أو عدم وجود

---

(١) الحلي، الألفين، ص ١٨.

(٢) المطهري، الإمامة، ص ٥٠.

موضوعات تلك الأحكام باعتبارها أحكاماً لموضوعات مستجدة.

٣- إن النبيﷺ لم يكن لديه من سبيل للقيام بمهمة تبليغ الدين إلا إبلاغه لشخص يمتلك مؤهلات تخوّله القيام بهذه المهمة، وهذا الشخص هو الإمام، وعليه ترتبط ضرورة الإمامة بضرورة بيان الدين الإسلامي الخاتم بصيغته الكاملة.

٤- إن هذا الدليل يشهد له الاختلاف التاريخي والمائز الأساسي بين المدرستين الشيعية والسنّية، إذ تعتمد الأولى على النص بشكل أساسي، هذا النص الذي امتلك استمرارية لم تكن متاحة لدى المدرسة الأخرى، ما أدّى إلى اعتماد وسائل أخرى كالقياس والاستحسان كانت محل رفض قاطع لدى المدرسة الشيعية.

الدليل الرابع: إقامة الحكومة الإلهيّة

ويعتمد هذا الدليل على مقدمة ثابتة في الشريعة الإسلامية تقضي بما يأتي: في الإسلام مجموعة من الأحكام التي تتوقف إقامتها على وجود الإمام، وهذه التكاليف تتعطل مع عدم وجود إمام للناس يقوم بها، ومن هذه الأحكام الحقوق الشرعية التي لا بد من دفعها للإمام، والتحاكم في مقام نزع الخصومة، أي الفصل بين الاختلافات، وإقامة بعض الفرائض كالصلاة والزكاة والحج والجهاد وغيرها من الوظائف الموكولة في الشرع للإمام، وحيث أن هذه الفرائض لا بد للناس من إقامتها، وهم مكلفون بذلك، فلا بد من وجود إمام يقوم بها، والتكليف بإقامتها من دون تعيين أئمة من الله عز وجل من التكليف بما لا يطاق، وهو مستحيل على المولى الحكيم.

وهذا الدليل ساقه الشيخ المفيد[1] لإثبات لزوم معرفة الإمام على المكلفين، وهو يصلح أيضاً دليلاً على أصل لزوم الإمامة، وهذه الوظائف يمكن التعبير عنها بأنها وظائف الحكومة الإسلامية والإمام هو الحاكم فيها.

وهذا الدليل استفاد منه، أيضاً، من ذهب إلى ثبوت الولاية العامة للفقهاء في عصر الغيبة، إذ تساق مفردات هذه الوظائف الموكولة للإمام بوصفها دليلاً على أن للإسلام دعوة لإقامة الحكومة في كل زمان من دون اختصاص بعصر وجود المعصوم، وأن في عدم إقامة الحكومة الإسلامية تعطيل لهذه الأحكام.

صفات الإمام عند الإماميّة

ذكرت الإمامية أنه لا بد من توافر مجموعة من الصفات في الإمام، وأهم ما ذكروه، مما يرتبط بهذا البحث، هو العصمة، فلا بدّ من أن يكون الإمام معصوماً، والعصمة ملكة نفسانية يمتنع معها المكلف عن فعل المعصية[2].

والأدلّة على العصمة:

أوّلاً: الدّليل نفسه الدّال على وجوب الإمامة، ألا وهو اللطف الموجود فيها، فإن تحقق اللطف يتوقف على وجود إمام معصوم، قال الشريف المرتضى في المقنع: «إن علة الحاجة إلى الإمام هي أن يكون لطفاً للرعية في الامتناع من القبيح وفعل الواجب على ما اعتمدناه ونبهنا

---

(١) المفيد، الإفصاح في الإمامة، ص ٢٩، مؤسسة البعثة، ط- ١٤١٢هـ.

(٢) البحراني، ابن ميثم، النجاة في القيامة، ص ٤٤.

عليه. فلا يخلو من أن تكون علة الحاجة إليه ثابتة فيه أو تكون مرتفعة عنه. فإن كانت موجودة فيه، فيجب أن يحتاج إلى إمام كما احتيج إليه، لأن علة الحاجة لا يجوز أن تقتضيها في موضع دون آخر، لأن ذلك ينقض كونها علة، وهذا يقتضي إما الوقوف على إمام ترتفع عنه علّة الحاجة، أو وجود أئمة لا نهاية لهم وهو محال. فلم يبق بعد هذا إلا أن علة الحاجة إليه مفقودة فيه، ولن يكون ذلك إلا وهو معصوم ولا يجوز عليه فعل القبيح»[(١)].

ثانياً: ما تقدّم من الدليل الثاني على الإمامة، ألا وهو لزوم حفظ الشريعة لأنها الشريعة المؤبّدة إلى يوم القيامة، وبيانه: إن شريعة النبي ﷺ مؤبّدة لازمة لكل مكلّف، باقية إلى يوم القيامة، ولا بد لها من حافظ، وحفظها لا يخلو من أن يكون إلى الأمّة جميعها، أو إلى بعضها. لا يجوز أن يكون الحافظ لها الأمّة جميعاً، لأن الأمّة يجوز عليها السهو والغلط وتعمّد الباطل، لأن العصمة مرتفعة عن كل واحد من الرعية، وما جاز على آحادها جاز عليها جميعها[(٢)].

ثالثاً: الدليل الثالث نفسه، الدّال على ضرورة وجود الإمام، لأن المبين لما نقص من الأحكام إن كان غير معصوم لزم إمكان أن يترك بعض الأحكام أو يزيد فيها أو يبدلها عمداً أو سهواً، ولا يقوم بهذا الأمر على تمامه إلا المعصوم[(٣)].

---

(١) الشريف المرتضى، المقنع في الغيبة، ص ٣٦، مؤسسة آل البيت، ط- ١٤١٦هـ . لاحظ أيضاً الطوسي، الاقتصاد في ما يتعلق بالاعتقاد، ص ١٩٨.

(٢) ابن جبر، نهج الإيمان، ص ٥٣، نشر مجمع الإمام الهادي، مشهد، ١٤٨.

(٣) الحلي، الألفين، ص ١٨.

إشكاليّة الغيبة

والإشكاليّة المثارة على نظرية الإمامة، في قضية الغيبة، إنما تمر عبر التّرتيب الذي ذكرناه سابقاً في الأدلّة:

أولاً: من جهة الدليل العقلي على الإمامة.

أمّا الدّليل الأوّل، فأساس الاستدلال يبتني على قاعدة اللطف، واللطف هو ما يقرب من الطاعة ويبعد عن المعصية، ومن الواضح أنه مع وجود الإمام يكون الناس أقرب من الطاعة وأبعد عن المعصية، وعلى ما تقدّم من عبارة الشيخ الطوسي، فإن الموجب لذلك هو الانتصار للمظلوم وردع السفيه وتأديب الجاني... إلى آخره.

فإذا كان اللطف هو ما ذكره هؤلاء الأعلام عند بيانهم لهذا الدليل، فمن الواضح أن هذا الأمر غير تام بالنسبة للإمام المعصوم الغائب، فإنه غير متمكّن من أيّ من هذه الأمور، فلا لطف ملزم لنصب الإمام مع كونه غائباً مستوراً لا يراه أحد من الناس.

وهذه الإشكاليّة ليست مستحدثة بل هي مُصاغة في الكُتب الكلامية، فقد ذكرها الشيخ الطوسي في كتابه الغيبة، وذكر أنه وجدها لبعض المتأخرين مسجّلة على كلام السيد المرتضى[1].

أما الدليل الثاني، أي لزوم حفظ الشريعة، فهذا الأمر أيضاً لا يتم في زمن غيبة المعصوم المفترض قيامه بهذه الوظيفة، لأن تلقّي الأحكام من الإمام أمر متعذر في عصر الغيبة، ونذكر هنا صياغة للإشكال يقدّمها أحد علماء الإمامية، فيقول: «ما الطريق إلى معرفة أحكام الشرع في حال غيبة

---

(١) الطوسي، الغَيبة، ص٧، مؤسسة المعارف الإسلامية، قُم، ط- ١٤١١هـ.

الإمام عليه السلام؟ إن قلتم: لا طريق إليها كان ذلك حكماً منكم بأن الناس في حيرة وضلالة، وأن أحكام الشرع مهملة معطلة في أحوال الغيبة؛ إذ لا طريق إلى الكتاب والسنّة والإجماع كان في ذلك التصريح بالاستغناء عن الإمام وذلك مبطل لقولكم: إن أحكام الشرع تؤخذ وتتلقّى منه وأنه حافظ للشرع»[1]، وهذا الإشكال لا يرد بالنسبة لسائر الأئمة لأنهم كانوا ظاهرين بارزين يفتون بالأحكام ويرشدون الناس.

وكذلك حال الدليلين الثالث والرابع على لزوم الإمامة، فإن غيبة الإمام تشكل نقضاً واضحاً لهذين الدليلين، إذ لن يتمكّن الإمام من بيان الأحكام التي لم تصل إلى عامّة المكلفين أو أحكام الوقائع غير المتناهية، كما أنّ الإمام الغائب لن يتمكّن من القيام بمجموعة التكاليف التي تتوقف عليه، والتي تشكل المقدمة الأساسية لهذا الدليل، أي أنه لن يتمكن من إقامة الحكومة الإسلامية. وقد قام الشيخ المفيد بذكر هذا الإشكال قائلاً: إذا استمرّت غيبة الإمام على الوجه الذي تعتقده الإمامية فلم يظهر له شخص، ولا تولّى إقامة حد، ولا إنفاذ حكم، ولا دعوة إلى حق، ولا جهاد العدو بطلت الحاجة إليه في حفظ الشرع والملّة، وكان وجوده في العالم كعدمه[2].

صفات الإمام وإشكاليّة الغيبة

العصمة: علمنا مما سبق أن دليل عصمة الإمام من العقل ترجع إلى الدّليلين العقليين على العصمة؛ فمن جهةٍ، اللطف لا يحصل إلا

(١) الحمصي، المنقذ من الاعتقاد، ص ٣٧٧.

(٢) المفيد، المسائل العشر في الغيبة، ص ١٠٥، مركز الأبحاث العقائدية، ط- ١٤١٣هـ.

بالمعصوم، ومن جهة أخرى: إن حفظ الشريعة لا يحصل إلا من المعصوم، وإذا ورد الإشكال على كلا الدليلين ورد الإشكال على لزوم عصمة الإمام، فإذا كان الإمام لا يمكنه القيام بوظائف الإمامة من تأديب الجاني وردع السفيه والانتصاف من المظلوم، وإذا كان حفظ الشريعة غير ممكن بسبب الغيبة، كان الإشكال على لزوم العصمة وارداً. وكذلك الحال بالنسبة للدليل الثالث، فإذا كان بيان الأحكام متعذّراً في عصر الغيبة على الإمام، لم يتم الدليل المساق للعصمة من خلال قيامه بوظيفة بيان الأحكام.

الأجوبة المذكورة على إشكاليّة الغيبة

الجواب الأوّل: ما ذكره الشريف المرتضى من بقاء المصلحة في وجوده مع وجود المصلحة في غيبته، وذلك لأن المصلحة في وجوده ترجع إلى المكلّفين والمصلحة في غيبته ترجع إليه هو نفسه، وحيث إن السبب الموجب لغيبته بيد المسبب، لذلك إزالة السبب كان اللطف قائماً، وهذا كغيبة النبي في الغار؛ حيث غاب عن قومه فإن ذلك لم يُوجب ارتفاع اللُّطف من اللّه[1]، فكلام المرتضى يريد به منع ارتفاع اللطف من وجوده.

ولعلّ الصياغة التي يقدمها الشيخ الطوسي أوضح، حيث يذكر أن السبب في عدم انبساط يده، ليس لأجل خروج انبساط اليد عن كونه لطفاً بل وجه اللطف ما زال به قائماً، وإنما لم يحصل اللطف لأمر يرجع إلى غير اللّه[2].

(١) المرتضى، تنزيه الأنبياء، ص ٣٢٥، دار الأضواء، ط- ١٤٠٩هـ.

(٢) الطوسي، الغيبة، ص ٨، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ط- ١٤١١هـ.

والملاحظة التي تتجه على هذا الجواب: إن المحذور يرجع إلى ارتفاع اللطف وإن كان السبب في ارتفاعه يعود إلى المكلّفين، فارتكاز الجواب على ملاحظة السبب في ارتفاع اللطف ونسبته إلى المكلفين، وأن بيدهم الأمر، لا يحل لنا مشكلة ارتفاع اللطف الذي هو ركيزة الاستدلال العقلي على الإمامة، وبعبارة أخرى: إن مجرد الالتفات إلى أن اللطف الموجب للإمامة هو أنه يكون مقرباً للطاعة ومبعداً عن المعصية، وانتفاء هذا اللطف في غيبته يكفي لانتفاء الدليل، وإن كان السبب هو عدم طاعة الناس له، وبصياغة أخرى: إذا كانت المصلحة في وجوده ترجع إلى المكلّفين وهي غير ممكنة مع غيبته، فهذا يعني انتفاءها مهما كان السبب في ذلك.

الجواب الثاني: لأجل رفع الإشكال عن الدليل العقلي الثالث من أدلة الإمامة، والقائل: إنّ مجرّد غيبة الإمام لا تنهي الحاجة إليه في مسألة حفظ الشريعة التي يعتمد عليها الدليل العقلي الثاني المتقدم يقدّم الجواب التالي: إن المهام الموكولة للإمام لا تتوقّف على الحضور الشخصي له، بل يكفي أن يختار له نواباً يكون على عاتقهم وظيفة القيام بهذه المهمّة، كما صدر هذا من الأنبياء في حياتهم، وهذا الجواب ذكره الشيخ المفيد وذيّله بقوله: «ولكن متى وجد أتباعه قد تركوا ما كلّفهم به فإنه يظهر ليتولّى الأمر بنفسه»[1]. فالتكاليف التي تتوقّف إقامتها على الإمام، أيضاً، من إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام والجهاد، يقوم بها أتباعه، وعليه فأمر حفظ الشريعة يبقى حينئذٍ موكولاً للإمام، ولا يمكن أن يقوم غيره بهذه المهمة.

---

(١) المفيد، المسائل العشر في الغيبة، ص ١٠٥.

وهذا الجواب لا يفي بحلّ المشكلة على مستوى الدليل العقلي الثالث، بل هو يرجع إلى نوع من التعديل في الدليل الثالث بنحو يشكّل تراجعاً عنه، والتعديل ينصب على أن التكاليف الموكولة إلى الإمام من الممكن قيام نواب الإمام مقامه فيها، فلا يلزم التكليف بغير المقدور، وهذا يرجع إلى أن الشيخ المفيد عمد إلى رفع الإشكال عن الدليل الثالث بسوق الدليل الثاني الذي يرجع إلى بيان فائدة لوجود الإمام، وهو حفظ الشريعة إذا حصل التخلّف ممّن نصبهم من النوّاب.

الجواب الثالث: ما أجاب به الشريف المرتضى وابن ميثم البحراني[1]، وهو أن فائدة الغيبة هي اللطف المقرّب للطاعة والمبعد عن المعصية، ولكن لأوليائه وشيعته، لأنهم مع اعتقادهم بوجوده، لا بد من أن يخافوه ويهابوه في ارتكاب القبائح، ويخشوا تأديبه وانتقامه وسطوته ومؤاخذته، فيكثر منهم فعل الواجب ويقلّ ارتكاب القبيح، وهذه هي جهة الحاجة العقلية لوجود الإمام[2].

وطريقة اطلاع الإمام على ما يفعله شيعته فعلى ما يذكره الشريف المرتضى تتم إما عبر مشاهدته لذلك، لأن الإمام إذا لم تعرف عينه ويميز شخصه، كان التحرّز أوسع وأسهل، أو عبر البينة أو عبر الإقرار.

إن ما يؤخذ على هذا الجواب أنه عملية تعديل لدليل اللطف، الملزم للخصم لإثبات الإمامة وضرورة نصب الإمام من الله.

الجواب الرابع: ويبتني على أن حفظ الشريعة حاصل من جهتين،

---

(١) البحراني، قواعد المرام في علم الكلام، ص ١٩١، نشر مكتبة المرعشي، ط- ١٤٠٦هـ.

(٢) المرتضى، المقنع في الغيبة، ص ٧٥، ط آل البيت، ط- ١٤١٦هـ.

فمن جهة أولى: الروايات الواردة التي صدرت من الأئمةعليهم السلام، والتي حصل فيها تبليغ الشريعة كلّها إلى الخلق، ومن جهة ثانية: حفظه هوعليه السلام بعد فقدهم بكونه من وراء الناقلين وأحد المجمعين من شيعته وشيعة آبائهعليهم السلام، فقام والحال هذه إجماع العلماء من شيعته وتواترهم بالأحكام عن آبائهعليهم السلام، مع كونه حافظاً من ورائهم مقام مشافهة الحجة[1].

ومن الواضح وجود المناقشة في كلا الشقّين: أمّا الأول فلأن الكثير من أحكام الشريعة خفي علينا بسبب عدم تمكن الأئمة بأجمعهم من نشر الأحكام، وذلك بسبب الذي وقع عليهم، أما الثاني فلأن الإجماع الذي يدخل فيه المعصوم، وإن كان حجة بالاتفاق، لا تتحقّق صغراه، وهذا ما عليه عامّة الفقهاء من المتأخرين.

الجواب الخامس: إن الفائدة المترتبة على وجود المعصوم والتي هي أساس قاعدة اللطف، غير منتفية، وذلك لما ذكره العلامة الحلي: فالأجدر في تعليل اللطف حال الغيبة بأن يقال: وجوده نفسه لطف، وذلك لأن فيه إقامة للحجّة على العباد، ولما كان خذلان الناس له هو الذي أوجب غيبته وعدم تمكينه كانت الحجة عليهم أتم، فهم يعلمون أنّ الحجة بوجوده قائمة عليهم والتكليف غير مرفوع عنهم، والعصيان هم مسؤولون عنه، فمن ثم يكون ذلك مقرباً لهم إلى الطاعة مبعداً عن المعاصي[2].

وللشيخ الطّوسي عبارة، في كتابه شرح التجريد، يقول فيها: إنّ وجوده لطف وتصرّفه لطف، وقد حمل الأعلام المراد من قوله وجوده لطف على ما

(١) الحلبي أبو الصلاح، تقريب المعارف، ص ٤٤٤، تحقيق ونشر فارس الحسون، ط- ١٤١٧هـ
(٢) الحلي، الألفين، ص ٦٥، مكتبة الألفين، الكويت.

تقدم من العلامة الحلي، وإن كان من الممكن أن يكون المراد هو الإشارة إلى المعنى الأعمق للإمامة التي يتبناها التعريف الثاني للإمامة.

إشكاليّة الغيبة والتعريف الثاني للإمامة

تقدم أن لتعريف الإمامة اتجاهان، وأن الاتجاه الثاني، ولعل قطبه السيد الطباطبائي، يرجع إلى تفسير الإمامة بمعنى باطني، والمراد من كونه باطنياً أن الإمامة حقيقة خارجية يملكها الإمام، ولا ترتبط بأي أمر خارج شخصه، بمعنى أنها ترجع إلى مؤهّلات يمتلكها هذا الشخص ترجع إلى مجموعة من الأشياء، كالقرب الإلهي والوصول إلى مقام عين اليقين، وذلك لأن الهداية بمعنى بيان الطريق لما كانت لا تنفك عن النبوة، فلا يبقى للإمامة إلا الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، ويعرفها السيد الطباطبائي بأنها تصرف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر[1].

وبناء على هذا التعريف، يرتفع الداعي إلى البحث عن إشكاليّة الغيبة، لأن هذه الإشكاليّة، مهما كانت، وأي صياغة اتخذت، لن تتجه إلى هذا المعنى من الإمامة، لأنها لن تشكل عاملاً يجرد هذا الشخص من الحقيقة التي يملكها والتي يرجع امتلاكه لها إلى نوع من الشخصانية الخاصة، وأريد بالخاصة أنه لا يمكن لأي شخص أن يصل إليها بل هي في عصر الغيبة منحصرة به، ولن تشكل غيبته سوى عائق أمام بعض الوظائف الموكلة إليه، والتي من الممكن تعدد الأجوبة لحلها من دون أن تخدش أصل إمامته.

---

(١) الطباطبائي، الميزان، ج١٤، ص ٣٠٤، جماعة المدرسين، قم.

ولا بد لنا من تعميق البحث قليلاً في الاتجاه الثاني في تعريف الإمامة، إذ كان هو الحل الأساسي لإشكاليّة الغيبة ومحاولة الخروج بتعريف جامع لأصحاب هذا الاتجاه الذين اختلفت بياناتهم هنا، ونستعرض هنا بعض التفسيرات في هذا الاتجاه:

البيان الأول: الإمامة هداية في الباطن والظّاهر

قسّم السيد الطباطبائي الهداية إلى قسمين: الهداية «الإرائية» والهداية الإيصالية، والقسم الأول هو ما تقدم من أصحاب الاتجاه الأول نفسه، من أنها رئاسة في أمور الدين والدنيا، فهو الذي يهدي الناس إلى الحق عبر إرشادهم وتعليمهم، وهذه الهداية الإرائية لا تختصّ بالإمام، بل هي وظيفة كل مؤمن؛ إذ عليه هداية الناس بالنصح والموعظة الحسنة، والشاهد على ذلك أن الهداية الإرائية وردت في القرآن الكريم في موارد متعددة، كما في مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر/ ٣٨] أو كما في آية النفر: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة/١٢٢].

أما القسم الثاني فهو الذي ينصبّ حديث السيد الطباطبائي عليه بشكل أساسي، والمراد منها الإيصال إلى المطلوب عبر توسّط ولاية الإمام على أعمال العباد، وولاية الإمام هذه تتحقق لانكشاف عالم الملكوت عنده، والمراد من الملكوت هو الوجه الباطن لهذا العالم، فالإمام يسوق الناس في باطن هذه الحياة الدنيا إلى الله، وإنما ينال الإمام هذا المقام لأنه وصل إلى مقام اليقين، بسبب صبره على بلاء الله، والسيد الطباطبائي يعتمد في بيانه هذا للإمامة على الآيات القرآنية الواردة في ذلك.

أما كون الإمامة بمعنى الهداية الإيصالية، فلأن الله عز وجل وهبها لإبراهيم عليه السلام بعد النبوة، أي بعد أن كان لإبراهيم مقام الهداية الإرائية؛ وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، والشاهد على أن إبراهيم إنما نال مقام الإمامة بعد النبوة أنّه سأل ذلك لذريته، وإنما جاءت ذرية إبراهيم بعد النبوة، لأن ذريته جاءته على كبر في سنه.

أما كون انكشاف عالم الملكوت للإمام ووصوله إلى مقام اليقين، فهو مفاد قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

أما أن الصبر على الابتلاء هو الذي وهب الإنسان مقام اليقين فهو قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وبهذا يفسّر السيد الطباطبائي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء/٧٣] حيث يشرح الهداية الإيصالية بأنها تصرّف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر.

وهذا التفسير يستدعي تفسير كلمة «بأمرنا» الواردة في الآية، وهو ما يتخذ منحى آخر عند السيد الطباطبائي؛ حيث يفسّرها بأنها ليست هي الأمر التشريعي الاعتباري بل هي الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة، ويستند في هذا التفسير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس/٨٢].

وعليه يكون الإمام هو الرابط بين الناس وبين ربّهم في إعطاء الفيوضات الباطنية.

أما ضرورة وجود الإمام في كل عصر، فيدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء/٧١] ، هذا ما ذكره السيد الطباطبائي من بيان الإمامة.

إن هذا المعنى من الإمامة، أي الهداية الإيصالية، لم أجد في حدود بحثي القاصر له أثراً في كلمات القدماء من متكلّمي الإمامية، ولا شك في أن مقدماته تعتمد بنحو أو بآخر على مجموعة من المقدمات التي ترجع إلى المدرسة الفلسفية التي تمتاز عن المدرسة الكلامية، وتختلف عنها في المنهج، لقد قسمت الفلسفة الكمال إلى قسمين: أول وثان، فالأول ويعبر عنه الخلق، وهو ما يحتاج إليه الشيء في أصل وجوده وبقائه أي ما يصير به النوع نوعاً بالفعل. أما الكمال الثاني فهو ما لا يحتاج إليه الشيء في وجوده وبقائه، بل هو عبارة عن أفاعيله وانفعالاته[1] وعلى هذا الأساس ذكر الفيلسوف المتألّه صدر الدين الشيرازي: إن الهداية هي عبارة عمّا يسوق الشيء إلى كماله الثاني[2].

وتأتي الملاحظة هنا من جهتين:

الأولى: إن تفسير الهداية بهذا المعنى بعيد عن المعنى اللغوي لكلمة الهداية، إن الهداية، عند أهل اللغة، لا تعني السوق والإيصال، فقد ذكر الراغب الأصفهاني عند تفسيره لكلمة الهداية معاني أربعة لها، من دون أن يأتي على ذكر الهداية بمعنى الإيصال[3].

---

(١) شرح المصطلحات الفلسفية، ص ٣٢٠، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية، ١٤١٤هـ.

(٢) م.ن.، ص ١٣٠.

(٣) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٣٦، مطبعة إسماعيليان.

الثانية: إن ما أشار إليه السيد الطباطبائي يعتمد على مقدّمة لم يتعرّض لها، وهي أساسية في بحثنا هنا، ولعل ذلك منه حيث كان بحثه تفسيرياً محضاً توقّف فيه عند شرح الآيات الكريمة، وهذه المقدمة ترجع إلى أننا نحتاج إلى البحث عن واسطة نثبت فيها أن معنى الإمامة التي تحدّث عنها القرآن الكريم في هذه الآية هو المعنى الثابت للأئمة من ورثة النبي ﷺ، فالاشتراك اللفظي لا يفي لإثبات اتحاد المعنى.

البيان الثاني: مراتب الإمامة

ذكر الشهيد المطهري[1] أن للإمامة مراتب ثلاث:

١- قيادة المجتمع.

٢- المرجعية الدينية، وتندرج هاتان المرتبتان بشكل واضح في الاتجاه الأول من تفسير الإمامة، وأنها رئاسة في أمور الدين والدنيا.

٣- الولاية، ويرى الشهيد المطهري أنها ذروة مفهوم الإمامة، وأن كتب الشيعة مليئة بهذا المفهوم للإمامة، وهنا للشهيد المطهري كلام مهم في بيان الاشتراك القائم بين مفهوم الولاية هذا وبين مفهوم الإنسان الكامل لدى العرفاء والمتصوفة، من دون أن يكون الشيعة قد استقوا هذا المفهوم من المتصوفة بل لعل الأمر بالعكس.

من المفاهيم الأساسية، لدى العرفاء، مفهومُ الإنسان الكامل، فهم يرون أنه لا بد في كل عصر من وجود إنسان كامل يكون حاملاً للمعنوية الإنسانية الكاملة، وهو ما يعبرون عنه بالقطب، ومن المقامات الثابتة لهذا

---

(١) المطهري، الإمامة، ص ٥٢، ترجمة جواد كسار، أم القرى.

الإنسان الكامل تسلّطه على الضمائر أي القلوب، لأنه يحيط بجميع الأرواح.

وهذا المفهوم موجود لدى الشيعة، أيضاً، فهم يرون أنه لا يخلو زمان من حجة ينطوي على مقامات ودرجات كثيرة، ويستشهد الشهيد مطهري لذلك بالزيارات الواردة عن الأئمة: «أشهد أنك تشهد مقامي وتسمع كلامي وترد سلامي»، وكذلك مقام الولاية هذا يستلزم عرض الأعمال على الإمام بحيث لا ينظر الإمام المهدي(عج) الآن إلى الشيعة وحدهم، بل هو ناظر إلى الناس جميعاً.

ثم يتحدّث الشهيد المطهري عن هذه الفكرة فيقول: «إن مسألة الولاية المعنوية فكرة اعتقد بها شخصياً وأعدّها فكرة أساسية، ولكنها قد لا تعد من أركان التشيع»[1].

البيان الثالث: الإيصال إلى المطلوب

ما ورد في كتاب الإمامة الإلهيّة[2]، وهو لا يختلف كثيراً عما ساقه العلامة الطباطبائي من الهداية الإيصالية، فقد جاء في هذا الكتاب: إن الإمامة تساوق الهداية لغة، والهداية لدى أهل اللغة لها معنيان: إراءة الطريق المستقيم والإيصال إلى المطلوب، والمراد من الإمامة هو المعنى الثاني، أي الإيصال إلى المطلوب، والشاهد عليه: إن الأمّة أو الجماعة التي لها مقصد واحد تتبع الإمام لأجل الوصول إلى ذلك المقصد، ووجود الإمام ومقتضى السير أن يأخذ الإمام بيد الأمّة لأجل إيصالها إلى الغاية

---

(١) م.ن.، ص ٨٢ .

(٢) محمد سند، الإمامة الإلهيّة، ص ٢٥٤، دار الهادي ط- ٢٠٠٢م.

القصوى، ولكن المهم في كلامه استعراض ما ذكره من الأدلة على الهداية الإيصالية للإمام.

الدليل الأول: الفطرة

يعتمد هذا الدليل على أن الإنسان فيه انجذاب طبيعي نحو الكمال، وهذا الأمر هو الذي يحرك الإنسان نحو الكمال، والكمال المطلق موجود في اللامحدود، والإنسان يقرّ في نفسه على أنه لا يستطيع أن يكون لا محدوداً، وحتى يبقى لدى الإنسان السعي إلى هذا الكمال، لا بد من أن يتنزل هذا الكمال إلى الحظيرة الإنسانية ليتصوّرها الإنسان ممكنة التحصيل، وعليه فالارتباط بالكمال المطلق لا بد من أن يكون بتوسّط رابطة بشرية، وهذه الرابطة البشرية هي التي تتحلّى بالكمال العلمي والعملي.

الدليل الثاني: برهان الغاية

إن غاية الإنسان، حيث كانت، هي السعي نحو الكمال المطلق، وحيث أن الكمالات التي يسعى إليها الإنسان لا تقتصر على كمالات الدنيا، بل هناك كمالات في عوالم أخرى، فهذا يقتضي وجود الهادي والمعصوم الذي يسير بالأمّة نحو المعاد الحقيقي وإحراز الكمالات العالية في العوالم اللاحقة، ولذا لا بد من أن يكون له تصرّف في النفوس مع بقاء الاختيار الإنساني.

الدليل الثالث: معرفة النفس

إن معرفة النفس أشرف الطرق إلى معرفة اللّه، واللّه عز وجل زوّد الإنسان بالعقل الباطن العملي، وأنه هو الذي يقوم بهذه الوظيفة، هذا في الإنسان الصغير، وفي الإنسان المجموعي، أي المجتمع البشري الأمر كذلك، أي لأنه متطابق مع الإنسان الصغير، ومتى ثبت هذا، فإذا كان في

الإنسان الصغير هداية إيصالية إرائية ففي الإنسان الكبير والمجموعي لا بد من وجود ذلك، وهو الإمام، فالإمام في المجتمع كالعقل العملي في الإنسان الصغير.

الدليل الرابع: برهان العناية

وهذا الدّليل هو دليل اللطف عينه، بتوسعة تشمل الهداية الإيصالية، فإن علم الباري بالنظام الوجودي الأحسن مستلزم لإفاضة الوجود الإمكاني على أحسن ما يمكن، وحيث كانت الغاية من الخلق هي بلوغ الأفراد الكمالات المنشودة، فاللطف يقتضي وجود الإمام الذي بيده الهداية الإيصالية.

وهكذا يظهر لنا من خلال هذه البيانات الثلاثة لمسألة الإمامة، والذي هو معنى من الإمامة لم يشر إليه متكلّمو الإمامية، وإن كان من الممكن لنا أن نستظهر من بعض كلماتهم تلويحاً بوجود مقام للإمام غير ما دأبوا عليه من تعريف الإمامة بالتعريف الأول، ويظهر بشكل واضح عدم تأتّي إشكاليّة الغيبة على هذا التعريف الثاني للإمامة، لأن لوجود الإمام أبعاد متعددة وفوائد مختلفة، فمع وجود مانع من بعض هذه الفوائد، كالتصرّف الظاهري أو الرئاسة الظاهرية لأمور الدين والدنيا، لا يوجب ارتفاع ضرورة وجود الإمام، ولعلنا نجد لهذا الكلام أثراً في كلمات أعلام متكلّمي الإمامية، كعبارة الشيخ الطوسي: «وجوده لطف وتصرفه لطف آخر»، إن خرجنا بها عن المعنى الضيّق لهذه العبارة والتي فسّرها بها شارح التجريد العلامة الحلي[1].

(١) الحلي، شرح تجريد الاعتقاد، ص ٣٦٤، ط جماعة المدرسين.

نظريّة الإنسان الكامل

يعود تفسير الإنسان الكامل، لدى مختلف الاتجاهات، إلى المباني النظرية والمنظومة المعرفية لدى كل اتجاه، فمثلاً يفسر الفلاسفة الإنسان الكامل بأنه الذي وصل عقله إلى حد الكمال عبر الاستدلال والمنطق والبرهان، وذلك لما يمثله العقل من قيمة لدى هذه المدرسة، ولما يحتله من دور بوصفه عنصراً أساسيًا من عناصر المعرفة عندهم. أمّا عند العرفاء فهو من وصل إلى الحقيقة ومقام الفناء، لأن الشهود والمعرفة القلبية هما الوسيلة، والقلب هو الأداة المعرفية الأساسية عندهم، وبها يمتازون عن أصحاب الاتجاه العقلي.

يعد الشيخ محيي الدين بن عربي (المتوفى سنة ٦٣٨هجرية) قطب هذه النظرية التي أخذت حيزاً مهماً من البحث الفلسفي والعرفاني. وفي تعبير بعضهم: إن كتاب الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي، مؤسس الحكمة المتعالية، هو شرح لمقامات الإنسان الكامل ودرجاته إلى الحد الذي يمكن أن نضع فيه لكتاب الأسفار الأربعة عنوان الإنسان الكامل[(١)]، إن هذه النظرة هي وصف دقيق للاتجاه العرفاني الفلسفي في وصف الإنسان الكامل، ذلك أن المدرسة العرفانية تتجه في تعريف الإنسان الكامل إلى أنه هو الذي طوى الأسفار الأربعة، وهي: السير من الذات إلى اللّه، والسير مع الله في اللّه، أي معرفة اللّه، والسير مع الله إلى خلق اللّه، والسير مع الله بين خلق الله لإنقاذ خلق اللّه، ومتى انتهى إلى السفر الرابع، فهذا يعني مقام الفناء في اللّه، وهو عبارة عن وصول الموجود إلى كماله الحقيقي[(٢)].

---

(١) الطهراني، السيد محمد حسين، معرفة الإمام، ج٥، ص ٨٥، دار المحجة البيضاء.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، رسالة الولاية، ص ٥٨، دار التعارف للمطبوعات ١٤٠٧هـ .
مطهري، مرتضى، الإنسان الكامل، ص ٦٤، مؤسسة البعثة ط- ١٩٩٠م.

إن الدّليل الأساسي الـذي يتحـدّث عنـه العرفـاء لإثبـات ضـرورة الإنسان الكامل يتألف من مقدّمات متعدّدة لا يسع المقـال التعـرّض لهـا، ولكن لا تفوتنا الإشارة إلى الدليل مع أخذ مقدماتـه كأصـول موضـوعة، فإنهم أثبتوا ضرورة الإنسان الكامل انطلاقاً من ضرورة التجلّي والمظهرية، وحيث كانت الأسماء الذاتية الغالب فيها الوحدة، والأسماء الفعلية الغالب فيها الكثرة، فلأجل إراءة الوحدة والكثرة الجامعة لجميع الأسـماء، يظهـر الإسم الجامع، وهو الإسم الأعظم ويظهر فـي الإنـسان الكامـل، ويقـرب الشيخ جوادي آملي هذا الدليل بتوسّط آيتين من القرآن الكريم وهما قوله تعـالى: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ التـي تـدل علـى الجنبـة العنصرية والطبيعية، وقوله تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فإذاً الإنسان الكامل هو ظهور للإسم الأعظم في مظهر تـامّ يـشتمل علـى جميع مراتب الوحدة والكثرة من دون غلبة لإحداها على الأخرى، ويتمّم الشيخ جوادي الآملي في شرحه على تمهيد القواعد هـذا الـدليل لإثبـات ضرورة وجود الإنسان الكامل في كل عصر ونـسل بقولـه تعـالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ من جهة أنه لا بـد دائمـاً مـن وجـود مظهـر، والمظهـر الوحيد هو الإنسان الكامل، ومع ارتحال الإنسان الكامل من عالم الـشهادة إلى عالم الغيب، لا بد من أن يطلع إنسان كامل آخر، فعن أمير المـؤمنين في نهج البلاغة: «ألا إن مثـل آل محمـد كمثـل النجـوم إذا خـوى نجـم طلع نجم»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠.

ومن هنا يظهر الفرق بين اتجاهات ثلاثة لإثبات ضرورة الإنسان الكامل: الاتجاه الكلامي المستند إلى قاعدة اللطف، والاتجاه الفلسفي المستند إلى مراتب العقل العملي والنظري، والاتجاه العرفاني الذي يذهب إلى ملاحظة الغرض الذاتي زالأوّلي لخلق الإنسان الكامل، والذي هو الظهور التامّ للخالق، والفارق هو أن نظرة الفلاسفة والمتكلّمين هي نظرة أرضية، لأنها تتجه إلى ملاحظة الاحتياجات الإنسانية فعند المتكلّمين أو مراتب الإنسانية فعند الفلاسفة، أما العرفاء فنظرتهم سماوية، أي أن الضرورة الإلهيّة تقتضي وجود الإنسان الكامل[١].

إن الإنسان الكامل هذا هو الذي له ولاية على الباطن، وهذه الولاية هي التي يذهب إليها التفسير الثاني للإمامة، ولذا يتحدث هؤلاء عن هذا المقام - مقام الإنسان الكامل - بأنّه الآن للإمام المهدي(عج) فقط، ولذا يحمل هؤلاء عبارة موجودة لابن عربي في كتابه الشهير: «الفتوحات المكية» والتي يقول فيها: «وأما خاتم الولاية المحمدية فهو رجل من العرب، من أكرمها أصلاً وبدعاً، وهو في زماننا اليوم موجود، عرفت به في سنة خمس وتسعين وخمسمائة» على أن مراده من هذا الشخص هو الإمام المهدي(عج)[٢].

---

١) لأجل ملاحظة هذه الأبحاث بشكل أدق يراجع كتاب فصوص الحكم لابن عربي، لا سيما الفص الآدمي، ويلاحظ شرح القيصري على الفصوص، كما يلاحظ كتاب تمهيد القواعد لابن تركة، لا سيما المتضمن لشرح الشيخ جوادي الآملي، نشر الزهراء، قم، ١٣٧٢هـ . ش.

٢) الهمداني، المولى عبد الصمد، حقيقة الإمامة، ص ١٩، مركز بقية اللّه الأعظم ط- ١٩٩٩م، بيروت.

إن الإيمان بضرورة وجود الإنسان الكامل، في كل زمان، يحلّ إشكاليّة الغيبة، لأن غيبة الإمام الظاهرية لا ترفع ضرورة وجوده بوصفه إنساناً كاملاً وصلت فيه جميع القوى والقابليات الإلهيّة إلى مقام الفعل المحض.

البحث في الإمامة من جهة روائية

تقدّم مفصّلاً بيان الاختلاف الموجود في تعريف الإمامة ضمن اتجاهين، ورأينا أن الاتجاه الأول تبنّى تعريف الإمامة بأنها عبارة عن الرئاسة في شؤون الدين والدنيا، واقتصر علماء الإمامية ومتكلّموها على هذا التعريف، ولكن الأمر الذي ينبغي إلفات النظر إليه هو أن أعلام الإمامية ومتكلّميها شخصيتان مستقلّتان في الممارسة العلمية البحثيّة، فهم، في البحث الكلامي، يوجّهون جلّ نظرهم إلى سوق البحث لمخاطب لا يشترك معهم في كل شيء، أي أنّه يختلف في المذهب، والذي يعني بعبارة أخرى الاختلاف في النصّ المقر به، وبالتبع اعتمد استدلالهم على سوق الأدلة المشتركة، أي العقل بشكل أساسي، واعتمادهم كان على النص بوصفه مشيراً إلى دليل من أدلة العقل، وهذا ما أضفى على أبحاثهم نوعاً من المتانة والجدة فقرأها الآخر، وسجّل ملاحظاته عليها ضمن هذا المشترك، وهذه هي الشخصية التي عمل أعلام الإمامية على عدم الخلط بينها وبين الشخصية الأخرى. أما الشخصية الأخرى فهي الشخصية التي تعتمد على الخاص، أي النقل الإمامي لمقام الإمامة ورتبة الأئمة، ولعل هذا الأمر يظهر بوضوح لدى شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) الذي بحث في الإمامة من الوجهتين الكلامية والروائية، فلم يخلط بين الأمرين، ولقد سجّل أعلام الإمامية المتقدمين

للإمامة مقاماً كان اعتمادهم الأساسي فيه على الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة في فضل الأئمة ومقامهم، والتي تتحدّث عن مقام للإمامة أعمق من أن تكون فيه الإمامة مجرد رئاسة دنيوية ودينية، ولعل أهم طائفة في هذه الروايات هي التي تتحدّث عن دور تكويني للإمام المعصوم، وأنه يحفظ هذه الأرض من الزوال كقوله عليه السلام: «لو بقيت الأرض بغير إمام ساعة لساخت»، ومعنى أن الأرض ساخت زالت واضمحلت، لا سيما بقرينة قوله ساعة، وفي تعبير آخر ورد: «لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله»، والروايات، في هذا المضمون، متعدّدة الألسنة والأسانيد.

* * *

في انتظار الإمام المهدي عليه السلام

ما نحن فاعلون

الأستاذ صبري أحمد علي موسى

حاجة المجتمع البشري إلى إمامة هادية

تقتضي سُنن التطوّر والنمو تجديد المعالم الإنسانية، والقيم الحضارية، فضلاً عن رفع وتيرة الدّعوة الدينية، وتوسيع أفق الرسالة الإلهية. والإسلام، وهو قضايا دينية وحضارية، ضمن هداية ربانية شاملة، تنتظم هيكل الحياة برمّتها، وتتكفّل بتقديم المضامين الفكرية والمادية لتعايش إنساني كريم..

الإسلام هذا ما مضت به سنن التجديد وقوانينه، حيث كان يوجد في الحقب الزمنية المتقاربة أو المتباعدة، من يثير كوامن الجدّة والفتوّة، في المبادى الخامدة، والقيم المنسيّة والسلوكيات الجامدة، سواء على المستوى الفكري والعلمي أم على مستوى السلطة والحكم، ناهيك بمستوى العمل الديني، والتربية السلوكية والانبعاث الروحي والذاتي، لاستئناف مسيرة إسلامية جديدة. وهكذا وُجد المجدّدون على مدار القرون والتاريخ، وفي جميع الفنون والمجالات، ومختلف ألوان المعرفة الإنسانية.

وعالم اليوم هو العالم المفعم بالثقافة التي لا حصر لها، من قديمة وحديثة والمتّصل بسرعة «الصوت والضوء». وهو، إلى جانب ذلك، مضمار مترامي الأطراف لفتح كبير، وانفتاح هائل في التقدّم الدنيوي والمادي والفكري، حيث نشأت حضارة عالمية، هي حضارة العلوم المتفتحة الأبواب، في كل صعيد وفي كل مجال[1].

لكن الخطير في الأمر أن هذه الحضارة قد أفرزت عوامل إفنائها، وإعدام جرثومة الحياة عليها بالكلّية، وتدمير الكوكب الأرضي من الآفاق والأعماق. وحيث لا خيار للعالم اليوم، بل كل الخيارات ضده، وتسقط متهالكة ومشلولة. فإن الإسلام الذي قُدّم، في الأصل، سفينة إغاثة ونجاة، كلما كان الطغيان والطوفان، وإلى آخر الزمان (الذي نحن بصدده)، بما يحمله من عناصر القوة والمنعة والمتانة وقوة الدفع إلى الأمام، ووسائل الحماية والهداية، فإنه هو قدر البشرية والعالم بأسره، والخيار الوحيد أمام مسيرة الإنسانية إلى الرقي والتقدّم الحقيقي في سائر المجالات والميادين والاتجاهات.

بينما يتردّى الوضع العالمي إلى الحضيض، مشيراً إلى فراغ الأنظمة، واستهلاك الطاقات بشكل مخيف، وتقهقر الجهود والإجراءات للتلافي والتدارك، قبل أن يكون السيف قد سبق العذل.

من هنا تبرز الحاجة الملحّة إلى شخصية عالمية مؤهّلة، وقيادة ربّانية رشيدة ملهمة، لاستقطاب الإسلام، وإدارة الحركة الإسلامية

---

(١) من كتاب المهدي: قيادة وفكر.. ووعد حق، للأستاذ عبد الرحمن عيسى، دار الكتاب النفيس، حلب، سورية.

التاريخية وتقديم المنهج الإسلامي الإلهي، بالمسؤولية المتخصّصة، والشمولية المتكاملة، بحيث تكون هذه الشخصية مرجعاً حقاً، لما اختُلف فيه من الحق والأمر، وملاذاً واعياً، وإمامة هادية، وأسوة جامعة وفاصلة.

فإنّ تدهور الموقف والتصور، على مستوى القيادات الإسلامية المتاحة والمتصدّية (إلا القلة النادرة) وعجزها عن تحمل المسؤولية بكفاءة عالية وجدارة مطلوبة يُعدّ مُمهّداً آخر للمهدي، وبوابة لعبوره وظهوره، ومدعاة له، واضطراراً إليه.

لقد كان يخيّل إلى القيادات الإسلامية أن عامل القوة، بالحديد والنار، هو الذي يحسم الموقف لصالح الإسلام، فجرت خلف هذا التصور، في حين أنه غير كاف ولا حاسم، فضلاً عن أنه ليس وارداً في الخطة الإلهية لعودة الإسلام[1].

إذن هناك مصادر أخرى للقوة والحسم والنصر.. دقيقة وناجحة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر/٣١].

يفتقر الجميع الآن إلى قيَم مُحكَم، وحَكم مرضيّ ومهديّ، وإمام مقتدر وقوي يجمع أشتات ما تفرّق، وأمير مُؤمّر، يفصل في كل منازع الاختلاف بإذن الله وبتفويض من الله، ويشفي الصدور، ويُذهب غيظ القلوب وحقد النفوس.

المهدي عليه السلام هو الإمام المنقذ

البُشرى بالمهدي هي أعظم ما يتمّ الإفصاح عنه في عالم اليوم، وأحقّ القضايا بالتهيّؤ والترقّب. وإنه لا يُقصد بهذه المقالة إثبات حقيقة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢ و١٣.

الإمام المهدي في عالم الأدلّة، لأنه الآن لم يعد موضع شك وارتياب، كما أنّه لا يُراد تقديم المسوّغات المقنعة لدوره وظهوره، لأنه فوق الأخذ والردّ والقبول والرفض. وإن ذلك كله، قد أُستنفد وانتهى، وأن طلوع الشمس أعظم برهان على وجودها، ومؤشّر على ضوئها ودفئها.

والصفحات المقبلة، من هذا المقال، تتضمّن بإيجاز شديد تشخيصاً وتصويراً لأعجب ما هو منتظر، منذ آلاف السنين: خلاص العالم من الخطيئة ولو لمدة قصيرة، وإنشاء عالم السلام والمحبّة، وإشاعة الخير والصفاء والألفة والاستقرار للعالم بأسره. حيث يتحقق نشيد روح اللّه يسوع المسيح بن مريم: المجد للّه في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي القلوب المسرّة.

فالمهدي عليه السلام حين يظهر إلى دنيا الواقع، يجد الإسلام خامات وطاقات واستحضارات، ويجد من دنيا العرب والمسلمين، مؤهّلات الترقب والانتظار وتمحّصات المعاناة والمخاض العسير... ويجد في العالم فراغاً وإحباطاً وظلماً صارخاً، وتدهوراً مريعاً في الإجراءات والمواقف، ومن خلال كل زاوية وموقع.. مما يُتيح للإمام المهدي سبيل ظهور مبارك ومُحبّب ومعالجة أيسر وأقرب لرتق ما انفتق من السلوك الإنساني، ولرأي الصّدْع والتصدّع في العلاقات والأخلاق والمعاملات[(١)].

لقد ظلّ «المهدي المنتظر» فكرة تُراود الأجيال منذ عهد غابر، أي قبل ظهور الإسلام، مثلما كانت فتنة «المسيح الدجّال» تلحّ على النبيين والمرسلين، فينذرون أقوامهم، بين يدي كل فترة وحين..

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠ (بتصرف يسير).

ويلاحظ أن قضية الإمام المهدي عليه السلام كانت على الدوام أملاً يُذكي التطلّعات ويدغدغ الأحلام والأمنيات، لدى الأمم السابقة المعنية بالدين والكتاب والطامحة إلى المخلّص والخلاص، الأمر الذي حدا بهذه الأمم إلى أن تتخذ من «المهدي» عقيدة تدين بها وتعيش عليها، وتنتظرها في ترقب وإلحاح.

وبقي الأمر هكذا إلى أن جاء خاتم النبيين والمرسلين، النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقطع الشك باليقين، إذ قال، في ما رواه الترمذي وحسّنه، وفي ما رواه الحاكم في مستدركه: «إن في أمتي المهدي» وقال مخبراً، في ما رواه ابن ماجه والحاكم: «يكون من أمتي المهدي».

وقد اقتضت الحكمة الإلهية البالغة وجود إنسان معصوم، يُبْعثُ بين يدي نهاية العالم، من أمة الإجابة، ومن بيت النبوة المحمدية الخاتمة، ينطبق عليه «الوصف المحمدي» فكراً وروحاً.. فيؤتاه ويعرف به منذ مولده وفي غيبته الكبرى وعند ظهوره..

وليس من شك في أن اهتمامات رسول اللّه والنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بذكر «مهدي» آل بيت النبوة، بادية وغير خافية، وهي مبثوثة في صحيح البخاري ومسلم وفي كتب السنة الصحاح الستة، وفي سنن البيهقي، ومسند الإمام أحمد، وغير ذلك من المصنّفات والسّنن والمسانيد..

أما في البخاري، فقد جاءت الإشارة إلى «المهدي» لدى قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم» حيث يؤكد أكثر الشرّاح والمحدثين أن هذا الإمام هو «الإمام المهدي» نفسه.

إن كينونة الإمام «المهدي» عليه السلام ثابتة بنصوص صريحة صحيحة، من ثاني أكبر مصدر للشريعة الإسلامية ألا وهو السنّة النبوية، التي فاضت أحاديثها الكثيرة الشهيرة المشتهرة، واستفاض مدلولها لدى غالبية المحدثّين والمحقّقين من أهل السنة والشيعة، لا سيما الإمامية الإثني عشرية، على السواء، في ما يسمى ببرهان «التواتر المعنوي والمادّي». فليس من الحق في شيء أن يقال بعد ذلك عن المهدي، إنه عقيدة صوفية مخترعة، أو بدعة شيعية مفتعلة، ولا أصل له في الأدلة الشرعية واليقينيات النبوية.

ظهور المهدي عليه السلام بدء فجر جديد

وبعد، فإنه بعد أن توافرت أشراط، أو علامات، الظهور المبارك المتعدد، في الواقع العالمي المعاصر للإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وتحققت بالتالي أهداف الغيبة الكبرى له كما قدّرها اللّه عز وجلّ، يبدأ فجر جديد وساطع معلناً حلول عصر سعيد في بدايات الألفية الثالثة ونهاية الألفية الثانية الميلادية على الأرجح، كما تفيد جميع النبوءات والإرهاصات النظرية والعملية..

هذا العصر الجديد المقبل على الدنيا بأسرها في القريب العاجل بمشيئة اللّه.. يُعدّ بحق وصدق من أدهى العصور التاريخية في مسيرة الإنسانية ومشوارها الطويل منذ بدء الخليقة.. حيث يسود الأمن والأمان والسلام الدائم لبني الإنسان.. وتحقيق العدل والرخاء والطمأنينة والاستقرار النفسي والاجتماعي من آخر الزمان. فتشرق الأرض بنور ربها، وتحقق الأهداف العليا الربانية في إيجاد الكون والحياة.. ذلك لأن اللّه جلَّت حكمته إنما خلق الخليقة من أجل أن تعرف ذاته العلية والقدسية،

ويعبد في الأرض وفي كل مكان من هذا الوجود، وقد قال جل شأنه في قرآنه المجيد ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/٥٦].

وهذه العبادة تشمل عبادة الفرد وعبادة المجتمع أو المجتمعات الكونية في الوقت نفسه. وبتحقيق ذلك، يتحقق الهدف الإلهي الأسمى من إيجاد الخليقة. وهو ما لا يمكن أن يتخلف عن سنن اللّه الطبيعية والكونية. ولذا جرى القضاء الحتمي بأن يأتي عهد على الحياة البشرية ينتصر فيه دين اللّه في الأرض ويتحقق بالتالي الهدف النهائي للرسالات السماوية على مر الأيام فلقد: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة/ ٢١] ويتحقق كذلك معنى الحديث الشريف عن رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقوم القائم الحق منا (أي الإمام المهدي، وذلك حين يأذن اللّه عز وجل له»[١] والحديث النبوي القائل: «المهدي يملأها قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، والذي بعثني بالحق نبياً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لأطال اللّه ذلك اليوم، حتى يخرج فيه ولدي المهدي فينزل روح اللّه عيسى بن مريم، فيصلي خلفه وتشرق الأرض بنور ربها، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب»[٢].

الاهتمام العالمي بعقيدة الإمام المهدي عليه السلام

وإذا عدنا بالذاكرة إلى الوراء قليلاً، لا سيما بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران، حيث ارتفع مؤشر الاهتمام الكبير بعقيدة الإمام

---

(١) بحار الأنوار، للمجلسي: ٥١/٦٥. من طريق الإمامية. وتوجد شواهد عديدة لهذين الخبرين عن النبي(ص) من مصادر الحديث المعتمدة لدى أهل السنة.

(٢) بحار الأنوار، للمجلسي: ٥١/٧١.

المهدي المنتظر عليه السلام في شعوب العالم الإسلامي بأسره. وذلك بالسؤال والاستفسار عنه، والحديث حول مقدمه الشريف، وبالقراءة والتأليف، بل وفي غير المسلمين أيضاً. ولعلّ أكبر حدث سياسي يتعلق بعقيدة الإمام المهدي، في هذه الآونة، هو اقتحام الحرم المكيّ الشريف في مطلع عام ١٤٠٠ هجرية، بقيادة محمد بن عبدالله القرشي، حيث سيطر أنصاره على الحرم وأذاع معاونه «جهيمان» من داخله بياناً دعا فيه المسلمين إلى بيعة هذا القرشي، باعتباره المهدي المنتظر الذي بشّر به النبي محمد صلى الله عليه وآله!

وقد استمر احتلال هذا الرجل وأعوانه للحرم المكي ومقاومتهم العنيدة والشرسة عدة أيام، ولم تستطع الحكومة السعودية التغلب عليهم إلا بعد استدعائها فرقة «كوماندوس» خاصة من إحدى الدول الغربية.

كما أن أكبر عمل إعلامي يتعلق بعقيدة «المهدي» مباشرة صدر عن أعدائنا، في هذه الآونة أيضاً، وهو فيلم سينمائي عن «نوستر اداموس»، الذي بثّته شبكات التلفزة الأمريكية قبل سنوات عديدة على مدى ثلاثة أشهر متواصلة.. وهو فيلم عن قصة حياة المنجّم والطبيب الفرنسي سالف الذكر، الذي عاش قبل نحو ٥٠٠ سنة، ودوّن نبوءاته المستقبلية.. وأهمها وأخطرها على الإطلاق نبوأته بظهور حفيد للنبي محمد صلى الله عليه وآله من مكّة يوحّد المسلمين تحت رايته، وينتصر على الأوروبيين، ويدمّر المدينة أو المدن العظيمة في الأرض الجديدة.

ويبدو أن «اللّوبي الصهيوني» و«المخابرات الأمريكية» كانا وراء صناعة هذا الفيلم، وأن هدفهما منه كان تعبئة الشعب الأمريكي والشعوب الأوروبية ضد جمهورية إيران الإسلامية وسائر الدول الإسلامية الأخرى المعنية، باعتبارها خطراً داهماً يهدد الغرب وحضارته! خصوصاً إذا

لاحظنا الإضافة التي زادوها على نبوأة «نوستر آداموس»، وهي أن أمريكا بعد هزيمة أوروبا على يد الإمام المهدي عليه السلام وتدمير صواريخه الضخمة لـ«واشنطن» وغيرها من المدن تتوصّل إلى اتّفاق مع روسيا لمواجهته، وتتمكنان بالنتيجة من تحقيق الانتصار عليه!

أما اليهود فإن المسألة عندهم تتمثل في أن يصعّدوا درجة مخاوف الشعوب الغربية من خطر البعث الإسلامي القادم في القريب العاجل والمنظور، مهما استطاعوا من جهد ليدفعوا به خطره عن أنفسهم في المقام الأول! ويقولون بذلك للغربيين: إنما المستهدف هو حضارتكم الغربية أساساً، وإنما إسرائيل ما هي إلا خطّ الدفاع الأول عنكم وعن مصالحكم في المنطقة عموماً[1].

فأعداؤنا إذن مضطرون، بحسب اعتقادهم، «للدعاية» للإمام المهدي عليه السلام... وصناعة الأفلام السينمائية عنه! وسوف يزداد اضطرارهم إلى ذلك لمواجهة هذا المدّ الإسلامي المتطلع إلى قائده الموعود والمنتظر، ومواجهته إذا ظهرت طلائعه الأولى. وهم بذلك يمهّدون له عليه السلام من «حيث لا يشعرون» برعبهم منه ويبعثون فينا التحفّز والشوق إلى حفيد النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله الطالع من عند الكعبة، ويبلغ المسلم غاية شوقه وتحفّزه عندما يرى في فيلم «نوستر آداموس» الإمام المهدي عليه السلام يدير معركته مع أئمة الكفر العالمي من غرفة عملياته مع كبار قادته، على حدّ تعبير الفيلم، فتنطلق صواريخه العملاقة من قلب صحراء الحجاز لتدك معاقل الكفر والاستعمار في أمريكا وأوروبا.

---

(١) انظر: عصر الظهور للعلامة علي الكوراني، بيروت، مقدمة الكتاب.

حاجة المسلمين إلى معرفة عقيدة الإمام المهدي عليه السلام

إن مخزون الشوق والحبّ والتقديس الذي يملكه الإمام المهدي عليه السلام في قلوب المسلمين جميعاً (سنة وشيعة) لا تملكه اليوم شخصية على وجه الأرض. وسوف تزداد هذه الشعبية والاهتمام بأمره، حتى ينجز اللّه تعالى وعده، ويظهر به دينه على الدين كله.

منذ سنوات عديدة ظهر كتاب «الممهّدون للمهدي» لمؤلفه العلامة الشيخ علي الكوراني، وكان محوره الأساسي الأحاديث النبوية، من طرق الصحابة (رض) في مصادر أهل السنة، ومن طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام من مصادر الشيعة الإمامية، عن الحركة الإسلامية العالمية الممهّدة لظهور الإمام الثاني عشر، الإمام المهدي عليه السلام، لا سيما أهل المشرق الإسلامي على يد الفرس (إيران حالياً) وقوم سلمان الفارسي وأهل خراسان، ودورهم في التمهيد للمهدي المنتظر (عجل اللّه فرجه الشريف)..

ولكن الجماهير المسلمة متعطّشة إلى حد كبير للتعرف إلى الإمام المهدي وعلاماته وعلامات ظهوره المبارك، وملامحه الأساسية وحركته العالمية المقدسة.. رغم أن كتاب «الممهدون» للعلامة علي الكوراني قد لاقى قبولاً كبيراً وطبع مراراً، ومع ذلك فإن جمهورنا المسلم يريد أن نقدم له صورة متكاملة وشاملة عن قضية الإمام المهدي بأسلوب سَلس مُيسر بعيد عن الاختصار المُخلّ، والتطويل المملّ.. وهي مسؤولية كبرى على عاتق العلماء الأفاضل، والباحثين الإسلاميين المدققين والمحققين من أهل السنة والشيعة الإمامية سواء بسواء، لتكون بين أيدي المسلمين تصورات متعددة عن المهدي عليه السلام، تتفاعل في أذهانهم ووجدانهم

وتتبلور مع تطور حركة الإسلام الدولية، وصحوته الكبرى[1].

وإلى جانب هذا النوع من الكتابة عن الإمام المهدي عليه السلام، فإننا بحاجة ماسّة إلى الدراسات والبحوث العلمية التحقيقية لأحاديثه وموضوعاته المتعددة، لا سيما وأن علامات ظهوره قد لاحت في الآفاق، ووضحت معالمها للعيان، واللّه نسأل أن يوفّقنا لإصدار سلسلة متصلة من الأبحاث الموضوعية المستفيضة في هذا الشأن..

* * *

(١) المصدر نفسه (بتصرف يسير).

الانتظار الموجّه

دراسة في علاقة الانتظار بالحركة وفي علاقتها به

الشيخ محمد مهدي الآصفي

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/١٠٥].

للانتظار علاقة عضوية وشيجة بالحركة، فهي من نتائجه، وهو من عواصمها. وسوف نبحث، إن شاء الله، أولاً، في علاقته بها، وثانياً في علاقتها به.

١- علاقة الانتظار بالحركة

التوجيه النفسي لمسألة الانتظار

يحبّ بعض الناس أن يصوّروا حالة «الانتظار» بأنها مسألة نفسية نابعة من حالة الحرمان في الطبقات المحرومة في المجتمع والتاريخ، وحالة الهروب من الواقع المثقل بالمتاعب إلى الاستغراق في تصوّر المستقبل الذي يتمكن فيه المحرومون من استعادة جميع حقوقهم واستعادة السيادة والحقوق المغتصبة، وهذا نوع من «أحلام اليقظة»، أو الهروب من الواقع إلى التخيّل.

مناقشة التوجيه المقدم

أقول: إنّ هذا التوجيه لمسألة الانتظار غير علمي بالتأكيد، إذا قدّر لنا أن ننظر في تاريخ المسألة والمساحة الواسعة التي تحتلّها من العقائد الدينية المعروفة في تاريخ الإنسان.

الانتظار في المدارس الفكرية (غير الدينية)

تتجاوز مسألة الانتظار الدائرة الدينية وتعمّ المذاهب والاتجاهات غير الدينية كالماركسية مثلاً، كما يقول برتراندراسل: «الانتظار لا يخصّ الأديان فحسب، بل المدارس والمذاهب أيضاً تنتظر ظهور منقذ ينشر العدل ويحقق العدالة».

والانتظار، كما يقول راسل، عند الماركسيين، هو الانتظار نفسه عند المسيحيين.

وللانتظار، عند «تولستوي» المعنى نفسه الموجود عند المسيحيين، إلاّ أن هذا الروائيّ الروسيّ يختلف عن المسيحيين في الزاوية التي يطرح منها المسألة.

الانتظار في الأديان السابقة على الإسلام

نقرأ، في العهد القديم من الكتاب المقدس: «لا تقلق لوجود الأشرار والظالمين فسوف تنقطع سلالة الظالمين، والمنتظرون لعدل اللّه يرثون الأرض والذين لعنوا يتفرقون، والصالحون من الناس هم الذين يرثون الأرض ويعيشون فيها إلى نهاية العالم»[1].

---

(١) الكتاب المقدس، سفر مزامير داود، مزمور ٣٧.

وهذه الحقيقة التي يقررها المزمور ٣٧، من كتاب المزامير، هي التي جاءت في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء/١٠٥].

الانتظار عند المسلمين (من أهل السنّة)

لا يختص انتظار «المهدي المُنقذ»عليه السلام، بالشيعة، فقد تواترت روايات المهدي(عج) من طرق السنة بأسانيد صحيحة ومستفيضة لا يمكن التشكيك فيها كما وردت من طرق الشيعة الإمامية.

يقول عبد الرحمن بن خلدون، من علماء القرن الثامن الهجري، وصاحب المقدّمة الشهيرة لكتاب «العبَر...»: «إعلم أن المشهور من الكافة، من أهل الإسلام، على مرّ الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيّد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، يستولي على الممالك الإسلامية ويسمّى ب«المهدي»، ويكون خروج الدجّال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأنّ عيسىعليه السلام ينزل من بعده فيقتل الدّجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدي في صلاته»[1].

ويقول الشيخ عبد المحسن العبّاد، المدرس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، في بحث قيّم له: «إثر حادث الحرم المؤلم حصلت بعض التساؤلات، فأوضح بعض العلماء، في الإذاعة والصحف، صحّة كثير من الأحاديث الواردة عن رسول اللهﷺ، ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، رئيس إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد كتب في

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣١١.

بعض الصحف مثبتاً ذلك بالأحاديث الصحيحه المستفيضة عن رسول اللهﷺ. ومنهم الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي».

ثم يذكر أنه كتب هذه الرسالة موضحاً أنّ القول بخروج المهدي آخر الزمان تدل عليه الروايات الصحيحة، وهو ما عليه العلماء من أهل السنة في القديم والحديث إلاّ ما شذّ(١).

ويقول ابن حجر الهيثمي، في الصواعق المحرقة، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا...﴾ [الزخرف/٦١] ، قال مقاتل ومن تبعه من المفسرين: إنّ هذه الآية نزلت في المهدي.

وستأتي الأحاديث المصرّحة بأنه من أهل البيت النبوي وحينئذ ففي الآية دلالة على البركة في نسل فاطمة وعلي رضي اللّه عنهما، وأنّ اللّه ليخرج منهما كثيراً طيباً، وأن يجعل نسلهما مفاتيح الحكمة، ومعادن الرحمة. وسرّ ذلك أن النبيﷺ أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، ودعا لعلي عليه السلام بمثل ذلك(٢).

ويقول الشيخ ناصر الدين الألباني من شيوخ الحديث المعاصرين في مجلة «التمدن الإسلامي»: «أما مسألة المهدي فليعلم أن في خروجه أحاديث كثيرة صحيحة. قسم كبير منها له أسانيد صحيحة وأنا مورد هنا أمثلة منها»، ثم يذكر طائفة من هذه الأحاديث.

أحاديث الإنتظار عند الشيعة الإمامية

---

(١) مجلّة الجامعة الإسلامية، العدد ٤٥.

(٢) ابن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة، ٢٤٠/١.

أما أحاديث انتظار الإمام المهدي ﷺ عند الشيعة الإمامية فهي كثيرة، متواترة، وردت طائفة منها بطرق صحيحة.

وقد جمع بعض العلماء هذه الأحاديث بمنهج علمي قيم، منهم: الشيخ لطف الله الصافي الكلبايكاني في كتابه القيم «منتخب الأثر»، ومنهم الشيخ علي الكوراني في موسوعة الإمام المهدي[1] وغيرهما.

ولسنا الآن بصدد استعراض هذه الروايات عن أي من الطريقين.

فليس موضوع دراستنا هذه دراسة الأحاديث الواردة في الإمام المهدي ﷺ ومناقشة هذه الروايات من حيث السند والدلالة، وإنما نطلب في هذه الدراسة أمراً آخر نسأله تعالى أن يوفقنا له، ونترك مسألة الأحاديث الواردة في الإمام المهدي إلى مجالها المخصص من كتب الحديث. والمسألة التي نريد أن نتحدّث عنها، هنا، إن شاء الله هي:

ما هو الانتظار؟ وما قيمته الحضاريّة؟

الإنتظار مفهوم إسلامي وقيمة حضارية

وعلى هذا المفهوم يترتب سلوك حضاري معين، فقد يفهم الناس الانتظار بطريقة سلبية يتحول فيها هذا المفهوم إلى عامل للتخدير والإعاقة عن الحركة.

وقد يفهم بطريقة إيجابية تجعل منه عاملاً من عوامل التحريك والبعث والإثارة في حياة الناس.

---

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي، تأليف الهيئة العلمية في مؤسسة المعارف الإسلاميّة إشراف الشيخ علي الكوراني، نشر مؤسسة المعارف الإسلاميّة، ط١، ١٤١١هـ قم: مطبعة بهمن.

إذن لا بد لنا من أن نقدم تصوراً دقيقاً لمسألة الانتظار، وهـذه هـي مهمتنا الأساسية في هذه الدراسة.

الانتظار ثقافة ومفهوم حضاري يدخل في تكوين عقليتنا وأسـلوب تفكيرنا ومنهج حياتنا ورؤيتنا إلى المستقبل، وبشكل فاعـل ومـؤثر، ولـه تأثير في رسم الخط السياسي الذي نرسمه لحاضرنا ومستقبلنا.

وللانتظار عُمق حضاري في حياتنا يقرب من ألـف وتـسعين سـنة لأن الغيبة الصغرى انتهت سنة ٣٢٩هـ وقد مرّ علـى هـذا التـاريخ ألـف وتسعون سنة تقريباً..

وخلال هذا التاريخ دخلت هذه المسألة في صياغة عقليتنا السياسية والحركية بشكل مؤثر. ولو قمنا نظريّاً بعمليّة تجريـد لتاريخنـا الـسياسي والحركي عن عامل «الانتظار» لكان لهذا التاريخ الطويل شأن آخر.

والذي يقرأ «دعاء الندبة» الذي يدأب عليه المؤمنـون أيـام الجمعـة يعـرف عمـق هـذه المـسألة ونفوذهـا فـي نفـوس المـؤمنين وعقليـتهم ومنهجهم في التفكير والحركة.

أنحاء الانتظار

يكون انتظار الإنقاذ على نحوين:

النحو الأول من الانتظار

انتظار الإنقاذ في ما ليس بوسع الإنسان أن يقدّمه أو يؤخّره، كما لو كان الغريق ينتظر وصول فريق الإنقاذ إليه من الساحل ويراهم مقبلين إليه لإنقاذه. فإنّه من المؤكد أن الغريق لا يستطيع أن يقدّم وصول فريق الإنقاذ إليه، إلاّ أنّه من المؤكد أيضاً أنّ هذا الانتظار يبعث في الغريق نفسه أمـلاً

قوياً في النجاة ويدخل نور الأمل على ظلمات اليأس التي تحيط بـه مـن كل جانب.

و«الأمل» يمـنح الإنـسان «المقاومـة» بالـضرورة، فيواصـل الغريـق المقاومة حتى يصل فريق الإنقاذ إليه. وعجيب أمر هذا الإنسان إذا انهـار، وإذا قاوم.. فإذا انهار لا يتمكن أحد من أن يثبته أو يبني ويعيد مـا ينهـار منه. وقد يكون هذا الـذي ينهـار كيـان سياسـي ضـخم، ولـيس فـرداً أو جماعة. وكلنا قد شاهد في وقت قريب انهيـار الاتحـاد الـسوفيتي، ثـاني أعظم كيانين سياسيين في العالم، إن لم يكن الأول المكرر منهما.

وإذا قاوم الإنسان ورزقه اللّه القدرة علـى المقاومـة والـصمود فـلا يفتّ شيء في مقاومته وصموده ولا يضعف شيء ثباته ومقاومتـه. ومـن عجب أن يتحول هذا الإنسان الكائن من لحم ودم وأعـصاب إلـى كتلـة مرصوصة وقوية يتحمل من العذاب ما يتفتّـت منـه صـلب الحديـد. ولا شك في أن هذه المقاومة من اللّه تعـالى، ولا شـكّ فـي أن «الأمـل» مـن أسباب هذه المقاومة، وهاتان معادلتان لا سبيل للتشكيك فيهما:

المعادلة الأُولى:

إنّ «الانتظار» يبعث على «الأمـل»، ويختـرق ظلمـات اليـأس التـي تكتنف حياة الإنسان.

المعادلة الثانية:

إنّ «الأمل» يمنح الإنسان «المقاومة».

النحو الثاني من الانتظار

وهو ما يستطيع الإنسان أن يقرّبه ويدّعي به، كالشفاء مـن المـرض

وإنجاز مشروع عمراني أو علمي أو تجاري والانتصار على العدو والتخلص من الفقر، فإن كل ذلك من الانتظار، وأمر تعجيل هذه الأمور أو تأخيرها وتأجيلها بيد الإنسان نفسه.

فمن الممكن أن يعجل بالشفاء ومن الممكن أن يؤخّره أو ينفيه، ومن الممكن أن يعجّل بالمشروع التجاري أو العمراني أو العلمي أو يؤخّره، أو يلغيه رأساً. ومن الممكن أن يعجل بالنصر والغنى أو يؤخرهما أو ينفيهما رأساً.

وبهذا التقرير يختلف أمر هذا الانتظار عن النحو الأول الذي تحدّثنا عنه، فإن بإمكان الإنسان أن يتدخّل في تحقيق ما ينتظره والإسراع به أو تأجيله أو إلغائه.

ولذلك فإن الانتظار من النوع الثاني يمنح الإنسان بالإضافة إلى «الأمل» و«المقاومة»: «الحركة». وهذه الأخيرة، أعني «الحركة»، تخصّ هذا النحو من الانتظار، فإن الإنسان إذا عرف أن نجاته وخلاصه يتوقفان على حركته وعمله وجهده سوف يبذل لخلاصه ونجاته في عمله من الجهد والحركة ما لا قبل له به من قبل.

ففي الانتظار، من النحو الأول، لم يكن بإمكان الإنسان غير «الأمل» و«المقاومة». أمّا الانتظار الأخير فهو يمنح الإنسان بالإضافة إلى «الأمل» وف«المقاومة» «الحركة» أيضاً:

١ أمل في النفس يمكّن الإنسان من اختراق الحاضر ورؤية المستقبل، وشتّان بين من يرى «اللّه» و«الكون» و«الإنسان» من خلال معاناة الحاضر فقط وبين من يرى ذلك كلّه من خلال الحاضر والماضي والمستقبل. ولا شك في أن هذه الرؤية تختلف عن تلك ولا شك في أن

العتمة والظلمة والسلبية التي تكتنف الرؤية الأولى تسلم منها الرؤية الثانية.

٢- ومقاومة تمكن الإنسان من مواصلة الصمود ومقاومة الانهيار والسقوط حتى وصول المدد، وما لم يكن للإنسان أمل في وصول المدد فإنّه لا يقاوم.

٣- وحركة تمكن الإنسان من تحقيق الخلاص والنجاة وتحقيق القوة والغنى والكفاءة. وهذا الانتظار هو «الانتظار الحركي»، وهو أفضل أنواع الانتظار، والانتظار الذي نحن بصدد دراسته من هذا النوع الأخير.

آليّة التغيير

وهذا الانتظار يشبه توقّع الناس من اللّه أن يغيّر أمورهم من السيّء إلى الحسن، ومن الفقر إلى الغنى، ومن العجز إلى الكفاءة، ومن الهزيمة إلى النصر. ولا شك في أنه توقّع صحيح وعقلاني، فإن الإنسان ركام من الضعف والعجز والفقر والجهل والسوء.

واللّه تعالى هو المؤمّل ليغير ذلك كلّه ويحوّله إلى القوة والكفاءة والغنى والعلم والحسن. وليس من بأسٍ على الإنسان من هذا التوقع والانتظار من اللّه تعالى ولكن بشرط أنْ يسلك الإنسان لتحقيق هذا الانتظار الآلية المعقولة التي دعا إليها اللّه تعالى لهذا التغيير، فإنّ هذا التغيير من جانب اللّه تعالى لا شك في ذلك، ولكن ضمن آلية معينة، وما لم يستخدم الإنسان هذه الآلية، فلا يصحّ له أن يتوقع أو ينتظر هذا التغيير من جانب اللّه. وهذه الآلية هي أنْ يبدأ الإنسان بتغيير ما بنفسه حتى يغير اللّه تعالى ما به.

إن ما بنا من التخلّف الاقتصادي والهزيمة العسكرية والتخلّف العلمي وسوء الإدارة... ناشىء عمّا بأنفسنا من الإشكالية والضعف والكسل واليأس، وفقدان الجرأة والشجاعة والجهل...

فإذا غيّرنا «ما بأنفسنا» غيّر اللّه تعالى ما بنا من دون شك. وليس من شك في أن اللّه تعالى هو وحده الذي يغير ما بنا.

كما ليس من شك في أننا لو لم نغيّر ما بأنفسنا لا يغير اللّه ما بنا إلاّ إن شاء اللّه، وهاتان حقيقتان تأبيان النقاش والتشكيك. وانتظار التغيير من اللّه تعالى حق ليس فيه شك، ولكن على أن يقترن هذا الانتظار بالحركة والفعل من ناحية الإنسان، وهذا هو الانتظار الحركي في توضيح ثانٍ.

الانتظار «حركة» وليس «رصداً»

إن من الخطأ أن نفهم الانتظار على أنّه رصد سلبي للأحداث المتوقّعة من دون أن يكون لنا دور فيه سلباً أو إيجاباً كما نرصد خسوف القمر وكسوف الشمس، فالتفسير الصحيح للانتظار أنه «حركة» و«فعل» وف«جهد» و«عمل»، وسوف ندخل إن شاء اللّه في تفاصيل هذا البحث.

ما هو السبب في تأخير(الفرج)؟

على الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال يتوقف فهم المعنى الصحيح للانتظار، وهل هو بمعنى «الرصد» أو «الحركة»؟

الرأي الأول:

فإذا كان السبب في تأخير الفرج بظهور الإمام (عجل اللّه فرجه) وثورته الكونية الشاملة هو أن تمتلىء الأرض ظلماً وجوراً، فلا بدّ من أن

يكون الانتظار بمعنى «الرصد»، فلا يجوز لنا أن نوسّع رقعة الظلم والجور في الأرض، ببداهة الإسلام.

ولا يصح لنا أن نكافح الظلم والجور لأن ذلك يؤدي إلى إطالة زمن الغيبة، بموجب هذه الرواية.. فلا بد من أن نرصد إذن تطور الظلم والجور في حياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية، حتى إذا امتلأت الأرض ظلماً وجوراً ظهر الإمامعليه السلام، وأعلن الثورة ضد الظالمين والفرج عن المظلومين.

الرأي الثاني:

وإذا كان السبب في تأخير الفرج هو عدم وجود الأنصار الذين يعدون المجتمع لظهور الإمام والذين يوطئون الأرض ويمهّدونها لثورته الشاملة، ويدعمون ثورة الإمام ويسندونها، فإنّ الأمر يختلف. فلا بدّ من العمل والإعداد والتوطئة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة سلطان الحق على وجه الأرض ليأتي الفرج بظهور الإمام (عجل اللّه فرجه). وبناءً عليه لا يكون الانتظار بمعنى «الرصد»، بل بمعنى «الحركة»، والعمل، والجهاد لإقامة سلطان الحق على وجه الأرض؛ الأمر الذي يقتضي إعداداً يوطىء الأرض لظهور الإمام وثورته الشاملة.

ويختلف معنى الانتظار سلباً وإيجاباً بين «الرصد» و«الحركة» بناء على هذا الفهم لظهور الإمامعليه السلام وظهور الفرج على يده. ونحن نناقش الآن هذه المسألة لنصل إلى الجواب الصحيح.

نقد الرأي الأول

لنا مجموعة ملاحظات على الرأي الأول، وهي:

١- ليس معنى أن تمتلى الأرض ظلماً وجوراً هو أن يجف نبع التوحيد والعدل على وجه الأرض، ولا تبقى رقعة يعبد الناس عليها اللّه تعالى، فهذا أمر مستحيل وعلى خلاف سنن اللّه تعالى.. وإنما المقصود بهذه الكلمة طغيان سلطان الباطل على الحق في الصراع القائم بين الحق والباطل دائماً.

٢- ولا يمكن أن يزيد طغيان سلطان الباطل على الحق أكثر مما هو عليه الآن. فقد طغى الظلم على وجه الأرض شر طغيان، وإنّ الذي يجري في بلاد البلقان على مسلمي البوسنة والهرسك بأيدي الصرب أمرٌ يقلّ نظيره في تاريخ الظلم والإرهاب، ولطالما شقّ الصرب بطون النساء الحوامل، وأخرجوا من أرحامهن الأجنة، وقتلوا الأطفال الصغار، وقطعوا رؤوسهم، ولعبوا بها «لعبة الكرة» أمام أعين آبائهم وأُمّهاتهم.

وفي الشّيشان يذبح الروس أطفالَ المسلمين، ويقدمون لحومهم طعاماً للخنازير. والظلم الذي مارسه الشيوعيون على مسلمي بلاد آسيا الوسطى إبان الحكم الشيوعي أمرٌ تقشعر له الجلود. وما يجري على المسلمين في سجون إسرائيل من العذاب الوحشيّ أمرٌ فوق حدود التعبير. وفوق ذلك كلّه وأعظم منه، ما جرى ويجري في العراق من ظلم وتصفية وإبادة وتعذيب واضطهاد للمؤمنين على يد جلاوزة البعث من فئة صدام، مما لا يقوى على وصفه التعبير.

.. أقول إن الذي يجري من الظلم في أقطار العالم الإسلامي على المسلمين، في كل مكان تقريباً، أمر رهيب يدلّ على شيء أكثر من الظلم والجور ومن «امتلاء الأرض ظلماً وجوراً»، إنه يدلّ، ومن دون مؤاخذة، على نضوب نبع الضمير في الأسرة الدولية المعاصرة وفي الحضارة البشرية المادية المعاصرة.

ونضوب الضمير مؤشر خطر في تاريخ الإنسان يعقبه دائماً السقوط الحضاري الذي يعبر عنه القرآن بـ «هلاك الأمم».

و«الضمير» حاجة أساسية ورئيسية للإنسان، وكما لا يمكن أن يعيش من دون «الأمن»، ومن دون «الطب والعلاج»، ومن دون «الغذاء»، ومن دون «النظام السياسي»، ومن دون «العلم»، كذلك لا يمكن أن يعيش من دون الضمير، ومتى آل أمر هذا النبع إلى النضوب، فإنّ السقوط الحضاري هو النتيجة الطبيعية لهذه الحالة، وبعد السقوط يأتي قانون «الاستبدال» و«التبديل» و«الإرث»، وهذه هي حالة قيام ثورة الإمام عليه السلام الكونية وقيام الدولة العالمية الشاملة.

٣- وقد كانت غيبة الإمام عليه السلام بسبب طغيان الشر والفساد والظلم، ولولا ذلك لم يغب، فكيف يكون طغيان الفساد والظلم سبباً لظهور الإمام عليه السلام وخروجه؟

٤- وبعكس ما يتوقعه بعض الناس يتجه العالم اليوم باتجاه سقوط المؤسسات السياسية والعسكرية والاقتصادية الظالمة. فقد شاهدنا بأعيننا كيف سقط الاتحاد السوفيتي خلال بضعة أشهر، وكان مثله مثل بناء خاوٍ، منخور من الداخل لم يتمكن أحد من دعمه وإسناده عند سقوطه.

ورياح التغيير اليوم تهب على أمريكا وتعرّضها لهزات عنيفة وقوية في اقتصادها وأمنها وأخلاقها ومصداقيتها، بوصفها دولةً كبرى.

إن النظام الجاهلي اليوم آخذ بالعدّ العكسي مؤذناً بالسقوط والانهيار، فكيف نتوقع أن يزداد هذا النظام قوّة وشراسة وضراوة؟

٥- على أن الذي يوجد في نصوص الغيبة: «يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» وليس «بعد أن ملئت ظلماً وجوراً».

وليس معنى ذلك أن الإمام ينتظر أن يطغى الفساد والظلم أكثر مما ظهر إلى اليوم ليظهر، وإنما معنى النص أن الإمام عليه السلام إذا ظهر يملأ الأرض عدلاً، ويكافح الظلم والفساد في المجتمع، حتى يطهّر المجتمع البشري منه كما امتلأ المجتمع البشري بالظلم والفساد من قبل.

روى الأعمش، عن أبي وائل، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في المهدي عليه السلام: «يخرج على حين غفلة من الناس وإماتة من الحق وإظهار من الجور، يفرح لخروجه أهلُ السماء وسكانها، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[(١)] وفي رواية أخرى: «يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً» أو «بعدما ملئت ظلماً وجوراً»[(٢)].

وفي رأيي أن معنى جملة «تُملأ الأرض ظلماً وجوراً» أن يكثر الظلم والجور حتى يضج الناس منه، ويفقد الظلم غطاءه الاعلامي الذي يخرجه للناس إخراجاً حسناً، فيبرز للناس في صورته الحقيقية، وتفشل هذه الأنظمة في تحقيق ما تعد الناس به من خير، ويبدأ الناس بعد هذا الإحباط الواسع بالبحث عن النظام الإلهي الذي ينقذهم من هذه الإحباطات، وعن القائد الرباني الذي يأخذ بأيديهم إلى اللّه تعالى. وقد بدأت تتعاقب الإحباطات المتوالية في حياة الناس واحدة بعد أخرى، وكان أعظم هذه الإحباطات سقوط الاتحاد السوفيتي والهزات العنيفة التي تعرضت لها أمريكا في السنوات الأخيرة، وكل واحد من هذه الإحباطات يوجه الناس إلى النظام الإلهي والقائد الربّاني المنقذ.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي، ١٢٠/٥١.

(٢) منتخب الأثر، ص ١٦٢.

هذا، على نحو الإجمال نقد الرأي الأول في أسباب تأخير الفرج. والآن نبحث في الرأي الثاني.

الرأي الثاني في أسباب تأخير الفرج

يعتمد الرأي الثاني، في فهم أسباب تأخير الفرج وتأخير ظهور الإمام، الأسباب الموضوعية، وفي مقدمتها عدم وجود العدد الكافي من الأنصار من الناحية الكمية وعدم وجود الكيفية المطلوبة في أنصار الإمام وشيعته من الناحية الكيفية. إن الثورة التي يقودها الإمام ثورة كونية شاملة، يتولى فيها المستضعفون والمحرومون الإمامة والقيمومة على المجتمع البشري ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص/٥]. يرثُ المستضعفون المؤمنون، في هذه المرحلة، ما كان يتداوله الطغاة في ما بينهم من السلطان والمال ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ويتم لهم السلطان على وجه الأرض ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ويطهّر الإمام في هذه المرحلة الأرض كلّها من لوثة الشرك والظلم «يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»، ولا يبقى، كما في طائفة من الروايات، في المشارق والمغارب، أرض لا يؤدّى فيها لا إله إلاّ اللّه.

ومحور هذه الثورة الشاملة «التوحيد» و«العدل». ومثل هذه الثورة لا بد لها من إعداد واسع، وتوطئة على مستوى عال من الناحيتين الكمية والكيفية، ومن دون هذا الإعداد، وهذه التوطئة لا يمكن أن تتم هذه الثورة الشاملة، في سنن اللّه تعالى في التاريخ.

دور السّنن الإلهية والإمداد الغيبي في الثورة

لا تتم الثورة، في مواجهة العتاة والطغاة والأنظمة والمؤسسات الجاهلية الحاكمة والمتسلطة على رقاب الناس، من دون إمداد غيبي وإسناد وتأييد من جانب اللّه بالتأكيد. والنصوص الإسلامية تؤكّد وجود هذا الإمداد الإلهي وتصف كيفيته.

إلاّ أن هذا المدد الإلهي أحد طرفي هذه القضية والطرف الآخر هو دور السنن الإلهية في التاريخ والمجتمع في تحقيق هذه الثورة الكونية وتطويرها وإكمالها. فإن هذه السنن لا تتبدل ولا تتغيّر ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً**﴾ [الأحزاب/٦٢]، ولا تعارض المدَدَ والإسناد الإلهيين. وشأن هذه الثورة شأن دعوة رسول اللّهﷺ إلى التوحيد، والحركة التي نهض بهاﷺ لتحقيق التوحيد في حياة الناس. فقد كانت هذه الحركة موضع الإمداد الإلهي الغيبي بالتأكيد، ونَصَرَ اللّه تعالى رسولهﷺ بالملائكة المسوّمين والمردفين والرياح وجند لم يروهم، ونَصَرهُ على أعدائه بالرعب، ولكن اللّه تعالى أمَرَ رسولهﷺ بأن يعد العدة لهذه المعركة المصيرية ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال/٦٠].

وتمّت مراحل هذه المعركة بموجب سنن اللّه تعالى في التاريخ والمجتمع، ينتصر فيها رسول اللّهﷺ على أعدائه حيناً وينتكس حيناً آخر، ويستخدم الجند والمال والسلاح في هذه المعركة، ويخطط لها، ويفاجىء العدوّ بوسائل وأساليب جديدة للقتال، ويفاجئه في الزمان والمكان، ولا يعارض شيء من ذلك الإعداد الغيبي الإلهي لرسولهﷺ الذي لا نشك فيه، وهما وجهان لقضية واحدة.

ولا تشذ الثورة الكونية التي يقودها حفيده عن الدعوة والثورة التي قادها هوﷺ، من قبل، بأمر من اللّه تعالى.

ومن جملة هذه السنن التي لا بدّ منها، في هذه الثورة الكونية، «الإعداد» و«التوطئة» قبل ظهور الإمام و«النصرة» و«الأنصار» حين ظهور الإمامعليه السلام، ومن دون هذا الإعداد والنصرة والتوطئة لا يمكن أن تتم ثورة بهذا الحجم الكبير في تاريخ الإنسان.

ونحن، في ما يلي، نستعرض طائفتين من النصوص تختصّ أولاهما بـ«الإعداد والتّوطئة» والأخرى بـ«الأنصار والنصرة» لنتأمل فيهما إن شاء اللّه.

والطائفة الأولى من النصوص هي النصوص المتعلقة بـ«الموطّئين»، وهم الجيل الذي يعدّ الأرض والمجتمع لظهور الإمامعجل الله فرجه، وثورته الكونية الشاملة. وهذا الجيل بطبيعته يسبق ظهور الإمامعليه السلام، والطائفة الثانية من النصوص تخص «الأنصار»، وهم الجيل الذي ينهض بهم الإمامعليه السلام. ويقود بهم الثورة على الظالمين. إذن نحن بين يديّ جيلين:

١- جيل «الموطّئين» الذي يمهّدون الأرض لظهور الإمام.

٢- جيل «الأنصار» الذين ينهض بهم الإمامعليه السلام، ويثور بهم على الظالمين. وفي ما يلي نستعرض، إن شاء اللّه، هاتين الطائفتين من النصوص.

جيل «الموطّئين» في النصوص الإسلامية

تضافرت طائفة من النصوص الإسلامية، من الفريقين (الشيعة والسنة)، عن جيل الموطئين الذين يوطئون الأرض لدولة الإمام المهديعجل الله فرجه، وقد حددت هذه النصوص عدداً من الأقاليم الإسلامية

المعروفة لهذا الجيل، وأهم هذه الأقاليم التي تخصّ جيل الموطئين هي: المشرق وخراسان (ويظهر أن المشرق هو خراسان) وقم، وري، واليمن، وفي ما يلي النصوص التي تخص جيل الموطئين في هذه الأقاليم:

١- الموطئون في المشرق:

روى الحاكم، في مستدرك الصحيحين، عن عبداللّه بن مسعود، قال: أتانا رسول اللّهﷺ فخرج إلينا مستبشراً يُعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به ولا سكتنا إلاّ ابتدأنا حتى مرّ فتيةٌ من بني هاشم منهم الحسن والحسين، فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه، فقلنا: يا رسول اللّه، ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه؟

فقال: «إنّا أهل بيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتى ترتفع رايات سودٌ في المشرق، فيسألون الحق لا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون.

فمن أدركه منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي، ولو حبواً على الثلج فإنها رايات هدى، يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي»[(١)].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كأني بقومٍ قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يُعطونه ثم يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما شاءوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلاّ إلى صاحبكم (أي الإمام المهدي عليه السلام) قتلاهم شهداء»[(٢)].

---

(١) مستدرك الصّحيحين للحاكم النيشابوري، ٤، ٤٦٤، ٥٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ٢٤٣./٥٢ والسيوف، في هذا الحديث، تعني السّلاح.

٢- الموطئون من خراسان:

عن محمد بن الحنفية، والرواية موضوعة، ولكن يبدو أنها عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام: «ثم تخرج راية من خراسان يهزمون أصحاب السفياني حتى تنزل ببيت المقدس توطيء للمهدي سلطانه»[(١)].

٣- الموطّئون من «قم» و«ري»:

روى المجلسي في بحار الأنوار: «رجل من قم يدعو الناس إلى الحق يجتمع معه قوم قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلّهم الرياح العواصف، لا يملّون من الحرب ولا يجبنون وعلى اللّه يتوكلون والعاقبة للمتقين»[(٢)].

٤- الموطئون من اليمن:

عن الإمام الباقرعليه السلام في قيادة اليماني قبل ظهور الإمام: «وليس في الرايات أهدى من راية اليماني، هي راية هدى لأنّه يدعو إلى صاحبكم»[(٣)].

الدلالات

١- الجيل الصلب:

وأوّل ما يلفت النظر في هذا الجيل هو الصّلابة والقوة والاستحكام، فهو جيل صعب، شديد المراس، يوطيء الأرض لظهور الإمام، ويواجه وحده طواغيت الأرض. والإمام الصادقعليه السلام يفسر، كما في رواية محمد

(١) عصر الظهور، ص ٢٠٦.

(٢) بحار الأنوار، ٢١٦/٦٠.

(٣) م.ن.، ٢٣٢/٥٢.

بن يعقوب الكليني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء/٥] بهذا الجيل، وتصفهم الرواية بهذا الوصف العجيب: قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، إنها قلوب ومن طبيعة القلوب اللين والرقة، ولكنّ هذه القلوب تتحول في مواجهة الطغاة والعتاة إلى زبر من الحديد لا تلين ولا ترق. إن الصّلابة والقوة من خصائص الأجيال التي يحمّلها اللّه تعالى مسؤولية التغيير، والثورة، ومن خصائص الأجيال التي يضعها اللّه تعالى في منعطفات التاريخ الكبرى لنقل الناس من مرحلة إلى مرحلة، وهذا الجيل يحمل هذه الخصائص.

٢- جيل التحدّي والتمرّد:

ومهمة هذا الجيل هي تحدّي «النظام العالمي» والتمرّد عليه، وما أدراك ما النظام العالمي وكيف صمّم على خدمة القوى الكبرى ومن دار في فلكها والاحتفاظ بمراكز القوة والمواقع الاستراتيجية لها في مختلف مناطق الأرض. إنّها مسؤولية شاقة وعسيرة ودقيقة يتعهد بها هذا النظام على مستوى العالم كلّه، وليس على مستوى منطقه أو إقليم من الأرض فحسب.

إنّ هذا النظام يتكون من مجموعة من المعادلات والموازنات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاعلامية الدقيقة، ومن أنظمة أعضاء الأسرة الدولية ومن مجموعة من الخطوط الحمراء والخضراء والصفراء فيما بين هذه الأنظمة وهذه المجموعة من الاتفاقات والتنازلات وتنظيم الأدوار واقتسام الموارد والأسواق ومصادر الثروة ومناطق النفوذ، أقول: إنّ هذه المجموعة المعقدة تمكّن القوى الكبرى من السيطرة على الوضع

العالمي، كما تمكّن العتلة الصغيرة (العصا الضخمة من حديد تستخدم في أعمال الهدم والحمل)، أي الإنسان، من حمل الأثقال الكبيرة بحركة خفيفة. ولذلك فإن النظام العالمي قبل سقوط الاتحاد السوفيتي، وبعد ذلك، يبقى أمراً يحترمه الجميع، لأن هؤلاء يستفيدون منه كلٌ بمقدار حجمه وقوته.. وهؤلاء الشباب من جيل الموطئين يخترقون ببساطة ومن دون تردد هذه الخطوط الحمراء، ويغيّرون هذه المعادلات والموازنات التي يتفاهم عليها الجميع ويتلقونها بالقبول والاحترام، ويفسدون على هذه الأنظمة والمؤسسات الدولية استقرارها وتوازنها وهيبتها الدولية. ولا سبيل لها على هؤلاء الشباب، ولا تستطيع أن تتحملهم ولا تتمكن من أن تدفعهم. فإن أكثر قوة هذه الأنظمة وهيبتها الدولية في مواجهة أنظمة ومؤسسات من مثلها، وأقوى ما تملك من السلاح هو القتل والسجن والتعذيب والمطاردة.

وهؤلاء لا يخافون شيئاً من ذلك ولا يرهبهم شيء من ذلك.

والوصف الموجود في الرواية دقيق. في وصف هذا الجيل: «لا تزلهم الرياح العواصف، لا يملّون من الحرب ولا يجبنون وعلى اللّه يتوكلون والعاقبة للمتقين». إن الذي لا يجبن لا يمل الحرب ولا تزله الرياح العواصف بطبيعة الحال، وقوة هؤلاء وميزتهم أنهم لا يجبنون، وهذه هي مشكلتهم في حساب الأنظمة والقوى الكبرى.

في موسم الانتخابات العامة للرئاسة الأمريكية، في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق، جرى حوار تلفزيوني ضمن النشاط الاعلامي الذي يقوم به عادة المرشحون للرئاسة الأمريكية، بين الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر والمرشح الآخر المنافس له على الرئاسة، فقال له هذا الأخير: إنّ

أمريكا خسرت الكثير من هيبتها الدولية في حادث تفجير مقر القوات البحرية الأمريكية في بيروت (المارينز) وتتحمل أنت مخاطباً الرئيس الأمريكي مباشرة مسؤولية هذه الخسارة بالكامل، فقال له الرئيس الأمريكي بالحرف الواحد: وماذا تراني قادراً أن أفعل في مواجهة إنسان جاء هو ليطلب الموت!؟ إن أقصى ما نتمكن منه هو أن نردع الناس بالرّعب والإرهاب من أمثال ذلك، فإذا كان الذي يقوم على هذا التفجير هو من يطلب الموت ويلقي بنفسه على الموت فماذا تراني قادراً أنْ أفعل في ردعه؟ وماذا كنت تفعل أنت لو كنت في مثل موقعي في هذا الظرف!؟.

هذه هي بعض ملامح جيل التحدي الذي برز في مواجهة الأنظمة والقوى الكبرى في العراق وإيران وأفغانستان ولبنان وفلسطين والجزائر ومصر والسودان، وأخيراً في الشيشان والبوسنة والهرسك.

عجيب أمر هذا الجيل، يسبّ جلاديه ويشتمهم، وهو في قبضتهم وتحت سلطانهم وسياطهم، يصبون عليه العذاب صبّاً فلا ينثني أبناؤه، ولا يلينون ولا يئنون ولا يصرخون. وإن أحدهم ليقول لجلاديه، وهم يعذبونه بما لا يعلم إلاّ اللّه من فنون التعذيب: سوف أُبقي في نفسك حسرة أن تسمع مني صرخة تألّم أو أنين أو توجع.

٣- ردود الفعل العالمية:

وردود الفعل العالمية تجاه هذا الجيل، كما تصرّح به هذه النصوص، ردود فعل غاضبة وساخطة، لأن هذا الجيل يعرّض هذه المعادلات والموازنات لهزات عنيفة وحقيقية، ولذلك فإن ردود الفعل العالمية تجاهه تتسم بالغضب والسخط دائماً.

روي عن أبان بن تغلب عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا ظهرت راية الحق لعنها أهل الشرق وأهل الغرب. أتدري لم ذلك؟ قلت: لا. قال: للذي يلقى الناس من أهل بيته قبل ظهوره»(١).

وأهل بيته قبل ظهوره، عادة، هم الموطئون الذين يُثيرون المتاعب لهذه الأنظمة والمؤسسات ويسلبون استقرارها وراحتها.

وروى ثقة الإسلام الكليني في الكافي (كتاب الروضة) في تفسير قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قوم يبعثهم اللّه قبل خروج القائم فلا يدعون واتراً لآل محمد، إلاّ قتلوه.

وردود الأفعال العالمية، المذكورة في هذه النصوص، تشبه إلى حد كبير ردود الأفعال العالمية اليوم تجاه الصحوة الإسلامية التي يسمونها بـ«الأصولية الإسلامية»، وينعتونها بالإرهاب وبأقسى النعوت.

مشروع التوطئة

توطئة الأرض لثورة الإمام (عجل اللّه فرجه) مهمة واسعة وكبيرة، ومعقدة ينهض بها هذا الجيل في مواجهة عتاة الأرض وطغاتها المستكبرين وأئمة الكفر.. وهؤلاء العتاة يعدّون جميعاً جبهة سياسية عريضة، رغم كلّ التناقضات القائمة في ما بينهم، وهي جبهة تملك الكثير من أسباب القوة من المال والسلطان السياسي والجيش والاعلام والعلاقات والنظم، وتستخدم جميع هذه الأسباب في ضرب الصحوة الإسلامية الناشئة وإجهاضها. ولا بد لهذا الجيل الذي ينهض بمشروع

---

(١) م.ن.، ٦٣/٥٢.

إعداد الأرض لظهور الإمام من أن يواجه هذه القوة بالآليّة نفسها التي تستخدمها جبهة الاستكبار العالمية وتزيد عليها بالتربية الإيمانية والجهادية والتوعية السياسية. وعليه فإنّ مشروع التوطئة الذي ينهض به جيل الموطئين يتكون من بُعدَين:

البُعد الأول:

التربية الإيمانيّة والجهادية والتوعية السياسية، وهذا ما تفقده الجبهة المقابلة.

البُعد الثاني:

الآلية السياسية والعسكرية والاقتصادية والإدارية والاعلامية التي لا بد منها في مثل هذه المعركة.

وليس من شك في أنّ الفئة المؤمنة التي تعدّ الأرض لظهور الإمام لابدّ لها من إعداد هذه القوة، وإن كانت لا تستطيع أن تكافىء الجبهة العالمية المضادة. وهذه الآلية السياسية والعسكرية والاقتصادية والاعلامية لا تتحقق من غير وجود نظام سياسي ودولة على وجه الأرض. وهذه هي دولة الموطئين التي وردت الروايات بالتبشير بها كثيراً. ولا بدّ ليقرب ظهور الإمام من تحقيق هذه القوة على وجه الأرض، ومن دون ذلك لا تتهيأ الأسباب الطبيعية لظهور الإمام.. والإعداد لهذه القوة يحتاج إلى عمل وحركة في واقع الحياة ولا يغني «الرصد» و«الانتظار» عنها شيئاً.

جيل الأنصار في الروايات الإسلامية

جيل الموطئين يسبق جيل الأنصار، وأفراد هذا الجيل هم تلامذة الجيل الذي يسبقهم، ويتميزون منه بمزايا وقيم يتفرّدون بها. ونحن

سوف نستعرض النصوص الواردة في نموذج واحد فقط من هذا الجيل، وهو شباب «الطالقان»، وهذه الروايات وردت بأسانيد الفريقين: السنة والشيعة وطرقهم.

شباب الطالقان:

وسوف نستعرض الروايات التي رواها المحدثون، من السنة والشيعة، والمتعلّقة بـ «شباب الطالقان».

روى المتقي الهندي في «كنز العمال» والسيوطي في «الحاوي» في أنصار الإمام من «الطالقان»: «ويحاً للطالقان، فإنّ للّه عزّ وجل بها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة، ولكن بها رجال عرفوا اللّه حق معرفته وهم أنصار المهدي»[1]. وفي «ينابيع المودة» للقندوزي: «بخ بخ للطالقان»[2]. روى المجلسي في بحار الأنوار: «له كنز بالطالقان ما هو بذهب ولا فضة، وراية لم تنشر مُذ طويت، ورجال كأن قلوبهم زبر الحديد لا يشوبها شكّ في ذات اللّه أشدّ من الجمر، لو حُملوا على الجبال لأزالوها. لا يقصدون براياتهم بلدة إلاّ خربوها كأنّ على خيولهم العقبان، يتمسحون بسرج الإمام يطلبون بذلك البركة، ويحفون به ويقونه بأنفسهم في الحروب. يبيتون قياماً على أطرافهم ويصبحون على خيولهم.

رُهبان بالليل ليوث بالنهار. هم أطوع من الأمَة لسيدها، كالمصابيح كأنّ في قلوبهم القناديل وهم من خشيته مشفقون. يدعون بالشهادة ويتمنون أن يُقتلوا في سبيل اللّه. شعارهم: يالثارات الحسين، إذا ساروا

(١) كنز العمال للمتقي الهندي، ٢٦/٧.

(٢) ينابيع المودّة للقندوزي، ص ٤٤٩.

يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر يمشون إلى المولى إرسالاً، بهم ينصر اللّه إمام الحق»[1].

أصحاب الإمام شباب:

والروايات تشير إلى أن الغالب من أصحاب الإمام من الشباب ولا يوجد فيهم من الكهول والشيوخ إلاّ نادراً.

روى المجلسي في البحار: «أصحاب المهدي شباب لا كهول فيهم إلاّ كمثل كحل العين»[2].

عدد قادة أنصار الإمام:

روى المجلسي في بحار الأنوار: «فيجمع اللّه عليه أصحابه، وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، ويجمعهم عليه على غير ميعاد فيبايعونه بين الركن والمقام، ومعه عهد من رسول اللّهﷺ قد توارثته الأبناء عن الآباء»[3].

وفي أغلب الروايات أن هذا العدد الذي يبايع الإمام، بين الركن والمقام، هو عدد قادة جيش الإمام.

الدلالات والتأملات:

ولابد من أن نشير، قبل أن ندخل في التأملات والدلالات، إلى أنّ اللغة المألوفة وقت صدورها لغة رمزية، فالسيوف هي الأسلحة، والخيول هي مراكب القتال، كما أن الوصف بـ«رهبان بالليل ليوث بالنهار» تعبير

---

(١) بحار الأنوار، ٣٠٧/٥٢.

(٢) م.ن.، ٣٣٤/٥٢.

(٣) م.ن.، ٢٣٨/٥٢ و٢٣٩.

رمزي ومجازي من العبادة والتهجد في الليل والشجاعة والجرأة في النهار.

وهذه لغة معروفة لمن يألف طريقة التعبير في النصوص والروايات الإسلامية، والآن نبدأ بالحديث عن الدلالات والتأملات في هذه الروايات.

١- كنوز ليست من ذهب ولا فضة:

أنصار الإمام كنوز، والكنز هو الثروة المخبوءة يجهل الناس مكانها، وقد يكون الكنز في بيت الإنسان وتحت قدميه أو في أرضٍ مجاورة لبيته أو في مدينته، ولكنه يجهله وأنصار الإمام كنوز مخبّأة، قد يكون أحدهم في بيت أحدنا أو بجواره أو في مدينته، وهو لا يعرفه وقد يزدريه، وتحتقره عيون الناس التي لا تعرف أن تنفذ إلى الأعماق لتعرف الكنوز، إنّ هذه البصيرة واليقين والإقبال على اللّه والشجاعة والجرأة والذوبان في ذات اللّه التي يتصف بها هؤلاء لا تتكون دفعةً بل كانت موجودة في نفوس هؤلاء الشباب إلاّ أنها كانت خافية عن أعين الناس، كما تختفي الكنوز عن العيون.

٢- القوّة والوعي:

يقول تعالى، في صفة عباده الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صاد/ ٤٥- ٤٧]. وهذا من أروع الوصف.

فإنه لابد للبصيرة من قوّة، ومن دون القوّة تضيع البصيرة وتخمد ولا يحمل البصيرة إلاّ المؤمن القوي فإذا ضعف فقد البصيرة، ولابدّ للقوة

من بصيرة، فإنّ القوة من دون بصيرة تتحول إلى لجاج وعناد واستكبار، ويصف اللّه تعالى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بأنهم أولي (الأيدي) و(الأبصار) أي القوّة والبصيرة. وتشير النصوص التي قرأنا طائفة منها قريباً أن أنصار المهدي عليه السلام أولو الأيدي والأبصار.

٣- الوعي والبصيرة:

وتعبير الرواية عن حالة الوعي والبصيرة، لدى أنصار الإمام، تعبير عجيب «كالمصابيح كأن في قلوبهم القناديل»، وهل يمكن أن يخترق الظلام القنديل؟ قد يحاصر الظلام القناديل ولكنّه لا يستطيع أن يخترقها.

وأنصار الإمام لا ينفذ إلى نفوسهم ووعيهم الشكّ والريب، مهما تكاثفت ظلماتهما ومهما تعاقبت الفتن. لذلك لا يدخلهم الشك ولا يترددون ولا يتراجعون ولا ينظرون وراءهم إذا مضوا في الطريق، والتعبير في الرواية: «لا يشوبها شك في ذات اللّه» هو أمر غير الشك، إنّه خليط من الشك واليقين، أو لحظات من الشك تخترق حالات اليقين ولا تثبت لليقين الذي يهزمها، وهذا أمرٌ يحصل للكثير من المؤمنين، إلاّ أنّ أنصار الإمام لا يشوب يقينهم شك يقين خالص من دون شائبة من الشك والريب.

٤- عزم نافذ:

وهذه البصيرة تمنحهم عزماً نافذاً لا تردد ولا تراجع فيه، والتعبير عن هذا العزم بـ«الجمر» تعبير رائع ومعبر، فإن الجمر ينفذ ويخترق ما دام ملتهباً، والتعبير هكذا «أشد من الجمر» هو أروع تعبير أعرفه عن نفوذ العزم، ولست أدري ما أودع اللّه تعالى في نفوس شباب الطالقان من

كنوز الوعي واليقين والعزم والقوة فإنّ التعبيرات الواردة في هذا النصّ تعابير غير مألوفة كأنّ الحديث عنهم حديث وجد وهيام «زبر الحديد كالمصابيح، كأن في قلوبهم القناديل، أشدّ من الجمر، رهبان بالليل ليوث بالنهار» وكأنّ النصّ يستفرغ كلّ ما في وسع اللغة لتتمكن من التعبير عن وعي هؤلاء الشباب وبصيرتهم وقوتهم ونفوذ عزمهم.

٥- القوة:

ويصف النص شباب الطالقان بقوة هائلة لا عهد لنا بها في من نعرف من الشباب. تأملوا هذه العبارة: «كأنّ قلوبهم زبر الحديد».

أرأيت أحداً يتمكن من أن يصهر أو يكسر أو يلين زبر الحديد بقبضة يده؟ «لو حملوا على الجبال لأزالوها، لا يقصدون براياتهم بلدة إلاّ خربوها كأنّ على خيولهم العقبان».

هذه تعابير عجيبة تنبىء عن قوة هائلة، وهذه القوة ليست من نوع القوة التي يملكها طواغيت الأرض، وإنما هي قوة عزم وإرادة وقوة يقين.

٦- الاستماتة وحب الشهادة:

«يدعون بالشهادة ويتمنون أن يُقتلوا في سبيل اللّه». إن الموت الذي يرعب الشيوخ في التسعينات، وبعد المئة من أعمارهم، وقد فقدوا جميع لذات الحياة وشهواتها.. أقول إن الموت الذي يرعب الشيوخ يهيم به هؤلاء الشباب وهم في غضاضة العمر، وحبّ الشهادة ينبع من أمرين ويُنتج أمرين في حياة الناس.

أما الأمران اللذان هما مصدر حبّ الشهادة في النفس فهما الإعراض عن الدنيا والإقبال على اللّه، فإذا كافح الإنسان حبّ الدنيا في

قلبه وأزال منه التعلّق والاغترار بها فقد قطع الشوط الأول من الطريق وهو أشقّ الشوطين. والشوط الآخر هو أنْ يتعلق القلب بحبّ اللّه تعالى ويهيم بذكره وحبّه، وينصرفُ صاحبه إلى اللّه تعالى بكل قلبه ووجهه، وهؤلاء لا يهمهم من أمر الدنيا شيء يعيشون مع الآخرين في الدنيا ويحضرون معهم الأسواق والاجتماعات غير أنهم غائبون عنها بقلوبهم، ويصدق فيهم الحاضر الغائب. هؤلاء المستميتون الذين يُحبّون الموت الذي يخيف الناس ويدعون بالشهادة ويجدون فيها لقاء اللّه ويشتاقون إليها كما يشتاق الناس إلى لذاتهم في الدنيا أو أعظم من شوق الناس إلى لذاتهم من الدنيا.

وقليل من الناس من يفهم هؤلاء، أما الناس في الغرب فلا سبيل لهم إلى أن يفهموهم.. فهم يصفونهم حيناً بالانتحاريين، والمنتحر هو الذي يملّ الدنيا وينتهي فيها إلى طريقٍ مسدود، وهؤلاء الشباب يجدون أبواب الدنيا أمامهم مفتوحة، تضحك لهم الدنيا وتظلل عليهم بكل بهجتها وزينتها وإغرائها. فلم يملوا الدنيا ولم يصلوا فيها إلى طريق مسدود، وإنما أعرضوا عنها، لأنهم اشتاقوا إلى لقاء اللّه، ويصفونهم بالإرهاب، وهؤلاء ليسوا بإرهابيين ولو قالوا إنهم لا يخافون الإرهاب لكانوا أقرب إلى الواقع. وهذان هما مصدر حب الشهادة والقتل في سبيل اللّه. أما الذي ينتج عن حب الشهادة فهو العزم والقوّة، إن المستميت الذي تمكن من أن يحرر نفسه من الدنيا يجد في نفسه من العزم والقوة ما لا يجده سائر الناس. وهذان، أي العزم والقوة، لا علاقة لهما بما في أيدي الناس من الجبهة الأُخرى من أسباب القوة المادية، من دون أن ننفي ضرورة تلك الأسباب وأهميتها في ظهور الإمام وقرب الفرج.

٧- تعادل الشخصية:

«ليوث بالليل رهبان بالنهار». من أبرز معالم هذا الجيل التعادل في الشخصية، وهذا سر قوتهم ونفوذهم، تعادل بين الدنيا والآخرة، وتعادل بين القوة والبصيرة. واللّه تعالى يحب هذه الموازنة والتعادل، ويكره الإفراط والتفريط والجنوح إلى اليمين واليسار. يقول تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص/٧٧]. ويقول تعالى في ما يعلمنا من الدعاء:﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة/٢٠١]. ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء/٢٩].

ومن هذه الموازنة التعادل بين الخشوع والعبودية للّه والتذلل للمؤمنين والصرامة والقوة مع الكافرين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة/٥٤] ، ومن هذه الموازنة التعادل بين الاتّكال على اللّه والجهد والعمل والتخطيط. ويصف أمير المؤمنين عليه السلام لهمّام رحمه الله، كما في رواية الشريف الرضي، أطرافاً من هذه الموازنة والتعادل في شخصية «المتقين»، فيقول: «فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وعلماً في حلم وقصداً في غنى وتجملاً في فاقة وصبراً في شدة. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، ويبيت حذراً ويصبح فرحاً، يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل. في الزلازل وقور وفي الرخاء شكور، نفسه منه في عناء والناس منه في راحة»[1]. وهذه الموازنة من الملامح الواضحة في شخصية أنصار الإمام.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة المتّقين.

٨- رهبان بالليل ليوث بالنهار:

وإلى هذه الموازنة تشير الرواية «رهبان بالليل ليوث بالنهار». ولليل والنهار دوران مختلفان في بناء شخصية الإنسان. ولكنّ هذين الدّورين متكاملان يكمّل أحدهما الآخر ولابد منهما معاً في بناء شخصية الإنسان المؤمن الداعية والمجاهد، فلولا قيام الليل لم يثبت الإنسان في مواجهة العقبات الصعبة في النهار ولم يتمكن من مواصلة الحركة على طريق ذات الشوكة في النهار. ولولا حركة النهار لعزل الليل صاحبه من القيام برسالة الدعوة إلى الله في وسط المجتمع، وفقد الإنسان دوره الثاني في الحياة الدنيا بعد عبودية الله، وهو الدعوة إلى عبودية الله. وفي القرآن تأكيد على دور الليل في إعداد الإنسان للدعوة إلى الله واهتمام به. ومن أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ، في بدء الدعوة والوحي، سورة المزمل المباركة التي يدعو الله تعالى فيها نبيه إلى أن يعد نفسه في الليل إعداداً لتحمل القول الثقيل في النهار. يقول تعالى مخاطباً نبيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ [المُزّمّل/١-٧]. والتعبير عن الليل بالنّاشئة دقيق ومعبر، فإنّه ينشىء الإنسان الذي يقيمه إنشاءً ويصنعه صنعاً للأعمال الصعبة ويوطىء شخصيّته ويعدّها إعداداً للمهام الكبيرة ويقوّم سلوكه. وقوله «قيلا» يعني تقويماً: «إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً». وفي خطبة المتقين يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لهمّام رحمه الله، كما في رواية الشريف الرضي، شطري حياة المتقين وهما الليل والنهار فاستمع إليه:

«أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يتلونه ترتيلا، يحزّنون به أنفسهم يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم. أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم». إن الليل والنهار شطرا حياة الإنسان وهما يتكاملان، ولليل رجال ودولة، وللنهار رجال ودولة، ورجال النهار تنقصهم دولة الليل، ورجال الليل تنقصهم دولة النهار في الدعوة إلى الله وإقامة الحق وتعبيد الناس لله، وأنصار الإمام المهدي (عجل الله فرجه) رجال الليل والنهار، وآتاهم الله دولة الليل والنهار.

سمة العبيد من الخشوع عليهم   لله إن ضمتهم الأسحار
فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم   بيض القواضب أنهم أحرار

ولولا أنهم رجال دولة الليل لم يتمكنوا من مواجهة طغاة الأرض بمفردهم، ولولا أنهم رجال النهار لم يتمكنوا من تطهير الأرض من لوثة الشرك وإقامة التوحيد والعدل على وجه الأرض، ولو لم يكونوا من رجال النهار لم يحكّموا التوحيد والعدل في حياة الناس. ولو لم يكونوا من رجال الليل لأخذهم الغرور وشط بهم عن الصراط المستقيم.

مرحلتان أم جيلان:

إذن نحن أمام جيلين، أولهما جيل يشهد سقوط التجربة الاشتراكية الماركسية، والتجربة الديمقراطية الرأسمالية وانهيارهما ويوطئ الأرض لظهور الإمام (عجل الله فرجه)، وهو «جيل الموطئين»، وثانيهما جيل

ينهض بنصرة الإمام عليه السلام ويقاتل بين يديه، وهو «جيل الأنصار». هل هما جيلان فقط أم جيلان ومرحلتان من التاريخ؟ لست أعلم، ولكن من المستبعد أن يتم هذا العمل العظيم في جيل واحد.

واجبات مرحلة «الانتظار» ومسؤولياتها

نحن الآن نعيش في مرحلة «الانتظار»، وقد تكون أطول مرحلة في تاريخ الإسلام، فما هي أهم واجباتها ومسؤولياتها؟ في ما يأتي عرض موجز لتلك الواجبات والمسؤوليات:

أولاً: «الوعي»

والوعي على أنحاء:

أ - وعي التوحيد، وأن الكون كلّه من اللّه وكل شيء مسخر بأمره، وهو قادر على كل شيء، وكل شيء في السماء والأرض جند مسخر له لا يملك من أمره شيئاً.

ب - وعي وعد اللّه وسط الأجواء السياسية الضاغطة وفي مرحلة الضعف والانحسار، وفي أجواء النكسة. وإن من أشق الأمور في مثل هذه الأجواء الضاغطة أن يتلقى الإنسان بوعي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران/١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ [القصص/٥و٦] . وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء/١٠٥] . وقوله تعالى: ﴿**لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾ [المجادلة/٢١]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾ [الحج/٤٠].

ج – وعي دور الإنسان المسلم على وجه الأرض وهو القيمومة والشهادة والإمامة للبشرية. يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة/١٤٣].

د – وعي دور هذا الدين في حياة البشرية في إزالة الفتنة والعوائق من طريق الدعوة، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة/١٩٣].

هـ – وعي السّنن الإلهية للتاريخ والمجتمع وضرورة الإعداد والتمهيد والحركة والعمل ضمن هذه السنن واستحالة اختراقها، ولذلك يأمر اللّه تعالى المسلمين بالإعداد لهذه المعركة الفاصلة ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/٦٠].

ثانياً: «الأمل»

وعندما يكون الأمل موعد اللّه لعباده وبحوله وقوته وسلطانه فإنّه لا ينفد، ولا يخيب صاحبه. وبهذا الأمل يشد الإنسان المسلم حبله بحبل اللّه وحوله بحول اللّه، ومن يشد حبله بحبل اللّه فلا نفاد لأمله وقوته وسلطانه.

ثالثاً: «المقاومة»

والمقاومة نتيجة الأمل. إن الغريق الذي ينظر إلى فريق الإنقاذ يتقدم إليه يغالب أمواج الماء، ويجد في عضلاته قوة فوق العادة لمغالبتها.

رابعاً: «الحركة»

والحركة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى اللّه،

وإعداد الأرض لظهور الإمام وقيام دولته العالمية، وإعداد جيل مؤمن يتولى نصرة الإمام والإعداد لظهوره وعياً وإيماناً وتنظيماً وقوة.

خامساً: الدعاء لظهور الإمام

ولا شك في أن الدعاء مع العمل والحركة وإلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عوامل تقريب ظهور الإمام.

وقد وردت أدعية كثيرة في أمر ظهور الإمام وفي ثواب الانتظار، منها هذا الدعاء الذي يردده المؤمنون كثيراً. «اللّهم كن لوليك الحجة ابن الحسن، صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه الساعة وفي كل ساعة، ولياً وحافظاً وقائداً وناصراً ودليلاً وعيناً حتى تسكنه أرضك طوعاً وتمتعه فيها طويلاً».

شكوى ودعاء

وفي دعاء الافتتاح، المنقول من الإمام الحجة عليه السلام، تقرأ هذه الشكوى المرة، وهذا الدعاء العذب: «اللّهم إنّا نشكو إليك فَقْد نبيّنا وكَثْرة عدوّنا وقلّة عددنا وشدّة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا... اللّهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تُعزّ بها الإسلام وأهله وتُذلّ بها النّفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة».

الانتظار الموجّه

إذن الانتظار انتظاران: الانتظار الواعي والموجّه والانتظار غير الموجّه، والثاني هو «الرصد» الساذج لعلامات الظهور: الصيحة، الخسف، ظهور السفياني، الدجال. ولست أنفي هذه العلامات، فقد وردت فيها

روايات كثيرة في مجموعة روايات «الملاحم»، ورغم أن هذه الروايات لم تدرس حتى الآن دراسة سندية بصورة علمية دقيقة، إلاّ أنني متأكد سلفاً من صحة طائفة منها. ولكنني في الوقت نفسه أعارض أسلوب «الرصد» في مسألة الانتظار، وأعتقد أن هذا الأسلوب يحرف الأُمّة عن واجباتها ومسؤولياتها في مرحلة الانتظار والأسلوب الصحيح في الانتظار.

أمّا الأوّل فهو «الانتظار الموجّه». وفي الانتظار الموجّه العمل والحركة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى اللّه والجهاد. وهذا هو العلامة الكبرى لظهور الإمام والعامل الأكبر لذلك لأن الأمر يرتبط بسلسلة من السنن الإلهية الموضوعية في التاريخ والمجتمع، وهذه السنن لا تتحقق إلاّ بالعمل والحركة، والعلامات المذكورة في الروايات صحيحة على نحو الإجمال، ولكنها في رأيي غير موقوتة بوقت خاص، وقد وردت روايات تصرح بتكذيب الوقاتين.

يقول عبد الرحمن بن كثير: «كنا عند أبي عبداللّه عليه السلام إذ دخل عليه مهزم، فقال له: جعلت فداك أخبرني عن هذا الأمر الذي ننتظر متى هو؟ فقال: يا مهزم، كذب الوقاتون وهلك المستعجلون»[1].

ويسأل فضيل بن يسار الإمام الباقر عليه السلام: أَلِهذا الأمر وقت؟ فقال عليه السلام: «كذب الوقاتون»[2].

إذن، لا تعني هذه العلامات التوقيت الدقيق لظهور الإمام. والصحيح أنّها مرتبطة بأعمالنا، فصحيح أن الخسف والصيحة من علامات الظهور،

---

(١) إلزام الناصب، ٢٦٠/١.

(٢) م.ن.

ولكن عملنا هو الذي يقربهما ويبعدهما. وهذا تصحيح وتوجيه ضروري لابد منه لمفهوم الظهور. وهذا هو «الانتظار الموجه».

تصحيح مفهوم الانتظار

نحن اليوم نعيش في عصر يكثر فيه الحديث عن ظهور الإمام، ولست أعرف في عصور تاريخنا القريب والبعيد عصراً كان الحديث عن ظهور الإمام ودولته يأخذ من اهتمام الناس هذا المأخذ القوي. إذن «الانتظار» سمة بارزة من سمات عصرنا. ولكن، مع الأسف، لم يجرِ تصحيح وتوجيه على مستوى الجمهور لمسألة الانتظار، ويبحث شبابنا عن ظهور الإمام عجل الله فرجه وعلامات ظهوره في بطون الكتب، وفي رأيي أنه اتجاه غير صحيح، والصحيح أن نبحث عن ظهور الإمام والثورة الكونية التي يقودها في واقع حياتنا السياسية والاجتماعية. إن علامات ظهور الإمام لا تستبطنها الكتب بقدر ما نجدها في واقعنا السياسي والحضاري المعاصر وفي وعينا ومقاومتنا، ووحدة كلمتنا، وانسجامنا السياسي، وتضحيتنا وقدراتنا الحركية والسياسية والاعلامية.

إن المنهج الذي يتبعه بعض شبابنا في البحث عن علامات ظهور الإمام في بطون الكتب منهج سلبي بالتأكيد. ويجب علينا تصحيح مفهوم الانتظار وتوجيه حالة الانتظار بالاتجاه الإيجابي. والفرق بين المفهومين يتمثّل في أنّ المفهوم الأول يجعل دور الإنسان في الانتظار دوراً سلبياً، والمفهوم الثاني يجعل دور الإنسان في عملية ظهور الإمام دوراً إيجابياً وفاعلاً ويربطها بحياتنا وواقعنا السياسي والحركي ومعاناتنا وعذابنا. روي عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت/١ و٢]

قال: يفتنون كما يُفتن الذهب ثم قال: يُخلصون كما يُخلص الذهب[1].

وعن منصور الصيقل قال: كنتُ أنا والحارث بن المغيرة من أصحابنا جلوساً، وأبو عبدالله عليه السلام يسمع كلامنا. فقال لنا: «في أي شيء أنتم هاهنا؟ هيهات لا واللّه لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تميّزوا».

وعن منصور، عن أبي عبداللّه عليه السلام قال: «يا منصور، إن هذا الأمر لا يأتيكم إلاّ بعد أياس. لا واللّه حتى يميزوا، لا واللّه حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد»[2].

يرتبط ظهور الإمام عليه السلام، إذن، بعملنا وواقعنا وابتلائنا ومحنتنا، وسعادتنا وشقائنا أكثر مما يرتبط بالعلامات الكونية المذكورة في الكتب. وهذا مفهوم يجب أن نعمقه ونثبته.

من ينتظر الآخر نحن أم الإمام عليه السلام

وبناءً على هذا المفهوم ينقلب الأمر، ويكون الإمام عليه السلام هو الذي ينتظر حركتنا ومقاومتنا وجهادنا، وليس الأمر بالعكس. فإن أمر ظهور الإمام إذا كان يتصل بواقعنا السياسي والحركي فإننا نحن الذين نصنع هذا الواقع.

وبالتالي فنحن نستطيع أن نوطىء لظهور الإمام بالعمل والحركة ووحدة الكلمة والانسجام والعطاء والتضحية والأمر بالمعروف، وبإمكاننا أن نؤخر ذلك بالتواكل والغياب عن ساحة العمل، والتهرب من مواجهة المسؤوليات.

---

(١) م.ن.، ٢٦١/١.

(٢) م.ن.

قيمة الانتظار:

وهذا المفهوم الإيجابي والموجه لـ«الانتظار» هو الذي يستحق هذه القيمة الكبيرة التي تعطيها النصوص الإسلامية له.

فقد روي عن رسول اللهﷺ: «أفضل أعمال أُمتي الانتظار»[1].

وروي عنهﷺ: «انتظار الفرج عبادة» وروي: «المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه»[2]، وهذه القيمة الكبيرة الواردة في هذه الروايات تناسب هذا التصور الإيجابي عن الانتظار، وأبعد شيء عن التصور السلبي للانتظار بمعنى «الرصد».

٢- علاقة «الحركة» بـ«الانتظار»

بين الحركة والانتظار علاقة متبادلة.

* وقد تحدثنا عن علاقة الانتظار بـ«الحركة»، والآن نتحدث، إن شاء اللّه تعالى، عن علاقة الحركة بالانتظار.

العمل الحركي

العمل الحركي عملية هدم وبناء، ولذلك فهو يقترن بالتحدي والمقاومة والمعاناة والعذاب دائماً، ولو كانت الحركة بناءً فقط من دون هدم لم تكن لتطلّب كل هذا الجهد والعناء. فإن الهدم يقع على كيان سياسي قائم، ولكل كيان منتفعون ينتفعون به ويدافعون عنه. والدعوة إلى التوحيد حركة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. ولذلك تقترن هذه الدعوة بـ«الجهاد والقتال» ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾

---

(١) م.ن.، ٤٦٩/١

(٢) م.ن.

[البقرة/١٩٣]. فلا يمكن أن تشق هذه الدعوة طريقها إلى حياة الناس من دون إزالة الفتنة وإزالة العقبات التي يضعها المتنفعون من الكيان السياسي للشرك. ولا يمكن إزالة الفتنة من طريق الدعوة إلاّ بالقتال والجهاد. وذلك لأن التوحيد لا يستقر في فراغ سياسي واجتماعي، وإنما يستقر في موضع الشرك، ولا تقوم دعوة إلى اللّه إلاّ على أنقاض الشرك.

ضريبة العمل الحركي

ولهذا السبب فإن القيّمين على الشرك وقادته يبذلون كل ما في وسعهم لإعاقة حركة التوحيد وإثارة الفتن وزرع الألغام والعقبات في طريق الدعاة إلى اللّه. والدعوة إلى التوحيد تتطلب إزالة هذه الفتن جميعها ومواجهة جميع هذه المعوّقات وتحدي كيان الشرك.

وهذان الأمران: التحدي والمواجهة يكلّفان الدعاة إلى اللّه تعالى كثيراً في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، ويتطلّبان منهم جهداً كبيراً وما يحمّلهم خسائر واسعة.

التكليف بالحركة

لهذه الأسباب يعطي القرآن اهتماماً كبيراً وأكيداً للتكليف بالحركة، ولولا هذه المشقة والمعاناة في حركة التوحيد لم يكن وجه لكل هذا التأكيد. يقول تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة/٢٣٨]. ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان/١٧]. ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود/١١٢]. ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل/١٢٥]. ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق/١]. ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة/٧٣]. ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/٢١٨]. ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/٤١]. ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [البقرة/١٩١]. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ﴾ [البقرة/١٩٠]. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال/٣٩].

وهذه جميعها تعليمات حركية باتجاه تغيير الواقع وإحلال التوحيد محل الشرك وإزالة الفتن والعوائق من طريق الدعوة.

ضعف الإنسان

يضعف الإنسان عن القيام بمثل هذه المسؤولية الصعبة، ولا يجد في نفسه القدرة على مواجهة جميع هذه العقبات والعوائق، فإن المعركة بين جبهتيّ التوحيد والشرك ضارية وشرسة، فيجد الإنسان في نفسه ضعفاً من مواجهة هذه الجبهة لوحده، أو مع قلة من المؤمنين ويستجيب لهذا الضعف وينسحب عن المواجهة إلاّ أن يعصمه اللّه تعالى. والاستجابة لعوامل الضعف في نفس الإنسان هي أول العوائق التي يواجهها العاملون في سبيل اللّه، ويبرز هذا الضعف على شكل الخوف والجبن من الطاغوت وأعوانه، أو التعب من مواصلة الطريقة، أو اليأس من جدوى الاستمرار، أو حب العافية وإيثار الراحة، أو كل ذلك. والذين تساقطوا على الطريق كثيرون ممن لم يتمكنوا من إكمال المسيرة.

كيف نحصّن أنفسنا من السقوط؟

ولابد من أن نبحث عن العوامل والأسباب التي تحصننا في هذه المسيرة من السقوط وتعصمنا من الشيطان، ومن ضعف أنفسنا، ووسائل التحصن والعصمة في حياة العاملين كثيرة. وأهمها أربعة يذكرها القرآن:

١- الاستعانة بالصبر والصلاة.

٢- الولاء.

٣- الميراث.

٤- الانتظار.

وفي ما يلي توضيح موجز لهذه الوسائل الأربع:

١- **الاستعانة بالصّبر والصّلاة**، يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة/٤٥].

ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة/١٥٣].

وفي سورة هود يشد اللّه على قلب رسوله ﷺ في وسط المعركة الضارية، التي كان يخوضها مع أئمة الشرك في الجزيرة، فيقص له قصة مسيرة التوحيد الطويلة. ثم يقول تعالى لرسوله ﷺ بعد استعراض هذه المسيرة الطويلة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود/١١٢-١١٥].

والصبر هو الثبات لسنن اللّه تعالى. وتجري المعارك بموجب سنن اللّه. والذي يريد أن يربح المعركة لابد من أن يعرف هذه السنن ويثبت لها ويقابلها بما يكافئها ويقابلها في سنن اللّه. وإعداد القوة المكافئة لقوة العدو في ساحة المعركة أو في الساحة السياسية أو الاعلام.. من الصبر. إن الصبر ليس بمعنى أن يتحمل الإنسان العدو، بل بمعنى أن يقاوم ويثبت للعدو ولا ينهار ولا ينسحب من مواجهته، حتى يتمكن من ردعه

ودفعه بقوة مكافئة لقوته، وهو المعنى الإيجابي للصّبر.

والصلاة تمثل الارتباط باللّه وذكره، والإنسان المسلم في وسط المعركة لا بد من أن يستعين باللّه وبذكره ذكراً كثيراً، ويستمد القوة والعزم من اللّه ويشد حبله بحبل اللّه فإذا وَصَل الإنسان حبله بحبل اللّه تعالى في ساحة المعركة، فإنه لا يخاف ولا يجبن ولا يضعف، وهذا هو معنى الصّبر والصلاة.

٢- الولاء

المسلمون نسيج واحد، بعضهم من بعض، تربط بعضهم ببعض علاقة عضوية متينة هي علاقة الولاء. وهذا الولاء هو الولاء على الخط الأفقي في مقابل الولاء للّه تعالى ورسوله وأولياء الأمور، وهو الولاء على الخط العمودي في نسيج المجتمع الإسلامي. وإلى هذه العلاقة العضوية التي تشدّ الأُمّة المسلمة بعضها ببعض، وتكوّن منها كتلة مترابطة واحدة تشير الآية الكريمة ﴿**وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**﴾ [التوبة/٧١] . وهذا الولاء يتضمن التحابب والتناصر والتضامن، والتكافل والتعاون والتسالم والتناصح.

والأُمّة التي يرتبط بعضها ببعض بهذه الوشائج القوية أُمّة متماسكة قوية في ساحة المعركة، ولأمرٍ ما يجعل اللّه تعالى أساس العلاقة بين أطراف هذه الأُمّة وأعضائها علَى أساس الولاء. فإن علاقته أمتن علاقة في الأسرة الواحدة.

ولما كانت مهمة هذه الأُمّة الأولى هي المواجهة والتحدي في ساحة الصراع، فلا بد من أن تتمتع ببناء داخلي قوي ونسيج محكم ومتين لتستطيع أن تقاوم ضراوة المعركة الحاسمة التي تدخلها هذه الأُمّة.

ومن دون هذا الولاء المتين الذي يشد بعض المسلمين إلى بعض لا تستطيع هذه الأُمّة أن تقاوم جبهة الكفر والنفاق في هذه المعركة المصيرية. وهذه الأُمّة مجتمعة تعتصم بحبل اللّه، وهي كتلة واحدة، ومجموعة واحدة، وأُسرة واحدة، في مواجهة أئمة الكفر ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران/١٠٣].

وفي هذه الآية يأمرهم اللّه تعالى بالاعتصام أولاً بحبل اللّه في ساحة المعركة وأن يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع (جميعاً).

فإن الصراع يتطلب من كل من الطرفين المتصارعين أن يستحضر كل قوته. وقوة هذه الأُمّة في أمرين: في اعتصامها باللّه وفي اجتماعها ووحدة كلمتها في هذا الاعتصام.

٣- الميراث

ومن الضروري أن يستحضر أعضاء هذه الأسرة، في ساحة المعركة، عراقة هذه الأُسرة في التاريخ، وجذورها التاريخية. فإن معرفة هذه العراقة والعمق التاريخي لهذه الأسرة واستحضارها في ساحة المواجهة تمنح الدعاة والعاملين في سبيل اللّه في ساعة المواجهة قوة وصلابة ومتانة واستحكاماً أكثر. فليست هذه الحركة الكبيرة في التاريخ حركة مبتورة الجذور، وإنما هي تضرب في أعماق التاريخ من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وإلى رسول الله ﷺ. وحركة تملك هذا العمق والعراقة، وتثبت لمؤامرات المشركين وكيدهم ومكرهم طوال عشرات القرون، حرية بأن تثبت وتثبت جدارتها وكفاءتها في هذه المعركة. إن أسرة التوحيد شجرة طيبة على وجه الأرض أصلها ثابت وفرعها في السماء.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [ابراهيم/ ٢٤- ٢٥].

والشرك كذلك أسرة إلاّ أنها أسرة مبتورة أجتُثت من فوق الأرض مالها من قرار. وإنه لمن الضروري لأعضاء هذه الأسرة الداعية إلى اللّه، أن تستحضر جذورها وعمقها وعراقتها في التاريخ، وصلتها بالصدّيقين والصالحين والراكعين والساجدين والذاكرين اللّه والدعاة له.

ولأمرٍ ما نحيّي الحسين عليه السلام ونسلم عليه بهذا الميراث الضخم الذي يرثه من آبائه عليهم السلام، من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله فنقول: «السلام عليك يا وارث آدم صفوة اللّه، السلام عليك يا وارث نوح نبي اللّه، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل اللّه».

إنه لمهم الضروري، في ساحة المعركة، أن يستحضر الإنسان هذا العمق وهذه العراقة، فإنها تعصمه وتحصنه وتدعمه في وسط هذه المعركة الضارية.

٤- الانتظار والأمل

والانتظار رابع العوامل التي تمد الإنسان بالحركة، فإنّه الانتظار يبعث الأمل في نفسه، والأمل يمنحه القدرة على المقاومة والحركة، إن الغريق الذي ينتظر وصول فريق الإنقاذ، ويقاوم أضعاف ما يقاوم الغريق الذي يفقد الأمل من الإنقاذ.

إن الإيمان بـ«وراثة الصالحين» للأرض و«إمامة المستضعفين المؤمنين» وأن «العاقبة للمتقين»، يمنح الصالحين والمتقين ثقة وقوة، ويثبت أقدامهم على أرض المعركة، ويمنحهم قدرة على مواجهة

الصعاب وتحدي الجبابرة والمستكبرين في أشق الظروف وأقساها ويحول بينهم وبين الانهيار والهزيمة النفسية في ظروف المحنة الصعبة.

ولأمر ما يؤكد القرآن الكريم على حقيقة ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف/١٢٨]. ويقرر وراثة الصالحين للأرض ويؤكدها كما قررها اللّه تعالى من قبل في «الزبور».

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/١٠٥].

ولأهمية هذه الحقيقة، وضرورة تأكيدها وتعميقها في نفوس المؤمنين، وبناء العقلية الإسلامية عليها، يقررها اللّه تعالى في «الذكر» و«الزبور» معاً. ويقرر اللّه تعالى إمامة المستضعفين في الأرض وقيمومتهم على مسيرة الحضارة الإنسانية.. وهذا إقرار من اللّه تعالى وإرادة حتمية منه سبحانه، إذا استجاب المستضعفون لما يأمرهم به ويدعوهم إليه، من الإيمان والعمل الصالح.

يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص/ ٥ و٦].

وهاتان الآيتان، وإن كانتا واردتين، في قصة أمر موسى عليه السلام وفرعون وهامان، فإن الإرادة الإلهية لإمامة المستضعفين المحرومين مطلقة وغير مقيدة بشيء إلاّ الاستجابة لما يدعو اللّه تعالى إليه المؤمنين من الإيمان والعمل الصالح، وهذا الوعد الإلهي بإمامة المستضعفين في الأرض يمنح المؤمنين المستضعفين قوة وثقة وطمأنينة، ومقاومة وصبراً على تحمل متاعب الساحة والصراع، وثباتاً على الأذى، ويثبّت أقدامهم

على أرض المعركة شأنه في ذلك شأن أي انتظار حقيقي للإنقاذ يبعث الأمل في نفوس المقاتلين في ساحات القتال. وفي وسط المعركة، في مواجهة فرعون وهامان يثبّت رسول اللّه موسى بن عمران عليه السلام قومه من بني إسرائيل في ساحة المواجهة والمعركة، بوعد اللّه وانتظار الفرج، وانتظار المدد من اللّه تعالى.

تأملوا في هذه الآيات المباركات من سورة الأعراف ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/١٢٨ و١٢٩]. فيحاول نبي اللّه موسى بن عمران عليه السلام أن يُشعر بني إسرائيل في ساحة المعركة، وفي ساعة المواجهة بالأمل باللّه تعالى. ووعد اللّه، وانتظار الفرج. ويقرر لهم هذا القرار الإلهي العظيم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومن عجب أن ربط موسى بن عمران عليه بين «الصبر» و«الانتظار» لوعد اللّه ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ ويحاول بنو إسرائيل أن يعيدوا نبيهم عليه السلام من انتظار المستقبل إلى مرارة الحاضر، فيقولون له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فيعود موسى بن عمران عليه السلام إليهم مرة ثانية ليعيدهم بالنّبرة نفسها المطمئنة إلى انتظار وعد اللّه والصبر على الأذى حتى يأذن اللّه بالفرج، وهو قريب. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

إذن فإن اللّـه تعـالى يريـد لهـذه الأُمّـة أن يثقفهـا علـى «الوراثـة» و«الانتظار»، وراثة الأنبياء والـصالحين وانتظـار وعـد اللّـه تعـالى بـالفرج وإمامة الصالحين. وحركة التوحيد يحفها من جانب قانون «الوراثة» ومـن جانب آخر قانون «الانتظار». والوراثة والانتظار همـا أهـم أعمـدة حركـة التوحيد في مسيرها الطويل الشاق. وعلينا أن نثقف أنفـسنا بهـذه الثقافـة القرآنية المزدوجة «الوراثة» و«الانتظار».

* * *

ثقافة الانتظار الرسالي
في مواجهة الواقع المنحرف

أ. نبيل علي صالح

مقدمة

تنطلق احتفالات الخامس عشر من شهر شعبان، سنوياً، في مختلف البقـاع والأمـصار الإسـلامية لتحيـي ذكـرى ولادة الحجـة محمـد بـن الحسن(عج).. الإمام المنتظر ليوم الوعد الإلهيّ بتحقيق العدل ونشره فـي أرجاء الأرض كافة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء/١٠٥].. فكيف يتمّ التعامل مع دلالات هذه القضية وأبعادها؟ وما هي الآفاق التي يمكن أن تنفتح أمامنا من خلال ذلك، بخاصة ونحن نعايش اللحظات الأخيرة للقرن العشرين المزهو بانتصار الحضارة الغربية (القاهرة والغالبة!) بكلّ ما فيها من منظومات تفكيرية وأنساق معرفية وثقافات (قشور) حضارية؟

هل استفدنا من هذه القضيّة في البعد الثقافيّ والإعلامـيّ المعاصـر

في خطّ الدعوة الرسالية الإسلامية؟ وهل أعطينا ثقافة الانتظار، بأبعادها الرسالية المتنوّعة، إحساس الواقع ونبض الحياة؟ وكيف يمكن أن نستثمر الطاقة الإحيائية الكامنة في عمق هذه القضية بالشكل الإيجابيّ المنتج والفاعل؟ ثم ما هي مسؤوليتنا، وما هو دورنا فبوصفنا مسلمين في خلال هذا الوقت الذي يتحرّك بسرعة في المدة التي تفصل بين غيبة الإمام المنتظر عليه السلام وظهوره؟

هل نتجمّد أمام مفردات الواقع التي تحيط بوجودنا، وتحاول أن تربك خططنا وحساباتنا من خلال المشاكل والعراقيل التي يضعها (صانعوها) أمامنا، في موقع هنا وموقع آخر هناك.. لنقول ما يقوله أولئك الذين يتعاملون مع مفهوم الانتظار بالمعنى السلبي: يجب علينا أن نوقف الحركة ونتجمّد أمام الحياة، ولا نقوم بأيّ عمل أو نشاط فكريّ وجهاديّ يتّصل بمسألة الظلم والظالمين؟

أم هل نتعامل مع هذا المفهوم بطريقة حضارية منفتحة، بحيث نفهم الانتظار بوصفه أملاً حركياً مشرقاً وكبيراً في ضرورة انفتاح الحياة على معنى العدل بكافة صوره وأشكاله (خصوصاً العدل الذي يثير في النفس أحاسيس العزّة والكرامة، ويبعث على النهوض لمواجهة مواقع الظلم والانحراف كلها)؟

إنها أسئلة إشكالية ومركزية تمثل، في عقيدتي، عناوينَ بارزة لفهم كيفيّة الارتقاء بواقع الثقافة الإسلامية المقاومة، التي تمثّل «ثقافة الانتظار الرسالية» أحد أعمدتها وأركانها في عصرنا الراهن.. هذه الثقافة التي يجب أن نعمل على تعميمها وتعميقها في ذهنيّة الأمّة، بوصفها ثقافة أصيلة يجاهد أبناؤها في سبيل تحقيق المجتمع الإنسانيّ

العادل ويسعون للاحتفاظ بالذات الحضاريّة الإسلاميّة على مستوى تطوير حقيقتها الخاصة التي يمكن أن تجعلنا على وعي كامل بطبيعة أدوارنا ومواقعنا وأهدافنا.. لننطلق، بعد ذلك، نحو تحقيق التماثل والندّية والتكافؤ في تعاملنا مع الآخرين.. في علاقات المجتمع.. في أنظمته السياسية وعلاقاته الاقتصادية والفكرية..

سنحاول، في هذا البحث، إضاءة بعض النقاط الفكريّة والثقافيّة التي تتصل، في العمق الرساليّ، بمسألة الإمام المنتظر (عجل الله فرجه)، وضرورة تطوير أساليب التعامل مع قضيته عليه السلام ووسائلها في ثقافتنا، وإعلامنا، وتبليغنا الدينيّ.. في ما يتعلق بالمعنى الحقيقيّ لثقافة الانتظار الرسالي وفكره. لكننا، وقبل الدخول إلى صلب التحليلات الفكرية السابقة، نجد من الضروري إعطاء القارى الكريم لمحة إجمالية عامة عن طبيعة فكرة الإمام المهدي(عج) التي تعد عقيدة مركزية ضرورية، في المذهب الإسلامي الشيعي الإمامي، تختزن في مضمونها الداخلي طرحاً مفاهيمياً إسلامياً عاماً لا يخص فئة أو مذهباً معيناً بذاته، حتى ولو رفض الآخرون قبول تلك الفكرة العقيدية في داخل نسيجهم المعرفي والعقائدي لاعتبارات خاصة تاريخية ونفسية، وذلك بسبب وضوح أدلتها، ونقاوة مبدئها، وأصالة مرتكزاتها وقواعدها.

أولاً: أصالة العقيدة المهدوية

سجّل المسلمون جميعاً، على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم ومشاربهم، الثبوت القطعي للبشارة التاريخية الواردة على لسان الرسول الأكرم ﷺ التي تشير بوضوح تام إلى ظهور الإمام المهدي(عج) من وُلد ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً

وجوراً»؛ وذلك في ما رووه وتناقلوه من الحديث الصحيح المتواتر والمشهور[1].

وعلى الرغم من جميع الإشكالات التاريخية والفكرية غير العلمية[2] التي أثارها بعض المشكّكين في وجود تلك الفكرة الحيوية، فقد برزت عقيدة الإمام المهدي(عج) إلى الساحة الإسلامية بقوة، وأخذت دورها الهام، وموقعها الطبيعي الأصيل والخطير (بالمعنى الإيجابي للكلمة) في البنية الذاتية للوعي العقائدي الإسلامي، والوعي الإنساني المعاصر، الذي لا يزال يبحث عن حلول جذرية شاملة لأزمة الرعب والقلق النفسي

---

(١) يمكن الرجوع، في هذا الشأن، إلى كتاب: المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإمامية للشيخ: نجم الدين العسكري، وفيه وثّق المؤلف وسجّل أكثر من أربعمئة حديث بخصوص الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر(عج) من كتب أهل السنّة، كذلك يمكن العودة إلى كتاب: منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام للعلامة الشيخ: لطف الله الصّافي، وفيه ما مجموعه ستة آلاف حديث عن طريق الفريقين.

(٢) ارتكز المشككون بهذه العقيدة على حجج وذرائع واهية، ومنطلقات ودوافع ذاتية غير موضوعية لا تنسجم مع منهج الإسلام العام في أسلوب وعي العقائد وطرحها، والدعوة إلى الإيمان بها. فالقرآن الكريم يقوم في دعوته على أساس الجانب الغيبي إلى جانب الإيمان بالعقل والمنطق والفطرة. وبالرغم من ذلك، فقد ساق أولئك «المشككون» بعض الروايات والأحاديث التي تحاول إسقاط أو على الأقل إرباك تلك الفكرة في ذهنية الأمة، وعملوا على إضعافها وتضعيفها في الداخل والخارج. ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التاريخية الأساسية التي تناولت دراسة هذا النهج الروائي التشكيكي وتحليله بعقل منفتح ومسؤول، ورؤية علمية موضوعية - ككتاب: دفاع عن الكافي، ٥٦٩/١، حيث أورد المؤلف - شهادات واعترافات وإثباتات وافية عن علماء أهل السنة من القرن الرابع الهجري إلى القرن الرابع عشر في إثبات ولادة الإمام المهدي، واستمرار حياته ووجوده الشريف وكذلك كتاب: بحث حول المهدي للإمام الشهيد السيد: محمد باقر الصّدر قدس سره، وكتاب: الغدير للأميني، ٣٠٨/٣ و٣٠٩ إلخ.

والوجودي الذي تعايشه المجتمعات الإنسانية الحالية، وذلك بسبب أنّ تلك العقيدة الإسلامية في طابعها الديني عنوانٌ أصيل لطموح واعد وهادف اتجهت، ولا تزال تتجه، إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغةٌ لإلهام فطري قابع في ضمير الإنسانية الحرة والكريمة في شعورها العميق وإحساسها القوي بضرورة ظهور منقذ للبشرية عندما تتعقّد الأمور، وتتعاظم التحديات، وتدلهم الخطوب والمحن، ويسيطر الظلم على حياة الناس والمجتمع.

لقد أدرك الناس، من خلال هذا الطموح - طبعاً على الرغم من تنوع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب - أنّ للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض، تُحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير، وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مر التاريخ استقرارها وطمأنينتها بعد عناد طويل[1]. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي، والمستقبل المنتظر، على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتد إلى غيرهم أيضاً، وانعكس حتى على أشد الإيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيات، كالمادية والجدلية، التي فسّرتْ التاريخ على أساس التناقضات، وآمنتْ بيوم موعود تسودُ فيه الشيوعية، ويتوقف الصراع والتناقض المرير بين الأضداد، ويسود فيه الوئام والسّلام. وهكذا نجد أنّ التجربة النفسية البشرية، المتراكمة ثقافياً وحضارياً واجتماعياً عبر العصور المختلفة، والحاوية على هذا الشعور في داخلها، من أوسع أنواع التجارب النفسية أغناها وأكثرها عموماً بين أفراد البشر..

(١) الإمام الشهيد السيّد محمد باقر الصّدر، بحث حول الإمام المهدي، ص ٤٣، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بيروت لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

ضمن هذا السياق، ينتظر الناس جميعاً - من دون استثناء - أن يأتي اليوم الموعود الذي يتحقق فيه العدل، والمساواة، والوعي الكوني الحقيقي، والقيم الإنسانية العليا كلها، ويتحقق، بالتالي، المجتمع الموعود المعصوم الرافض للظلم والجور والقهر والجبروت، والمؤمن بإمكانية قوة العدل في التجسّد، بوصفها واقعاً حيّاً ملموساً في عمق التجربة التاريخية الحالية والمستقبلية للناس جميعاً، تواجه العالم الظالم لتزعزعَ ما فيه من أركان الظلم والطغيان، وتقيم بناءه من جديد على قيم الإسلام ومبادئه. وهذه المهمة الرسالية الجسيمة تحتاج، في طريقة تجسيدها على أرض الواقع، إلى قيادة مطّلعة وعارفة ومعصومة في التزامها ووعيها، وفي جميع جوانب حركيتها وامتداداتها الداخلية والخارجية، لأنّ مسؤولية تغيير العالم إلى الأفضل والأحسن صعبة وشاقة وليست سهلة التحقق والمنال. من هنا كان لا بد في إطار الحديث عن تمثّل هذه الفكرة وتجسّدها في الإمام الثاني عشر عليه السلام من إيجاد مبررات موضوعية وافية وكافية وواضحة للإقتناع به إسلامياً وتاريخياً وعقلياً. وهذا أمر نترك الحديث عنه الآن بسبب تمحور موضوعنا، في هذه الدراسة، حول الدور الأساسي للثقافة الرسالية الانتظارية في مواجهة الواقع المنحرف وننصح الأحبة القراء بالعودة إلى المظان التاريخية الواسعة[1] التي أشبعت فكرة الإمام المهدي(عج) عرضاً وتحليلاً وإثباتاً على المستوى

(١) يُراجع بهذا الخصوص الكتب التالية:

١- تاريخ الغيبة الصغرى، للسيّد محمد الصدر، دار التعارف، لبنان.

٢- معجم أحاديث الإمام المهدي، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية - قم ١٤١١هـ بإشراف الشيخ: علي الكوراني.

٣- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام للشيخ: لطف الله الصافي..

التاريخي والعقائدي والعقلاني والروائي.. الأمر الذي جعل هذه الفكرة - العقيدة حقيقة إسلامية ساطعة وواضحة وضوح الشمس في كبد السماء..

ثانياً: في آفاق الثقافة المقاومة

ثقافة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

تشكل الثقافة الإسلامية العنوان والوعاء الحضاري الأهم لشعوب هذه المنطقة.. وقد واجهت هذه الثقافة، في تاريخها الطويل، كثيراً من التحديات الخطيرة، وجابهت أمواج الغازين والمحتلين، واستطاعت أن تستوعبهم وتؤنسنهم وتؤثر فيهم وتعطيهم شيئاً من مفرداتها الأصيلة.. وفي هذه المرحلة الحساسة من حياتنا، تواجه هذه الثقافة نفسها، مخاطر لا تقل أهمية عن سابقاتها.. لعل من أبرزها ما يروّج له حالياً في كل مكان، وهو حديث التسوية والسلام والتصالح مع الكيان الصهيوني الغاصب، هذه التسوية التي تعبّر، في أحد جوانبها، عن اغتصاب إجرامي لهوية هذه الأمة وتاريخها الجهادي الطويل.. وعن عدوان على هويتها بالذات، أي نظرتها إلى الحياة والوجود والدنيا والآخرة.. إنه أفظع ألوان الاغتصاب في تاريخ الإنسان.. اغتصاب شعب وهوية أمة.. وهذا ما يرتكبه النظام الدولي الجديد بقيادة الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط.. لقد راجت، في الآونة الأخيرة، امتداداً لمشروع السلام السياسي، ثقافة السلام(١) والاستسلام التي يمكن رصدها في الثقافة

---

(١) ترتكز ثقافة السلام المزعوم على الأسس والمقومات التالية:

١- القول بنهاية الايديولوجيات وانتفاء الصراع الإيديولوجي الذي كان يسوّغ إرث المحاور الاستراتيجية والتناقضات السياسية فيها..

العربية الحالية.. وفي ثقافة السلطة الحاكمة بالذات.. وفي حركة المنظّرين لهذه الثقافة الجديدة.. الذين يعملون على تعميق دلالات تلك الثقافة وتعميمها في أوساطنا ومواقعنا بجميع الوسائل السياسية والاجتماعية والأساليب الدعائية والإعلامية..

أمام هذا التحدّي المفروض، وباعتبار أنّ ميدان المقاومة الميدانية للمشروع الاستسلامي نفسه هو ميدان الثقافة والقيم نفسها.. كيف تتحرك الثقافة المقاوِمة؟ وما هي معالمها وعناوينها؟

قلنا: إن الثقافة السائدة (ثقافة القشور والهزيمة) التي تقوم على تغريب الذات وتغييب الهوية، مدعومة من قبل السّلطات والنّخب السياسية الحاكمة التي لها -على ما يبدو- مصالح سياسية واقتصادية واضحة داخل منظومة ثقافة السلام.. لذلك يجب أن يكون العنوان الأهم لممانعة الثقافة ومقاومتها هو أنْ نعمل على تعرية ثقافة السلطة وفضحها[1] في المنطقة العربية والإسلامية، من حيث أنها ثقافة ضد

٢- القول بالواقعية، وهي في نظرنا الوقوعية، والانطلاق من حقائق المرحلة الحالية.. حيث لم يعد من المفيد التمسك بشعارات وأهداف أثبت الزمن عقمها وفشلها ومثاليتها.. وبالتالي هزيمتها، ما يعني «الدعوة إلى ثقافة الهزيمة والاسترخاء»..

٣- الاعتراف بتفوق إسرائيل عسكرياً (نووياً) وأمنياً واقتصادياً ودعمها اللامحدود من قبل الغرب وأمريكا، الأمر الذي يفرض القبول بالأمر الواقع الراهن كما هو..

(١) إن الذي سيساعد على التخفيف (ولو نسبياً) من صعوبة هذا الأمر أن الأنظمة والحكومات القائمة ستجد نفسها أمام حقيقة واقعة لا مفر منها، وهي الانفتاح على العالم وممارسة التعددية وإعطاء الشعب حق إبداء الرأي والحرية، واحترام حقوق الإنسان.. ويكون عليها التخلي عن أحد أجهزتها الإكراهية، وهو الإعلام الذي كان يحشد وراءها الرأي العام وتوحيده عبر أنظمة الدعاية والتوجيه والمراقبة بدقة من قبل أعوان هذه

القيم وضد الإنسان.. ومن المعروف أن عمر هذه الثقافة (ثقافة السلطة) ليس قصيراً، بل إنه، مع الأسف، يمتد إلى العصر العباسي. والمسار الانحداري للتاريخ الإسلامي يمكن ربطه، إلى حد كبير، بنمو ما يسمّى بثقافة السلطة، يعني - بصورة أوضح - مصادرة الحريات بصورة مستمرة، وأبرز أشكال التعبير عن الحريات هو الثقافة، فباتت الثقافة سلاحاً، بدل أن يكون في يد الأمة في مواجهة السلطة، أصبح في يد السلطة في مواجهة الأمة وقمعها[1]. بهذا المعنى نحن الآن أمام فكرة مواجهة الواقع التطبيعي الراهن الذي يمر حالياً - على ما يظهر بمخاض عسير نعتقد أنه لن يدوم طويلاً!؟..

نحن، إذاً، أمام مهمات ثقافية كبيرة جداً نعمل، من خلالها، على تجاوز الشعارات إلى فعل بنيوي عميق له علاقة في رؤية بنية الثقافة وإقامة (تأسيس) هذه البنية، على اعتبار أنها ثقافة مقاومة اعتراضية تؤسس لمجتمع ممانع ومقاوِم ومواجِه ورافِض مقابل السلطة.. لأن التسوية المقبلة تهدف إلى جَعْل الزمن العربي والإسلامي القادم زمن صراعات وتفكك وتشرذم. وتتجه، أساساً، إلى المجال الحساس، وهو دائرة الوعي (دائرة الثقافة).. وهكذا يستمر زمن المقاومة الحقيقي لأنه

الأنظمة، وهو ما ستعجز عنه خلال العصر المقبل في مواجهة تقنيات الاتصال الفائقة التي ستدفع تلك الأنظمة المغْلَقة والمفلسة إلى سلوك طريق التغيير حتماً، بعد أنْ تُغير بنية السلطة وطرق تداولها واكتسابها، الأمر الذي سيسهم في نزع صفة القداسة عنها (التي كانت تعصمها من النقد) ويهتك حرمة أسرارها وحجبها المقفلة من حولها...

(١) العلامة السيد محمد حسن الأمين، حوار مع مجلة الرصد الثقافي، عدد ٤٥، ص ٢٦، ١٩٩٤م.

يتناول أخطر ما في الشخصية والهوية الإسلامية، ألا وهو **وعي هذه الهوية**..

طبعاً نحن لا نريد أَنْ نضخّم العدو ونعطيه أبعاداً أكبر من حجمه، ونرضخ لقضائه وقدره الذي يحاول فرضه علينا.. لأن العدو أعجز من أن يعمل على تجويف التراث الإسلامي الذي يعدّ أهم عامل وأكبر عنصر من عناصر الممانعة والمواجهة في شخصيتنا ونسيجنا الثقافي. لكننا، في الواقع، نخاف أن نبقى ساكنين، وأن يظل تراثنا ساكناً لا يتحرك، وألاّ ينتج نفسه ويصوغ خطابه من جديد وفق مقتضيات الواقع لا أن يرتهن لمفاهيم العصرنة والحداثة[1] وما إلى ذلك. ولكن أن ينتج معادلة معاصرة لوجوده.. أن نجعله يعيش حس العصر ونبضه، لكي يبقى ممتداً وفاعلاً في الأمّة. من هنا فإننا، نخبةً عربيّةً وإسلامية، مطالبون - أكثر من أي وقت مضى - بأنْ نقدّم قراءتنا المعاصرة والتجديدية التي تمليها ضرورات عصرنا، كي تتحول في داخلنا إلى عنصر مواجهة ثقافية للآخر، وتسهم في بناء مشروع ثقافي إسلامي مقاوِم متمرّد على واقع القهر والتسلّط، قادر على استعادة مساحة الحرية المغتصبة. إنّ ذلك هو الذي يعطينا الأمل الواقعي في مقاومة مشروع التسوية المقبل، أي أنْ نعمل على استرداد الحرية، بوصفها عنصراً بالغ الأهمية، ليس فقط في موضوع

(١) يعرّف بعض الباحثين الحداثة (MODERNITY) بأنها ظاهرة أو منظومة من الظواهر الجديدة.. ولكننا نتساءل: هل كل ظاهرة جديدة في حياة الإنسان حداثة أو أن الحداثة سمة محددة لعصر أو مرحلة تاريخية؟ من هنا يمكن أن نعرّف الحداثة بأنها مصطلح يطلق على التحولات التي ظهرت في الغرب في العصر الأخير من تاريخ الإنسان. إنها روح الحضارة الغربية الجديدة والثقافة الموازية لها والمنسجمة معها..

السلطة بل في داخلنا نحن أيضاً (النخبة العربية) التي هي ضحية استبداد مركب: استبداد السلطة واستبداد الثقافة نفسها، التي تحوّلت إلى سلطة والتي نستطيع أنْ نمارسها في ما بيننا، فيصادر بعضنا بعضنا الآخر، بمعنى أننا لا نستطيع أنْ نتحاور.. (لماذا؟).. إذا أردنا أنْ نقيم ثقافة مقاومة يجب أنْ نكون قادرين على الحوار، أي قادرين على أنْ لا يقمع بعضنا بعضنا الآخر[1]، وكي نسترد الثقافة من السلطة يجب أنْ نكون قادرين على أن نسترد لها الحوار الضروري بين النخب المعنية بإقامة ثقافة مقاومة تحيي روح الخدمة والجماعة بين التيارات والقوى الفاعلة وتحول أفكارها إلى برامج عمل مؤاتية لإحداث اتجاهات جديدة للنمو والوعي الثقافيين، وتستفيد من آليات توزيع الأدوار والمهمات، وتجنّد أبسط القدرات وأكثرها تركيباً وتعقيداً في عملية ممانعة ونماء منتظم لما به الإنسان من عقل وضمير وإرادة وقيم تحوله إلى صاحب بصيرة وعقل منتج.. مقابل البصر المتبلد والمتلقي ببلاهة لقوالب الإعلام الجاهزة. وفي طريقها إلى صياغة ذلك الإنسان تغرق ثقافة المقاومة بحب سحق الأنا والغيرية والإيثار من العرفان، وجمال الأسلوب من الأدب، والحكمة من تجارب الأمم، والتوازن من الفقه، والعمق من الفلسفة، والبرنامج الواعي من القرآن[2].. وعلى طريق استعادة الذات ومعرفة النفس نستعيد الأرض، كل الأرض، ونواجه التحديات، كل التحديات، ويكتمل الانتصار[3].

---

(١) مجلة الرصد الثقافي، ص ٢٨، مصدر سابق.

(٢) جهاد سعد، معالم الثقافة المقاومة في نقد الثقافة السائدة، مجلة البلاد، العدد ٢٥١، ص ٤٧.

(٣) وهذا ما تعبر عنه، حقيقةً، المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان الصّامد ببطولاتها الملحمية النوعية النادرة، التي أضحت نقطة ضوء هادية ومنارة شموخ عالية في هذا الظلام العربي

ثالثاً: أهمية التبليغ والإعلام في نشر الثقافة المقاوِمة والدفاع عن وجود الأمّة

يُعَدّ التبليغ من أهم الوسائل ذات العلاقة بالشأن الإسلامي الحيوي. وقد دعت الرسالة الإسلامية إلى وعي هذه الوسائل والتزامها في إطار حركة الدعوة إلى مبادىء الثقافة الإسلامية وقيمها وتبليغ رسالة الإسلام..

إنّ الفرد هو الأصل في بناء حركة التبليغ، وهو الصانع للجماعة والأمة.. لذلك يكون عمل الداعية موجهاً، أساساً، باتجاه العمل على إدخال الرسالة إلى قلبه، وتنميته وتطويره وتحقيق عناصر السعادة والكمال والصلاح له..

إن أسلوب المبلّغ الرسالي يجب أن يخضع للروحية الرسولية الإسلامية التي تتحرك من أجل أن تعيش في كل فكرة، وتنطلق في كل حياة، وتتلمس الواقع الموضوعي الذي يغذي العمل وينميه ويطوره، فيصل إلى الغاية، بأكبر قدر ممكن من الإيجابيات وأقل قدر ممكن من السلبيات، وتواجه العلاقات العامة والخاصة بالأشخاص والمؤسسات

والإسلامي الدامس. إننا لا نستطيع إلا أنْ نعبر لها عن مشاعر الإجلال والفخر والإعتزاز والإكبار والعرفان بالجميل، لأنها حفظت كرامتنا المهدورة، وعبّرت عن روحنا المقاوِمة، وهي تمثل الآن جوهراً أو كنزاً ثميناً ونفيساً في حياة العرب والمسلمين، وعلى دربها يجب أن تسير الأمة إذا أرادت لنفسها أن تبقى أمة على قيد الحياة. من هنا فإننا نبارك لهؤلاء المجاهدين الأبطال جهادهم المقدس الذي يقومون به في أحلك الظروف الأمنية والسياسية المحلية والإقليمية والدولية، ناهيك عن صعوبات الواقع الجغرافي والميداني والاستخباراتي. كما وإننا نشد على أياديهم ونسأل اللّه تعالى أن ينصرهم ويقف معهم ويثبت أقدامهم في مواجهاتهم القاسية في عصر أصبح من الصعب فيه أن تصمد وتصبر وتقف في وجه قوة الباطل وإغراءات المال والترف والاستهلاك و«ثقافة الواقع العالمي الجديد!»..

والأوضاع من خلال ارتباطها بمواقف الرسالة الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية.

وعلى ضوء ذلك، يرتبط فكر المبلّغ - الملتزم بروحية البعد الرسالي للانتظار- بالواقع الفكري والعملي، في عملية ملاحقة واعية لكل تطوراته ومتغيراته الذاتية والموضوعية؛ الأمر الذي يجعل شخصية الداعية، أو المبلّغ، قريبة، بفكرها ووعيها، إلى فكر العصر وتجاربه وواقعه، في أفكارها وتجاربها وحلولها ومواقعها، بحيث تكون بعيدة عن اثنين: أولهما الخيال الغارق في ضباب الأحلام الوردية، وثانيهما الباحث عن الواقع المعاصر في أفكار الماضي من دون محاكمة أو موازنة. إنّ مسألة أن يكون الإنسان داعية أو مبلغاً رسالياً، في عصر غيبة المهدي(عج)، هي مسألة تعني أن ينطلق، في ذلك، من وعيه لذاته ليوظف إمكاناته وكفاءته وإخلاصه في خدمة الناس والرسالة، لأن النّاس يستجيبون للذين يمثلون حاجاتهم الفكرية أو العملية، وبخاصة في ظروف واقعنا الراهن الذي يفرض على المُبلّغ أنْ يلاحقه في كل ثقافته، بأساليبه ومناهجه وأفكاره، لأن الواقع يريد لنا أنْ نتنازل عن إسلامنا، والتطورات تريد لنا أن نستسلم لثقافة العصر الاستهلاكية، لذلك يجب على المبلّغ لثقافة الانتظار الرسالية أن يعيش ذهنيّة عصره ولغته وأجواءه، ليعرف كيف يُدْخِل الإسلام والمعرفة الثقافية الإسلامية المقاوِمة إلى هذا العصر...

إذاً هناك خصائص وشروط أساسية يجب أن يتمتّع بها المبلّغ الرسالي يمكن إجمالها بما يلي:

١- أن يكون المبلّغ عميق الإيمان والالتزام بقيم الله والإسلام، وأنْ يكون الله تعالى نصب عينيه، يعمل في سبيله ويجاهد فيه، ومنه يطلب

العون والنصر والسّداد والتوفيق: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت/٦٩].

إنّنا نؤكد، في هذا الإطار، على ضرورة الإعداد الروحي والديني للعلماء والمبلّغين والدعاة إلى الله، إلى جانب الإعداد الثقافي والفكري، ليستطيعوا الانطلاق إلى الدعوة من خلال العمل والتطبيق، ولتكون أعمالهم دعوة حية للإسلام صامتة بكلماتها، ناطقة بوحيها الهادىء الوديع.

٢- أنْ يكون قدوة صالحة في سلوكه الإسلامي، ونموذجاً عالياً في التديّن والتقوى والورع والصلاح والالتزام بقيم المهدي عليه السلام. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من سرّه أن يكون من أصحاب القائم، فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق، وهو منتظر**»[1]، كي تتأسى به الأمة والمجتمع، وتحتذي خطاه ولا يكون مشمولاً بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف/ ٢ و٣].

٣- أنْ يتسلّح بالثقافة والفكر الإسلاميّين والوعي الإيماني العقيدي والفقهي المطلوب، لأن ذلك يمكّنه من التمهيد لظهور الإمام المهدي من خلال تصحيح مسيرة الأمة نحو أهدافها، والوقوف في وجه الأفكار والدعوات الباطلة والمنحرفة، والتمييز بين الثقافة المفيدة للأمة والثقافة الضارة لها، أي بين العلوم والآداب الحقيقية وبين الأفكار الضالة والثقافة المزيفة التي ترتدي لباس التّقوى، وفَضْح حقيقتها وكَشْفها للأمة؛ إذْ لا

---

(١) سفينة البحار، ج٢، ص ١٤٠.

يستطيع أنْ ينهض بالأمة والمجتمع من يفتقد الثقافة الأصيلة. من هنا يكون التوافر على مستوى راق من الوعي والفهم والثقافة والرؤية، لمفاهيم الإسلام وتصوراته وأحكامه وتشريعاته، قاعدة أساسية تؤهّل الإنسان لأنْ يكون من «الكوادر» الأساسية الصالحة للالتحاق بالإمام المنتظر عليه السلام، وهذا هو المستفاد من جملة الروايات التي تؤكد على ضرورة أن يملك أنصار المهدي درجات عالية من البصيرة والمعرفة والفقاهة في الدين والوعي النفّاذ.

٤- الإطلاع على معارف العصر وأفكاره وثقافاته، ومواكبة تصوراته الفكرية والسياسية والاجتماعية، وأخْذ العبر والدروس منها، أي أن يفهم المبلّغ أحوال دهره ومجتمعه وطبيعة الوسط السياسي والاجتماعي الذي يعمل فيه، ويتحرك بين أجوائه، ويتمكن من التّعامل معه بنجاح وتفوّق، لأن الجهل بالواقع والحياة، أو فقدان الإحساس بأوضاعهما، يُبعد المبلّغ والداعية عن الواقع، ويسلّمه إلى القوى الأخرى التي تستغل ضيق أفقه وقلة معلوماته، وضعف وعيه وإحساسه بالعصر لتوجهه في غير الوجهة التي يتجه إليها في عقيدته ودينه، ولتحارب أهدافه في عملية تضليل وتشويه وتخريب، فالداعية عندما لا يفهم روح الآخر ولا يدرك حدود ثقافته.. فكيف يمكن أن يخاطبه أو يحاوره؟! وكيف يمكن أن يدعوه إلى الالتزام بقيم الإمام المهدي(عج) وثقافته؟

إذاً، يجب أن يفهم المبلّغ الداعية حجم عقول النّاس، ومستوى استيعابهم ليستطيع أنْ يتكلّم معهم على قدر وعيهم وعقولهم، وأنْ يفهم أيضاً روح العصر وأسلوب العمل والحياة فيه، حتى يعرف كيف يُحرك الإسلام في داخله. طبعاً ليس بمعنى أن يُخضِع الإسلام لذهنية العصر

(أي تحديث الإسلام وعصرنته!) ولكن بمعنى أنْ يقتحم الإسلام (من خلال رسالته ووعي دعاته ومبلّغيه) ذهنية العصر بفهم روحية الإنسان المعاصر وذهنيته وكل ما ينفتح عليه وينغلق عنه.

٥- أنْ يعيش المبلّغ هموم أمته ومشاكلها وتحدياتها، ويتحسس آلامها وآمالها ويشاركها معاناتها، ويحرص عليها، ويدرس ظروفها وأحداثها التي أدّت إلى وقوع آلام وأحزان فيها، وأن يحاول التخفيف ما يستطيع من أتعابها وقلقها السلبي، ويتعامل معها بخُلق وقيم إسلامية صافية ونقية، أي أنْ يتّصف بأخلاق إسلامية واقعية على درجة من السمو والوعي الرسالي، فلا يستعجل الأمور والنتائج بل يعمل بكل حكمة وأناة.. يرصد آفاق المستقبل المنظور الذي يعمل من أجل تغيير الواقع باتجاهه، وينظر بعمق إلى مواقعه الراهنة في حاضره حتى يفتح الله عليه وينصره (العمل والحركة والسعي والمثابرة)، لأن تغيير واقع الأمة نحو مواقع أكثر تطوراً ورقياً، ليس من الأمور السهلة والبسيطة، ولا تتأتى إلا بالجهود المسؤولة والعمل المستمر المتواصل والمضني. وهذا هو المعنى الحقيقي لمسألة تعميق حس الانتماء لقيادة الإمام المنتظر عليه السلام التي تبعث، في نفوس المؤمنين بها، الأمل الدائم بالتغيير نحو الأفضل، وتنعش أرواحهم بالطموح الكبير والثبات والصمود على الخط، وتقوي عزيمتهم وإرادتهم. فيتولد، نتيجة لذلك، زخم نوعي هائل من المعنويات الجبارة ترفدنا جميعاً بديمومة الثبات والتحدي والمواجهة. وتبقى تصون المسيرة الكبيرة - في حركتها المستمرة - من الإحباطات والتراجعات والانكسارات في ظل ظروف القهر والاستعباد والهيمنة السائدة حالياً.

إنَ قوى الاستكبار العالمي الضّالة تحشد يومياً جميع طاقاتها وجهودها السياسية والاعلامية والاقتصادية لمواصلة الحملة العدوانية ضد الأمة العربية والإسلامية، وتحاول ضرب مواقع قوتها ورفعتها ومكامن رسوخها ومنابع مقاومتها وممانعتها، من خلال بث الفرقة والطائفية والعنصرية بين العرب والمسلمين. إنهم يخططون ويتحركون لدراستنا وتحليلنا، ومن ثم لنسف أساس عزّتنا ووحدتنا. لذلك من الواجب علينا جميعاً (دعاة ومبلّغين رساليين) أن نواجه جميع تلك المخططات والمؤامرات الخبيثة، ونحاول صدها وإسقاطها في مواقعها الأولى. والعمل على تلك الجبهة الخارجية لن ينجح مطلقاً إذا نسينا جبهتنا الداخلية المليئة بالمشاكل والتعقيدات والهموم الذاتية التي نعيشها في داخلنا العربي والإسلامي، أو غضّينا الطرف عنها؛ إذ أنه لا يكفي أن نوجّه الاتهامات للآخرين بأنهم يتآمرون علينا ويريدون إسقاطنا وإقصاءنا والنيل من واقعنا وحريتنا وكرامتنا وما إلى ذلك.

طبعاً هذا صحيح، لكن علة هذا المرض ليست خارجية دائماً.. بل قد يكون له (وهو كائن أصلاً) سبب ومنشأ داخلي. من هنا علينا أن نعيد بناء تبليغنا الثقافي والفكري والسياسي في داخل الساحة الثقافية العربية والإسلامية بخاصة في ما يرتبط بتعزيز ثقافة المهدي(عج) وعقيدته وتدعيمهما. وهذا يجب أن يرتكز على رؤية واعية تملأنا بالأمل والعزيمة والإصرار والثبات والحركة والطموح، فيجب أنْ تعطى الأولوية للتأهيل الفكري الصحيح لثقافة المبلغين، أي لبناء ثقافة مختلفة عما نعيشه اليوم من حالة «تقزيم الثقافة» السائدة في كل مواقعنا الرسمية وغير الرسمية (وهذه الأولوية تشكل أحد الأهداف الرئيسية والدلالات العملية لتعميم

ثقافة المهدي). فنحن نعيش في إطار ثقافة ممسوخة وماسخة ومهمشة ومستبعدة عن الفعل والإنتاج.. ثقافة منافية لجميع القيم الإنسانية الحقيقية، سواء كانت قيم العقل أو الحق أو الجمال أو الكرامة أو العدالة. هذه القيم تكاد تكون منفية وغير موجودة بالكامل في قاموس الثقافة العربية الحالية التي تقوم بتقديمها إلى أجيالنا وتدريسها لهم في المدرسة والجامعة. لذلك يجب أنْ نهتمّ بالتكوين العلمي لثقافتنا ومثقفينا ومبلغينا. نحن نعي تماماً أنّ جوهر ثقافتنا لا ينقصه العلم، وإنما ينقصه تمثّل المناهج العقلية المضبوطة واستيعابها وممارستها، أي السعي باتجاه بناء العقل والوعي عند الفرد وعند الجماعة على أسس وركائز وحجج منطقية وعلمية[1].

وليس ما يجري الآن من عمليات تثقيف وتوعية إلاّ مجرد حشو فارغ (سواء أكان هذا عن طريق النظام التقدمي أم غير التقدمي) وإيمان بمسبقات وأحكام جاهزة واعتقادات من دون أي تفسير أو مغزى، ولا تحمل أي شرح أو تأسيس عقلاني. وفي اعتقادي أن ثقافتنا وتبليغنا الذي نمارسه اليوم، بوصفه عملاً يدعو إلى هذه الثقافة، يفتقد إلى هذا التأسيس العقلاني والمحاكمة المنطقية المطلوبة. طبعاً أنا أقصد النظام الثقافي والتبليغي الإسلامي المعاصر، أي ما نقدّمه نحن ضمن سياساتنا التبليغية وخططنا التوجيهية والتعليمية والتثقيفية للأجيال القادمة. وليس الثقافة الإسلامية منذ نشأتها حتى الآن.

---

(١) أرى من الضروري، دائماً، الإشارة إلى هذه النقطة، والتركيز عليها، لعل ذلك يحمل المواقع المعنية بذلك (رسمياً وشعبياً) على الاهتمام بها ومتابعتها ومحاولة ترسيخها في الممارسة العامة للأمة.

إننا، وفي إطار بحثنا لموضوع التبليغ الإسلامي، وأهمية إعادة بنائه على ضوء مسؤولياتنا الرسالية التي تفرض علينا ضرورة تكثيف الحديث حول قضية الإمام المنتظر عليه السلام في منطلقاتها وأدلتها ومضامينها ودلالاتها وإشكالاتها وطبيعة التحديات التي تواجهها، أقول: لا بد من أنْ نعالج مسألة الإعلام والدّعاية الحضارية بوصفها موضوعاً ارتكازياً في عملية الدعوة إلى تأصيل الثقافة المقاومة (ثقافة الانتظار الرسالي). إنّ الإنسان المعاصر كان ولا يزال يتجاذبه نوعان من الإعلام، **الأول**: إعلام بنائي أخلاقي صادق يريد تنمية الإنسان وإسعاده وتكريمه في النشأتين، **والثاني**: إعلام انحرافي هادم يهدف إلى حَرْفِ الإنسان عن مسار فطرته النقية وكرامته وقيمه العالية بالغواية والضلال والإفساد... وقد أخذ أصحاب كل إعلام (من هذين النوعين) على عاتقهم مهمة الدعوة إلى تعاليم اعلامهم ونشر ثقافته، مستفيدين من الإمكانات التقنية الإعلامية الهائلة التي وفرها العلم الحديث، هذا العلم الذي حَوّلتْ طاقاتُه الاتصالية الإعلامية الضخمة، العالمَ إلى قرية كونية متصلة من أقصاها إلى أقصاها.

إننا نلاحظ، في مجال الإعلاميات العالمية المعاصرة، أن فلسفة الإعلام في الغرب[(١)] - وربما في كثير من إعلامنا العربي والإسلامي الرسمي[(٢)]

---

(١) تنتمي دوائر الإعلام الغربي وكثير من مواقع الإعلام العربي إلى النوع الثاني، أي النوع الهادم والمنحرف الذي يعمل على جذب المشاهدين عن طريق إثارة غرائزهم ونزعاتهم المادية المنحطة.

(٢) تخضع وسائل الاتصال والإعلام في كثير من الدول العربية، باعتبارها تابعاً من توابع وزارة الإعلام، خضوعاً مطلقاً لسياسة النظام. وفي كثير من الأحيان لمزاج هذا الحكم أو

المستلب والتابع - تنطوي على تحريض دائم وحاسم من أجل تجنيد المشاهدين بالإغراء، ودعوة إلى الغوغائية وإلى الخمول[1] .. الدائر تجاه

ذاك. كما أنّ المواد والمنتجات الإعلامية، إذا صحّ التعبير، تُختار بدقة وعناية فائقتين من أجل أن تصبّ، أولاً وأخيراً، في مصلحة المحافظة على الأمر الراهن وتكريس الخنوع والخضوع والإذلال لأولي الأمر. ولا تخرج الصحافة الرسمية العربية - لكونها أحد أشكال الإعلام - عن هذا السياق؛ إذ تعد من أكثر الصحف معاناة من حجم الممنوعات وكبر مساحات الكذب والنفاق والتدجيل وضخ الغش والضّار بدلاً من السمين والمه يد. إننا نلاحظ، في هذا السياق، أن وزارتي الداخلية والثقافة تقومان بالدور نفسه. ففي الوقت الذي تقوم فيه وزارة الداخلية، في كثير من البلدان العربيّة، بتطويع العباد وإكراههم عن طريق ممارسة العنف الجسدي و«النفسي المادي»، وبالتالي مراقبة الناس جسدياً، نجد في المقابل أن وزارات ومؤسسات الإعلام والثقافة تقوم بالدور والعمل نفسيهما؛ إذ تعمد إلى تطويع الناس ذهنياً وعقلياً عن طريق ممارسة العنف «الرمزي الثقافي»، والعنف الرمزي هو أحد المفاهيم والإصطلاحات التي جاء بها «بيار بوردو»، ومعناه أن نظام التعليم يمثل في الحقيقة شكلاً من أشكال العنف الرمزي، باعتبار أن نظام التربية والتعليم يمثل - في العمق التحليلي العملي - ثقافة الطبقة المسيطرة والحاكمة، وبالتالي فهو يدعو لها ويعيد إنتاجها في كل مواقفه، أي يمارس العنف الرمزي في المدرسة والجامعة، وحتى في الحضانات ورياض الأطفال، إنه الإعلام المخادع والظالم الذي يصور للناس ما ليس لهم به منفعة، على أنه خير صاف لهم، وهو الذي ينبىء بأخبار مزيفة لا هدف لها سوى جعل الناس يؤمنون بآلهة أرضيين دون إله الوجود الواحد الأحد.

(١) معلوم أن أوروبا تعيش هستيريا الجلوس مدة طويلة أمام الشاشات الصغيرة، لمشاهدة الإعلام المحلي والعالمي الأمريكي الذي حَوّل عصر ما بعد الحداثة في الغرب، إلى حقل تجارب للإجهاز على ما تبقى من ثقافة الأنوار وتحطيم عقلانيتها واستلاب بُعْدها الإنساني، حتى أضحت الرياضة هي البديل عن الهوية الجماعية، ومفهوم الفوز - ومشاهدة البطولة والنصر - الأكثر أهمية من مفهوم التسامح واللاعنف وأنْسنةَ العلاقة بين الأفراد والجماعات.

رأي عام يغلب عليه الانفعال والعصبية والفوضى، وتتلاعب به أمواج عالية من الدعاية الاستهلاكية والإعلانات الفارغة، وأدوات نقل الثقافة الجماهيرية. وقد لاحظ بعض المثقفين الغربيين هذا الواقع وتأملوه بدقة، وشعروا بالأسى والمرارة تجاهه، كون حضارتهم تتقدم بسرعة مذهلة نحو الاضمحلال الأخلاقي، حتى أنّ كثيرين منهم راحوا يصفون نهاية القرن العشرين بأنها عودة متجددة لعصر فساد التاريخ وتدهوره، كما هو الأمر زمن انحطاط الرومان. وإن هذا التدهور موسوم بهيمنة تقنية وعسكرية ساحقة لا تحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للتاريخ والحياة والوجود. إنها فلسفة اللامعنى واللاهدف. أما بالنسبة إلى النوع الآخر من الإعلام، وهو الإعلام الإسلامي الملتزم البناء والهادف، فهو يمثل نهجاً معيناً في حركة الإعلام مستمداً من المنهج الإسلامي الفكري والعملي في المسألة الإنسانية في طبيعة الصراع العقيدية لحركة الحياة، أي أنه إعلام ملتزم بالإسلام وقيمه وأخلاقه، ينفتح على الوقائع والأحداث المتنوعة المنبسطة على كل القضايا والمشاكل العامة التي تدخل في دائرة الاهتمامات الإسلامية، سواء كان ذلك متصلاً بتركيز الإسلام خطاً ومنهجاً للحياة، أم بتحريك الواقع في دائرة مفاهيمه في ما يرتبط بقضايا العدل والحرية والمساواة والخير الشامل للناس.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن نقرر أنّ الإنسان المسلم، الذي يريد الإعلام أنْ يمنحه ثقافة المقاومة والمعرفة السياسية في جوانبها الاقتصادية والأمنية وغيرها، لا بد من أنْ يكون محيطاً بجميع آفاق الواقع الإقليمي والدولي، بالإضافة إلى الواقع المحلي المحيط به، ليكون

ذلك أساساً للتخطيط والمنهجية في التحريك الفعّال، وللوعي السياسي الشّامل في الانفتاح المدروس على عمق الأوضاع والقضايا المتعلقة بحاضره ومستقبله وتحدياته الداخلية والخارجية، في ما يمكن أنْ يتأثر به أو يؤثر فيه، في مصالحه الخاصة، أو في مواقفه المطلة على مصالح الآخرين.

إنّ من الضروري على الإعلام الإسلامي أن يكون، خصوصاً في عصرنا الحالي، إعلاماً مقاوِماً يدعم حركة المقاومة الجهادية والعسكرية[1]، ويشرح أهدافها النبيلة والسامية في طلب العدالة والتحرر من التبعية والاستلاب والاحتلال العسكري والثقافي والأمني والاقتصادي، ويعزز ثقة المسلم بإسلامه.. يدعم ويرسخ معالم المواجهة مع العدو الصهيوني وعناصرها، ويحصّن إنساننا المستضعف ضد جميع التيارات والقوى الانحرافية الضالة، ويُظْهر، بقوة، إنسان المقاومة والجهاد الواعي على طريق مواجهة جميع مخططات التآمر ضد وجود الأمة العربية والإسلامية. وفوق ذلك كله يُصَعِّد فهذا الإعلام الرسالي الملتزم من حركة الثقافة والتوعية التي تطلقها مسألة الإمام المنتظر، كأنه عليه السلام حاضر بيننا في أحاسيسنا وأعماقنا، في حياة أمتنا يوجّه وعيها ومشاعرها وطموحاتها ومسيرتها، ويركّز مواقفها ومواقعها.

من هنا يجب على القيّمين والمشرفين على إعلامنا الإسلامي فالذي يعاني من قصور كبير في طبيعة الأساليب والوسائل المستخدمة

---

(١) أي أن يكون هناك تكامل نوعي فعّال بين المقاومة الفكرية والاعلامية، والمقاومة الجهادية العسكرية..

والإمكانات المتاحة أمام انطلاقته وحركته[1]، يجب عليهم مراعاة الدقة في اختيار عناصر المادة التي يريدون تقديمها إلى الجمهور، أي عليهم التدقيق والتفحص العميق في اختيار الكلمات المعبّرة عن الأحداث الواقعة، لأن للكلمة إيحاءاتها في استجابة الناس لها ووعيهم لمداها في حركة الواقع. إننا نواجه، في هذه اللحظة الحساسة من حياة أمتنا، مخاطر جسيمة، وحتى الآن نحن لسنا على مستوى رد التحدي والمواجهة في سياستنا واقتصادنا وفي إعلامنا وثقافتنا.

من هنا يجب أن نعيش حالة طوارئ في كل مفرداتنا الحياتية، وبخاصة في إعلامنا الإسلامي الذي لا نريده إعلاماً ملتزماً بالمظاهر الإسلامية الخارجية فقط... نسجد لله على جباهنا (في المظهر) ولكننا (حقيقةً) نسجد للشيطان في عقولنا وفي قلوبنا (في المضمون). بل إننا نريد إعلاماً صادقاً وواعياً في تعاطيه مع جميع الآفاق والمواقع التي نعيشها في الحياة، نريد إعلاماً مسؤولاً يعيش الروح المنفتحة على الإنسان كله وعلى الحياة كلها، في توجيه المضمون والجوهر الاعلامي نحو هذا الأفق الواسع الذي يدفع الناس إلى الاهتمام به باعتباره مثيراً لاهتماماتهم على أساس تعبيره عن الجوانب المتصلة بتطلعاتهم وقضاياهم، سواء كان ذلك في طبيعة المادة الإعلامية المتضمنة لمشاكلهم، أم لمشاكل المسلمين المنفتحة على قضاياهم، أو في طبيعة

---

(١) إن ذلك لا يعود فقط إلى الاعلام الإسلامي نفسه الذي نعترف بأنه يعاني من سلبيات كثيرة، كما ذكرنا في المتن العام، بقدر ما يعود إلى وجود فئات واسعة رسمية وغير رسمية، تحارب الإعلام الملتزم الأخلاقي، وتواجه كلمته النزيهة والحرة المستندة إلى نهج القرآن والإسلام.

النظرة الشاملة لجميع الجوانب الإنسانية المتصلة بالقضايا العامة والخاصة، الأمر الذي يجعل منه حاجة للجميع، أم في امتداده في حركة المستقبل باعتبار الإعداد لكثير من العناصر الحيوية العامة التي تتوقف عليها بعض تطلعات المستقبل، مما تكون مقدماتها أو إيحاءاتها ومواقفها موجودة في الحاضر، لأننا نعرف أن الإعلام السياسي والروحي والجهادي (أي المقاومة) يخلق الكثير من الفرص العملية للمشاريع المستقبلية على صعيد الواقع الممتد في رحاب الزمن كله.

إن المسؤولية الخطيرة التي تلقيها تلك المهمات والواجبات الكبيرة، على عاتق النخب الملتزمة إسلامياً، توجب أن يأخذ إعلامنا بأسباب التطور الحديث في أساليب الدعوة والإعلام[١]؛ وذلك من خلال التخصص العلمي الذي يمنح صاحبه قدرة على مراعاة الدقة في جميع مواقع الإعلام والعمل الدّعوي. وبخاصة أن الإعلام قد تحول، حالياً، إلى علم واسع الآفاق يشتمل على القواعد التقنية والفنية التي تركز الثقافة الإعلامية على قواعد فكرية وعملية واسعة. لذلك يجب أن ينتفع إعلامنا، بالسرعة القصوى، من وسائل الإعلام الحديثة؛ إذ إن الباطل والشر قد يتراءيان حقاً وخيراً لدى قطاعات واسعة من الناس نتيجة الضغط الإعلامي، والكثرة الخبرية، والتكرار المبرمج. من هنا تتضح أهمية استفادة أتْباع «النهج الحق» من وسائل التأثير الحديثة. وضرورة ذلك،

(١) إننا، في هذا المجال، نثني على مواقعنا الإسلامية الرفيعة التي أخذت بأساليب الإعلام التقنية الحديثة في عملية الدعوة والإبلاغ... أي التي انفتحت على الإعلام الحديث من أوسع أبوابه، وتعاطت، بوعي عميق، مع مقتضيات المرحلة الإعلامية وما تلقيه من تبعات على مستوى الفرد والأمة.

فالحق الساكت لا يُعرف ولا يُتّبع بحد ذاته. في هذا المجال تكون الاستفادة المدروسة من خلال العمل على خطين:

الأول داخلي: أن نقوم بتحصين الحالة الداخلية للمسلمين وتوعيتهم بحقيقة الدين الإسلامي وجوهره وشخصيته وتراثه وقيمه والتركيز على ثقافته المقاومة، **والثاني خارجي**: وذلك بتعريف الإسلام لغير المسلمين ونشر صورته الناصعة في أنحاء العالم. من هنا نقول: إن حاجتنا إلى إعلام مبني على روح ديننا وأخلاقه، وعلى روح المنجزات الإنسانية النبيلة لهي حاجة مُلحّة وضرورية في ظروف عصرنا الراهن، الذي بتنا نعاصره في زحمة الحياة واشتداد أحداثها، وتسارع وقائعها، ولسوف تتوقف عليها (على تلك الحاجة) نتائج صراعنا مع أنظمة القوة والاستحواذ. ولما كان هذا الصراع يعبّر، في حقيقته، عن تنافس حاد بين أنظمة قيم كونية، يجب أن نمارس فيه أقصى درجات الحذر والوعي لفكرنا ورسالتنا، ونبيّن للآخرين (خاصة للشعوب الغربية)[1] - في هذه الأجواء التنافسية والصراعية - أن الإسلام دين منفتح

(١) علينا أنْ نَدْخُلَ ففي إعلامنا، وثقافتنا، وحركيتنا العامة في حوار جاد وموضوعي مع تلك الشعوب (بمختلف تياراتها الفكرية ومثقفيها وعلمائها ونخبها) غير المحكومة بفكرة القوي والضعيف... المتقدم والمتأخر.. فإننا نشعر بضرورة محاورتها بالكلمة، والموقف الهادىء. وأن نصبر على هذا الحوار، لأن هذه الشعوب قد اختزنت في داخل شخصياتها الكثير من التعقيدات والأفكار السلبية حول الإسلام والمسلمين بفعل الإعلام المضاد، وبفعل الواقع المتخلف الذي تعيشه بعض البلدان الإسلامية، وبفعل الظلم والقهر اللذين يعانيهما الناس من قبل أنظمتنا السياسية. إن هذه المسائل يجب أن نثيرها بقوة ووعي في إعلامنا الإسلامي، في ظل واقعنا الحالي المليء بالقلق والفوضى النّفسية والعملية والذي يخطط فيه الغرب، الرسمي السياسي، ويتحرك - بإداراته ومراكز بحوثه ومخابراته - من أجل أنْ يسيطر على كل مواقع الإسلام والمسلمين في ثرواتهم واقتصادهم وسياستهم وأمنهم ليجعله تابعاً له في إطار علاقة القوي بالضعيف والمستكبر بالمستضعف.

وعقلاني في طرحه الفكري، وأسلوبه للحياة والحركة والوجود، وأنه ليس دين عنف وإرهاب وتخلّف كما يُصوّره الإعلام الدولي، وأنه لا يمارس القوة والجهاد والمقاومة إلاّ كما مارستها (وتمارسها) شعوب العالم الأخرى، وقائياً ودفاعياً، عن وجودها وأرضها وكرامتها وحريتها، لأن الرفق هو الأصل عنده.. وأنه دين إنساني يحترم إنسانية الإنسان ويهتم بالداخل الإنساني، ويحترم شخصية الفرد وحريته ويقر به خليفة لله في الأرض. ويدعو إلى التعارف والتواصل والتفاهم مع ثقافات الآخرين وحضاراتهم. ولا يدعو، أبداً، إلى إلغائها والاستعلاء عليها. ويؤكد على التقوى والعمل الصالح باعتبارهما معيار القرب والكرامة بين الجميع، ويؤكد في الوقت نفسه على الحوار المؤسس على المنطق والعلم والعدالة، لأن ذلك هو رسالتنا في الانطلاق إلى العالم كله، لندعو إلى الإسلام بالوسائل التي تنفتح على عقول هؤلاء وقلوبهم، لأن الدعوة إلى الله وقيم الإسلام والتعريف بحقائق الرسالة وأهدافها وتأصيل منطقها الحضاري الطموح والعالي تفرض علينا أن نشرح للناس أركان الإسلام وحقائقه ومواقفه في عقائده وشريعته وواقعه الثري والأصيل.

رابعاً: أهمية المنهج العلمي والموضوعي في تركيز ثقافة الانتظار الرسالي (الثقافة المقاومة)

لقد عاش إمامنا المنتظر عليه السلام حياته، ولا يزال يعيشها، من موقع التخطيط والهدفية والمرحلية من أجل الوصول إلى أهداف الإسلام وتحقيق قيمة الرسالية الأصيلة[1]. لذلك نؤكد - في سياق وعينا لهذه

---

(١) إننا عندما ندرس الإمام الحجة(عج)، في مرحلتنا الراهنة، التي نعايش مفاهيمها وتلوناتها واختلافاتها، فإننا نريد أن ندرس طبيعة الخطوط الفكرية التي أرادنا عليه السلام أن ننطلق باتجاهها ونستهدي بها على خط الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.. لأن دورنا، أمةً

المسألة - أنه بات واجباً علينا، في خضم تحدياتنا وأزماتنا وانكساراتنا وهزائمنا، أن نبدأ العمل والحركة باتجاه الأفق المطلوب بكل امتداداته في الواقع المعاصر من خلال التخطيط المرحلي المركّز للفكرة والمبدأ والقيمة، لأن قيمة ما نلتزمه، نظرياً، ينبغي أن يتحول إلى كائن حي يتحرك في الخط العملي الإنساني، وذلك في وعيه والإيمان به، ومن ثم التزام مفرداته التي ترتبط - في الأساس - بحركية الهدف الكبير والطموح، في امتداد الوجود ورحابة الحياة.

لذلك، وطالما أن الهدف هو تحقيق مشروعنا وفكرنا في العمل والدعوة والهداية - في تعميق روحية الانتظار الإيجابي الرسالي الهادف في ذهنية المجتمع، والسعي الدؤوب والصادق لبناء المجتمع المهدوي المعصوم «التمهيد الحركي الفعال» - فلا بد من أن نعمل بوعي وضمن خطة مرحلية حكيمة ومتوازنة، على أن ندخل إلى عقول الناس وأفئدتهم، وأن نعيش جميعاً «دعاة رساليين» تجربة الواقع العملي وحسه، ونبض عصرنا وأسلوبه، أي أن يفهم الداعية لغة عصره وثقافة زمنه الراهن[1].. أن يفهم لغته ولغة الآخرين، لا أن يسقط تحت تأثير قيم عصره ويتحجّم (ويتحجّر) في ممارسته لقيمه.. ولكن أن يفهم عصره جيداً، أن يفهم حساسيته وذهنيته ونقاط ضعفه ونقاط قوته، حتى يكلّم الناس بلغتهم بعيداً عن التصنع والمغالاة والتكلّف، فالذهنية لغة والجو

ومجتمعاً وأفراداً في علاقتنا مع فكرنا ومع أئمتنا، هو دور الأمة التي تعيش مع أهل البيت عليهم السلام في امتداد حركتها في الحياة، وفي تصوراتها الفكرية والمفاهيمية، وفي علاقاتها بجميع المسؤوليات التي تتحملها، وفي معرفتها العميقة بالقيم الإسلامية..

(١) نبيل علي صالح، وجع الحرية، ص ١١٤ (مخطوط).

لغة. لذلك نقول: نحن مسلمون، ومشروعنا حضاري منفتح، ولكن علينا أن نطوّر هذا الخطاب (المشروع) بحيث نُبقي له مضمونه الإسلامي الذي يطل على القضايا المعاصرة من دون إسقاط أو تشويه لمعالمه وخصائصه. وبالمقابل، ومن دون أن نبتعد عن لغة العصر وأسلوبه، نحاور الإنسان.. نعيش في قلب الساحة ونطلق خطابنا ومشروعنا الثقافي والسياسي التغييري العام في جميع قضايا الصراع من دون أن نفقد أي شيء من إسلامنا ومن طهارتنا ومن نقائنا، شريطة أن نكون المسلمين الواعين الذين يعيشون في واقع التحدي ورد التحدي المعاصر في حالة طوارئ في فكرهم وفي أسلوبهم وفي وعيهم للواقع، وفي حركتهم من أجل هذا الواقع.

من خلال هذا المضمون، نجد أن تركيز الإسلام على ضرورة الالتزام بالنهج العقلي الحكيم والمتوازن في إطار الدعوة إلى تأصيل ثقافة الانتظار الرسالي وقيمه وأبعاده في وعي الأمة الإسلامية، في محاولة منه لضبط نزعات الإنسان وعواطفه وانفعالاته يقدم لنا منهجاً علمياً وموضوعياً في دراسة حالات العصبية والانفعال والتشنج التي تضج بها ساحتنا العربية والإسلامية، والتي تطبع شخصية الكثير من العاملين للإسلام في هذه الظروف، ما أدّى إلى أن يأخذ العمل نفسه هذا الطابع (الطابع الإنفعالي). ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الظاهرة على مبادرات العمل والانتاج وعلى نوعية الرؤيا للواقع والأشياء والأشخاص، فيفقد العاملون وضوح الرؤية، وتختلط الصورة الحقيقية في العيون، وترتبك الخطوات في الطريق، لأن الانفعال يُغرق الشخصية في أجواء ضبابية، غارقة في السحر والإغراء في جانب آخر، لأنه يتعامل مع الإحساس

والشعور والعاطفة، ولا يتعامل غالباً مع الفكر والعقل، الأمر الذي يجعل للسرعة دورها الكبير في ما يصدره من حكم، وفي ما يخلقه من انطباع، وفي ما يتجه إليه من غايات. وبذلك يفقد الحكم حيثياته الهادئة المتزنة، ويغيب التركيز عن الانطباع في غمار الضباب[1]. من هنا نجد ضرورة أنْ يتحرك الإسلاميون في الخط الثقافي والسياسي ليقدموا الإسلام إلى الإنسان المعاصر بوصفه خطاً فكرياً عاقلاً ومستنيراً[2] يملك مذهباً واسعاً

---

(١) العلامة السيد محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، ص ٢٩٤.

(٢) إننا، في هذا الصدد، نحيي الدعوة الإسلامية الأصيلة والمباركة التي أطلقتها قيادة حزب الله في لبنان على لسان أمينها العام سماحة السيد المجاهد حسن نصر اللّه، في ضرورة أن ينفتح الإسلاميون على الواقع، وأن تتصالح التيارات الوطنية والقومية والإسلامية، شعبياً ورسمياً، مع بعضها بعضاً على قاعدة وجود أولوية قاهرة في التصدي المشترك للمخاطر المصيرية التي تهدد مستقبلنا فوق أرضنا.. ودعوته إلى تقديم خطاب إسلامي حضاري مستنير، ونموذج راق ومتطور ومتلألىء لحركة إسلامية ينظر إليها العالم فيحاول أنْ يقرأ الإسلام صحيحاً بأعلى نسبة ممكنة. ونحن نعتقد أنّ أهمية هذه الدعوة التصالحية الحضارية تكمن في كونها قد انطلقت في اللحظة المناسبة على لسان مجاهد ارتدى - بشهادة نجله الأكبر - جلباب الشهادة، وتعزّز بتجربة غنية وثرية لـ«حزب الله» في المقاومة والجهاد وممارسة أقصى درجات الوعي الفعّال للظرف الواقع والحدث المستجد. إنّ إطلاق هذه الدعوة يعبر عن ارتقاء في مستوى الوعي السياسي والفكري عند قيادة حزب الله، وتَطَهّر من النرجسية التنظيمية، وتنبّه إلى فداحة الأخطاء التي ترتكب أو تنسب إلى الحركات الإسلامية العاملة على أراضي الوطن العربي والعالم. إننا نجلّ ونكبر مواقف حزب الله وتضحياته ومقاومته الإسلامية الباسلة في لبنان.. وقدوتها الحسنة ونموذجها الفريد، الذي جاء لبنان كله ومعظم العرب والمسلمين (في إشارة إلى الحشود الهائلة من البشر التي جاءت لتهنئة نصر الله بشهادة ولده الأكبر) ليقروا بأنهم ومنذ زمن بعيد لم يعرفوا في قيادتهم مثل هذا الإخلاص المشفوع بالوعي أو مثل هذا الإيمان الراسخ بالقضية، ومثل هذه الشجاعة والقوة في مواجهة العدوان

في السياسة والاقتصاد والاجتماع، بحيث تكون له رؤية منهجية واسعة عقلانية ودقيقة لكل الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يتخبط فيه الإنسان.

ولا يعود الإسلام مجرد فتاوى ضبابية متناثرة هنا وهناك، أو مجرد قيم حماسية انفعالية ليس لبعضها أدنى ارتباط ببعضها الآخر أو بالواقع، مع العلم أن الثقافة الإسلامية قادرة على أن تستجيب لتحديات العصر الراهن، وأن تخطط للمنهج العملي وترسمه، وأن تصنع جميع المعالم والعناوين التي يمكن من خلالها حل مشاكل الإنسان على كافة الصعد والمستويات. إنها ليست مشكلة الفكر الإسلامي والمعرفة الإسلامية، ولكنها مشكلة العاملين والدعاة إلى هذا الفكر في وعيهم وفي أسلوبهم وفي إرادتهم.

خاتمة البحث.. (انتظار المجاهدين)

إن الإلتزام بثقافة المهدي(عج) ورسالته وخطه لا يعني أن نعطل حركتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية داخل الأمة.. كما ولا يعني، مطلقاً، أن نُوقف نشاطاتنا وأعمالنا الرسالية في الدعوة إلى الله والوقوف في وجه الظلم والاستكبار، ومحاربة الفساد والانحراف، لأن ذلك العمل يجمد مسؤولياتنا الرسالة (الفكرية والجهادية) في داخل الشخصية الإسلامية، ويصادر أدوار الرسالة ومواقفها وطموحاتها وغاياتها الإنسانية النبيلة.

الصهيوني العاتي المتلازمة مع معرفة تفصيلية ودقيقة لنقاط ضعفه التي لا يمكن أن يخفيها تفوقه العسكري المطلق (راجع السفير، ٢٨ر٩ر١٩٩٧م).

من هنا، فالمطلوب - في وعينا لمسألة الأبعاد الرّساليّة للانتظار - هو:

١- أن نهيىء أنفسنا جميعاً لاستقبال المهدي عليه السلام كأنه سيقوم غداً؛ وذلك من خلال إعداد أنفسنا إيمانياً وعقائدياً وفكرياً وثقافياً وروحياً وسلوكياً وسياسياً وجهادياً ورسالياً. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق، وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده، كان له من الأجر مثل أجر من أدركه، فجدّوا وانتظروا...**»[١].

٢- أن يكون إحساسنا بقضية الإمام المنتظر عالي المستوى في الفكر والممارسة، فنركز ذلك في وعينا وسلوكنا من خلال الارتباط الفعّال بالقيادات التي تجسّد خط الإمام(عج) في الساحة[٢]، والتي تعد امتداداً رسالياً موضوعياً لقيادته عليه السلام، أي التي تكون على صورة الإمام المنتظر في علمه وروحيته وشجاعته ووعيه وأخلاقه ورساليته المنفتحة على الإنسان كله وعلى الحياة كلها، لتعيش (تلك القيادات) الهم الكبير للناس كافة، ولتكون جميع طاقاتها في خدمة قضاياهم الكبيرة باعتبار أنهم (أي الناس) ساحة رسالته وجنود حركته ومنطلق مسؤوليته.. وهذا هو الذي يعطي حركتنا، في جميع الاتجاهات، المصداقية (الشرعية)، والضمانة الحقيقية لصيانة الخط وحمايته من الضياع والانفلات والانصهار (الذوبان) في قيادات منحرفة وغير شرعية تتناقض مع أهداف العقيدة المهدوية ومبادئها.

---

(١) سفينة البحار، ج٥٢، ص ١٤٠.

(٢) ممن تتوافر فيهم الخصال التالية التي ذكرها(عج) في هذا الحديث: «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه».

٣- ضرورة أن يتحلى العاملون على هذا الخط بالصبر الواعي العميق والواقعية الرسالية الهادئة لأنه إذا كنا نريد أن نجعل من انتظارنا انتظار المجاهدين الصابرين، فلا بد لنا من أن نرسم الخطة الفكرية والسياسية على أساس ربط الحاضر بالمستقبل، بحيث نتحرك على خط سياسة النفس الطويل القائم على الصبر والحكمة والتوازن والفهم العميق لجميع الظروف المحيطة بالواقع، ولجميع الأوضاع المتغيرة المتحركة في تعقيدات الحاضر والمستقبل، لنستطيع الاستمرار في خط الدعوة والجهاد، الذي تتلاحق محطاته، وتتواصل أجياله حتى تلتقي بالقائم المؤمل والعدل المنتظر الذي يقيمه إمامنا الحجة عليه السلام على الأرض ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً[1].

(١) في إشارة إلى الحديث الشريف: «أبشّركم بالمهدي يُبْعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلزال.. فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».. راجع: مسند أحمد، ج٣، ص ..٣٧ ط: ١٣١٣هـ وراجع: صحيح سنن المصطفى لأبي داود، ٢٠٧/٢، وراجع: التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف، ٣٤٣/٥.

إنتظار المنقذ في الثقافة الشيعية

بين الفرضية والادعاءات

د. محمد حسين حبيب

تبوأت ظاهرة الانتظار مكاناً بارزاً في الفكر الإنساني الذي حاول أن يشطر هذه الظاهرة شطرين: الأول غيبي، والثاني علمي. ومن جراء هذا الانشطار توقف بعضهم بإزاء هذه الظاهرة بمحاولة الفرض وطريق الاستدلال المرتبط بما هو غيبي تارةً، وعلمي تارةً أُخرى. وبعضهم الآخر اتخذ من الظاهرة نفسها واجهة (ادعائية) نظراً للمساحة الكبيرة التي تبوأها الانتظار بين الأوساط المجتمعية كافة، لذا جاء (الادّعاء) من بعضهم بأنه ذلك المنتظر على وفق الفرص والإمكانيات المتوفرة، والأهداف المبيّتة سلفاً لهذا الادّعاء.

محاولة الفرض قدمها (ناجي النجار) بفرضيته التي فحواها بأنّ (مثلث برمودا) هو المنطقة التي يعيش فيها الإمام الغائب المهدي المنتظر، وبطريقة الإعجاز الإلهي، لما تمتع به هذا المثلث من شهرة عالمية حتى غدا لغزاً محيّراً من الألغاز المستعصية على العلم الإنساني، نتيجة للحوادث الغريبة التي تقع للطائرات أو السفن المارة من خلاله.

أمّا الادعاء فجاء نتيجة لحالة الانتعاش التي مرت بها ظاهرة الانتظار على المستوى الديني والاجتماعي والسياسي، الأمر الذي أدى بالضرورة الى ادعاء عدد من الأشخاص بأنهم ذلك المنقذ المنتظر أو بأنهم يعلمون الغيب بموعد ظهوره بالزمان والمكان، وكان لهم في ذلك المآرب والأغراض الذاتية النفعية. وما بين الفرض والادعاء شكل الانتظار لدى عدد من الحركات الجماعية محطة خلاص آمنة حين استندوا إلى قهر الأنا فيهم والذاتية، وصولاً لآصرة جماعية توحدهم بالكون وبالوجود الإنساني برمته.

نبدأ مع الفرضية[1] ومثلث برمودا، وهل هو فعلاً المنطقة التي تأوي المهدي المنتظر ومن معه؟

يقع مثلث برمودا جغرافياً في المحيط الأطلسي، وهو عبارة عن بقعة كبيرة «ويقع هذا المثلث قريباً من أحد أذرع المحيط الأطلسي الغربية وهو البحر الكاريبي محصوراً بين جزر برمودا وجزر فلوريدا وجزر بورتوريكو والبهاما، مشكّلة بذلك مثلثاً وهمياً تبلغ مساحته ٧٧٠ الف كيلو متر مربع، أي بقدر مساحة العراق مرتين...»[2].

---

(١) «الفرضية Hypothesis هي عبارة عن استنباط يعتمد على جملة حقائق نستطيع من خلالها استنتاج وجود الشيء أو معرفة سبب الظاهرة دون وجود البراهين الموضوعية لذلك ... وينبغي على (الفرضية) أن تعبر عن شيء محتمل الوقوع ، بمعنى آخر أن الفرضية تتسم بصفة الاحتمالية ..». إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع: ٤٩٠-٤٩١ ، ط. الأولى، الدار العربية للموسوعات - بيروت ١٩٩٩.

(٢) ناجي النجار، الجزيرة الخضراء وقضية مثلث برمودا: ٢٥، ط. الثالثة، دار البلاغة - بيروت ١٩٩٩.

سمّي هذا المثلث نتيجة لحوادثه المفزعة بتسميات عديدة دالة على الخوف والهلع واللعنة والعجز عن اكتشاف السر، من هذه المسميات نذكر : مثلث الشيطان، ومثلث الموت، وبحر الاشباح، ومقبرة الأطلسي، وبحر السفن المفقودة، وبحر الرعب، ومقبرة السفن، و(المثلث الإلهي)، وهذه التسمية الأخيرة لها ارتباط بالفرضية التي سنتحدث عنها، والمرتبطة بالمهدي المنتظر، حيث يفترض النجار أن هذه المنطقة هي التي يعيش فيها الإمام الغائب هو وأعوانه وناسه، فكيف اُفترضَت هذه النظرية؟ وما السبل والأدلة التي تقوّمها؟

وقبل أن يطرح النجار فرضيته يستعرض ست فرضيات علمية حاولت حل اللغز العجيب مثل : فرضية الشذوذ المغناطيسي، وفرضية المطبات الهوائية والمائية، وفرضية الاشعاعات النووية، وفرضية الذبذبات فوق الصوتية، وفرضية الشلالات البحرية، وفرضية الشقوق في قاع المحيط[1]. ثم يطرح النجار فرضيته بوصفها فرضية سابعة، عساها أن تكون حلاً لمشكلة المثلث على حدّ قوله، وسَمّى فرضيته هذه بـ (فرضية

(١) للمزيد ينظر : المصدر السابق :٨١ ـ ٩١. يشير الباحث الى أنّ الطبعة الأولى كانت عام ١٩٧٩ في بغداد.. مع الإشارة إلى المصادر العديدة الاخرى المختصة بالموضوع نفسه نذكر منها : (مثلث برمودا) للعالم الأمريكي تشارلز بيرلتز، و(الزوار الغامضون) للعلامة برنسلي ليبوير ترينج، و (الكوا من الخفية) للعالم الامريكي ايفان لي سندرسن، و(كوكبنا المسكون) للباحث جون اكيل، و (مثلث برمودا والأطباق الطائرة) لرياض مصطفى، و(مثلث برمودا بين الحقيقة والخيال) اوليفر لورانس. ولمعرفة المزيد من الحوادث مثل : اختفاء سفينة روسالي ١٨٤٠، واختفاء اليخت كوينمار ١٩٥٦، والمقابلات التي اجريت مع من شهدها ينظر الجزيرة الخضراء : ٥٧.

الجزيرة الخضراء)[1]، وإلى جانب فرضيته يفترض أيضاً أنّ ما نسمع به من الصحون والأطباق الطائرة، بوصفها لغزاً محيراً آخر، وغيرها من الأشياء والأجهزة الطائرة، ما هي إلا من ممتلكات سكان هذه الجزيرة الخضراء، المنقطعين إلى الاخلاص لله «بعد أن تركوا مجاورة القوم الذين غضب الله عليهم، وعاشوا مع الامام الحجة ﷺ ..»[2].

لقد انطلق النجار في وضع فرضيته من مبدأ أنّ العلم لا زال في بداية الاكتشافات، وأنّ العلم ما زال مشحوناً بالمواد الخفية، وأنّ في الأسرار المستودعة فيه وجودات حية تعيش على الأرض، ولا يحس بها ابناء إلأرض، تعيش عليها ومصونة بطاقات تخفيها عن عيون الناظرين، وتحفظها عن فضول الباحثين عن خفايا هذا الكون، ويعتقد الهاشمي، أنّ مؤلف ألف ليلة وليلة لم يشذ في تفكيره عن الحقيقة حينما صور له خياله الواسع (طاقية الإخفاء)، وكيف أنها تحجب لابسها عن العيون، فهو يقول : «فإنّي انتظر ذلك اليوم الذي يلبس البشر فيه تلك الطاقية، كما انتظر اليوم الذي يكتشف فيه العلم المادة التي تصرع مادة الاخفاء فيها، وليكن الإمام الغائب يعيش في ذلك الجو وهو مصون بمادة الاخفاء يعيش في عالمه المستور فيرانا ولا نراه»[3].

---

(١) الجزيرة الخضراء: «جزيرة يسكنها الإمام المهدي ﷺ مع أهل بيته والمُخلِصين من أصحابه ، زارها الشيخ علي بن فاضل في نهاية القرن السابع الهجري وحدثنا عنها في قصته ...». للمزيد ينظر : ناجي النجار ، المصدر السابق :٩٢. هذه القصة هي التي اعتمدها النجار لوضع فرضيته.

(٢) ناجي النجار، مصدر سابق: ١٧١.

(٣) محمد جمال الهاشمي، مشكلة الإمام الغائب وحلها:٢٧، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف ١٩٥٨.

إنّ (مادة الإخفاء) هي فرضية أُخرى استند إليها النجار في فرضيته، محاولاً اكتشاف المادة التي تصرع مادة الإخفاء ليتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ الإمام الغائب ومَن معه قد يكونونَ يرتدون تلك الطاقية السحرية البعيدة عن التصور العلمي والعقلي لها.

صحيح أنّ العلم لا يمكن أن يحسم كل شيء بسهولة وخاصة الأشياء غير المؤكدة علمياً، ولكن «روح الفن، وروح الاستهداء بالحدث الخارق، والمكان المقدّس من شأنها أن تدفع الآخرين لأن تنسج حوله ما يربطه بمفهوم القداسة، وما يرتبط به من غيبيات وخوارق لا يدركها العقل المجرد»[1]. ولعل النجار استند في فرضيته إلى هذا المفهوم، حيث إنّ (الجزيرة الخضراء) بوصفها مكاناً قد أضفى عليها القداسة : شخصاً ومكاناً وعقيدة مهدوية.

لقد أشار كولن ولسن إلى أنّ «أول من أدرك أنّ وراء هذه الحوادث لغزاً مخيفاً هو صحفي يدعى (فنسنت كادس) الذي كتب مقالة عام ١٩٦٤ في مجلة (اركوسي) الأمريكية تحت عنوان (مثلث برمودا المميت).. »[2].

لقد أشار كولن ولسون إلى نموذج واحد من الحوادث التي وقعت فعلاً في مثلث برمودا، فيذكر انه :

«بعد ظهيرة الخامس من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥ أقلعت

---

(١) فاروق خورشيد اديب، الأسطورة عند العرب، جذور التفكير وأصالة الإبداع:٥٠، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، العدد ٢٨٤لسنة ٢٠٠٢.

(٢) كولن ولسن، موسوعة الالغاز المستعصية، :٣٥، ترجمة : مالك فاضل البديري، ط.الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن ١٩٩٤.

خمس قاصفات طوربيد (افنجر) من قواعدها في فورث لودردال ـ ولاية فلوريدا ـ في رحلة استطلاع جوية عادية لمدة ساعتين فوق الأطلنطس بقيادة الرائد جارلس تيلور يرافقه أربعة طيارين تحت التدريب، كان القصد من ورائها زيادة عدد ساعات طيرانهم دون مُشرف ... في الساعة ٣,٤٥ تسلم برج المراقبة رسالة من القائد تيلور : (حالة طوارئ يبدو اننا ظللنا طريقنا لا نرى أرضاً يابسة أُكرر لا نرى أرضاً يابسة ...)، إلى جانب عدم تحديد الموقع وأجهزة الطائرات أصابها الجنون.. وإرسال فريق إنقاذ ... ولم تمض سوى ثلاث وعشرين دقيقة حتى أومضت السماء من جهة الشرق ببريق وهاج لبرهة واحدة، تلاشى بعدها الطيارون الخمسة و(مارتن ماركس) إلى الأبد. لقد اختفوا تماماً كما اختفت قبلها السفن والطائرات في المنطقة التي عرفت بـ(مثلث الشيطان) أو مثلث برمودا»[(١)].

ويشير الباحث إلى تناول الأشرطة السيمية العالمية في أفلامها هذا اللغز المحير، مثل الفلم السوفيتي (المغامرات الجديدة للقبطان فرونجل) ضمن أفلام الخيال العلمي وغيرها إلى جانب عدد كبير من الكتب والدراسات التي توقفت كثيراً ومليًاً أمام هذا اللغز المحير[(٢)].

مما تقدم يرى الباحث، أنّ فرضية النجار فرضية قريبة من التأمل الفلسفي، ومحاطة بنفس أُسطوري متخيل، وأنها في الوقت نفسه بعيدة عن التفسير العلمي والعقلي، مع اعتراف الباحث بوجود (الغيبيات) التي

---

(١) المصدر السابق: ٣٣-٣٤.

(٢) للمزيد ينظر : اوليفر لورانس، مثلث برمودا بين الحقيقة والخيال، ترجمة : تركي إبراهيم ط. الأولى، دار أُسامة للنشر ـ عمان ـ الأُردن ١٩٩٨.

تمتلك مسوغات غيابها، ومعجزات اغراضها، وقداسة نواياها، إلى جانب تيقن الباحث من أنّ « الفرض يتطلب في حالات كثيرة وضعاً فيه قدراً من الخيال والتأمل»[1] ؛ ليشكل بداية للفرضية جدير بها أن تنتهي هذه الفرضية إلى إيجاد مقوماتها العلمية ودلائلها وسبل الارتقاء باثباتاتها القريبة من العلم والعقل والبعيدة عن التأمل والخيال، إلاّ أنّ النجار في فرضيته كان متأملاً خيالياً منحازاً إلى إيمانه بطريقة لم يستطع جراءها التوصل إلى تقديم أدلة ثبوتية تدعم الفرضية، وتوسّع مديات الإيمان التي تحيط بها.

أمّا ما يتعلق بمسألة (الادّعاء) التي جاءت نتيجة لحالة الانتعاش التي أحاطت بظاهرة الانتظار على مرّ العصور المتعاقبة كما أسلفنا، فلقد أخذ بعض الناس ـ باختلاف عصورهم وجنسياتهم وأديانهم ومعتقداتهم ـ الادّعاء ... على أنهم (المنقذ المنتظر)، مستغلين انتشار الفكرة التي أصبحت ظاهرة عامة يعتقد بها الجميع، ومستغلين وضعاً معيناً يمّر به الناس اقتصادياً كان أو سياسياً

---

(١) السيد نفادي، السيموطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عند كارب:٧٠، مجلة عالم الفكر- الكويت، العدد ١، مجلد ٣١ لسنة ٢٠٠٢. ويرى السيد نفادي «إنّ الفرض لا يتأسس عن طريق التأمل الفلسفي، وإنّما عن طريق مناهج العلماء القادرين على تحقيق هذا الفرض أو ذاك، وبالوسائل العلمية المتعارف عليها فيما بينهم. وصحيح كذلك أنّ التقدم الذي يحرزه الإنسان في المعرفة إنّما يعزى إلى العلم أكثر مما يعزى إلى التأمل الفلسفي، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من القول إنّه في حالات كثيرة يتطلب وضع الفرض قدراً مناسباً من الخيال والتأمل..»، ويستشهد نفادي بفرضيات علمية سابقة تحققت بعد فرضها، مثل : «فرض مركزية الشمس الذي قال به ارسطرخس الساموسي كمقابل لفرض مركزية الأرض الذي قال به أرسطو وبطليموس أو النظرية الذرية عند اليونانيين القدماء». انظر المصدر السابق نفسه.

او اجتماعياً، باحثين عن شهرة وتبوّء مكانة مهمة من أجل أهداف ـ على الأغلب منها ـ شخصية ليس إلاّ. والقسم الآخر لم يدّع لنفسه، بل راح يتنبأ بموعد ظهور المسيح مثلاً باليوم والشهر والسنة، أمّا القسم الثالث فاستند إلى انتظار المنقذ المخلص بوصف ذلك بشارة نبوية أكدتها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة أولاً. وثانياً: اعتمادهم على تحقق عدد من العلامات المروية والمسندة الملموسة منها والمحسوسة التي تمهد لظهور المنقذ المنتظر، كالذي هو حاصل فعلاً مع المسلمين الشيعة الإمامية الاثني عشرية في انتظار محمد المهدي ابن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام.

يذكر أحمد سوسة أنه «.. في عام ٦٤٠م ادّعى شاب يهودي من بيت آراميا من قرية الفلوجة بالعراق أنه المسيح المنتظر، وقد تجمّع حوله حوالي ٤٠٠ شخص من مختلف المهن، وحرقوا ثلاث كنائس وقتلوا عمدة المنطقة. ولما بلغ خبر هذا المسيح وأعوانه أرسلت السلطة ثلة من الجيش اعملت فيهم بطشاً وتقتيلاً، وقُبض على المسيح المنتظر وأُعدم..»(١).

ومن أُولئك الأدعياء في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى، دجال ظهر في الشام في آخر خلافة عمر بن عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤)م، وآخر من بلدة شيرين ادّعى أنه المسيح المنتظر، ووعد بأنّه سيحقق معجزة استعادة فلسطين. وفي القرن نفسه ظهر يهودي آخر من أصفهان يدعى عبيد الله أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، ابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أُميّة مروان بن

---

(١) أحمد سوسة: ١٩٩.

محمد (٧٤٤-٧٥٠م)، وقال: إنّ عودة فلسطين لن تتم إلاّ بالقتال، وأعدّ جيشاً من اليهود، وقد عاشت حركته مدة من الزمن في عهد السفاح، إلاّ أنّ الخليفة المنصور قضى على الحركة، وهزم جيش اليهود، وفر أبو عيسى باتجاه الشمال[(١)].

أمّا قورش الأول الذي ظهر في إيران، سنة ٥٨٦ ق.م «يريد أن يؤسس إمبراطورية على أنقاض الإمبراطورية الكلدانية المتداعية، فساعده أُولئك اليهود الحاقدون واعتبروه مخلّصاً ربانياً لهم، ووصفوه بأنّه المسيح المنتظر... أمّا هذا المسيح المنتظر فقد أعطى لليهود وعداً بالعودة إلى فلسطين، يشبه وعد بلفور في العصر الحديث. وهكذا أصبح للقوم كيان في فلسطين في ظل هذا الاستعمار القديم...»[(٢)].

من جانب آخر أسهمت بعض الحركات العالمية بانتظار موعد الخلاص الأخير، لكنها حاولت أن تكون خارج دائرة الادّعاء، مقتربة من تصورات اعتقادية قاطعة ذات طابع يؤمن بأزلية واستمرار الانتظار وحتمية وقوع الهدف المنتظر. من هذه الحركات : حركة New age (العصر الجديد) التي أسّسها شخص يُدعى شارل تازه رسل (١٨٥٢ ـ ١٩١٦م)، وهو تاجر من مدينة بتسبرغ، هذه الحركة لا تحمل تصورات حول هلاك العالم، وتعوض عن هذا النقص بشوق جارف إلى عالم جديد مسالم وسعيد ... ويقولون إنّ الشيء الرئيس للإنسان هو قهر أناه الفردية والتوحّد مع الوعي الكوني العام ... كما يؤمن أتباع هذه

---

(١) للمزيد ينظر : المصدر السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(٢) حسن ظاظا، الشخصية الاسرائيلية:٤١، مجلة عالم الفكرـ الكويت، العدد ٤ لسنة ١٩٨٠.

(الحركة) إيماناً شديداً بأنّ عدداً متزايداً من البشر سيسير على طريق الكشف الداخلي، طريق الخلاص، وسينشأ عالم جديد أكثر جمالاً من العالم الحالي متى تم تخطي الأنا والتوحّد مع الوعي الكوني[1].

أمّا مؤسسهم (رسل)، فيؤمن أنّ الربّ « اصطفى مجموعة من المبشرين قد كانت تنبأت بعودة المسيح عام (١٨٧٢- ١٨٧٣م) عندما مر الموعد دون عودته، قال رسل الذي كان قد شرع يُصدّر في هذه الأثناء مجلة (فخ تورم، أي برج المراقبة): إنّ عام ١٩١٤م سيشهد فناء جميع الممالك، وبداية الفردوس الأرضي، الذي هو ملكوت المسيح، وعندما لم يحدث هذا بدوره، أرجأه إلى عام (١٩١٥ و١٩١٦م)، وأخيراً إلى عام (١٩١٨م)، لكنه قد فارق الحياة قبل الموعد النهائي »[2]، ومع ذلك يفترض بالهلاك الأخير أن يكون قد تم عام ١٩٧٥م، كان هذا محض تخمين، كما أعلنت القيادة المركزية للشهود الذين بلغ عددهم خمسة ملايين ونصف المليون عضواً عام ١٩٩٥م، وما زالوا يواصلون بإصرار انتظار (نهاية نظام الأشياء)، ويثقون كل الثقة بحتمية انتقالهم إلى الفردوس الأرضي[3].

والأمثلة كثيرة على هذه الحركات والأسماء ممن ادّعت موعد تحقق ظهور المنتظر أو خمّنت ظهوره المستقبلي، ولا يمكن التوقف عندها جميعاً لكثرتها، ولكننا نرى أهمية تعداد قسم منها :

---

(١) للمزيد ينظر : تسمر لينغ: ٢٠٩-٢١٠.

(٢) المصدر السابق: ٢١٠.

(٣)المصدر السابق نفسه.

١ ـ سيرنوس، ظهر في سورية، ٧٢٠ - ٧٢٣م.

٢ ـ اليهودي داود بن الروحي، في بلدة العمادية شمال العراق، ١١٦٠م[١].

٣ ـ مليثور هوفمان، المتوفى ١٥٤٣م.

٤ ـ جماعة المبشرين باليوم السابع الأمريكية المنشأ لمؤسسها الواعظ وليام ميلر (١٧٨٢-١٨٤٩)م.

٥ ـ بيرنت روثمان[٢].

٦ ـ الدجال صايد بن صايد يخرج من أصبهان تعرف (باليهودية)[٣].

٧ ـ ثورة الحرم المكي الشريف[٤] في مطلع ١٤٠٠هـ في السعودية[٥]. زيادة على تنبؤات نوستراداموس بالمهدي ...

وأخيراً يشير الباحث إلى (عملية الانتحار) بوصفها خلاصاً ينتظره من اعتقد بها، وهم أتباع حركة (معبد الشمس) التي ظهرت في فرنسا في

(١) للمزيد ينظر : أحمد سوسة، مصدر سابق: ٧٢ و ٢٠٠.

(٢) للمزيد ينظر : تسمر لينغ: ١٥١-١٥٣ و ٢١٠.

(٣) للمزيد ينظر : السيد مصطفى آل السيد حيدر الكاظمي: ٤٤.

(٤) حدث اقتحام للحرم المكي الشريف في مطلع عام ١٤٠٠هـ بقيادة محمد بن عبد الله القرشي، حيث سيطر أنصاره على الحرم، وأذاع معاونه (جهيمان) من داخله بياناً دعا فيه المسلمين إلى بيعة هذا القرشي، باعتباره المهدي المنتظر الذي بشّر به النبي محمدﷺ، واستمر احتلال الحرم عدة أيام، ولم تستطع الحكومة السعودية التغلب عليهم إلاّ بعد استدعائها فرقة (كوماندوس) خاصة من إحدى الدول.

(٥) للمزيد ينظر : علي الكوراني:١٣.

تسعينات القرن الماضي، حيث «تحتل عناوين الصحف أخبار المجموعات التي يقتل أفرادها أنفسهم بطرق فضيعة، لاعتقادهم أنها ستنجيهم يوم هلاك العالم، الوشيك جداً، ربما كانت دوافع هؤلاء مختلفة في التفاصيل، لكنها تشترك جميعها في انتظار الانتقال إلى عالم أفضل وقابل للتحسين الدائم،..»[1] إلى جانب تصورات هؤلاء الغرائبية والمشوهة والمحاطة بنزعات إيمانية أميركية إلى جانب أشياء أُخر. وهناك أمثلة عديدة على هذه الانتحارات الجماعية[2].

بعد كل ما ورد يحق لنا أن نتساءل: ما الأسباب الكامنة وراء مثل هذه الادّعاءات الفردية والجماعية والسلوكيات المتوهمة من هؤلاء جميعاً؟ هل كانت استهجاناً للفكرة الانتظارية أو تحبباً إليها ؟ هل اعتقد هؤلاء جميعاً بالفكرة اعتقاداً قاطعاً بعيداً عن الإيمان، الأمر الذي جعلهم في مرحلة نفسية من التهيؤات وأحلام اليقظة والهذيان إلى جانب سلوكيات لا معقولة كالموت العمد والادّعاء وتزييف الحقائق؟

يبدو إنّ المساحة التي تبوأتها ظاهرة انتظار المنقذ المخلّص وعلى مرّ العصور وباختلاف المذاهب والاعتقادات الدينية، جعلت من هؤلاء يبحثون عن أهمية لأنفسهم وسط هذه الظاهرة التي شغلت الناس ـ ولا زالت ـ قروناً عديدة على مرّ الزمن.

فضلاً عن اعتقاد بعضهم أنّه عن طريق الادّعاء ربما يتمكن من الوصول إلى أطماع شخصية، وتحقيق رغبات نفعية تنقله من واقع أليم

---

(١) تسمر لينغ، مصدر سابق: ٢١٠-٢١١.

(٢) للمزيد ينظر : المصدر السابق نفسه.

إلى واقع أكثر رفاهية لغرض إشباع غرائزه بطريقة احتيال سهلة.

في ضوء ما تقدم، نرى أنّ (الفرضية) قد تفشل في تقديم أدلتها وبراهينها، ولا سيما في خطواتها الأُولى، وأنّ (الادّعاء) قد يُعرف منذ بدايته المزيفة أو في آخرها، وأنّ التصورات الجماعية البعيدة عن الإيمان بالثابت الغيبي قد تبقى في دوامة لا نهاية لها، إلاّ أنّ النتيجة برمتها كانت تعزيزاً لظاهرة انتظار المنقذ، وتدعيم فاعليتها المستمرة على المجتمع الإنساني أينما حلّ في مكان وزمان معينين.

* * *

«المهدي المنتظر ومسؤوليّات الأمّة في عصر انتظاره»

عقد «منتدى المنهاج» ندوته السّادسة عشرة في مقرّه، في قاعة المكتبة والمحاضرات، في مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة، مساء يوم الخميس الواقع فيه ٢٤ شعبان سنة ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩/١٢/٢م.

وقد قدّمت هيئة تحرير مجلة المنهاج، تمهيداً للبحث في هذه القضيّة، ورقةً تسلّط الضّوء على بعض مسائلها، وفي ما يأتي نص هذه الورقة:

تعرف البشريّة، بمختلف أديانها ومذاهبها وعقائدها، طموحاً إلى أن يأتي يوم يسود فيه العدل والسّلامُ الأرض...، ويقول الإمام السيّد محمد باقر الصّدر في هذا الصّدد: «... لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتدّ إلى غيرهم أيضاً، وانعكس حتّى على أشدّ الايديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيّات، كالمادية الجدليّة التي فسّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، تُصفّى فيه كل التناقضات ويسود الوئام والسّلام...» (بحث حول المهدي، ص ٤٣ و٤٤).

وقد حوّل الدّين الإسلامي هذا الطّموح الإنساني إلى سيادة العدل

والسّلام من شعور بالرّغبة في مجيء ذلك اليوم إلى واقع ملموس، وإلى إيمان بوجود المنقذ وبحتميّة مجيئه، وهو الإمام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه)، فالحديث الشريف المتواتر يؤكّد ذلك عندما يقول: «لو لم يبق من الدّهر إلاّ يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً» (راجع: صحيح سنن المصطفى لأبي داود، ٢٠٧/٢، والتّاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف، ٣٤٣/٥).

فالمهدي عليه السلام لم يعد، كما يقول الشّهيد الصدر «فكرة ننتظر ولادتها ونبوءة نتطلّع إلى مصداقها، بل واقع قائمٌ ننتظر فاعليته وإنسان معيّن يعيش بيننا بلحمه ودمه، نراه ويرانا، ويعيش مع آمالنا وآلامنا، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا...» (بحث حول المهدي، ص ٤٥).

والاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر أساس من أسس عقيدة المسلمين، فمن الأمور المتّفق عليها بينهم، تواتر البشائر النبويّة بخروج الإمام المهدي عليه السلام من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولد الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء في آخر الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ويطهّر الأرض من الذين اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دغلاً.

(راجع: المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإماميّة، للشيخ نجم الدين العسكري، وفيه أكثر من أربعمئة حديث من كتب أهل السنّة، ومنتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام، للعلامة الشيخ لطف الله الصّافي، وفيه ما مجموعه ستة آلاف حديث عن طريق الفريقين).

وقد كثر البحث في هذه العقيدة، واتبع الباحثون منهجين أساسيّين هما المنهج الرّوائي والمنهج العقلي.

ففي ما يتعلّق بالمنهج الأول أحصى الباحث عبد المحسن العبّاد، في بحثه المنشور في مجلّة الجامعة الإسلاميّة، الصادرة في المدينة المنوّرة، أكثر من عشرة مؤلفين من أجلاّء علماء أهل السنّة، اتبعوا هذا المنهج في إثبات هذه العقيدة، ومنهم: أبو نعيم والسيوطي الشافعي والحافظ ابن كثير وعلي المتقي الهندي صاحب كنز العمال وابن حجر المكي في مؤلّفه: «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» ومرعي بن يوسف الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ) في مؤلّفه «فوائد الفكر في ظهور المهدي المنتظر» والقاضي محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) في كتابه «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح» إلى غيرهم.

أمّا عند الشيعة فهناك عشرات الكتب والرسائل التي كتبت ونشرت قديماً وحديثاً، ومنها منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصّافي الكلبايكاني، وإلزام الناصب في إثبات حجة الغائب للشيخ علي اليزدي الحائري، والمهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإماميّة للشيخ نجم الدين العسكري والإمام المهدي لعلي محمد علي دخيل إلخ...

وقد اعتمد هؤلاء العلماء وغيرهم في أبحاثهم الأدلّة النقلية غالباً، فأثبتوا صحّة أحاديث المهدي من طرق أهل السنّة والشّيعة، وتعدّد طرق الرواية وكثرة الرّواة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين من سائر الفرق والمذاهب الإسلامية.

وفي ما يتعلّق بالمنهج الثاني، أي المنهج العقلي، كتب الإمام الشهيد محمد باقر الصّدر بحثاً قدّم به لكتاب «موسوعة الإمام المهدي للسيد

محمد محمد صادق الصّدر»، ونشر مستقلاً تحت عنوان «بحث حول المهدي». لم ينطلق الشهيد الصدر، في بحثه، من مسلّمات، ولم يعتمد تتبّع القضية في كتب التفسير والرواية، وإنما بدأ بطرح الإشكالات المثارة، ثم بدأ بمناقشتها معتمداً الدليل العقلي.

وقد أثارت هذه العقيدة جدلاً واسعاً شمل مسائل كثيرة، يمكن أن نشير إلى أهمّها في ما يأتي:

يزعم بعضهم أن العقيدة القائلة بوجود الإمام المهدي وخروجه ليملأ الأرض عدلاً... تورث الخمول والسلبيّة والاكتفاء بانتظار المخلّص، ويمكن لحديث الإمام الشهيد الصّدر في هذا الصّدد أن يمثل ردّاً على هذا الزعم، فهو يقول:

«وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام، ويؤكّد أنّ الأرض في نهاية المطاف ستمتلى قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً، يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوّله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب، بل مصدر عطاء وقوة. فهو مصدر عطاء؛ لأنّ الإيمان بالمهدي إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلها، وهو مصدر قوة ودفع لا تنضب؛ لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الإنسان، ويحافظ على الأمل المشتعل في صدره مهما ادلهمّت الخطوب وتعملق الظلم؛ لأنّ اليوم الموعود يثبت أنّ بإمكان العدل أن يواجه عالماً مليئاً بالظلم والجور فيزعزع ما فيه من أركان الظلم، ويقيم بناءه من جديد، وأنّ الظلم مهما تجبّر وامتدّ في أرجاء العالم وسيطر على مقدّراته، فهو حالة غير طبيعية، ولا بدّ أن ينهزم. وتلك الهزيمة الكبرى المحتومة للظلم وهو في قمة

مجده، تضع الأمل كبيراً أمام كل فرد مظلوم وكل أمة مظلومة في القدرة على تغيير الميزان وإعادة البناء».

ويعلّق د. عبد الجبار شرارة على هذا القول بقوله: إشارة إلى الوعد الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص/٥] وأيضاً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة/٣٣].

ويتحدّث د. شرارة عن محاولة الباحث أحمد أمين، في كتابه: «المهدويّة في الإسلام»، أن يجعل من «ادّعاء المهدوية سبباً للطعن على فكرة المهدي وأصالتها»، ويردّ عليه فيقول: «ولكن العكس هو الصّحيح، فالادّعاء يدلّ على أن المدّعي يستغلّ حقيقة موضوعيّة واعتقاداً راسخاً عند الناس، ثم لو صحّ أن الادعاء مبطل لأصل القضيّة فلازم ذلك إبطال النبوّات لكثرة المدّعين بها» (بحث حول المهدي، ص ٩ و١٠).

ويتحدّث بعض الباحثين عن قبول المسلمين، شيعة وسنّة ومعتزلة، ما يسمّيه «الخرافة المهدويّة...»، التي ينبذها كما يقول هؤلاء الباحثون، كتاب الله نبذاً. والحقيقة هي أنهم يتحدّثون، وهم يدرون أو لا يدرون أن ما يسمّونه «خرافة» ترد البشارة به عن رسول الله ﷺ، من طريق الأحاديث المتواترة، وقد مرّ بنا ذكر عددها لدى كلّ من الشيعة والسنّة، والله تعالى يصف نبيّه وصفيّه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/٣ و٤]، ويخاطب المسلمين بصيغة الأمر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر/٧]، فكيف والأمر هكذا ينبذ كتاب الله بشائر رسول الله ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى؟ وكيف يترك مسلم ما يأمره الله بأخذه؟ أيكون هذا التّارك مسلماً فعلاً؟

إن المسلم هو من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ، متمثّلاً في القرآن الكريم وفي ما صحّ من الحديث النبوي الشريف، وفي هذين المصدرين تتكرر الدّعوة إلى الإيمان بالغيب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ..﴾ [البقرة/٢ و٣]. والإيمان بالغيب من لوازم الاعتقاد بالله تعالى وبصدق أنبيائه الذين ينبئون بما يوحى إليهم...، وهذا يعني، كما يقول د. عبد الجبار شرارة، أن كل تشكيك بقضية الإمام المهدي التي تواترت البشائر بها في الحديث الشريف «إنما يتعلّق بأصل التصديق بالغيب والكلام فيه يرجع إلى هذا الأصل» (بحث حول المهدي، ص ١٢).

وإن يكن الأمر هكذا، فقد حاول المنكرون لعقيدة الإمام المهدي أن يشكّكوا في الأخبار الواردة عنها، وأن يحيطوها بأكاذيب اخترعوها، ومن ذلك اختراعهم أكذوبة السرداب التي لا أصل لها عند الشّيعة الإماميّة، وقد ناقشها العلامة الأميني مناقشة وافية بيّن فيها تخبّط مخترعي الأكاذيب في ما اخترعوه (راجع: الغدير، ٣٠٨/٣ و٣٠٩، وراجع ما أورده العميدي من مناقشات متينة لهذه الفرية في دفاعه عن الكافي، ٥٩٣/١، وراجع: سيرة الأئمة الاثني عشر للعلامة السيد هاشم معروف الحسني، ٥٥٩/٢).

والطّريف، في مجال الاختراع هذا، أن ابن خلدون يقول: يزعم الشيّعة أن الإمام المهدي عليه السلام «دخل السرداب بدارهم في الحلّة...»، والحقائق التّاريخيّة تفيد أن الحلة لم تكن موجودة في زمن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وإنما بناها الأمير سيف الدّولة منصور بن صدقة بن دبيس الأسدي، في أواخر القرن الخامس الهجري.

ويورد د. عبد الجبار شرارة في مقدمته لكتاب الإمام الشهيد محمد

باقر الصّدر (بحث حول المهدي، ص ١٥ و٢٣) ملخّص ما أثاره المشكّكون فيقول:

١- قالوا: إنّ الشيعة وقعوا في حيرة واضطراب بعد وفاة الإمام العسكري، وبخاصّة في ما يتعلّق بولادة الإمام المهدي (محمد بن الحسن)، لوجود الغموض في ما ورد عنه من طريق الأئمّة عندما سئلوا عنه.

٢- قالوا: إنّ الشيعة انقسموا وتفرّقوا إلى أربع عشرة فرقة، في مسألة الإمام، بعد وفاة الإمام الحسن العسكري، وأن أمر الإمام المهدي لو كان واضحاً ومهماً وجزءاً من المذهب الجعفري لما جاز الاختلاف فيه، ولما أمكن أن يبقى أمره سرّاً غامضاً.

٣- زعموا أنّ الرّوايات التي تتحدّث عن هوية الإمام المهدي ضعيفة وموضوعة ومختلقة، سواء منها ما يتعلق باسم أُمّه، أم بتاريخ ولادته، أم بما لابسَ ولادته، أم بغيبته وسفرائه.

وقد ختم أحدهم تخرّصاته زاعماً بأنه لم يرفض إماماً ثبت وجوده من أهل البيت، إنما حصل عنده شكّ بولادة الإمام الثاني عشر؛ لعدم توفر الأدلة الكافية - بحسب زعمه - أو لعدم قناعته بها، أي بالأدلة المذكورة، وذكر أنه لا يستبعد أن يطيل الله عمر إنسان كما أطال عمر النبي نوحعليه السلام، بالرغم من عدم الحاجة والضرورة إلى ذلك. وأنه يبحث عن الأدلة التي تثبت أنّ الله تعالى قد فعل هذا بشخصٍ آخر؛ لأنه لا يمكن أن يعتقد بحدوث هذا عن طريق القياس والتشبيه، ثم قال: «وقد كان سيدنا الصادق يرفض القياس بالأُمور الفرعية الجزئية فكيف في الأمور التاريخية والعقائدية؟»

ويردّ د. شرارة على هذه الإشكالات فيقول:

أوّلاً: إنّ وجود الغموض في تحديد هوية الإمام المهدي، ووقوع الحيرة لدى الشيعة - لو صحّ كما صوّره الخصم وضخّمه - هو دليل على الخصوم وليس لهم، إذ عدم تحديد الهوية والإصرار على بقاء الأمر سرّاً دليلٌ على وجود الإمام والخوف عليه من الأعداء لا على عدم وجوده، كما توهّموا.

فالأئمةﰉ فكما وردت الروايات (راجع: الغيبة للنعماني من أعلام القرن الرابع الهجري، الباب ١٢ والغيبة الكبرى للسيّد محمد الصدر، البحث التمهيدي) فلم يريدوا الكشف عن التفاصيل المتعلّقة بحياة الإمام المهدي وولادته الميمونة، لمعرفتهم بتكالب الأعداء في طلبه، وجدّهم وتربّصهم به، وقد كانوا يبثون العيون ويترصدون كلّ حركة للعثور على الإمام والتخلّص منه، بعد أن أيقنوا بالأمر وشاهدوا ترقّب الأُمّة وتطلعها لمقدمه الشريف ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً...

ومن هنا نفهم السبب في إخفاء الإمام الصادقﰌ هوية المهدي والتفاصيل المتعلّقة بهذا الأمر.

وليست الحيرة بعد ذلك والاضطراب إلاّ حالة طبيعية في ظل مثل تلك الظروف والملابسات الخاصة التي رافقت قضية المهديﰌ في وجوده وولادته، وشغب السلطة وتمويهاتها وإعلامها الزائف. وإذن فليست (الحيرة) إلاّ بسبب تلك الظروف والملابسات، فضلاً عن أن الروايات الواردة عن الأئمةﰉ قد أشارت إلى وقوع مثل هذه الحيرة والفتنة والتفرّق، كما نقل ذلك ابن بابويه القمي في (التبصرة)، والشيخ النعماني في (الغيبة) الباب الثاني عشر.

ثانياً: قولهم بضعف الروايات واختلاقها، ولا ندري هل أنهم يفرّقون بين الضعيف والموضوع أم هما عندهم سواء؟ ثمّ لماذا هذا الخلط المقصود بين مسألة وجود الإمام الحجة، الثابتة بالطرق الصحيحة، وبين بعض الروايات التي تلابس «حدث الولادة»؟ والعجب من ركوب هؤلاء جميعاً هذه الجرأة المفضوحة؛ إذ إنّ روايات «المهدي» لم تروها كتب الشيعة فحسب، ولم ترد عن طرقهم فقط، وإنما روتها الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية المعتبرة كصحيح أبي داود، وصحيح البخاري وشروحه، ومسند أحمد بن حنبل، وجامع الطبراني، وجمعها السيوطي في العرف الوردي (راجع الحاوي للفتاوي للسيوطي، ٢ر٢١٣ وما بعدها) من عدة طرق، وحكى تواترها البرزنجي في الإشاعة (الإشاعة لأشراط الساعة، ص ٨٧، ١٢٢ الباب الثالث). وكذا الشوكاني في التوضيح (التوضيح في تواتر ما جاء من الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح، كما في غاية المأمول) ونقل ذلك أخيراً الشيخ منصور علي ناصف في غاية المأمول (غاية المأمول، شرح التاج الجامع للأصول، ٥/٣٦٠).

فانظر إلى جهل المشكّكين كيف رموا ما صحّ وتواتر عند جمهور المسلمين من السُنّة والشيعة بالوضع والاختلاق واعجب لجرأتهم وشغبهم! إذ لا يصحّ بعد ذلك شيء مما تناقله الرواة من حوادث التاريخ، وأسماء الأعلام، وآراء المذاهب المختلفة.

ثالثاً: استدلّ بعضهم على نفي وجود الإمام المهدي وولادته بقوله: إنّ الشيعة اختلفوا في المهدي وانقسموا - على حدّ زعمه - إلى سبع عشرة فرقة بعد وفاة الحسن العسكري عليه السلام، وهذا يدلّ - بحسب زعمه - على عدم وجود الإمام!!

ولعل من المناسب أن ننبه إلى أنّ الاختلاف حول موضوع أو قضية أو شخص لا يستلزم العدم، إذ لو جرينا على هذا المنطق لما قامت عقيدة، ولا ثبت دين، ولا استقام شأن من الشؤون، فالاختلاف قائم دائم في العقائد، وفي التواريخ، وفي الشخصيات، وفي الحوادث الواقعة، وفي الفروع، وفي سائر الأمور. وقد تفرّق أبناء الفرقة الواحدة إلى فرق وطوائف واتجاهات وآراء كما حدث عند المعتزلة والخوارج والأشاعرة وغيرهم.. ثمّ ألم تسمع بما تناقله أهل الحديث من الرواية المشهورة وهي قوله ﷺ: «... وتفترق أُمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

ونتساءل هنا، حول أيّ شيء كان الافتراق؟ وهل يستلزم ذلك نفي ما تفرقوا (فيه) لهذا السبب؟! وإذن لا تبقى عقيدة، ولا تسلم حقيقة، ولا يستقيم أمرٌ بسبب وقوع الافتراق والانقسام في ذلك بحسب هذا المنطق.

والسؤال الأهمّ، ما هي هذه الفرق التي انقسم إليها الشيعة بعد وفاة الإمام العسكري؟ وما هي تسمياتهم؟ ومن هم زعماء هذه الفرق المزعومة ورجالها؟

لقد قال الشهرستاني في الملل والنحل: «وأمّا الذين قالوا بإمامة الحسن [العسكري] فافترقوا بعد موته إحدى عشرة فرقة، وليست لهم ألقاب مشهورة، ولكنّا نذكر أقاويلهم..» (الملل والنحل، ١/١٥١ و١٥٢). وإذن فهو لا يعرف أسماءهم ولا رجالهم، وهم حسب زعمه إحدى عشرة فرقة، أمّا هؤلاء المقلّدون الكذّابون من أمثال إحسان إلهي ومن تابعه أخيراً فقد زادوا العدد فرقاً أُخرى ليس لها اسم ولا رسم، حتى أوصلها أحد هؤلاء المفضوحين إلى سبع عشرة فرقة!! وأنّى لهم بمعرفتها وهي من مختلقاتهم؟ ولذا لم يذكر أحد منهم زعيماً أو رجلاً معروفاً في

التاريخ من هذه (السبع عشرة) فرقة، بل ولم يَجْرُؤ أحد هؤلاء المفترين على الشيعة أن يشير إلى مكان أو زمان وجودهم.

ويحسن أن ننقل تعليقة العلاّمة عبد الحسين شرف الدين في الفصول المهمّة حول هذه الكذبة التي أطلقها الشهرستاني في ملله، قال العلاّمة مُعقّباً: «وليته أسند شيئاً من الأقاويل التي نقلها عن تلك الفرق إلى كتاب يتلى أو شخص خلقه الله تعالى! وليته أخبرنا عن بلاد واحدة من تلك الفرق أو زمانها أو اسمها! فبالله عليك، هل سمعتَ بفرق متخاصمة، ونحل آراؤها متعاركة لا يُعرف لهم في الأحياء والأموات رجلٌ ولا امرأةٌ؟! ولا يوجد في الخارج لهم مسمّى ولا اسم؟!!» (الفصول المهمة في تأليف الأُمّة، ص ١٦٩).

والظاهر أنَّ أحدهم قد أدرك خطأه واشتباهه فقال أخيراً: إنّي لم أرفض إماماً ثبت وجوده من أهل البيت عليهم السلام، وإنما حصل عندي شك بولادة الإمام الثاني عشر، زاعماً أنّ السبب هو عدم توفر الأدلة الكافية، أو عدم قناعته بالأدلة!!

والسؤال الذي نثيره هنا هو: عن أيّ نوع من الأدلة يبحث هؤلاء؟ وهل هناك أدلة أقوى من إطباق الطائفة وعلماء الأُمّة ورواتها الثقات على مثل هذا الأمر، أعني ولادة الإمام الحجة ابن الحسن؟ إذ ليس هناك من سبيل إلى ثبوت مثل هذه الأمور إلاّ الخبر الصحيح، وتوفر الشواهد، وقيام القرائن والمؤيدات من العقل والمنطق، وقد ثبت من كل هذه الجهات.

ولعل من الأمور التي تدلّك على المغالطة المفضوحة هو قولهم: «لا نستبعد أن يطيل الله عمر إنسان... ولكن لا يمكن الاعتقاد بحدوث هذا

عن طريق القياس، وقد كان سيدنا الصادق يرفض القياس في الفروع، فكيف في الأمور التاريخية والعقائدية؟!».

وقد فاتهم أنّ القياس هنا أمر وارد، ودليل معتبر عند أهل المنطق وأهل النظر في مثل هذه الموارد التي قد لا يدركها الإنسان إلاّ عن طريق التشبيه والقياس، وهو أُسلوب علمي، ومنهج قرآني ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم/٢٥] ، وقال تعالى حاكياً قول المنكرين لبعض الأمور الاعتقادية كالمعاد كما في الآية المباركة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ [يس/٧٨ و٧٩].

فانظر كيف يتنكّب المتطفّلون عن المنهج القرآني والعلمي؟ وانظر إلى عدم تفرقتهم بين القياس في أحكام الشريعة المنهيّ عنه؛ لعدم إحراز علة الحكم التي بنى الشارع عليها حكمه، وبين القياس في مجال المعقولات الذي لا شبهة فيه.

وهكذا نخلص إلى القول أنّ أصحاب هذا المنهج التشكيكي ليس بأيديهم حجة ولا برهان، ولا يملكون سنداً علمياً أو تاريخياً مقبولاً ومنطقياً في نفيهم وتشكيكاتهم، وإنما هي مجرّد ظنون وأوهام، أو افتراضات وحدوس تتهاوى أمام الأدلة والبراهين المتينة، الروائية والتاريخية والعقلية كما سطّرها وحققها المثبتون لولادة الإمام المهدي عليه السلام واستمرار وجوده الشريف المبارك.

وأخيراً لا بدّ من التنبيه أيضاً إلى أنّ منهج هؤلاء المنكرين في قضية الإمام المهدي عليه السلام يقوم على أُسلوب كان قد اتّبعه المستشرقون من قبل في معالجاتهم ومناقشاتهم لعقائد الإسلام، ونبوّة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم

الأنبياء، ولِمَا جاء في القرآن الكريم من المفاهيم والأفكار والأحكام، وهذا الأسلوب يتمثل فكما يرى المستشرق المنصف آربري (راجع: المستشرقون والإسلام للدكتور عرفان عبد الحميد، ص ١٩) «باقتطاع النصوص من سياقها، وبالتحليل السطحي..»، هذا فضلاً عن المغالطات والمفارقات المنهجية كالإحالة إلى المصادر بصورة غير دقيقة وغير أمينة، وكالتدليس والكذب في نسبة الآراء، إذ يوردون نصوصاً ثمّ يذكرون المصادر جملةً، على سبيل التمويه، والأنكى والأعجب أنّهم وبحسب تحليلهم السطحي فيطرحون فهمهم لبعض المطالب على أنه المفهوم والرأي عند المذهب أو الطائفة وهو فهم غير دقيق، ثمّ يحاولون أن يحشّدوا النصوص ويقسروها لتتلاءم مع تصوراتهم وأفهامهم هُم، وليس مع ما ذهب إليه المذهب أو مع ما كان مقبولاً ومعتمداً.

وقد بحث المنتدون في موضوع النّدوة المقرّر، وهو: «**المهدي المنتظر ومسؤوليات الأمة في عصر انتظاره**».

قدّم للنّدوة وأدارها الأستاذ عجرم عجرم، وشارك فيها سماحة العلامة الشيخ شفيق جرادي، وسماحة العلامة الشيخ محمد قبيسي، والدكتور خنجر حميّة.

بدايةً، رحّب الأستاذ عجرم بالحضور والمشاركين وقدّم موضوع البحث، وطرح الأسئلة التي يمكن أن يثيرها، وممّا جاء في مقدمته: «هل هو تسليمٌ مُسْبَق بأنّ المجموعات البشريّة بإمكاناتها العلميّة والحضارية المتراكمة، منذ آلاف السنين، عاجزة عن بلوغ النّضج والإدراك الذي يمكّنها من إبداع النّظم والآليات والقواعد التي تسمح بإرساء القسط والعدل ورفع الظلم والجور؟

كيف نفهم رسالات الأنبياء عبر العصور والأجيال السّابقة؟ ولماذا لم تكن ذلك المُنْتَظَر، المُنقذ والمخلّص للشّعوب والأمم؟ ولماذا لم تكن نهاية المطاف في بلوغ الأهداف والغايات السّامية التي يتطلّع إليها كل مظلوم ومقهور ومجاهد وحر وباحث عن الأمان والحقيقة؟

لا تتولّد الآمال أمام الإنسان حتى تتجدّد التعقيدات، وتبقى الحياة غير مستقرّة على شيء، ويبقى الإنسان وحده محكوماً بالمعاناة والألم والكدح والتّحمّل والمثابرة.

ينتظر هذا الإنسان، دائماً، الغد المشرق المفعم بالسّلام والأمان والإجابات الكاملة الجاهزة عن الحقيقة المطلقة وما يلفّها من أسرار؟ فإذا كان الأمر هكذا، فهل تنتظر البشرية من يخرجها من الظلم والجور بقوة غير تلك المتوافرة في الواقع، والمنسجمة مع السّنن والقوانين الطبيعية التي سنّها الخالق وسلكها الرّسل والأنبياء؟

ما هو مفهوم الغيبة؟ وما جدواها؟

غيبة ماذا هي أم غيبة من؟ والانتظار هو انتظار ماذا أم انتظار من؟

وهل الإيمان بالمهدي وانتظاره شرط إيمان بالدين أم ضرورة اعتقاد بالمذهب؟ وأين هو من النّص المقدّس وفلسفة الحياة والرسالات السماوية التي كانت خاتمتها الرسالة الإسلامية؟ أسئلة كثيرة تُثار في هذا المجال، وحَسْبي أن أشرت إلى بعضها لأسهم في تشكيل مناخ البحث، وأترك للسّادة المنتدين أن يجيبوا عن أسئلتي، أو أن يثيروا أسئلة أخرى، ويجيبوا عنها في كلماتهم، ثم يبدأ النّقاش لدى انتهائهم من إلقاء هذه الكلمات.

والآن أعطي الكلمة لسماحة العلامة الشّيخ شفيق جرادي ليتحدّث في موضوع: «فلسفة الغيبة ومقوّمات الظهور»، فليتفضّل.

الشيخ شفيق جرادي: حينما يقع الحديث في محضر ذكرِ قائم آل محمدﷺ؛ فإن اللّغة تصبحُ مفتوحةً على آفاق؛ هي فوق اللحظة والسّاعة وآنات الزّمن؛ لغة محكومة على الأغلب بضرورات قدسية تجاوز كل صعب وممكن افتراضي؛ منسلّة من عقل ديني يحاكي وجدان الأمل والرجاء؛ ورؤى المستقبل المشرق؛ وفعل الجهاد العزيز..

وبذلك يصحّ لنا أن نتجاوز الكثير من منطلقات البحث الذي طالما ساد مدافعاً عن قضايا مثل: ولادتهﷺ ونسبه وكنيته ومشروعيّة إرثه الإمامة بعد أبيه؛ وصدق غيبتيه، الكبرى منهما بالخصوص؛ والحكمة من طول عمره... إلى ما هناك من موارد وقضايا... يظهر فيها الإمام الحجّةﷺ كأنه في موضع «مساءلة» لا تنتهي.

ونحن، وإن كنا نعتقد أن مثل هذه الأبحاث كانت تحمل ضروراتها معها؛ إلاّ أنّنا نرى أنها ضرورات فرضتها مقتضيات تاريخية؛ وفي ظنّنا أنها ولّت وبالتالي ينبغي أن ترحل تلك النقاشات معها، لنفتح صفحة مرصوعةً بيقين لا يتزلزل بصاحب العصر والزمان - أرواحنا لتراب مقدمه الفداء - وعناوينها: كيف نردم الهوّة بين غيابنا عنه لنمثل في محضرهﷺ؟ وكيف نؤدّي الدور التكليفي المنوط بنا في حركة الرسالة التي يمثّل الإمام أعظم عنوانٍ لها وكمالها اللامتناهي؟

والكلام، أيها الأخوة، حول «مقوّمات الظهور» يضعنا، ومنذ البداية، أمام جملة من الأسئلة والاستفسارات..

فهل البحث عن المقوّمات هو بحث في اللاهوت والميتافيزيقا؟

هل هو بحث في إيديولوجيا ثقافية طوباوية وفلسفة تجريدية نظرية؟

هل هو بحث من أبحاث الغيب والتّنبّؤات ضمن رؤى تشاكل ما تحدّث به «نوستر أداموس»؛ وبعض الروايات المنثورة هنا وهناك في كتب، بعضها تراثي وبعضها الآخر غلبت عليه الصّبغة التجارية؟ أم أنه تعاط نقديّ بنّاء مع كل ذلك، وفوق كل ذلك هو بحث عملي لواقع تطبيقيٍّ مَعِيش يسعى للتعرف إلى القاعدة أو القواعد التي يجب أن يقوم عليها نظام الحياة؛ وإلى الموازين التي ينبغي العودة إليها لضمان الاستقامة على جادة الحق، ورفض الظلم والجاهلية الجهلاء؟ هل نريد من هكذا بحث أن يشبع زوايا التطفّل المعرفي عندنا أو أننا نريد معرفةً تتحوّل إلى حركة وكدح نحو الغايات والهدف؟ وهل الهدف هو تغيير المعتقدات والتصورات والمفاهيم والمشاعر أو أنه كل ذلك، وفوق كل ذلك بناء الهوية والتاريخ والحاضر والمستقبل؟

إن هذه الأسئلة الباحثة عن طبيعة العقلية التي نحمل والتي نكوّنها تتكوّن بها جماعة تسترشد ولاية صاحب العصر والزمان(عج).. وهي، في تقديري، كفيلة بإيضاح الأنموذج الذي ننتمي إليه في النظرة المعرفية التي ترسم خطوط التقاطع بين الثلاثي الذي أثارته الأدبيات الإسلامية العلمية والفلسفية والنصوصية حول: الله، الإنسان، الطبيعة.. (العالَم).

سنكتشف أن المعيارية التي تمّ الحديث عنها في الفكر المعاصر، والتي اتهم بها العقل الديني، ليست اختزالية - ذاتية كما ادعي- بل هي موضوعية لم تخضع لمعايير الوضعية العلمانية المنجرفة خلف التغيرات والتبدلات الحاكمة عالم الطبيعة، والتي

أوقعت الفكر في شباكٍ من الجبرية والتحللية والقلق والخرافة ووهم الاقتصار على الواقع المادي وحده.. إذ للواقع ملاكات ومناطات هي فوق طور الحس وظرفه بل وفوق العقل - بالمعنى البرهاني - وأطواره المتشعبة؛ الواقعية هي في كل أمر له أثرٌ يتفاعل فيه فاعلاً ومنفعلاً.. وموضوعة الإمام الحجة هي واقعية طبيعية حفظت كل عناصر الغيب؛ وبلغت لغة التماهي في وجود انبسط ليشمل وحدة تتجلى فيها عوالم الغيب والشهادة؛ والموضوعية والقيمية، لتجعل النظرة إلى الموضوع تستبطن الرؤية الأعمق؛ ولتجعل الباطن ميداناً علمياً قابلاً للتحليل والتركيب...

وإذا أردنا استكمال حلقة السؤال نقول: هل عملية الظّهور بعد الغياب تحصل من خلال الاستسلام التام أمام جحافل الكفر والظلم والطغيان حتى تمتلي الأرض بذلك، بوصفه سبباً وجوديّاً لخروج الحجة فيُغيّر كل شيء، وبدفعة واحدة؟

تقول بعض الرّوايات أنّ كل راية تظهر، في عصر الغيبة، هي راية ضلالة، من دون أن تُبيّن لنا سبب اقتران، كل راية من تلك الرايات، بطاغوت يدّعي الإمامة، ومن دون أن تجيبنا عمّا إذا كان السبب في الموقف السلبي من تلك الرايات هو ادّعاء أصحابها ما ليس لهم من حق إلهي خصّصه الباري بالقائم من آل محمد.. أو أن العملية عكس الاستسلام؛ إنها مدافعةٌ للظلم والجور تستكمل حلقتها بالانبعاث العالمي المتمثل بظهور القائم؛ وقيامه المقدّس.

وعن هذا الأمر ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾

قال عليه السلام: «اصبروا على أداء الفرائض وصابروا عدوكم ورابطوا إمامكم» (كتاب الغيبة للنعماني، ص ١٦).

إذ في أداء الفرائض شكرٌ للنّعمة؛ وفي مصابرة العدو مجاهدةٌ وقتال في سبيل الله؛ وفي المرابطة محافظة على الهوية وانتظارٌ عارفٌ ومقاومٌ على ثغور الحق والصدق والعدل التي يمثّلها نهج الإمام وشخص الإمام المهدي عجل الله فرجه.

بهذا تكون الفكرة فكرة إرادة ووجود إلهي يدخل التاريخ ليصوغ المجتمع والحضارة الإنسانية؛ على غير الطريقة المسيحية في الدخول التسامحي العفوي؛ وعلى غير الطريقة الهيغليّة التي تنشى ثنائية حادة بين متناقضين هما: العقل والطبيعة؛ أو بتعبير آخر بين الوجود والعدم؛ راجيةً التسامي في المتغيرات الجبرية لتسكن عند عقل سكوني مطلق يتمثل بأيّ كان سواءً أكان نابليون والثورة الفرنسية؛ أم الولايات المتحدة الأمريكية وصيغة ديمقراطيتها المزعومة ليجد التاريخ والحياة عند نهاياته الجبرية؛ (كما في نظرة فوكوياما).

فأطروحة الدخول المهدوي الهادي في التاريخ؛ هي كمالات تنالها الإرادة الإنسانية المتشخّصة بواقعها المادي والمعنوي الحيوي، القائم على مبدأ الاختيار والإرادة الحرة من جهة؛ وعلى الفكر والمضمون الفطري إنسانية وحقاً فمن جهة أخرى..

وعبر هذا التكاملٍ الذي ينطلق من: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال/ ٥٣] تكون رحلة النمو والتكامل الاجتماعي عبر النمو والتكامل الفردي والإنساني.. وبذلك تكون الأطروحة فرداً هو أمة؛ وأمة هي كل العالم بشموليته وتعدّده...

بناؤها الموضوعية وركنها القيم وطريقها الشريعة والصلاح.. وبذلك فالمهدي عليه السلام هو وحي العقل؛ وعقل موحى؛ هو واقع لا ريب فيه؛ ونهجٌ يكوّن واقع الحياة المعيش.

إنه نقطة المحور، وارتكاز الحياة الدنيا والآخرة؛ إنه صلاح هذه الأرض وزعيمها وباب الله الذي منه يؤتى... إنه الفطرة والإنسان؛ وحكم الرب المعبود... إنه الإمام الذي من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية...

وبعد هذا، لا همّ أن نعرف علامات الظهور بتقسيماتها المتنوعة والمتفرعة إلى الخاصة والعامة، والحتمية والمعلقة أو الواقعة وغير الواقعة الخ...

يسأل الفضيل بن يسار الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فيقول الإمام: «يا فضيل، إعرف إمامك لم يضرك تأخّر هذا الأمر أو تقدّم؛ ومن عرف إمامه ثم مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة من كان قاعداً في عسكره، من كان قاعداً تحت لوائه» (الغيبة للنعماني، ص ٢٢٩).

إذ إن العارف لإمامه هو الذي يعايشه في همومه وهواجسه، في آلامه وآماله، في الغايات والعقبات والأهداف... فيتبرأ بذلك من كل مُناصب له بالعداء من أهل الظلم والطاغوت والجريمة والجور؛ ويوالي كل من يدين له بالحق وصراط الله المستقيم.. وعليه أن يبقى، دائماً، على هذا النحو من المعرفة التي ينبغي أن يزكّيها وينمّيها؛ ويتّصل بها ويؤصلها في روحه ووجدانه وسلوكه وحاله وكلامه ليغيّر بها العالم..

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من بات ليلة لا يعرف فيها إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

فنحن مسؤولون عن كل ليلة وبرهةٍ من الزمن أمام الله عن ولاية وليّه الأعظم(عج).

إلا أننا نشير هنا إلى أن هذا الكلام لا يعني أن الروايات التي تحدثت عن علامات الظهور لا دور لها.

إلا أننا نعتقد أنها في سبيل ربط الموالين بإمامهم ومعرفة إمامهم(عج).. كما يجب ألاّ ننسى أنها مما قد يشملها قانون البداء على مستوى تفاصيلها الموصلة إلى الربط بالهدف..

مقوّمات الظّهور

المقوّم الأول: من كل ما مر نكون أمام المقوّم الأوّل للظّهور، وهو «المعرفة بإمام العصر والزمان قائم آل محمد ﷺ».

والذي نعتقد أنه - أي هذا المقوّم - قد أخذ بترقّيه وتناميه التمهيدي للظهور بقيام السيد الأكبر الإمام روح الله الموسوي الخميني قدس سره..

وبأطروحته التي جلاّها حول النائب والوكيل لصاحب العصر والزمان، والتي تتمثّل بولاية الفقيه، والتي تساوي حكم الإسلام بشريعته على الزمان الذي هو زمان عصر الظهور...

وهي ترتبط بالإمام المهدي عليه السلام كارتباط الأعمال العبادية به والتي منها مسألة الزيارات والأدعية وإن على مستوىً فردي.. «اللهمّ صلّ على حجّتك في أرضك، وخليفتك في بلادك، والدّاعي إلى سبيلك، والقائم بقسطك، والثائر بأمرك؛ ولي المؤمنين وبوار الكافرين، ومجلي الظلمة، ومنير الحق، والساطع بالحكمة والصدق، وكلمتك التامة في أرضك؛ المرتقب الخائف، والولي الناصح، سفينة النجاة،

وعلم الهدى، ونور أبصار الورى، وخير من تقمّص وارتـدى، ومجلـي العمى، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجـوراً؛ إنـك على كل شيء قدير».

المقوّم الثاني: تنـامي روح العـزة والقـوة وريـاح الثـورة والتغييـر والاستقلال وتشعبها في ظروف اليأس من كل أطروحة أرضية أو عقيدية مغايرة فإلى الدرجة التي لا يمكن أن تُقاد فيها الأمـة إلاّ بيـد قائـد إلهـي عالميّ مُسَدّد...

ومن عناوين تلك المرحلة الأزمات والاضطرابات وفقـدان التـوازن الدولي.. مثل خروج رايات الخراساني واليمـاني؛ وبـروز قـوم مـن أهـل الإيمان تصفهم الروايات كزبر الحديـد وأن إراداتهـم لـو تـسلطت علـى الجبال لهزمتها... قوم في المـروي «يبعـثهم الله قبـل خـروج القـائم فـلا يتركون عدواً لآل محمّدﷺ إلا قتلوه»، عند ذلك لا يبقى مـن لـم يـسمع بالإمام المهدي﷿ وتقول بعـض الروايـات: «عنـد ذلـك يتمنّـى النـاس المهدي ويطلبونه».

المقوّم الثّالث: الحفاظ على أصالة الهوية الدينية، وأصـالة طرحهـا؛ وهو المسمّى بـ«عرض الحجة».

عن الإمام الصادق؈: «يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدناً للعلم والفضل حتـى لا يبقـى فـي الأرض مستـضعف فـي الـدين حتـى المخَدّرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهـور قائمنـا، فيجعـل الله قـم وأهله قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلهـا، ولـم يبـق في الأرض حجة فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فتتم حجة الله على الخلق، حتى لا يبقى أحدٌ لم يبلغ إليه الدين والعلـم..

ثم يظهر القائم عليه السلام ويصير سبباً لنقمة الله وسخطه على العباد، لأن الله لا ينتقم من العباد إلا بعد إنكارهم حجّةً».

الوقوف عند هذه الروايات يضعنا أمام مسؤولية جسيمة هي استيعاب الهوية الفكرية والحضارية للدّين ونقلها إلى الدائرة الأوسع من كل هذا العالم، لتصل عقل كل مسلم ونفسه؛ فتنشئ فيهم توثّب الاستقلال وجسارة العزة والاقتدار، وقوة الإرادة والترابط والثبات على الحق، والمطالبة به، مهما كانت غوالي الأيام وصعوباتها؛ ومهما بلغ الغزو الثقافي الجاحد من سطوته التي تمتد اليوم إلى كل بلد ومدينة وقرية، بل إلى كل أسرة وفرد؛ وبأشكال خيالية، بل تكاد تفوق كل الخيال العادي.

إن الأطروحة الحجة بات من اللازم عليها وعلى عنوانها وممثلها الرئيسي «قم»، بوصفها مدينة للعلم والعلماء، ونهجاً تجاوز كل حد جغرافي، فصار نهج الإسلام المحمدي الأصيل؛ نهج الإمام الخميني قدس سره وسبيل ولاية الخامنئي (حفظه المولى) أن تستجيب لأخبار الإمام الصادق عليه السلام.. ودعوة الوليين؛ بالخروج من كل إطار ضيّق لاقتحام الرسالة كل زاوية في المعرفة والعلم والحياة وبخاصيات الرّسالة الذاتية وبتفاعلها مع الواقع كل الواقع – الغيب والشهادة – بموضوعيتهما، فاتحة منافذ الحق لينبسط بالعدل على الوجود ومهيّئةً الأرض واسطة للغيب والشّهادة وباباً للعبد إلى المعبود الإمام الأعظم محمد بن الحسن عليه السلام..

أخيراً، أيّها الأخوة، ممكن لنا القول: إن هكذا أبحاث لا يمكننا الوقوف معها عند أعتاب التمحّلات الذهنية والتكديس الخبري أو التطفّل الشعبي؛ الذي حوّل، في كثير من الأحيان، موضوع الظهور إلى مجرد منامات وخيالات هي وإن كنا نأنس بها، لكننا لا يمكن أن نركن إليها

بوصفها أصولاً ومقوّمات، فالموضوع هو كل حياتنا وهويتنا ووجودنا وعبادتنا ووجداننا.. وما كان هذا شأنه؛ فهو أغلى من أن نتعامل معه بتسطيح أو جمود... إن مقوّمات الظهور هي قَدَرُ هذه الأمة التي عليها أن ترسمه بقرار منها وإرادة وفعل؛ حتى يأذن المولى فيقضي وقوعه.. إنه رسم هندسة أضلاعه الثلاثة، أو قل مقوّماته الثلاثة هي:

* الولاية.

* الدّين المساوي للعلم والمعرفة والقيم والشّريعة.

* القوة والممانعة والتوثّب الخلاّق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الأستاذ عجرم عجرم: شكراً لسماحة الشيخ شفيق جرادي، والآن نبقى مع فضيلة العلاّمة الشيخ محمد قبيسي، وسوف يتحدّث عن «الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في المعتقد الإسلامي»، فليتفضّل.

الشيخ محمد قبيسي: الحديث عن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف حديث ينبغي أن نحدّد من خلاله مسؤوليّاتنا في كيفية الاستمرارية بوصفه عقيدة قد تمثّل، في جانب منها، جزءاً من الغيب، وتتّصل في جانب آخر بواقع حياتي معيش؛ هذه العقيدة، بجميع أبعادها، دأب النبي صلى الله عليه وآله، رغم الفاصل الزماني حيث إن موضوعها لم يتحقق بعد، على أن يبيّن، في كثير من المناسبات، ما يكون من علامات آخر الزمان وما يتصل بخروج قائم ومهدي منتظر ومغيّبٍ، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

التّحضير المسبق لفكرة لم يحن زمانها بعد يدلّ دلالة واضحة على أهمية هذه الفكرة، وعلى أنها تشكّل جزءاً من عقيدة الإنسان المسلم؛ وذلك من خلال أنّها ليست مسألة ترتبط بالغيب من دون أن يكون لها واقع قد تتحرك فيه بنحو ينبغي للإنسان المسلم أن يؤمن بها فحسب من دون أن تكون لهذه الفكرة، في الواقع، ما يشبه قوة الدفع أو قوة الحركة. فقد يعيش الإنسان، في بعض حركية أفكاره، مجرّد أخذ العلم والخبر في قضية ما، من دون أن يكون لهذا الاعتقاد أي دور في تحريكه أو في سلوكه، وفي واقعه.

لا نريد لهذه العقيدة أن تكون كذلك، مجرد فكرة محبوسة في أذهاننا ومجرد فكرة نقول إنها من الغيب وكفى، وفكرة يجب أن نعتقد بها من دون أن ندخل في تفاصيلها أو إشكالاتها، ولذلك بحسب هذا المنطق، دأب النبيّ ﷺ على ربط الناس بقضية المهدي(عج) ثم توالى الأئمة من بعده عليه السلام على ذلك، فكان الإمام علي عليه السلام يركّز على هذه القضية وكذلك الإمامان الحسن والحسين عليه السلام وجميع الأئمة عليهم السلام بحسب المنقول والمأثور.

وتؤكّد الرّوايات الموجودة في المجامع الحديثية على قضية الإمام المهدي وظهوره في آخر الزمان، كيف يمكن أن يكون ذلك جزءاً من العقيدة بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يعيشون قبل أربعة عشر قرناً، ومحركة لهم وواقعة لهم وتترجم من خلال أفعالهم؟

لا إشكال في أن المسألة تنجلي إذا عرفنا أن أساس العقيدة ليس مجرد اعتقاد، إنّما هو اعتقاد وعمل، وهذا العمل ليس منحصراً في عمل إنسان يعيش اعتقاده وإيمانه بوصفه فرداً ولا صلة له بالآخر، وإنما هو

إيمان واعتقاد بأن العقيدة يجب أن تكون حاكمة على الفرد بما هو فرد من الأمة، وبما هو عضو يتفاعل مع الآخرين ليس بوصفه جزءاً لا يوجد في الساحة غيره، فيكون التفاعل الذي يوجد بين الأفراد هو الذي ينبغي أن يحكم ذهنية الإنسان المسلم بنحو لا نعيش الإسلام عقيدة فردية بل نعيشه عقيدة تهتم بالآخر.

إن إيمانك يجب أن يتحرك ليشمل الكل، فعندما تصل إلى فكرة وقناعة معينة، باعتبار أنها تمثل الحق وتمثل الحقيقة كما تتصورها أنت، فإن من مسؤوليتك أن تنقل هذه الحقيقة إلى الآخر وأن تجعل الآخر يشاركك في هذه الحقيقة.

إذاً الإسلام جاء ليتحرّك، وعندما يحكم يكون الأمر كذلك، لا بدّ من أن يكون واقعياً، لا مثالياً بعيداً عن مسألة التطبيق. من هنا نشعر بأهمية عقيدة الإمام المهدي، وبأهمية انتظاره، يعني أن يرتبط بإمام يظهر في آخر الزمان، ويكون امتداداً للأئمة المنصوص عليهم من قبل النبيﷺ وعدّتهم عدة نقباء بني إسرائيل، اثنا عشر إماماً، هذا يعني التواصل عبر هذه القرون المتمادية من بداية عصر النبي محمدﷺ وحتى إلى ما يشاء الله تعالى، ومن هنا نقول: «إنّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية» ليس مجرد أن تعرف أن إمامك يسمّى بهذا الإسم، وأن إمامك له هذه النسبة أو له هذه الصفة أو له هذه الخاصية أو ما أشبه ذلك إنما هو ارتباط يخلق عندك تفاعلاً في العقيدة ويخلق عندك تفاعلاً في السلوك وفي المنهج وفي كل شأن من شؤون حياتك، بحيث يكون وجود الإمام كغيبته، لأنه عندما لا يكون حاضراً بجسده يكون حاضراً بما يمثل من رسالة، فالارتباط به وإن كان ارتباطاً قد يكون أقرب إلى الغيب، ولكنه

ارتباط واقعي ومتحرك؛ إذ إننا نرتبط به من خلال رسالته، ومن خلال امتداده للنبوّة وللنبي ﷺ.

وحتى في عصر الغيبة، عندما نرتبط بنوّابه وبسفرائه وبالولي الذي ينوب عنه في بعض شؤونه وبعض المقامات أو الدّرجات التي يمكن أن ينوب النائب عنه، يمكن أن نرتبط به من خلال هذا الدور أيضاً، فارتباطنا بالفقيه بوصفه وليّاً ونائباً عن الإمام هو إنما من خلال وجوده، بما يمثله من منهجية كاملة وشريعة متحركة، من خلال ما فهمه من النصوص التي هي الكتاب والسنة.

إذن ربط النّاس بفكرة الإمام المهدي كان جزءاً من العقيدة التي ينبغي أن يحملها الإنسان المسلم باعتبار ما لها من محركيّة وما لها من تفاعل، ولذا ركّز عليها النبي ﷺ من خلال النّصوص المتنوّعة والأحاديث المتكررة، ومنها، مثلاً «المهدي من وُلدي»، «المهدي من ولد فاطمة»، «المهدي التاسع من ولد الإمام الحسين عليه السلام الخ»... فهذا يعني أن هناك تركيزاً على قضية الإمام المهدي عليه السلام وعلى مواصفات هذا الإمام، لتكون العقيدة واضحة مع بداية الإسلام، ومستجيبةً لحاجات الإنسان سواء في عصر نزول الوحي أم في ما بعده من عصور.

ليست القضية مجرّد أن يعيش الناس الاعتقاد بالإمام المهدي عجل الله فرجه إنما لجعل الإنسان المسلم قادراً على أن يتحرك حركة واقعية يجسد فيها ما أراده الله، سبحانه وتعالى.

أ. **عجرم**: نشكر سماحة الشيخ محمد قبيسي، وأعطي الكلمة للدكتور خنجر حميّة الذي سوف يتحدث عن قضيّتين إشكاليّتين، فليتفضّل بالكلام على إشكاليّتيه.

الدكتور خنجر حميّة: في الواقع، أرغب في الإيجاز والاختصار قدر المستطاع، وأحبّ أن أركّز على نقطتين اثنتين في معالجتي لقضية الإمام المهدي، ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً وتتصل بها اتصالاً جذرياً. القضية الأولى هي الطريقة التي تتم فيها معالجة هذه الإشكالية بالرغم من جوهريتها، وكونها إحدى القضايا التي ترتبط بثقافتنا وبتراثنا واعتقادنا، والقضية الأخرى هي كيفية تصوير العلاقة بين مفهوم غياب الإمام المهدي والدور الذي ينبغي للأمّة أن تلعبه في مدّة الغيبة المتطاولة الممتدة.

بالنسبة للقضية الأولى:

ما زال الحديث عن الإمام المهدي وما يرتبط به من قضايا ومن إشكاليات حديثاً يقرب من العاطفة، لم يتسنّ بعد لنا أن نطرح هذه القضية بموضوعية تامة شاملة، وأن نلقي الضوء على جميع مفاصلها وعلى جميع ما تثيره من إشكاليات وأسئلة كثيرة مختلفة متعددة يتم تكرارها وتداولها على مر التاريخ وعلى مر الزمن. ومثل هذه الأسئلة يتم، في أغلب الأحيان، التغاضي عنها والتعامل معها بطريقة سلبية في كثير من الأوقات، أو بطريقة توحي بأن الذي يتحدث عن هذه القضية يأخذها مأخذ المسلّمات ويرسلها إرسال البديهيات.

لا أودّ هنا أن أستعرض تفاصيل عقيدة الإمام المهدي، إنما أريد أن أركّز على الأسئلة التي كانت منذ غاب الإمام حتى يومنا هذا والتي يتم تكرارها عند الناس عاديين كانوا أم مثقفين، يمتلكون معرفة في هذه المشكلة أم لا يمتلكون، ولا تجد مثل هذه الأسئلة إجابات شافية كافية.

وفي تصوري أنّ كثيرين من الناس الذين يؤمنون بقضية المهدي ويتعاطون معها على أساس أنها جزء من تراثنا ومن ثقافتنا ومن اعتقادنا لا يفهمون كثيراً من القضايا التي ترتبط بها، ولا يستطيعون بالفعل أن يجيبوا عن جملة كبيرة من الأسئلة التي تثيرها مثل هذه القضيّة.

القضية الثانية التي أحبّ أن أتحدث عنها، أيضاً، بإيجاز واختصار، هي: ما هو موقف الأمة في مدّة غياب الإمام المهدي، ونحن لا نزال نعيش هذه المدّة منذ زمن بعيد، ولا شك في أنها طويلة جداً.

والسؤال الذي يثار في هذا المقام هو: في غيبة الإمام المهدي، ما هو موقف الفقيه أو موقف الإنسان الشيعي المؤمن بالإمام المهدي، هل هو الاعتزال وترك الحياة العامة وترك الحياة السياسية وترك الحياة الاجتماعية وعدم التدخل في شؤون الآخرين وعدم المشاركة في أي قضية من القضايا التي تمس المجتمع أو تمس الحاضر وتمس الراهن وترتبط بحاضر الأمة ومستقبلها؟

هذه الطائفة من الناس بادرت إلى اتخاذ هذا الموقف استناداً إلى جملة نصوص ما زلنا نتداولها حتى يومنا هذا، يروى، مثلاً، عن الإمام الباقر، في موقف الإجابة عن سؤال هو: ما يعمل الإنسان في زمن الغيبة؟ فقال: «إلزم الأرض، لا تحركنّ يدك». ويضيف: «وأيضاً ولا رجلك، حتى ترى علامات أذكرها لك». ثم يقول: «أوصيك بتقوى الله وأن تلزم بيتك وتقعد في دهماء هؤلاء الناس وإياك والخوارج من أمتي أو من أتباعي أو أصحابي فإنهم ليسوا على شيء أو إلى شيء». ويقول أيضاً: «انظروا إلى أهل بيت نبيكم، فإن لبدوا فالبدوا، وإن استنصروكم فانصروهم»، ويضيف، قاصداً المهدي: «ولا تسبقوهم فتصرعكم البليّة».

جملة هذه النصوص تشكّل مجموعة كبيرة من الأدبيّات التي تمّ التعاطي معها حتى القرن السّادس، على أساس أنه ينبغي الأخذ بمضمونها والعمل بمقتضاها، وعليه فلا يصح، ولا يجوز، لأيّ كان، فقيهاً كان أم عاميّاً، أن يمارس حياة طبيعية، أو أن يشارك في التجربة السياسية الاجتماعية الثقافية للمجتمع الذي يعيش فيه والموقف الذي ينبغي أن يتخذه حيال هذا التاريخ الذي يتعاقب عليه.

في النّهاية، جملة هؤلاء النّاس، الممكن أن يكون الإيمان الذي يمثل هذه الفكرة شائعاً بينهم، إذا كانوا يشكّلون مجتمعاً معيّناً، ما هو الذي يمكن أن يقدّموه لمثل هذا المجتمع؟ إن ذلك يسهم وباختصار، في تدمير إمكانات الفرد، وفي تحطيم طاقاته، وفي تدمير خياله، وفي تبديد إمكانية إبداعه، ويسهم أيضاً في الركود وعدم التطوّر وعدم التقدم في المجتمع الذي يعيش فيه أمثال هؤلاء.

إنّ هذه الفكرة، وهي فكرة السلبية، لم يتم التخلي عنها بجديّة، في التراث الثقافي الشيعي، إلاّ ابتداءً من القرن السادس الهجري فصاعداً، هنا بدأ الحديث عن الدور الذي يمكن للفقيه أن يقوم به في فترة الغيبة نيابة - إذا صح التعبير - عن الإمام المهدي، ثم طُرح السؤال الجوهري الذي تمت الإجابة عنه فقهياً بأساليب مختلفة، وهو: ما الدور الذي ينبغي أن يقوم به الفقيه في غياب الإمام محاولة منه في دفع الناس إلى المشاركة في بناء الحاضر الذي يعيشونه والمجتمع الذي يوجدون فيه، وفي بناء رؤية محددة للمستقبل الذي سوف يحلمون به؟ بدأ وضع تصوّرات محدّدة، معيّنة لكيفية مشاركة الفقيه بالفعل في إدارة شؤون المجتمع والدّور الذي ينبغي أن يؤدّيه والصيغة التي ينبغي عليه أن يدفع

الناس بوساطتها إلى المشاركة في بناء المجتمع على جميع مستوياته وصعده.

وفي تصوري، إن مسألة غيبة الإمام المهدي ﷺ، ليست عقبة بأي شكل من الأشكال أمام أن يتحمّل الإنسان مسؤولية جهده ونشاطه على مستوى حياته الفردية، وعلى مستوى مشاركته الفاعلة في المجتمع الذي يعيش فيه، والإنسان الذي يتعاطى مع قضية الإمام المهدي بهذه الطريقة يكون إنساناً يشتغل مع القضية بطريقة إيجابية ويمهد لحدث الظهور إذا صحَّ التعبير مشاركاً فاعلاً لا سلبياً منكفئاً، وهذا هو الدور الذي يتلاءم مع ظواهر القرآن، ومع الآيات التي حثّت الإنسان على القيام بدوره على مستوى تاريخ البشرية وعلى مستوى الحياة، والتي حثت الإنسان على تحمل مسؤوليته وفعله وعلى أنه ينبغي عليه أن يقدم الطاقة وكل الجهد في سبيل إنجاز جزء من تاريخ البشرية ومسيرة هذا العالم حتى خاتمته ونهايته.

أ. عجرم عجرم: شكراً د. خنجر. الآن، المجال مفتوح أمام الأخوة الذين يرغبون في طرح أسئلتهم أو في الإدلاء بمداخلاتهم، فليتفضلوا.

وقد دار حوار طويل شارك فيه الحضور والمنتدون، وتعتذر مجلّة المنهاج عن عدم نشره لعدم توفر المساحة اللازمة.

نظرة إلى دولة
الإمام المهدي(عج) العالمية

علي محمد الخراساني

تمهيد

قال الإمام الصادق عليه السلام في وصف سيرة الإمام المهدي(عج): «... وأن يسير فيهم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ويعمل فيهم بعمله»[1].

بالتأمل في كلمات الأنبياء ورسل السماء، حول نهاية العالم، نتيقن ان الفكر الديني يرسم خاتمة سعيدة لها ولنهاية حياة الإنسان على الأرض.

فبالرغم من جميع ما يتعرض له تاريخ البشرية من فساد وظلم وانحراف ودمار، سينتهي الليل المظلم، ويطلع فجر جديد لحياة الإنسان في ظل القائد الإلهي الكبير والمحبوب في السماء والأرض، والمحبوب عند الانس والجن وجميع المخلوقات.

وسيطلع العالم الباحث عن الحق والعدل على واقع الحكم الإلهي،

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٢ ص ٣٣٧، ح٧٨.

وسيتمنى الأحياء عندئذ رجوع موتاهم ليروا كيف يجري بحر المعرفة في قلوب طلاب الحق، وكيف يتعايش الذئب مع الشاة بسلام، وتتآلف البشرية عائلة واحدة تحت حكم الإمام(عج).

وفي عقيدتنا، أن هذا الوعد الإلهي ليس مجرد وهم أجوف، بل هو حق لا ريب فيه، فالله لا يقول غير الحق، ومنجز ما يعد به.

وفي هذا البحث، سنلقي نظرة عابرة على الأبعاد المختلفة للحياة في مجتمع الإمام المهدي(عج).

وبما أن هذا البحث يعتمد، في الأساس، على النصوص الواردة، فسنعتمد على ما يمكن من الآيات والأحاديث في هذا الصدد لرسم الصورة الواضحة للمجتمع الذي يشيده الإمام المهدي(عج).

١- في البُعد العقدي:

إذا أمعنت النظر في أجواء دولة المهدي لن تجد في مجتمعه أثراً للكفر أو الشرك أو الإلحاد أو عبادة الاصنام.

فكما خرَّ صرح أكبر أعداء العقيدة وعالم الغيب، ونعني به مركز المادية وأصالتها أي الاتحاد السوفياتي وتهدم، فسوف تتهدم صروح دول الكفر والشرك الباقية جميعها، وسيعم شعار التوحيد جميع أرجاء المعمورة، وستؤمن المجتمعات البشرية بالله الواحد وستعبده تعالى من دون سواه.

وستجد البشرية، ببركة حكم الإمام المهدي(عج)، ضالتها، ألا وهي كمال الوجود، وستعشقه وتخضع له، الجميع يعبدون الله الواحد، ولهم كتاب واحد (القرآن الكريم)، ويتوجهون إلى قبلة واحدة (الكعبة) في صلاتهم،

والشعار في أنحاء الأرض جميعها هو الأذان، وستلجم الشياطين وأتباعهم وتغل أيديهم. وستحيا الأرض الميتة مرة أخرى بنور الإيمان، وتسري الحياة في جميع جوانب البشرية: المعنوية والمادية. وستحطم الأصنام والصلبان، وسيهبط المسيح عليه السلام، ويلتحق بركب الإمام المهدي(عج) ويقتدي به. وقد ورد العديد من الروايات في هذا الصدد، ومنها:

- «إذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم»[(١)].

- قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾[(٢)] «.. يحيي الله تعالى الأرض بالقائم بعد موتها، يعني بموتها كفر أهلها، والكافر ميت»[(٣)].

- ويكسر الصليب[(٤)].

- «... وبالقائم منكم أعمر أرضي، بتسبيحي وتقديسي وتهليلي وتكبيري وتمجيدي وبه أطهر الأرض من أعدائي»[(٥)]. فالتهليل والتكبير والتسبيح والحمد هو ما تلهج به الألسنة آنذاك، وبذلك ستطهر الأرض من رجس أعداء الله.

- «... لا تبقى في الأرض بقعة عبد فيها غير الله إلا عبد الله فيها»[(٦)]. فستتبدل مراكز عبادة الأصنام إلى بيوت ذكر الله وعبادته.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢ ص ٢٧.

(٢) الحديد: ١٧.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥ ص٢٤٢، وبحار الأنوار، ج٤٧ ص٥٤.

(٤) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ٦١.

(٥) نفسه، ص ٦٦.

(٦) نفسه.

- «... فلا يبقى في الأرض معبود دون الله من صنم وشيء وغيره إلا وقعت فيه نار فاحترق»[1].

- «.. وكل ما كان في الأرض معبود سوى الله تعالى تنزل عليه نار من السماء فتحرقه»[2].

- «.. إذا قام القائم لم يعبد إلا الله عز وجل»[3].

فما أحلى هذه الدولة وذلك العصر، فحينها ستستيقظ البشرية من سباتها العميق الذي استغرق آلاف الأعوام، وتفهم حينئذ أن شياطين الإنس والجن والطواغيت وأتباعهم قد استغفلتها، وعن طريق الإغراء والإكراه والتزوير والتحريف عبر هذه السنين الطويلة، وأبعدتها عن الله العزيز وألقتها في مستنقع الكفر والإلحاد والشرك.

وكيف أنهم تدنوا في مستوياتهم وانحطت نفوسهم فخضعوا للأصنام التي نحتوها بأيديهم، وعبدوا ما لم ينفعهم ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وابتعدوا عن الله العزيز الجبار.

٢- هيمنة الإسلام على العالم

ليس الإيمان بالله وتوحيده وعبادته وحده هو الذي سيهيمن على البشرية، بل إن التوحيد الخالص سيسري في العالم كله، ويضحي دين الإسلام الدين الرسمي للأرض كلها.

ولقد أنبأنا القرآن الكريم بسيطرة الإسلام وغلبته على باقي الأديان

---

(١) منتخب الأثر، ص ٢٩٢.

(٢) نفسه، ص ٤٣٦.

(٣) نفسه، ص ٤٧١.

الرائجة في الأرض، وفي غير موضع في الكتاب المجيد كرر هذا المفهوم:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] ومثله ورد في سورة الصف (آية ٩) ونحوه في سورة الفتح (آية ٢٨). ولا شك في أن مصداق هذه الآيات المباركة لم يتحقق حتى الآن، وسيتم تحققه في دولة الإمام المهدي(عج)، وقد بينت ذلك روايات عديدة نورد بعضها على سبيل الذكر:

- «.. إن ذلك يكون عند خروج المهدي، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد ﷺ، ولا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام»[2]. وأقرب الوسائل لتحقق ذلك هو خضوع العالم كله لحكم الإمام المهدي(عج)، فيسهل على الناس جميعهم التعرف على الإسلام، وهم في بيوتهم من خلال وسائل شبكات الاتصال المتطورة في ذلك الوقت. وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[3] عن الإمام الصادق عليه السلام: «... وليبلغن دين محمد ما بلغ الليل حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض حتماً وجزماً»[4].

- «... إذا قام القائم لا يبقى أرض إلا نودي فيها شهادة أن لا إله إلا

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) مجمع البيان، ج٥ ص ٢٥.

(٣) البقرة: ١٩٣.

(٤) منتخب الأثر، ٣٩٤.

الله وأن محمداً رسول الله»[1].

- «... ويبسط الإسلام على الأرض»[2] فسينهض الإمام المهدي(عج) أولاً ببسط نفوذ الإسلام الأصيل على الأرض، ويتلوه تبعاً لذلك نفوذ أنظمته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها... وفاعليتها.

- «... فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا أحد ممن يعبد غير الله إلا آمن به وصدقه، وتكون الملة واحدة ملة الإسلام»[3].

- ويقبل الناس على العبادات والشرع والتدين والصلاة في الجماعات[4].

نعم سيسود التدين مجتمع ذلك العصر، وسيقبل الناس على الالتزام بأحكام الدين وشعائره، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «إذا تغير السلطان تغير الزمان»[5] فإذا صلح الحاكم تغير المجتمع تبعاً له وصلح، فمن الطبيعي إذا كان الحاكم من أهل عبادة الله ويعبده حق عبادته[6] أن يترك تأثيراً عملياً على المجتمع وسيرورته إلى الالتزام الديني، فيصبح الالتزام الديني لدى هذا المجتمع فضيلة كبرى.

ونذكر مثالاً لذلك هو ما حدث في إيران الإسلام بعد قيام الثورة الإسلامية المباركة والإطاحة بالحكم الطاغوتي الفاسد، حيث نشأ جيل

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٤٠.

(٢) منتخب الأثر، ص ٢٩٢.

(٣) نفسه، ص ٤٣٦.

(٤) نفسه، ص ٤٧٧.

(٥) نهج البلاغة، القسم الأخير من الرسالة ٣، ص ٤٠٥.

(٦) منتخب الأثر، ص ٤٦٩.

جديد، بعد الثورة الإسلامية، رفض الاتجاهات المنحرفة والإنسياق وراء الشهوات، ووصل في كماله إلى أعلى درجات السمو والرفعة في الحياة وأعلى درجات الكرامة والإنسانية، ألا وهي نيل الشهادة التي ليس فوقها بر في سبيل الله.

وسيسري هذا الوعي في أرجاء المعمورة جميعها، وسيتسابق الناس في فعل الخيرات والمغفرة الإلهية تحت راية التوحيد ورسالة النبي الخاتم ﷺ.

ومن الجدير بالذكر أن المقصود من القول: «فلا يبقى يهودي ولا نصراني..» الذي ورد في بعض الروايات، ليس خلو الأرض من اليهود والنصارى والمشركين، بحيث لا يوجد على ظهر الأرض إلا المؤمن الموحد، بل المراد منه أن مظاهر المجتمع وحياته العامة لا يكون فيها مظهر من مظاهر الكفر والالحاد، ويزول عنه حكم الكفرة وأتباعهم، وتزول جميع العوامل المضادة وللإيمان وهداية الإنسان.

والا فما دام الإنسان له حق الاختيار (وهكذا كان الإنسان وسيبقى موجودا مختاراً مستقلاً في إرادته) لا يمكن سلب اختياره عن ذاته.

فسيبقى احتمال وجود الإنسان المنحرف، وما جاء به القرآن الكريم من آيات مثل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[1] و﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[2] تعد عامة لجميع مراحل البشرية عبر التاريخ، وتبين حال الإنسان في سلوكه.

---

(١) سورة الدهر: ١.

(٢) الكهف: ٢٩.

ولذلك، أيضاً، نرى، على العكس من ذلك، في المجتمعات المنحرفة ودول الكفر والطواغيت، أنه يمكن العثور على بعض المؤمنين الصالحين الموحدين لله تعالى، كما يحكي ذلك القرآن الكريم في شأن آسية امرأة فرعون التي تعد من نساء أهل الجنة.

نعم، من المسلم به في مجتمع الإمام المهدي (عج) انه سيكون الإسلام هو الدين الرسمي، وسيعم أرجاء الأرض جميعها، فلا يبقى بيت في مدينة أو قرية إلا وقد دخله ذكر الإسلام واسمه، ولا يمنع ذلك من وجود أقلية دينية من اليهود والنصارى وغيرهم تعيش مع المسلمين بشرائط أهل الذمة في ذلك المجتمع، كما كان الأمر في صدر الإسلام، في زمان حكم الرسولﷺ وحكم الإمام علي عليه السلام:

فالإمام المهدي(عج) لا يلجأ إلى إكراه الناس على الإيمان، بل يدعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، وبمنطق القرآن في الدعوة، وما يذكر من إرساله الجيوش والقوة العسكرية إنما هو لقلب الأنظمة الكافرة والظالمة وإرساء القاعدة للحكومة العالمية للإسلام. وليست تلك القوة لإجبار الناس على اعتناق الدين الإسلامي، فمن الواضح أن الإيمان أمر قلبي لا يمكن إيجاده بالإكراه والتخويف. وحتى النبي الأكرمﷺ لم يلجأ إلى هذا الاسلوب: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

٣- تكامل العقول والأفكار

فكرياً، ستتطور البشرية في عصر الإمام المهدي(عج)، حيث تتكامل عقول الناس وتبلغ الدرجة العليا من النضج والرقي.

---

(١) سورة الغاشية: ٢٢.

وقبل التعرض للروايات الواردة، في هذا الشان، من المناسب معرفة مواصفات العاقل من خلال حديث الإمام موسى بن جعفرعليه السلام لهشام بن الحكم:

«يا هشام! لكل شيء دليل، ودليل العاقل التفكر، ولكل شيء مطية ومطية العاقل التواضع. يا هشام: إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره. يا هشام: قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف. إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة. إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه. ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه. إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه. ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله، وأعلم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأعقلهم وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة. يا هشام: ما قسم بين العباد أفضل من العقل، نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وما بعث الله نبياً إلا عاقلاً حتى يكون عقله أفضل من جميع جهد المجتهدين. إياك ومخالطة الناس والأنس بهم إلا أن تجد منهم عاقلاً ومأموناً فآنس به، واهرب من سائرهم كهربك من السباع الضارية...»[(١)].

كما ورد في بعض الروايات: «.. إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به احلامهم»[(٢)]. وفي بعضها ورد: «وضع الله يده...».

على أية حال، سواء قلنا إن يد الإمام(عج) فوق رؤوس العباد التي هي

---

(١) تحف العقول، ص ٢٨٥-٢٩٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٢٨ و٣٣٦.

يد الله، أم قلنا إن يد الله فوق رؤوس العباد، ويحتمل هذا أيضاً بمعناه الحقيقي، أي أن الله عز وجل يفيض بنعمته على عباده فيكمل لهم عقولهم.

وعندما تسود العقلانية المجتمع البشري، سيلجم الشيطان وتقيد أهواء النفس وترتفع الذنوب، فمجتمع العقلاء لا يلتف حول المعاصي والذنوب، ويرتفع الفساد الاجتماعي. وإذا ما ارتكب فرد ذنباً فسيتذكر بعده، ويستغفر الله. وكل واحد من أفراد المجتمع ناصح أمين يعمل لنفع الآخرين، لا يظلم نفسه، ولا يظلم غيره، يسلك طريق الهدى والكرامة، ولا يخطو في طريق الخذلان والخسران.

وهنا قد يتساءل: هل أن المجتمع الصناعي في أوروبا وأمريكا لا يتصف بالعقلانية، حيث إنا نرى الكثير من مظاهر الفساد والظلم فيه؟

وجوابه هو: يتميز افراد هذه المجتمعات بالذكاء وقدرة إدراك عالية، وقد حصلوا على معرفة وتجارب كثيرة، ونتيجة للفطنة والسعي والمثابرة في الميادين المختلفة للعلم والتكنولوجيا وصلوا إلى أعماق البحار والمحيطات، وجاوزوا السماء إلى الكواكب البعيدة، وحققوا في هذه المجالات للبشرية نتائج باهرة وعظيمة.

لقد أصبح كل شيء في قبضتهم، من أصغر شيء في عالم الذرة وامتداداً في الوجود إلى عالم المجرات وسحب النجوم التي تبعد عن الأرض ملايين السنين الضوئية، وهم مشغولون الآن بطي هذه العوالم للتوصل إلى ما هو أبعد وأكثر غموضاً مما كان، ولقد حققوا في عالم الطب تطوراً عظيماً، حيث أصبح اليوم زرع أعضاء الإنسان وتبديلها، من إنسان لآخر، أمراً شائعاً في هذا الزمان.

لكن، مع كل هذا التقدم والتطور في العلوم والتكنولوجيا، لا يزال

عقل الإنسان غير مرتق، ولم يتكامل ولم ينتقل من عالم القوة إلى عالم الفعل، فلو كانت العقول قد ارتقت وتكاملت لما ارتكبت البشرية الذنوب العظيمة، ولما مارست الظلم، ولما انتشر الفساد الأخلاقي إلى الحد الذي نراه اليوم.

قال إمام العقلاء صادق آل محمد عليه السلام: «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال الراوي: قلت: فالذي كان في معاوية؟ قال عليه السلام: تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل»[(١)].

وقال الإمام علي عليه السلام في شان معاوية (حيث كان يعده بعضهم أدهى وأكثر فطنة من الإمام): «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة»[(٢)].

نعم، فالعقل حجة الله على العباد، كما أن الأنبياء والأوصياء حجج الله على العباد.

قال الإمام الكاظم عليه السلام: «يا هشام، إن على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول»[(٣)].

فكما أن الأنبياء والرسل لا يدعون الناس إلى المعاصي، فكذلك

---

(١) أصول الكافي، ج١ ص ١١.

(٢) نهج البلاغة (تحقيق صبحي الصالح)، خطبة ٢٠٠، ص ٣١٨.

(٣) تحف العقول، ص ٢٨٥.

العقل، فالعقل لا يدعو الإنسان ولا يوجهه إلا إلى الصلاح والهدى والعفاف وحسن النية.

ففي زماننا هذا، ضرب على العقل من جانب، ومن جانب آخر وصلت المعرفة والعلوم إلى حدها الأعلى، فالمسيطر على عالم التكنولوجيا هو الذكاء والفطنة، فعالم الاختراعات العلمية كله رهين لهذه الفطنة ولهذا الذكاء اللذين يتميز بهما المجتمع البشري.

فلو أضيف العقل إليهما، سيسخر الذكاء والعلم في الطريق الصحيح الذي يخدم الإنسانية.

على سبيل المثال، ترى ان الإنسان بعلمه وذكائه يسيطر على الأنهار بإنشاء السدود والبحيرات والقنوات، ويستفيد من خلال ذلك في إحياء آلاف الهكتارات من الأراضي الميتة، ويحولها إلى أراض زراعية. إلا أن هذا الإنسان نفسه الذي أنشأ السدود والقنوات بعمله، يأمر في أزمنة الحروب بتفجيرها، وإن أدى هذا إلى إغراق الآلاف من الناس وإتلاف الأراضي والحيوانات، فالذي أنشأ السد هو العلم والذي عمل على خرابه وتفجيره هو العلم أيضاً.

فالعلم سيف ذو حدين، فإذا كان في يد أهل الصلاح والعقلاء سوف يستفاد منه في قطع الأعضاء الفاسدة للمحافظة على باقي الأعضاء، أما إذا كان بيد السفهاء، فيكون أخطر بكثير من السيف القاطع الذي أمسك به من غلب عليه السكر.

في مجتمع الإمام المهدي(عج) يتكامل العقل إلى جانب التطور العلمي والتكنولوجي.

العلم يورث العجب والتكبر، ولكن العقل يورث التواضع.

العلم قد يؤدي إلى الدمار، ولكن بالعقل يتم الإعمار.

الذكاء يجر إلى الحيلة، ولكن بالعقل تتم الإنسانية والفضيلة والشرف، بل إن ملاك تفضيل الإنسان على سائر حيوانات العالم كونه ذا عقل، ومنذ أيام اليونانيين حتى وقتنا هذا يقال للإنسان حيوان ناطق.

في مجتمع الإمام المهدي(عج) لا يتكامل العقل البشري فقط بل يكون مهيمنا على الفطنة والعلم، بل على جوانب الحياة البشرية جميعها، وفي ظل هذا الإشراف تسير هذه الجوانب المختلفة للمجتمع البشري جملة في طريق الخير والصلاح والرفاهية وسعادة المجتمع.

ومن جملة انجازات الإمام المهدي(عج) تحريره العقول من قيود الأهواء والميول النفسانية، وجعل مصير الإنسان تحت حكم العقل، فالناس جميعهم، في ذلك العصر، عقلاء وعلماء لا يقدمون على عمل من دون ترجيح العقل له، فالذي يحكم العقل بوجوبه ويحسنه يعملون به، ويتجنبون كل ما قبحه العقل وكرهه، ومن الواضح طبقاً لهذا المعيار المستوى الذي سيصل اليه المجتمع البشري.

٤- في البُعد الثقافي

قد تستعمل لفظة الثقافة بمعنى أدب الإنسان أو تربيته، وأحياناً تستعمل بمعنى العلم والمعرفة، وثالثة قد تستعمل بمعنى مجموعة الآداب والتقاليد التي يلتزم بها مجتمع معين.

إذا كان المنظار إلى مجتمع الإمام المهدي(عج)، بالمعنى الأول، فإنا سنرى الناس في ذلك العصر متأدبين بالأدب الإسلامي وبالتعاليم الإلهية:

«تأدبوا بآداب الله»[1] وهذه أكمل مدرسة تربوية مستمدة من وحي الله، وقد بينت عن طريق الأنبياء والأئمة المعصومين (خير من عرف الناس).

ففي ذلك العصر، يكون الإنسان مجسداً للعدل الإلهي، ومجسداً للرحمة والصبر والقدرة والجود والكرم الإلهي. وفي جملة واحدة، يكون الإنسان حينئذ مجسداً لأسماء الله الحسنى جميعها.

وفي بعض الروايات: «وألقى الرأفة والرحمة بينهم فيتواسون ويقتسمون بالسوية فيستغني الفقير، ولا يعلو بعضهم بعضاً، ويرحم الكبير الصغير ويوقر الصغير الكبير»[2].

وإذا ما استعملت كلمة الثقافة بالمعنى الثاني، أي العلم والمعرفة، نقول: سوف يرقى علم الإنسان في ما يخص المبدا والمعاد والمعارف الإلهية في عصر الإمام المهدي(عج) إلى أعلى درجاته، وكما جاء في بعض الروايات عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «.. وتؤتون الحكمة في زمانه حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله»[3] فإلى هذا الحد من المعرفة بالإسلام سوف يرقى الإنسان في عصر الإمام المهدي(عج)، ويتعلم مفاهيم دينه ويعيشها من خلال الكتاب والسنة.

وسيصل علم الإنسان إلى أعلى درجاته، وستطوي البشرية مراحل العلم والمعرفة جميعها مرحلة بعد أخرى، وستطلع على جميع ما في السموات والأرضين، وما بينهما من أسرار، وسيتحقق مفاد الآية الكريمة:

---

(١) الكافي، ج١ ص ٢٦٦، ج٥ ص ٧٠، تحف العقول، ص ٣٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٨٥.

(٣) نفسه، ص ٣٥٢.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

وحتى الآن لم يطلع الإنسان إلا على ما يخص قسماً من السماء الأولى أو السماء القريبة منه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ...﴾[2].

إلا أن في النصوص الدينية يأتي الكلام على السموات السبع وأسرارها التي لا يعلم الإنسان عنها أي شيء.

وسيطلع إنسان عصر الإمام المهدي(عج) على أسرار هذه السموات كما جاء في الرواية: «العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً»[3].

وفي الحقيقة، ستنشر في ذلك العصر العلوم جميعها، وتيسر المعارف جميعها للمجتمع البشري حتى لا يبقى شيء يجهله الناس، وتبعا لهذا العلم الشامل سيخضع الإنسان لعظمة الخالق عز وجل، وتتحقق فيه خشية الله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[4]. وسيشعر الإنسان بمدى صغره إزاء عظمة الخالق، جل وعلا، وسيعيش بكل وجوده عبوديته لله تعالى.

وفي رواية أخرى: «إن المؤمن، في زمان القائم، وهو بالمشرق،

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) فصلت: ١٢.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٣٦.

(٤) فاطر: ٢٨.

ليرى أخاه في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق»[(١)].

قد يكون من الصعب إدراك معنى هذا الحديث قبل مئات السنين، وان كان الكثير يتعبد بقبوله وإن لم يفهم كنه معناه.

ليس معنى هذه الرواية ما قد لجأ إليه بعضهم من تفسير، وهو أن الأرض ستخرج من كرويتها وتصبح مسطحة، وتقوى أعين الناس إلى درجة أنهم يستطيعون رؤية ما يبعد عنهم آلاف الكيلومترات.

لكن مع تطور العلم والتكنولوجيا وغزو الحاسوب وشبكات الإنترنيت جميع بقاع الأرض وثورة عالم الاتصالات، تيسر علينا فهم معنى الحديث، حيث أن الإنسان سيتمكن وفي ظل التطور العلمي والتكنولوجي وصنع أجهزة الاتصال العالمية، وفي خلال ثوان معدودة، من الاتصال بأخيه المؤمن في النصف الآخر من الكرة الأرضية ورؤيته عبر شاشة الحاسوب.

أليس أن من سنة الله، في هذا العالم، أن تجري الأشياء وتتحقق عبر أسبابها: «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها»[(٢)]. وهذه السنة كباقي السنن لا يمكن أن تتبدل أو تعدل: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً**﴾[(٣)].

وهكذا الأمر، في عصر الإمام المهدي(عج)، تبقى السنن ولا تتغير.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٩١.

(٢) الكافي، ج١ ص ٢٥٩.

(٣) فاطر: ٤٣.

وإذا استعملت الثقافة، بمعنى العادات والتقاليد، لأمة معينة، ففي دولة الإمام المهدي العالمية ستحذف العادات والتقاليد الخرافية والجاهلية جميعها من المجتمع، وتحل بدلاً منها العادات والتقاليد الإسلامية والإنسانية الصحيحة. فستمحى التعصبات القومية والقبلية جميعها، وسيتصف المجتمع البشري بالإنصاف، وستهيمن الواقعية عليه.

وعلى سبيل المثال، أن من أمثال العرب في الجاهلية قولهم:

«أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، وقد عدل رسول الله ﷺ هذا العرف فقال: وأنا اقول: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ولكن إذا كان ظالماً فقف أمام ظلمه وهو نصر له، وإذا كان مظلوماً فانصره وطالب بحقه.

والإمام المهدي(عج) الذي يحيي معالم الدين ويجدد سنن النبي ﷺ سيمحو العادات والتقاليد الجاهلية الحديثة في عصرنا هذا جميعها، وسيطلع البشرية على واقع الحياة، ويخرجها من ظلمات الوهم والخيال. ومن ثم ستهيمن الثقافة الإلهية والإسلامية الأصيلة على مجتمع الإمام المهدي(عج) بجميع أبعاد الكلمة.

٥- في البُعد السياسي

يسعى أعداء الإسلام، دائماً، إلى فصل الجانب السياسي للحياة عن الدين، ويوحون بأن الدين لا يهتم إلا بعلاقة الإنسان بربه ولا رأي له في السياسة والحكومة وعلاقات الإنسان بالآخرين، وكذلك لا يتعرض للعلاقات الدولية بين الأمم، وليس له أي نظام ومنهاج لهذه المسائل.

بل يوحون بأنَّ الدين منفصل عن الدنيا، وليس له أي اهتمام بدنيا البشرية وعيشها، فالعلم والمعرفة لا يتفقان مع الدين، والدين يختلف عن العقلانية... الخ.

من البديهي أن هذه الشبهات قد يتاثر بها من لم تكن له أي معرفة ولو أولية بالإسلام.

أما من له معرفة بالدين الإسلامي وأصوله وفروعه فسوف يردها ويعدها غير منطقية. فكيف يعقل بأن الدين منفصل عن العلم في حين بدأ رسول الإسلام محمد ﷺ دعوته بدعوة الناس إلى العلم والتعلم، وأوحى الله اليه الآية الأولى من القرآن الكريم مبتدئاً فيها بالقراءة والتعلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فالدين الإسلامي قد اهتم بأمر التعليم والتعلم إلى درجة أقسم في القرآن الكريم بالقلم وما يكتب به: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]. ولم نجد هذا من قبله في أي دين:

فأهم خصيصة يثبتها الدين الإسلامي للإنسان، وهي الخصيصة التي ميزته وجعلته مؤهلاً لخلافة الله في الأرض، هي العلم:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3].

وفي الإسلام يأتي الخطاب: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[4].

فهل أن مثل هذا المحتوى هو معنى فصل الدين عن العلم؟ نعم قد

---

(١) العلق: ١ – ٤.

(٢) القلم: ١.

(٣) البقرة: ٣١.

(٤) بحار الأنوار، ج١ ص ١٨٠.

تأتي هذه الشبهة، ويمكن قبولها في شان المسيحية المحرفة التي وقفت أمام انتشار العلم واضطهدت العلماء في القرون الوسطى. أو في شان اليهودية المحرفة التي فرضت أن ذنب النبي آدم عليه السلام الذي أخرجه من الجنة إنما هو العلم والمعرفة[١].

لكنها لا تتناسب مع منطق الكتاب والسنة في الإسلام.

كيف يفترض فصل الدين عن العقلانية في الوقت الذي تنص فيه الروايات على أن «تفكر ساعة يعادل، أو أفضل من عبادة سنة»[٢] وكيف يفترض للإنسان الذي فضله الله على باقي الخلائق بالعقل والمشاعر السامية درجة ومنزلة أقل من البهائم؟ بل كيف يمكن تفسير دعوة الدين الإنسان مراراً إلى التفكر والتدبر والتعقل مع هذه الفرضيات الخاطئة؟ وكيف يمكن تصور تضاد الدين مع الدنيا في حين أن من أهداف خلق الإنسان هو اعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٣]. وفي موضع آخر ينص: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٤] بل الدين يُعد السعي لتحصيل الرزق الحلال أفضل أنواع العبادة: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»[٥] وعد بذل الجهد في سبيل ضمان مؤونة العيال كالجهاد في سبيل الله: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[٦].

---

(١) سفر التكوين، فصل ٢، آية ١٧.

(٢) تفسير العياشي، ج٢ ص ٢٠٨.

(٣) هود: ٦١.

(٤) القصص: ٧٧.

(٥) الكافي، ج٥ ص ٧٢.

(٦) نفسه.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته وآخرته لدنياه»[1].

وكيف يفترض فصل الدين عن السياسة في الوقت الذي نرى أن أرقى التعاليم والأحكام الخاصة بالحكم والسياسة وإدارة الدولة قد جاء بها الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فلم يعتن الدين الإسلامي بعلاقات الإنسان بأفراد جنسه ووضع هذه العلاقات ضمن منظومة المثل والقيم العليا فحسب، بل اهتم أيضاً بعلاقة الإنسان مع نفسه وعلاقته مع الله عز وجل بدرجة كبيرة. وسنكتفي، في هذا المجال، برواية قيمة يرويها جميل بن دراج عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الإسلام والسلطان العادل أخوان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. الإسلام أس والسلطان العادل حارسه، ما لا أس له فمنهدم، وما لا حارس له فضائع»[2].

بعد هذه المقدمة، نقول: إن الحاكم على العالم كله، في عصر الإمام المهدي(عج)، هو الإمام نفسه، ويعم الدين الإسلامي الأرض كلها، والكتاب المعتمد قانوناً للبشر هو القرآن الكريم.

وتبعا لذلك، ستكون القوانين النافذة في المجتمع البشري جميعها هي قوانين الإسلام، ولا سلطة إلا لحكم واحد على وجه الأرض، وتلغى الحدود بين الأمم، وتلغى الهيئات والمؤسسات الدولية قليلة الفائدة، وستتوحَّد الجيوش، وسيصبح العالم كله عائلة واحدة تحت رعاية حاكم محبوب. والى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، باب ٥٨ ح٣.

(٢) منتخب الأثر، ص ٢٧٣.

(٣) التوبة: ٣٣.

وفي تفسير الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] . يقول الإمام الباقر عليه السلام: «هذه لآل محمد إلى آخر الآية، والمهدي وأصحابه يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين...»[2] وفي تفسير الآية: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾[3]. قال الإمام الباقر عليه السلام: «إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»[4].

وفي رواية أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله: «يبلغ سلطانه المشرق والمغرب»[5]. ونقرأ في رواية أخرى: «فيفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها»[6]. وأيضاً نقرأ في الروايات: «ويصير سلطاناً عليها»[7] أي على الأرض كلها. وفي رواية أخيرة عن الإمام الصادق عليه السلام: «... إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى كل منخفض من الأرض وخفض له كل مرتفع حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته، فأيكم لو كانت في راحته شعرة لم يبصرها»[8] ومن الواضح أن المراد من هذا التعبير هو أن العالم كله يكون تحت هيمنة الإمام المهدي(عج) وسلطته وحكومته وإدارته بحيث لا يبقى شيء أو حادث إلا ويعلم به.

وعلى أي حال، فالكثير من الحروب والدمار والفساد في الأرض

---

(١) الحج: ٤١.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٣ ص ٥٠٦.

(٣) الإسراء: ٨١ .

(٤) تفسير نور الثقلين، ج٣ ص ٢١٢.

(٥) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ٧١.

(٦) نفسه.

(٧) منتخب الأثر، ص ٢٩٢.

(٨) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٢٨.

وإهلاك الحرث والنسل إنما كان بسبب الحكومات الظالمة التي تسعى في بسط قدرتها على الدول الأخرى، ولو كان على حساب فناء الكثير من البشر. وقد حكى لنا التاريخ عن الكثير في هذا المضمار.

لكن عندما تزول الدول ويتوحد العالم تحت حكم واحد ذي كوادر إراداتهم قوية وهممهم عالية، وعندما يكون العالم كله تحت إشراف الحاكم الواحد، بحيث يطلع على كل مكان من الأرض، وينشر في أرجائها جميعها القسط والعدل، سوف لا يتوفر أي مسوغ للتنازع والاختلاف والفساد والنهب، وسيكون المجتمع البشري في أتم الرفاهية والأمن والطمانينة يعبد ابناؤه الله ويعملون في سبيله.

٦- في البُعد القضائي

ورد، في بعض الروايات: «فيحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل الفرقان بالفرقان»[(١)].

لما كان الإمام(عج) عادل في قضائه سيرضى أتباع الديانات الأخرى من اليهود والنصارى بالتحاكم إليه، وهو بذلك يجسد سيرة جده الإمام علي عليه السلام القائل: «والله لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم»[(٢)].

وكما جاء في الروايات: «إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في

(١) نفسه، ج٤٧ ص ٢٩.

(٢) كشف المراد، ص ٣٨٥، ط قم.

أيامه الجور... ورد كل حق إلى اهله»[1]. وجاء أيضاً: «وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمدﷺ»[2].

وقضاء داودعليه السلام قد حدث القرآن عنه، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] وقد خاطب الله نبيه محمدﷺ في كتابه: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[4] وقال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[5]. فالقضاء لا بد من أن يكون طبقاً لما أنزل الله من أحكام وبصورة عادلة. وهذا النمط من القضاء، إن لم يكن معدوماً في هذا الوقت، فهو محدود وفي منطقة ضيقة من العالم بالقدر الممكن تطبيقه. وفي دولة الإمام المهدي(عج) سيكون القضاء طبقاً للأحكام الإلهية وعادلاً ولا يظلم أحد شيئاً.

٧- العدالة الاجتماعية

من أهم مميزات دولة الإمام المهدي(عج) العالمية إقامة القسط والعدل بين الناس بكل ما للكلمة من معنى. وقد ورد، في هذا الصدد، عدد كبير من الروايات: مئة وثلاثون رواية تقريباً[6]. كما عد القرآن

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٣٨.

(٢) نفسه، ص ٣٣٩.

(٣) سورة ص: ٢٦.

(٤) المائدة: ٤٢.

(٥) المائدة: ٤٨.

(٦) منتخب الأثر، ص ٤٧٨.

الكريم القيام بالقسط والعدل أحد الأهداف الأصلية لبعثة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١).

إن إقامة العدل أهم من لقمة العيش عند البشرية في هذه القرون، فلقد قاسى العالم الويلات من الظلم وانعدام المساواة أمام القانون، فالبشرية تئن في هذا المجال لما تلاقيه، وفي مختلف شؤون الحياة، من الجور والظلم اللذين يزدادان يوماً بعد يوم حتى تمتلىء الأرض ظلماً، وعندئذ يبزغ فجر العدالة ويعم العالم وينتشرفي أرجائه جميعها.

لم يكن الناس مهيئين، من قبل، لقبول العدالة الكاملة، لذا قيل في شأن الإمام علي عليه السلام: «قتل في محراب عبادته لشدة عدله».

واليوم تتهيأ الأرضية المناسبة لقبول العدل الشامل يوماً بعد آخر، فالبشرية، في عصرنا هذا المتمدن، ترزح تحت الجور الاقتصادي والمالي وتئن منه، ففي عالمنا اليوم هناك قوى عظمى مثل الولايات المتحدة الامريكية لا يتجاوز عدد سكانها ٢٠٪ من مجموع نفوس العالم في حين أنها تستحوذ على ٨٠٪ من رؤوس الأموال بيدها. وفي الطرف الآخر هناك الملايين من الناس على وشك الهلاك من القحط والجوع.

البشرية تئن من الجور في القضاء والقوانين التعسفية، وتئن من عدم المساواة في الحقوق. وعندما يظهر الإمام المهدي(عج) سيعم العدل أرجاء الأرض جميعها وفي الجوانب جميعها: الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) الحديد: ٢٥.

والسياسية، وفي القوانين والأحكام القضائية، وإلا فمن دون ذلك لن يتحقق العدل الشامل.

بعد هذه المقدمة نقول: إن أحد أبعاد العدل هو العدالة الاجتماعية، وفي هذا الصدد نعرض بعض الروايات:

«... ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحداً»[(١)]. فالإمام المهدي(عج) سيمنع كل من تسول له نفسه ظلم الاخرين والتعدي على حقوقهم، وسيقضي على الظاهرة التي كانت تمسك بخناق البشرية عبر التاريخ.

«... وعدل في الرعية»[(٢)] ... ويعدل في خلق الرحمن البر منهم والفاجر»[(٣)] فعدالته تجري وتنفذ في حق الناس جميعهم: الصالح منهم والطالح. وهكذا يكون «... حتى لا يرى أثر من الظلم»[(٤)] في أي بقعة من بقاع العالم.

«... يطهر الأرض من كل جور وظلم»[(٥)].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾[(٦)]: ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣٢٢.

(٢) نفسه، ص ٣٥١.

(٣) نفسه، ج٤٧ ص ٢٩.

(٤) نفسه، ج٤٨ ص ٤٧٠.

(٥) نفسه، ج٤٧ ص ١٤٥.

(٦) الحديد: ١٧.

العدل فتحيا الأرض لإحياء العدل»[١].

وعن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «العدل بعد الجور»[٢].

٨- العدل في الحياة الاقتصادية

من المميزات البارزة لدولة الإمام المهدي(عج) صفة العدل في الحياة الاقتصادية والمالية، فالثروة تقسم بصورة عادلة ومتساوية بين الناس، وكل فرد يتناول من نصيبه المحدد له ويتصرف به.

وابتداء نعرض عدداً من الروايات في هذا الصدد، ومنها: «... ويقسم المال صحاحاً»[٣] أو «... ويقسم المال بالسوية»[٤]. ففي رواية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله: «أبشركم بالمهدي... يقسم المال صحاحاً، فقال رجل: ما صحاحاً؟ قال صلى الله عليه وآله: بالسوية بين الناس...»[٥]. وعن أبي جعفر عليه السلام: «... إذا قام قائمنا قسم بالسوية وعدل في الرعية... يجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرم الله، فيعطي شيئاً لم يعطه أحد كان قبله»[٦].

وعن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام: «إذا قام قائمنا اضمحلت القطائع

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤ ص ١٧٣.

(٢) نفسه، ج٥ ص ٢٤٣.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ٨١.

(٤) نفسه، ص ٨٤.

(٥) نفسه، ص ٩٢.

(٦) نفسه، ج٤٨ ص ٣٥٠ و٣٥١.

فلا قطائع»[1] والقطائع جمع قطيعة، وهي ما يقطع من الأرض الخراج من قبل السلاطين تؤخذ من أيدي الناس تعطى لواحد يسكنها ويعمرها.

كان هذا بعض مما روي في ما يخص العدل في الحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، فالثروة للناس جميعهم، والحياة والرفاهية لهم جميعهم، وهذا يتحقق في عصر الإمام المهدي(عج)، وفي أكمل صورة.

ومن الجدير بالذكر ان الثروة التي تقسم بين الناس في عصره(عج) ليست من الثروات الخاصة تؤخذ من اصحابها وتعطى لعامة الناس، لا ليس كذلك، فالإسلام لا يلغي الملكية الخاصة، بل يمنحها الصيانة القانونية، حيث جعل حرمة أموال الناس كحرمة دمائهم، ولا يجيز أخذ مال الناس ولا التصرف فيه بغير طيب نفوسهم ورضاهم.

وليس من المعقول أن الإمام(عج) يفرض على بعض الناس أن يأتوا له بأموالهم لأجل تقسيمها على باقي الناس هكذا، فلهذا الفرض نتائج فاسدة كثيرة. فخلال عشرات السنين، لم تنجح الشيوعية في العالم في تحقيق شعارها في إلغاء الملكية الخاصة وإنشاء الاشتراكية وملكية الدولة، فمنيت بالفشل الذريع في أواخرالقرن العشرين، وتلاشى المعسكر الاشتراكي.

فالمقصود من الأموال التي تقسم بالسوية بين أفراد المجتمع إنما هي الأموال العامة من معادن وكنوز ومال الزكاة والخمس و... الخ، والتي تشكل بيت مال المسلمين، وتكون تحت نفوذ الإمام المهدي(عج)، إلا

---

(١) نفسه، ص ٣٠٩.

أنه مهما كان توزيع الثروة واسعاً وشاملاً، لا تنفد أموال بيت المال، بل سيكون فائضاً دوماً بالأموال العامة،حيث تصبح كنوز الأرض ومناجمها جميعها تحت تصرف الإمام(عج).

وسيقسم الإمام(عج) الأموال بالتساوي بين الناس، وهذا لا يعني أن الكل يأخذ بقدر واحد في كل ما يعطى، بل إن المساواة تكون في غير الأجور والجعائل التي تعطى على حسب التخصص والسعي والمهارة في ميادين العمل المختلفة، وإلا فلو كان الكل يأخذ من الأجور بمقدار واحد ستخبو الهمم للعمل، ولا يرغب الناس في المثابرة والجد، بل إن ذلك يعد ظلماً وجوراً وليس من باب العدل، فلكل حسب ما يحسنه من عمل وتخصص.

فالأموال العامة إذا هي التي تقسم بالسوية بين الناس، وهنا نشير إلى مسالة، وهي عندما تكون الثروات العامة محدودة، فالالتزام بالقسط والعدل يلزم الدولة بأسلوب توزيع آخر يكون بموجبه العطاء للمناطق الفقيرة أكثر وأسرع من باقي المناطق في المجتمع، لكنه مع الفرض بأن الأموال العامة في عصر الإمام المهدي ستكون تحت تصرفه ولا تكون محدودة بل هي متوافرة ومتنامية، لذا سيكون توزيع الثروة بصورة متساوية للجميع أمراً مقبولاً.

وفي بعض الروايات ورد: «.. يملأ الأرض عدلاً، يفيض المال فيضاً»[1]. فالأموال في عصره تزداد ولا تنقص، ولا نفاد لها فلا وجه للاحتراز من قلة الثروة وتقسيمها حسب الأولويات.

---

(١) نفسه، ج٤٧ ص ٨٠.

٩- الغنى العام في مجتمع المهدي(عج)

سيكون الناس في دولة الإمام المهدي(عج) متنعمين في حياتهم الاقتصادية وفي رفاهية، فلا أثر للبؤس والحرمان، أو الجوع، ولا يستغل الناس بعضهم بعضاً في سبيل كسب الأموال. وقد وردت روايات كثيرة في هذا الشأن نذكر منها ما ياتي: «... يتنعم [ابناء] أمتي، في زمانه، نعيماً لم يتنعموا مثله قط: البر والفاجر»[١]. «... ويجعل الله الغنى في قلوب هذه الأمة»[٢] فهم لا يستشعرون الحاجة بل الكل يعيشون الغنى، «.. والمال يومئذ كدوس يقوم الرجل فيقول: يا مهدي أعطني، فيقول: خذ»[٣] فالمقام يومئذ لا يسعه الحساب ولا تحديد المبلغ بل كل ما يريد الفرد يعطيه حتى يعيش الغنى في نفسه ويكتفي من العطاء. «... ويملأ الله قلوب أمة محمد غنى، ويسعهم عدله حتى يأمر منادياً ينادي يقول: من له في المال حاجة؟ فما يقوم من الناس إلا رجل واحد فيقول: أنا، فيقول: أئت السدان يعني الخازن فقل له: إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالا، فيقول له: احث حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم... فيرده ولا يقبل منه، فيقال له: إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه...»[٤].

وأيضاً في موضع آخر: «.. فيجيء الرجل فيقول: يا مهدي أعطني أعطني، فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»[٥] أي لا يوجد أي

---

(١) نفسه، ص ٧٨.

(٢) نفسه، ص ٨٤.

(٣) نفسه، ص ٨٨.

(٤) نفسه، ص ٩٢.

(٥) نفسه، ص ١٠٤.

تحديد في مقدار المال الماخوذ من بيت المال، والظاهر أن هكـذا عطـاء هو غير ما يعطى بالسوية كحصص للناس جميعهم، بل هـذه زيـادة عـن تلك الحصص التي بها يستغني أكثر الناس، وبالتـالي نـرى أن المطـالبين بالزيادة لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد، وهذا بخلاف ما هـو المعهـود في مجتمعنا من تهالك الناس على الأشياء المجانية أو زهيدة السعر، ومن خلال المقارنة نستطيع إدراك القدر العظيم من الثروة التي يحويهـا بيـت المال في دولة المهدي(عج).

وفيها أيضاً: «... يعطي المال بغير عدد»[1] فـلا حـساب للعطـاء ولا تسجيل لأسماء الآخذين، وكذلك ورد فيها: «... يطلب الرجل مـنكم مـن يصله بماله ويأخذ من زكاته لا يوجد أحد يقبل منه ذلك، استغنى النـاس بما رزقهم الله من فضله...»[2] وفي أخـرى: «... ولا يجـد الرجـل مـنكم يومئذ موضعاً لصدقته ولا لبره، لشمول الغنى جميع المؤمنين»[3].

على أي حال، فمنذ القديم والبشرية تتمنى اليوم الـذي ينعـدم فيـه الفقر والحرمان من العالم، ويعيش افراد المجتمع جميعهم عيـشاً كريمـاً، وهم على درجة عالية من الغنى. وهذه الأمنية ستحقق فـي عـصر الإمـام المهدي(عج) ويضحي الجميع أغنياء وفي رفاهية مـن العـيش، ولا تجـد مديناً يهرب من دائنه خجلاً، ولا رب أسـرة يعجـز عـن نفقـة عيالـه ولا صاحب عمل يعجز عن أجرة عماله.

---

(١) نفسه، ص ١٠٥.

(٢) نفسه، ج٤٨ ص ٣٣٧.

(٣) نفسه، ج٤٧ ص ٣٣٨.

١٠- الإعمار

ستعمر في عصر الإمام المهدي(عج) بقاع الأرض جميعها، وستمتلئ خضرة، حيث لا تجد بقعة بلا زرع ولا محصول، وستخرج الأرض كنوزها ومعادنها وثرواتها وزخرفها، وتفتح السماء أبوابها وتفيض أمطارها على الأرض فتكثر النعم والأرزاق، ولا تخلو بقعة من الأرض ليس فيها زرع وعمران.

ونعرض، في هذا الشان، عدداً من الروايات:

«... وتخرج له الأرض أفلاذ كبدها»[١] أي ما بها من كنوز ومعادن، و«... ويرسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها»[٢] و«...تنزل له السماء قطرها وتخرج له الأرض بذرها»[٣] فيزيد الزرع وتتوافر نعم الله على الناس حتى «... يتمنى الأحياء الأموات»[٤] ليروا ما هم فيه من نعمة ورزق، «و... وتلقي (الأرض) إليه سلماً مقاليدها»[٥]. ...وأنزل بركات من السماء والأرض وتزهر الأرض بحسن نباتها وتخرج كل ثمارها وأنواع طيبها»... «وتزيد المياه في دولته وتمد الأنهار وتضعف الأرض أكلها وتستخرج كنوزها»[٦]. ... ولا يبقى في الأرض خراب إلا يعمر»[٧]

(١) نفسه، ص ٦٨.

(٢) نفسه، ص ٧٨.

(٣) نفسه، ص ٧٤.

(٤) نفسه، ص ١٠٤.

(٥) نفسه، ص ١٣٠.

(٦) منتخب الأثر، ص ٤٧٢.

(٧) نفسه، ص ٤٨٢.

فلا تجد بقعة على وجه الأرض إلا وقد عمرها الإمام المهدي(عـج). «... حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلا على النبات»[(١)].

فإذا ما قارنا بين ما نحن فيه الآن وما عليه عصر الإمام المهدي(عج) ندرك عظمة ما سيحدث في عصره من إعمار للبلاد وما سيعمها من نعم ورزق. فنحن إذا ما حاولنا إعمار بلد من بلدان العالم وإصلاح أراضيه وتحويل الأراضي القاحلة إلى أراض زراعية ومكافحة الآفات والأدغال التي فيها فسيكلفنا ذلك الكثير الكثير من النفقات، وعلينا الانتظار سنوات طويلة كي نرى هل نفلح في ذلك أو لا، فالنتيجة ليست قطعية.

لكن في عصر الإمام المهدي(عـج) ستتضافر العوامل والظروف جميعها: الأرض والسماء وكل ما على الأرض لإعمار الكرة الأرضية حتى لا تبقى بقعة منها بلا زرع ولا حاصل، وهذه هي أمنية البشرية التي ستتحقق في عصر الإمام المهدي إن شاء الله.

١١- الأمان العام في المجتمع

الأمن والأمان يعنيان السلامة من المخاطر وما قد يحيق بالإنسان من أضرار وسوء، وهما يرجعان إلى السكون والطمانينة.

ويجسد أهمية هذا الجانب دعاء النبي ابراهيم عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[(٢)] أو ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[(٣)] وقد

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨ ص ٣١٦.

(٢) البقرة: ١٢٦.

(٣) ابراهيم: ٣٥.

استجاب الله له فجعل مكة حرماً آمناً ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1].

ويكفي في إبراز قيمة الأمن والأمان قول الملائكة لأصحاب الجنة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[2] فهم يدخلونها يومئذ بسلام وآمنين من كل خطر قد يحتمل للانسان، فلا تعب ولا مرض ولا خوف في الجنة.

وبعد التبشير بالسلام والأمن، يأتي السياق في السورة حول رفع الصفات السيئة ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[3].

فالكل إخوان لا يتميز احدهم من الثاني بلا مسوغ، وهذا من أهم أسباب السكون والطمأنينة.

ومن الجدير بالذكر أن السلام والأمن ليسا مبتدأ النعمة في الجنة، بل هما الأساس لكل نعمة أخرى، ومن دونهما لا يمكن الاستفادة والتلذذ بالنعم الأخرى كما ورد في الحديث: «نعمتان مجهولتان: الأمن والعافية»[4]. وغالباً ما يغفل الإنسان عن هاتين النعمتين، وما دام الفرد يتمتع بالعافية أو الأمان فلا يستطيع إدراك أهميتهما في حياته.

وفي ضوء ما سبق، نقول: من الجوانب المهمة في مجتمع الإمام المهدي(عج)، والتي أكد عليها كثيراً في الروايات، مسالة الأمان في عصر الإمام المهدي(عج) أفراد المجتمع جميعهم، وفي الأبعاد جميعها،

---

(١) آل عمران: ٩٧.

(٢) الحجر: ٤٦.

(٣) الحجر: ٤٧.

(٤) روضة الواعظين، ص ٤٧٢.

حيث أن مال الإنسان ونفسه وكرامته وشخصيته وفكره وثقافته وعقائده محترمة ومصانة وفي أتم الأمان، وكذلك يعيش المجتمع حالة الأمن والطمانينة، فلا يتعدى فيه على الآخرين، والناس في صفاء عيش وسكون وطمانينة كاملة. وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[1].

ففي هذه الآية، تم التأكيد على إبدال خوف المؤمنين وقلقهم بالأمن، وهذا الأمان الكامل إنما يتم في دولة الصالحين وخلافتهم.

وهذا الأمان ليس هدفا للمسيرة بحد ذاته، بل هو مقدمة لتحصيل الظرف والجو المناسبين والمطمئنين لعبادة الله وحده بلا شريك، وقد وردت أيضاً روايات في هذا الشأن ننقل بعضاً منها:

ففي هذه الآية، تم التأكيد على إبدال خوف المؤمنين وقلقهم بالأمن، وهذا الأمان الكامل إنما يتم في دولة الصالحين وخلافتهم.

وهذا الأمان ليس هدفاً للمسيرة بحد ذاته بل هو مقدمة لتحصيل الظرف والجو المناسب والمطمئن لعبادة الله وحده بلا شريك، وقد وردت أيضاً روايات في هذا الشأن ننقل بعضاً منها:

«... حتى يأمن الشاة والذئب والبقرة والأسد والإنسان والحية وحتى لا تقرض فأرة جراباً»[2]. وكما ذكرنا سابقاً «... حتى تمشي المرأة بين

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ٦١.

العراق والشام... وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه»[(١)]. وأيضاً ورد في الروايات: «.. وإذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيامه الجور وأمنت به السبل»[(٢)] و«... حتى تخرج العجوز الضعيفة من المشرق تريد المغرب ولا ينهاها أحد»[(٣)].

كما ورد في حديث قدسي: «.. وأُلقي في ذلك الزمان الأمانة على الأرض فلا يضر شيء شيئاً، ولا يخاف شيء من شيء، ثم تكون الهوام والمواشي بين الناس فلا يؤذي بعضهم بعضاً، وانزع حمة كل ذي حمة من الهوام وغيرها، واذهب سم كل ما يلدغ»[(٤)]. وفي منتخب الأثر: «... فيبعث المهدي إلى أمرائه، في سائر الأمصار، بالعدل بين الناس، وترعى الشاة والذئب في مكان واحد، ويلعب الصبيان والحيات والعقارب ولا تضرهم بشيء، ويذهب الشر ويبقى الخير»[(٥)].

وقد يحتمل أن هذه الفقرة استعملت فيها الألفاظ استعمالاً مجازياً، فهي كناية عن الأمان الذي يترسخ في مجتمع الإمام المهدي(عج)، حيث أن الأفراد الذين يتصفون بالعدوانية يتعايشون مع باقي الناس من دون أن يضروهم شيئاً، فحالة العدوان تسلب منهم ولا يتأتى منهم ذلك.

ويحتمل، في مقابله، أن ظاهر العبارة هو المراد، أي أن الأمان في عصر الإمام المهدي(عج) يكون شاملاً بدرجة يعم المخلوقات جميعها،

---

(١) نفسه، ج٤٨ ص ٣١٦.

(٢) نفسه، ص ٣٣٨.

(٣) نفسه، ص ٣٤٥.

(٤) نفسه، ص ٣٨٤.

(٥) منتخب الأثر، ص٤٧٥.

فيتعايش الذئب مع الشاة، ويلعب الأطفال مع الحيات من دون ضرر، وهذا من العجائب التي قد يستطيع بعض الناس قبولها والتصديق بها. ولكن لا يصعب ذلك على الله ذي القدرة العظيمة ولما للإمام عليه السلام من ولاية تكوينية على باقي الموجودات، ولما قد يصل إليه التطور العلمي، بحيث تبتدع طرق وأساليب لترويض الحيوانات الوحشية. فقد يحدث هذا، ولعل ما حدث في عصر النبي نوح عليه السلام حيث ضم في سفينته من أزواج مختلف الحيوانات: الأهلية منها والوحشية من دون أن يتعرض حيوان لآخر.

وعلى كل حال، فمسألة الأمان والطمأنينة والسلام في مجتمع الإمام المهدي(عج) من المسائل المسلم بها.

نعم، لا تزال الدنيا ترزح في اجواء العدوان وعدم الأمان، فعلى الدوام نسمع بأخبار السرقات الكبرى من البنوك والمحلات، وكذا السرقات الصغيرة المختلفة، وكذا نسمع بجرائم القتل حتى في المجتمعات التي توصف بالتطور والتقدم، ففي الولايات المتحدة الأمريكية، مثلاً، بين حين وآخر، تنقل الجرائد ووكالات الأنباء أخباراً عن تعرض شخص مسلح لمدرسة وقتله عدداً من الطلاب. وكذا لا أمان على أعراض الناس، حيث يتعرض الكثير من الناس إلى هتك العرض والاعتداء الجنسي، وفي مختلف الأعمار من قبل مرضى النفوس والشاذين و... الخ.

وعلى أية حال، فالغنى وعدم الحاجة، والعدل في الأبعاد جميعها، والأمن والطمانينة من الجهات جميعها، والعمران و... إلخ. أركان الحياة الإنسانية السليمة، وستصل الحياة الإنسانية إلى أكمل مواصفاتها في عصر الإمام المهدي(عج).

فلا تزال البشرية تعاني من سموم الأقلام الكافرة والمأجورة والمنحرفة وشبهاتها، ولا تزال الشياطين تلعب دورها في تخريب عقائدها وإيمانها وأفكارها. وفي مقابلها يراقب حراس العقيدة والدين، وبكل جدية، الوضع الفكري القائم حذراً من أن يتأثر الشباب المعاصر بالشبهات المطروحة. وهم ينتظرون بزوغ فجر دولة المهدي(عج)، حيث السلامة والأمان من الأخطار جميعها.

١٢- حاكم الدولة هو محبوبها

من أهم خصائص دولة المهدي(عج) العالمية، والتي تنفرد بها عن غيرها من الدول التي سبقتها أن الموجودات جميعها: حيها وميتها، ذوي العقول وغيرهم، أهل السماء وأهل الأرض، وبعبارة أخرى: الخالق والمخلوق، يحبون هذا الحاكم ويرضون بحكومته ويفرحون بها. وهذا متيقن به بالنسبة للذين يرون حكومته العادلة ويعيشون في ظلها، فقد ورد العديد من الروايات في هذا الشأن منها:

«... يرضى بخلافته أهل السماوات وأهل الأرض والطير في الجو»[١] و«... لا يبقى ميت إلا دخلت عليه تلك الفرحة في قلبه وفي قبره، وهم يتزاورون في قبورهم ويتباشرون بقيام القائم»[٢] ... يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض»[٣] ... يفرح به أهل السماء وأهل الأرض والطير والوحوش والحيتان في البحر»[٤].

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ٩١.
(٢) نفسه، ص ٣٥.
(٣) نفسه، ص ٧٤، ١٠٤.
(٤) منتخب الأثر، ص ٤٧٢.

على أي حال، فالعلاقة بين الحكومات وشعوبها، إذا كانت تقوم على أساس الإرهاب والعنف، بحيث لولاهما ما خضعت تلك الشعوب لأنظمتها، علاقة غير إنسانية نراها في عالم الحيوان والوحوش، حيث ان الضعيف يخضع للقوي دائماً ويستسلم له.

لكن، إذا كانت العلاقة بين الحاكم والشعب علاقة حب واحترام، بحيث يكون الحاكم محباً لشعبه ومجداً في إصلاح أموره يكون الشعب في المقابل محباً لحاكمه ويحترمه، ويذعن له بكل خضوع وطواعية، ولا يجد في ضميره حرجاً مما يقضي به هذا الحاكم، ويسود الصفاء والوفاء والطمانينة هذه العلاقة. فهذا من الكمال في الحكومات، فالمهم في الحكم هو الهيمنة على القلوب والمشاعر لا السيطرة على الأبدان، والا فالتسلط بالحرب والعنف ميسر لكثير من الناس، ومن المميزات والخصائص المهمة التي تميز الحكم الإلهي (حكم الأنبياء والأئمة والأولياء) على حكم الطواغيت هو هذا الأمر.

١٣- الهدف الرئيسي لدولة المهدي(عج)

- السعي في سبيل رفاهية المجتمع.
- القضاء على الفقر والحرمان.
- توفير الأمن والطمانينة على المال والأنفس.
- العدالة في النظام القضائي والحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... الخ.
- تطوير الأفكار والعلوم ورقيها.
- إعمار الأرض واستخراج المعادن واستثمارها.

- إنشاء حياة اجتماعية خالية من المتاعب والمشاكل.

هذه الأمور هي ما يتمناه كل مصلح، وبالدرجة الأولى المصلح الأكبر لهذا العالم الإمام المهدي(عج).

لكن هذه الأهداف ليست هي الهدف الرئيسي، بل هي الأرضية المناسبة لتحقق ذلك الهدف الأسمى والأرقى، ألا وهو عبادة الله تعالى، حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

والهدف من هذه العبادة هو وصول الإنسان إلى الكمال، وإلى درجة القرب من الله عز وجل ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2] فشعار المهدي(عج) شعار الأنبياء وهدفه إحياء الدين والسنن الإلهية والقضاء على البدع.

فالمهدي(عج)، المنادي الأكبر للتوحيد في العالم كله، يدعو الإنسان إلى المعارف والعلم، وإلى التعقل، ويدعو البشرية إلى الحياة في ظل العدالة ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[3] يدعوهم إلى الله وحده، يدعوهم إلى الحرية وإلى الأخوة الدينية والوحدة، يدعوهم إلى عز الإسلام وإلى مكارم الأخلاق، ويدعوهم إلى العفاف والتقوى، ويدعوهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت.

ومن ثم فكل ما كان هدفاً لبعث الأنبياء، وبالخصوص النبي الخاتم

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) القمر: ٥٥.

(٣) البقرة: ٢٧٩.

محمدﷺ، هو نفسه هدف حكم الإمام المهدي(عج)، وفي مقدمة ما يحققه تطبيق الأحكام الإلهية والقوانين الدينية.

١٤- نظام ديني واحد

والعجب من أولئك الذين ينفون الدور الإيجابي للدين ويدعون عدم جدواه في إدارة المجتمع البشري، كيف يمكنهم تصديق قيام دولة الإمام المهدي(عج) الذي بنهضته سيظهر الدين على الأرض فيشمل جميع أرجائها، ويحيي الكتاب والسنة: «ويحيي ميت الكتاب والسنة»[١] ويؤسس نظاماً دينياً واحداً في العالم كله يقوم على أساس أحكام الإسلام، وذلك في مجتمع بشري قد شمله الإعمار في جميع الأبعاد، والعلم فيه يبلغ أرقى درجاته والعقول تتكامل والأفكار تتوضح فلا يسودها الإبهام ولا الغموض.

فكيف يمكن للقوانين الوضعية التي هي حصيلة أفكار جمع من الملوثين بالمعاصي واللهو والقمار وشرب الخمر والتفسخ الخلقي، أن تؤمن للبشرية نظاماً جيداً، أو يتمكن العلماء والمفكرون والحكماء من تشخيص خير الإنسان وسعادته المادية والمعنوية وتأمينها، ولا يستطيع الدين أن يؤدي دوره في تحقيق سعادة البشرية وهو معين الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على النبي المعصومﷺ، وقد بلغه النبي إلى الناس بكل أمانة، ومن دون أي زيادة أو نقصان أو تحريف.

فما يدعيه هؤلاء بعيد جداً عن واقع الحياة حقاً.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٧ ص ١٣٠.

المحتويات

المقدمة: الإمام المهدي في القرآن والسنة.......................٧

الفصل الأول

نظرية المخلص في الديانات السماوية والوضعية

نظرية المهدوية في الدِّيانات (القسم الأول)......................... ٤١

أ. علي موحديان عطار.. ٤١

ترجمة: محمد عبد الرزاق ٤١

تمهيد:... ٤١

الأنماط الرئيسة لفكرة الموعود..................................... ٤٢

اليهودية ٤٥

المسيحية ٤٧

تعاليم الهندوس ٥٤

في التعاليم البوذية.. ٥٦

تعاليم زرادشت والزرادشتيين...................................... ٥٩

تعاليم كونفشيوس... ٦٣

تعاليم الدائو ٦٥

كلمة أخيرة ٧٢

نظرية المهدوية في الديانات (القسم الثاني)........................ ٧٣

أ. على موحديان عطار ٧٣

ترجمة: محمد عبد الرزاق.. ٧٣

مصادر فكرة المصلح الموعود في القرآن والسنة ٧٤

انعكاس عقيدة الموعود في تاريخ الإسلام السياسي ٧٩

فكرة المصلح المنتظر في المذاهب الإسلامية ٨٧

تطور نظرية المهدوية في التشيع ٩٥

الإمامية الإثنا عشرية ١٠٢

نمطية المصلح الإسلامي ١٠٨

العصبيَّة والمهديَّة عند ابن خلدون ١١١

الشيخ زين العابدين شمس الدين ١١١

مقدمة ١١١

تاريخية الاعتقاد بالمهدي ١١١

إبن خلدون وأحاديث المهدي ١١٣

خلاصة رأي ابن خلدون في المهدي ١١٥

نظريَّة العصبيَّة عند ابن خلدون ١١٧

أ ـ الحاجة إلى العصبيّة ١١٨

ب ـ توسيع دائرة العصبية ١١٩

ج ـ فائدة العصبية ١٢٠

د- أثر الدعوة الدينيّة في العصبيّة ١٢١

ربط نظرية العصبية بإنكار المهدي ١٢٣

وقفة مع ابن خلدون في أخبار المهدي ١٢٤

نظرة في تطبيق العصبيّة على فكرة المهدي ١٢٧

الفصل الثاني

من هو الإمام المهدي أو المخلص الموعود؟

المدخل إلى عقيدة الشّيعة الإماميّة ١٤١

في ولادة الإمام المهدي(عج) وغيبته ١٤١

الشيخ محمد مهدي الآصفي ١٤١

القضيّة الأولى ١٤١

القضيّة الثّانية ١٤٢

القضيّة الثّالثة ١٤٣

١- حديث الثّقلين: ١٤٥
٢- حديث من مات ولم يعرف إمام زمانه: ١٤٧
٣- حديث أن الأرض لا تخلو من حجّة: ١٥٢
٤- حديث الأئمة الإثني عشر : ١٥٥
خلاصة الكلام ١٦٠
«بحث حول المهدي (عج)» **١٦٣**
الأستاذ مصطفى خميس ١٦٣
قضيّة البحث ١٦٣
المؤلّف ١٦٤
منهج المؤلّف ١٦٧
بحوث الكتاب ١٦٨
مقدّمة المؤلّف ١٦٨
كيف تأتّى للمهدي هذا العمر الطويل؟ ١٧٠
المعجزة والعمر الطّويل ١٧٦
لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره الشّريف؟ ١٧٩
كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر؟ ١٨٣
كيف نؤمن بأنّ المهدي قد وُجد؟ ١٨٦
لماذا لم يظهر القائد إذن؟ ١٩٥
ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟ ١٩٩
الخاتمة ٢٠٠

الفصل الثالث

فلسفة الغَيبة وإشكالية انتظار المهدي المُخلّص

مدخل: المهدوية ونهاية التاريخ **٢٠٥**
نظريّة الإمامة وإشكاليّة الغَيبة **٢١١**
السيد علي عباس الموسوي ٢١١
مدخل ٢١١

تعريف الإمامة.. ٢١٣
التوفيق بين الاتجاهين.. ٢١٧
أدلّة الإمامة وإشكاليّة الغيبة....................................... ٢١٩
صفات الإمام عند الإماميّة.. ٢٢٧
إشكاليّة الغيبة.. ٢٢٩
صفات الإمام وإشكاليّة الغيبة ٢٣٠
الأجوبة المذكورة على إشكاليّة الغَيبة ٢٣١
إشكاليّة الغيبة والتعريف الثاني للإمامة ٢٣٥
نظريّة الإنسان الكامل ٢٤٣
البحث في الإمامة من جهة روائية ٢٤٦
في انتظار الإمام المهدي عليه السلام ما نحن فاعلون؟ ٢٤٩
الأستاذ صبري أحمد علي موسى................................. ٢٤٩
حاجة المجتمع البشري إلى إمامة هادية................................. ٢٤٩
المهدي عليه السلام هو الإمام المنقذ ٢٥١
ظهور المهدي عليه السلام بدء فجر جديد.. ٢٥٤
الاهتمام العالمي بعقيدة الإمام المهدي عليه السلام.............................. ٢٥٥
حاجة المسلمين إلى معرفة عقيدة الإمام المهدي عليه السلام ٢٥٨
الانتظار الموجّه... ٢٦١
الشيخ محمد مهدي الآصفي ٢٦١
١- علاقة الانتظار بالحركة ٢٦١
الإنتظار مفهوم إسلامي وقيمة حضارية ٢٦٥
أنحاء الانتظار.. ٢٦٦
آليّة التغيير.. ٢٦٩
الانتظار «حركة» وليس «رصداً» ٢٧٠
نقد الرأي الأول ٢٧١
الرأي الثاني في أسباب تأخير الفرج.................................. ٢٧٥

دور السّنن الإلهية والإمداد الغيبي في الثورة ٢٧٦
جيل «الموطّئين» في النصوص الإسلامية ٢٧٧
الدلالات ٢٧٩
مشروع التوطئة ٢٨٣
جيل الأنصار في الروايات الإسلامية ٢٨٤
الدلالات والتأملات: ٢٨٦
مرحلتان أم جيلان: ٢٩٣
شكوى ودعاء ٢٩٦
الانتظار الموجّه ٢٩٦
تصحيح مفهوم الانتظار ٢٩٨
من ينتظر الآخر نحن أم الإمام عليه السلام ٢٩٩
قيمة الانتظار: ٣٠٠
٢- علاقة «الحركة» بـ«الانتظار» ٣٠٠
كيف نحصّن أنفسنا من السقوط؟ ٣٠٢
ثقافة الانتظار الرسالي في مواجهة الواقع المنحرف ٣١١
أ. نبيل علي صالح ٣١١
مقدمة ٣١١
أولاً: أصالة العقيدة المهدوية ٣١٣
ثانياً: في آفاق الثقافة المقاومة ٣١٧
ثالثاً: أهمية التبليغ والإعلام في نشر الثقافة المقاومة ٣٢٢
رابعاً: أهمية المنهج العلمي والموضوعي في تركيز ثقافة الانتظار ٣٣٦
خاتمة البحث.. (انتظار المجاهدين) ٣٤٠
إنتظار المنقذ في الثقافة الشيعية بين الفرضية والادعاءات ٣٤٣
د. محمد حسين حبيب ٣٤٣
منتدى المنهاج: «المهدي المنتظر ومسؤوليّات الأمّة في عصر انتظاره» ٣٥٧
نظرة إلى دولة الإمام المهدي (عج) العالمية ٣٨٧

تمهيد ٣٨٧
١- في البُعد العقدي: ٣٨٨
٢- هيمنة الإسلام على العالم ٣٩٠
٣- تكامل العقول والأفكار..................................... ٣٩٤
٤- في البُعد الثقافي ٣٩٩
٥- في البُعد السياسي ٤٠٣
٦- في البُعد القضائي.. ٤٠٨
٧- العدالة الاجتماعية ٤٠٩
٨- العدل في الحياة الاقتصادية ٤١٢
٩- الغنى العام في مجتمع المهدي(عج)........................ ٤١٤
١٠- الإعمار ٤١٦
١١- الأمان العام في المجتمع................................... ٤١٨
١٢- حاكم الدولة هو محبوبها.................................. ٤٢٣
١٣- الهدف الرئيسي لدولة المهدي(عج) ٤٢٤
١٤- نظام ديني واحد... ٤٢٦
المحتويات **٤٢٧**